مُذكّرات آغا خان

ترجمة: سيف الدين القصير



مذكرات الآغا خان



Author : AGA KHAN
Title : AGA KHAN Memoirs
Translator: Sef Al din Al Kasir
Al- Mada P.C.
First Edition : 2006

المـــــؤلـــــف : الآغا خان
عنوان الكتاب : مذكرات الآغا خان
المتـــــــرجم : سيف الدين القصير
النـاشـــــــر : المدى
الطبـعة الأولى : سنة ٢٠٠٦

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون - جانب فندق السفير
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

تقديم: و. سومرست موم

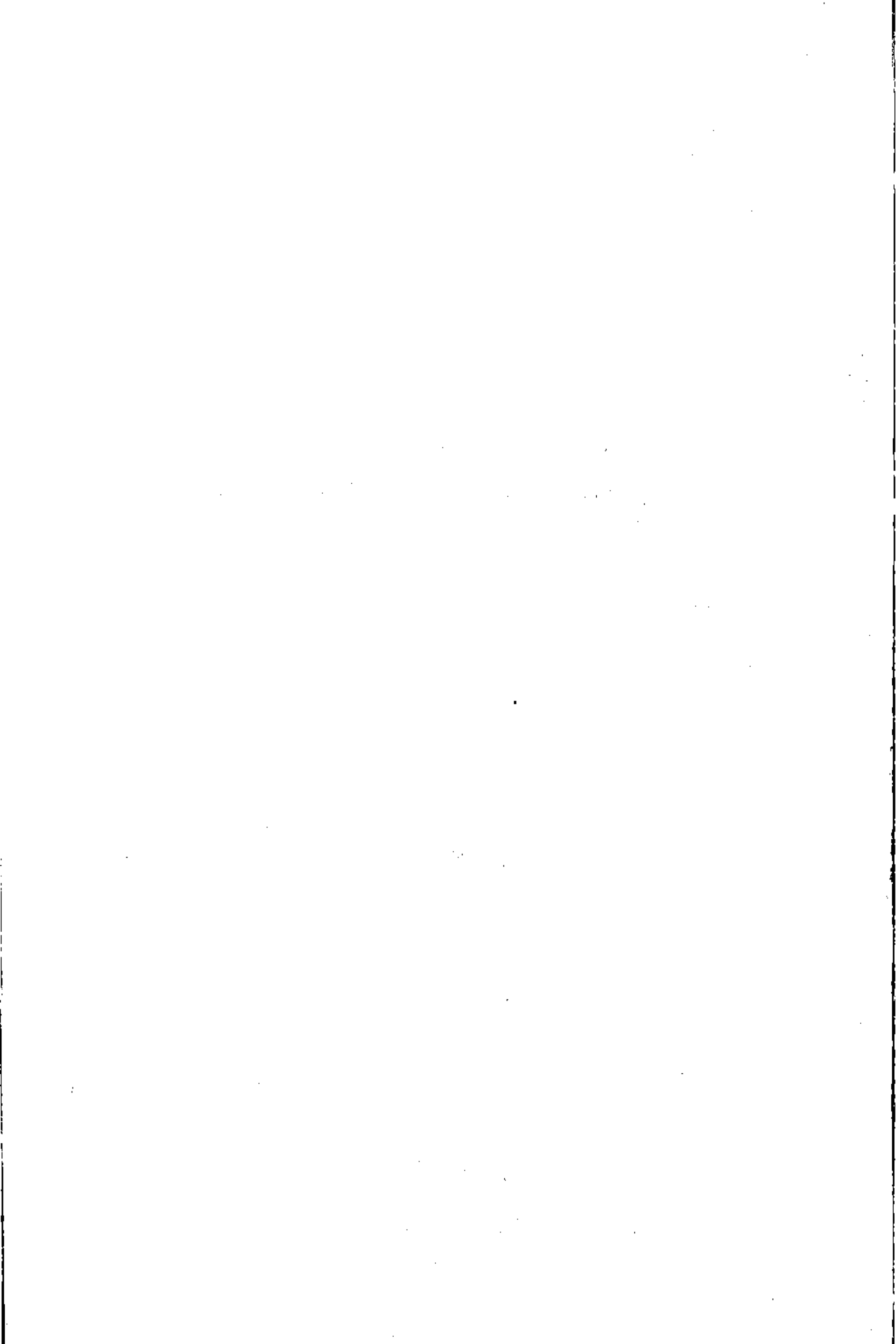
مذكرات الآغا خان

(السيرة الذاتية للسلطان محمد شاه الحسيني، الإمام الثامن والأربعين

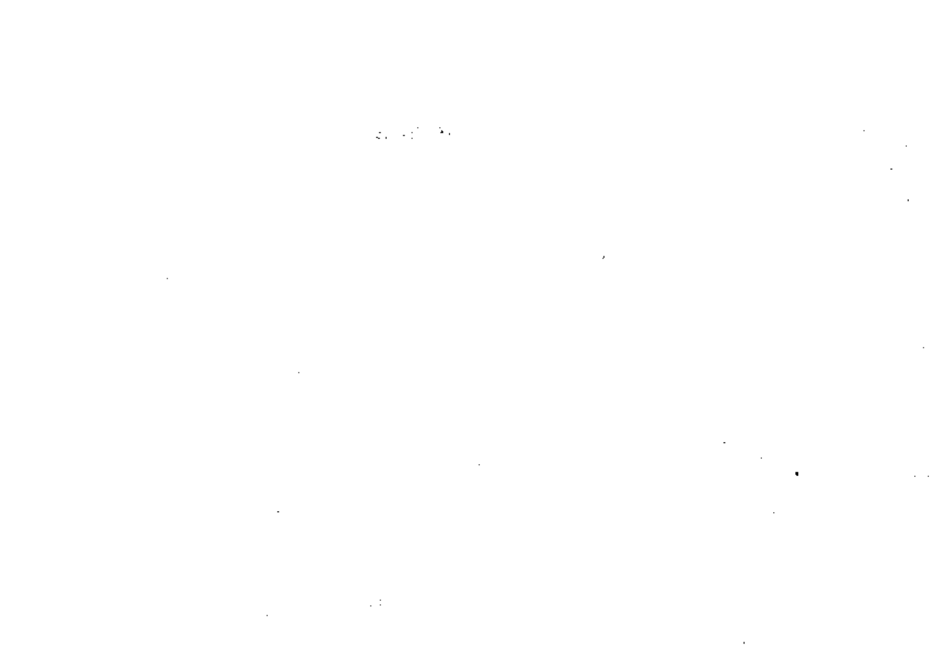
للمسلمين الإسماعليين. ١٨٧٧- ١٩٥٧- الآغا خان الثالث)

ترجمة: سيف الدين القصير





الفهرس



مقدمة

عندما عُرض عليّ القيام بإعداد ترجمة جديدة لمذكرات سلطان محمد شاه الحسيني، المعروف بلقب آغاخان الثالث، والإمام الثامن والأربعين للمسلمين الشيعة الإسماعيليين، ترددت في البداية لعدة أسباب: السبب الأول هو أن هذه المذكرات، وهي التي صدرت الطبعة الإنكليزية الأولى والوحيدة لها عن دار كاسل وشركاه في لندن عام ١٩٥٤، قد تُرجمت إلى العربية من قبل دار العلم للملايين في بيروت (لبنان) عام ١٩٥٩. غير أن الترجمة لم تكن دقيقة، ذلك أن المترجم قد تصرّف في النص الأصلي من خلال تقديمه لفصل على آخر وإهماله ترجمة فصل آخر، وتجاوزه لفقرات مطوّلة من فصول أخرى، إضافة إلى عدم تقيده بترجمة عناوين الفصول كما وردت في الأصل. هذا فضلاً عن أن طبعة دار العلم للملايين لعام ١٩٥٩ قد نفدت من الأسواق لمضي ما يقرب من نصف قرن عليها، الأمر الذي شجعني على القيام بهذه المحاولة.

السبب الثاني الذي أقلقني هو أن هذه المذكرات تغطي فترة حياة زعيم مسلم وُلد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٧٧) وتوفي منتصف القرن العشرين (١٩٥٧). وشهدت هذه الفترة تحولات اجتماعية

واقتصادية وسياسية هائلة كان لها تأثيرها على مجمل حياة سكان المعمورة. لقد كانت فترة وصل فيها الاستعمار الأوربي العسكري المباشر لمعظم بلدان أفريقية وآسية ذروته، وكانت بريطانية العظمى تقف على قمة هذا النشاط الاستعماري وكانت ممتلكاتها خارج الجزر البريطانية من الاتساع بحيث لُقبت بالإمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس. وكانت الهند، حيث وُلد صاحب هذه المذكرات، أعظم ممتلكات بريطانية، بل لقبوها بدرة التاج البريطاني. وتمثل الحكم البريطاني لها بنائب للملك كان يقيم في كلكتا وبومباي، واعتبرها جزءاً من الإمبراطورية الكبيرة. في هذا المناخ العام السائد في الهند كانت ولادة صاحب هذه المذكرات عام ١٨٧٧ ونشأته وتربيته الأولى، وهو الذي تولى إمامة المسلمين الشيعة الإسماعيليين عندما كان في الثامنة من عمره، أي في عام ١٨٨٥، بسبب وفاة والده المفاجئة. ومعلوم أن المنصب الذي تقلده الآغاخان الثالث يتوارثه أئمة الإسماعيلية بالنص منذ أيام الإمام الأول، علي بن أبي طالب، الذي يقولون إنه تولى الإمامة بموجب نصّ صريح ورد في آية البلاغ (٥/٦٧) المنزلة على النبي محمد في غدير خم أثناء عودته من حجة الوداع عام ٦٣٢م.

لقد شارك الآغاخان الثالث، بحكم مركزه الديني، في الحياة العامة للهند حيث يتواجد ملايين المسلمين الذين عانوا مرارة تجاهل زعماء الهند من الهندوس لهم، الأمر الذي اضطرهم في النهاية إلى الانفصال والاستقلال في جزء من شبه القارة الهندية عُرف باسم الباكستان. وعندما انتقل مقر إقامة الآغاخان من الهند إلى أوربة بعد الحرب العالمية الأولى، توسّع مجال مشاركته في الحياة العامة ليصبح قارياً ثم دولياً،

كما يظهر من خلال أنشطته في فترتي الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وما بينهما. إن توزع أتباعه والمسلمين عموماً في الدول التي كانت تتبع الحلفاء أو تخضع لحكمهم، وحرصه على تأمين مصلحة هؤلاء الأتباع والرعايا هو الذي قد يُفسِّر مواقفه من الغرب عموماً.

قد تبدو هذه المذكرات للقارئ العادي وكأنها تمجد أنظمة اقتصادية واجتماعية وسياسية أصبحت بائدة في عصرنا ولا تظهر إلا بصورتها السلبية المعادية لمصالح الشعوب التي صُنِّفت حديثاً تحت اسم «البلدان النامية»، أو «دول العالم الثالث»، أو «دول الجنوب» الفقيرة مقابل «دول الشمال» الغنية. لكن عندما ننظر إليها من هذه الزاوية فإننا نظلمها؛ فهي ليست تاريخاً، لأن للتاريخ أسلوبه وطرائقه ونظرياته في تفسير الأحداث والنظر إليها. وهي ليست أدباً، لأن للأدب فنونه وأساليبه نثراً كان أم شعراً.. إنها ببساطة انطباعات عن أحداث ومشاهد إنسانية ورؤية سكنت ذهن صاحبها فترة طويلة من الزمن حتى حان الوقت لتدوينها ليشارك بها الآخرين تجربته الشخصية وخبرته التي أكسبته إياها سنوات عمره الثمانون.

لم يكن صاحب هذه المذكرات رجل سياسة بالمعنى الحرفي للكلمة، فهو قبل السياسة إمام لفريق مسلم شيعي إسماعيلي ينظر إليه نظرة الولد لأبيه؛ وهو زعيم مسلم بحكم كونه حفيداً لنبي الإسلام محمد، ولذلك فهو مضطر بشكل من الأشكال للقيام بدور السياسي لتحقيق مصالح هذا الجزء الهام من مجموع البشرية. وقد مارس الآغاخان الثالث السياسة وهو مقيّد بهذين الظرفين (إمام وزعيم)، ولذلك فإن كل دراسة

لشخصيته السياسية ستكون ناقصة ما لم تراعِ هذين الظرفين. لقد وقف موقف المؤيد للغرب عندما كانت تلك السياسات منسجمة مع النظرة الإنسانية والمساواة بين الناس بغض النظر عن الجنس أو الدين أو اللون. ولم يكن ذلك مستغرباً، فالآغاخان مواطن هندي/بريطاني مارس كامل حقوق المواطنة وقام بكل واجباتها. وعندما كان يرى الخطأ، كان يتوجه بالنقد اللاذع عبر صحافة الغرب بما يتفق والأسلوب الذي يفهمه الغربي ويقنعه.

إن منصب الآغاخان الديني، باعتباره إماماً بالوراثة للمسلمين الشيعة الإسماعيليين، جعل منه شخصية عالمية لا يتحدد إطارها بجواز السفر الذي تحمله. إن مسألة الجنسية ليست بالأمر الهام طالما أن أتباعه ينتشرون في دول المشرق والمغرب. لقد تنقل أجداده من قبله بين الحجاز والعراق والشام وشمال أفريقية ومصر وإيران وآسية الوسطى حتى انتهى بهم المقام في الهند منتصف القرن التاسع عشر. ثم قام الآغاخان الثالث بنقل مقر إقامته منذ مطلع القرن العشرين إلى سويسرا وفرنسا حيث توفرت له إمكانيات الاتصال والتواصل مع بلدان كثيرة يتواجد فيها أتباعه. وتطلّب منه منصبه التعرّف على كبار شخصيات عصره والتعامل معها ومصادقتها أحياناً والعيش بأسلوب حياة كبار القوم في المشرق والمغرب. وهذا ما يتكشّف في كامل مذكراته من خلال وصفه لتفاصيل حياته اليومية ولقاءاته وهواياته ومطالعاته. إلا أنه مسلم ووريث زعامة إسلامية عمرها أربعة عشر قرناً ونيّف، وهو مسؤول عن رعاية الثقافة وتنميتها. لقد كان هو نفسه مثقفاً بكلتا الثقافتين الشرقية الإسلامية والغربية الأوربية. والثقافة الإسلامية، كما هو معلوم، هي ثقافة

النص المقدس والتقليد والصناعة اليدوية (أو الحرفة). أما الثقافة الغربية فهي ثقافة العقل والعلم والصناعة والاختراع والإنسانوية. الإنسان في الثقافة الغربية هو مركز الوجود، والعقل هو السلطة والمرجعية المعرفية. أما الإنسان في الثقافة الإسلامية العامة فهو جزء صغير من الوجود، والمرجعية المعرفية هي مرجعية غيبية (الله والنبي). وقد واجه المسلمون الثقافة الاستعمارية للغرب بأشكال متعددة أهمها:

١ - الرفض والممانعة الشاملة، وشاركهم في ذلك جميع أبناء المُستَعمَرين الذين خضعوا للهجمة الاستعمارية الغربية.

٢ - الممانعة المتكيِّفة مع حداثة الغرب، وليس مع شكله الاستعماري، وتبنى هذا الموقف بعض زعماء المسلمين ومن بينهم الآغاخان الثالث، الذي رأى أنه ما دمنا منهزمين عسكرياً، ومتخلفين ثقافياً، فلنتعلم من الغرب ما ينقصنا كي نسترد حقوقنا المسلوبة؛ والمثال على ذلك ما اقترحه برنامجاً تعليمياً لجامعة عليكرة. وعندما ظهرت المذكرات في منتصف خمسينيات القرن الماضي، كانت الهزيمة قد لحقت بالجانب الاستعماري العسكري المباشر للغرب، إلا أن الجانب الثقافي بقي منتصراً، ولاسيما في العالم الإسلامي.

من هنا، فإنه ليس من المنطق أن نسقط، من ناحية تاريخية، رؤية الحاضر وأسلوب تفكيره على مرحلة هي من الزمن الماضي. فلكل علم شروطه المقترنة بظرفي الزمان والمكان، ويخضع لحكم المستوى الثقافي والمعرفي وتوجيههما.

والآغاخان نفسه كثيراً ما تجاوز بعض أفكاره خلال حياته أو نقض بعضها وقوّم أخرى. وقد أغفل في مذكراته الحديث عن الأعمال والأفكار

التي هي من مستوى الدرجة الثانية أو الثالثة، واهتمّ بتسجيل ما هو من مستوى الدرجة الأولى فقط. وهكذا، صار من الصعب الحكم عليه من خلال هذه المذكرات فقط، لأننا بحاجة إلى دراسة متأنية وأصيلة عمقاً وأفقاً من أجل تقييم فكره وعمله.

بناءً على ما سبق، يمكننا فهم الكثير من المواقف التي اتخذها الآغاخان الثالث، حيث لم يكن هناك من مصلحة يسعى نحوها سوى مصلحة الأمة الإسلامية والغيرة على المسلمين وتجنيبهم أحقاد الأعداء وضغائنهم. لقد حرص كثيراً على وحدة الهند أرضاً وشعباً، مسلمين وهندوس، وبذل قصارى جهده لإقناع زعماء الهند الهندوس لأخذ مصالح المسلمين الهنود بعين الاعتبار، وعندما رأى استحالة ذلك وقف مع المسلمين ومع الرابطة الإسلامية التي أسسها وترأسها لبعض الوقت. وكذلك كان موقفه من الإمبراطورية العثمانية عند اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٩، حيث بذل جهده أيضاً لإقناع السلطان العثماني وحكومته بالمحافظة على الخلافة الإسلامية، بالرغم من كل سلبياتها، بعدم الانضمام إلى جانب الألمان ودول المحور في الحرب والبقاء على الحياد مقابل ضمانة من الحلفاء بعدم التعرض للدولة العثمانية، «رجل أوربا المريض». لكن الأتراك انخدعوا بالدعم الألماني لهم وكان ما كان إبّان مجريات الحرب وبعدها.

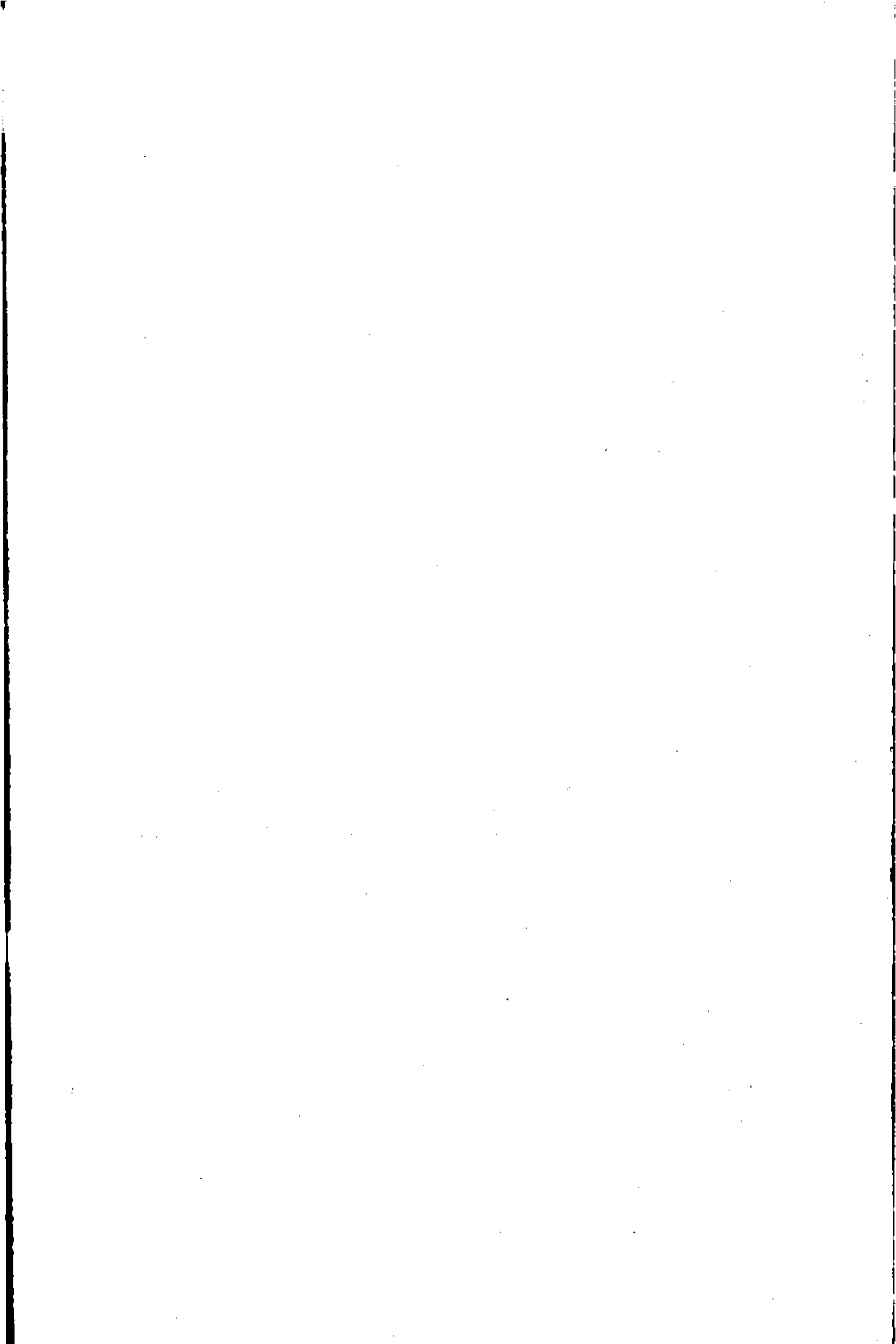
لقد كانت لديه قناعة مسيطرة بأن السلام والأمن والعدل وحل المشاكل بين الدول عن طريق الحوار يجب أن تكون الأساس الذي تقوم عليه العلاقات بين الأمم والشعوب والدول. وقد مارس هذه القناعة بشكل فعلي عندما ترأس المنظمة الدولية المنبثقة عن مؤتمر السلام الذي

أعقب الحرب العالمية الأولى، والمعروفة باسم «عصبة الأمم»، لعامين متتاليين سبقا اندلاع الحرب العالمية الثانية (١٩٣٧ - ١٩٣٨).

إن النظر إلى الأمور ضمن سياقها التاريخي المنطقي وفي ضوء التحولات الكبرى التي شهدها عالمنا المعاصر خلال فترة حياة الآغاخان الثالث (١٨٧٧ - ١٩٥٧)، يجعل من هذه المذكرات سجلاً لتاريخ حافلاً بالأحداث. والآن، فإن مضي ما يقرب من نصف قرن على صدورها لا يقلل من أهميتها، لأنها مرآة لتجربة زعيم مسلم نشأ وترعرع في الشرق وعاش في الغرب ناهلاً من ثقافتيهما كليهما، ومنغمساً في قلب الحياة الاجتماعية والسياسية لعالم القرن العشرين؛ كل ذلك وهو يقوم بواجبه كإمام للمسلمين الشيعة الإسماعيليين المنتشرين في جملة من أصقاع الأرض. وقد نجح في ذلك كل النجاح، وقلّما واجه أتباعه أية مشاكل في البلدان التي يعيشون فيها لأن توجيهه الدائم لهم تمثل في دعوته كي يكونوا مواطنين صالحين ومخلصين، وأن يحيوا حياة تنسجم مع تعاليم الإسلام وأخلاقياته.

إن ما تقوم به مؤسسات شبكة الآغاخان للتنمية في القرن الحادي والعشرين تحت إشراف وتوجيه الآغاخان الرابع الحفيد هو امتداد للمبادئ والأسس التي أرساها الآغاخان الثالث المجدّ منذ مطلع القرن العشرين. من هنا تأتي أهمية الاطلاع على هذه المذكرات وإعادة نشرها بعد نفاد الترجمة الأولى لها من الأسواق منذ أمد بعيد. وسنترك للقارئ الحكم على ذلك، وبالله التوفيق.

المترجم



" الحياة دعوة نبيلة وعظيمة، إنها ليست شيئاً وضيعاً ومهيناً نمر خلاله بأفضل ما نستطيع، بل هي قدر شامخ ورفيع"

بقلم: و. سومرست موم
(الكاتب الإنكليزي المشهور - معاصر للآغا خان الثالث)

تقديم:

عرفت الآغاخان سنوات عديدة، فقد كان صديقاً مسعفاً ودوداً. وكُتُبُ التعريف التي زودني بها عندما أمضيت أحد فصول الشتاء في الهند، ساعدتني في الاستفادة من التجارب الغنية لجولتي في ذلك البلد الرائع بشكل لم يكن ليتوفر لي لولا كتب التعريف تلك، حتى إنني عندما شرفني بطلب كتابة تمهيد لسيرة حياته الذاتية سررت بإتاحة الفرصة لي لتأدية هذه الخدمة الصغيرة له، وهي خدمة غير ضرورية بالفعل لأن الكتاب يتكلم عن نفسه بنفسه. ولم أحس بصعوبة المهمة الملقاة على عاتقي إلا بعد مطالعتي للكتاب. لقد عاش الآغاخان حياة مليئة كاملة. وكان رحالة عظيماً ولم يبق سوى أماكن قليلة في العالم لم يزرها إما للمتعة أو لأسباب لها علاقة بدوافعه السياسية والدينية. وهو

من الرواد العظام للمسرح، فقد أحب الأوبرا والباليه. كما إنه قارئ مواظب وشغل نفسه بقضايا وشؤون لها علاقة بمصير أمم كثيرة. اعتنى بتربية الخيول وإشراكها في مباريات السباق، وكانت له علاقات صداقة حميمة مع ملوك وأمراء تجري في عروقهم دماء ملكية، ومع مهراجات ونواب ملوك وقادة عسكريين من رتبة فيلد مارشال إلى جانب ممثلين وممثلات ومدربين ولاعبي غولف محترفين وحسناوات المجتمع ومنظمي الحفلات الترفيهية. هذا وقد أسس جامعة، وباعتباره زعيماً روحياً للإسماعيليين المنتشرين في أجزاء عديدة من العالم سعى سعياً دؤوباً طوال حياته لترقية المستوى المادي والروحي لأتباعه الكثيرين ورفاهيتهم. ونراه في القسم الأخير من هذه السيرة يعلق قائلاً إنه لم يعرف الملل ولم يتسرب الضجر إلى نفسه أبداً. وهذا وحده أمر كافٍ للدلالة على أن الآغاخان رجل رائع.

يتوجب علي الآن إخبار القارئ أنني لست مؤهلاً لمعالجة بعضٍ من نشاطاته المتنوعة. فأنا لا أعرف شيئاً عن سباق الخيل، واهتمامي بذلك قليل لدرجة أنني عندما كنت أتناول طعام الغداء مع الآغاخان في أحد الأيام قبيل فوز حصانه" توليار" بجائزة الدربي، لم نتحدث سوى عن الهند، ولم يخطر ببالي أبداً أن أسأله ما إذا كان لحصانه حظ في الفوز بالسباق. وكذلك ليست لدي معرفة بالسياسة أكثر مما يعرفه قارئ الصحف العادي. أما الآغاخان فقد اهتم بها بشكل وثيق سنوات طويلة. وكثيراً ما كانت تجري استشارته في أمور عديدة، وكانت نصيحته سديدة عموماً. لقد كان من المؤمنين بالاعتدال، كتب يقول، " إحدى الحقائق التي علمتني إياها السنوات التي قضيتها في الحياة العامة أقنعتني بأن قيمة الحلول الوسط أنها تستطيع توفير جسر خلال فترة

صعبة، ومن الممكن الوصول فيما بعد، عبر استخدام هذا الجسر، إلى إجراءات إصلاحية ذات فاعلية واسعة كانت ستُرفض لولا ذلك". وكان على معرفة جيدة برجال الدولة الذين توقفت على قراراتهم أحداث جسام في السنوات الخمسين الأخيرة؛ وهو يثني بكرم على نزاهتهم وفطنتهم ووطنيتهم وخبرتهم ومعرفتهم الواسعة. ويبدو غريباً أنهم بهذه الصفات القيمة قد أوقعونا جميعاً فيما نحن فيه الآن من فوضى يؤسف لها.

والآغاخان رجل محسن محب لأعمال الخير، وليس من سجيته ذم الآخرين. والمناسبة الوحيدة التي يكشف فيها عن المرارة والأسى هي عندما يلوم سلوك أبناء بلادنا في تعاملهم مع سكان البلدان التي حققوا فيها سيطرة بشكل أو بأخر، في مصر والهند وموانئ المعاهدة في الصين. فالعلاقات بين البريطانيين والهنود كانت إبان ثمانينيات القرن الماضي ودية وحسنة عموماً دون أي توتر، ولو أنها استمرت كما كانت عليه آنئذ "لكنت أشك كثيراً"، يقول الآغا خان، "فيما إذا كانت المرارة السياسية ستتطور إلى الحد الذي وصلت إليه، وربما شيء أقل من انفصال جمهورية الهند عن الارتباط الإمبراطوري كان ممكناً حصوله. إنها فكرة مقلقة للبال". ويتابع على النحو التالي: " ما حصل للإنكليزي كان مصدر دهشة وتعجب لي طوال حياتي. فقد بدا فجأة وكأن سمعته كعضو من جنس إمبريالي حاكم ستضيع إذا ما اعتبر المختلفين عنه باللون أنداداً له وأقراناً أساساً. ولم يعد حاجز اللون يشكل اختلافاً جسمانياً فحسب، بل الأخطر من ذلك إلى حد كبير- والمدمر في النهاية- أنه صار يعد اختلافاً عقلياً وروحياً، وانتشرت نظرية خبيثة مفادها أن جميع الآسيويين جنس من درجة ثانية، وأن الرجال البيض امتلكوا تفوقاً جوهرياً غير قابل للتحدي ". والسبب الأساسي للموقف

الذي تبنّته الطبقة الحاكمة يكمن، طبقاً للآغاخان، في الخوف وانعدام الثقة بالنفس. وهناك سبب آخر تمثل في تواجد أعداد متزايدة من الزوجات البريطانيات اللواتي لم يكن لديهن إلمام أو اهتمام بعادات الهنود ومظهرهم. ولم يكنّ أقل ضيقاً وريفية عندما ذهبت أنا نفسي إلى الهند بعد أربعين عاماً من الزمن الذي يكتب فيه الآغاخان. هؤلاء النسوة، اللواتي جاء معظمهن من بيوت ريفية متواضعة ولم يكن لديهن في أحسن الأحوال سوى خادمة واحدة للقيام بجميع أشغال البيت بسبب الضرائب المرتفعة، وجدن أنفسهن في بيوت فسيحة مع عدد من الخدم الذين يأتمرون بأمرهن. وهنا دخلت المسألة في رؤوسهن. وأذكر أنني كنت أتناول الشاي يوماً مع زوجة موظف لا يحتل منصباً رفيعاً جداً، ولو كانت في إنكلترا لكانت إما كاتبة اختزال أو مقلّمة أظافر، سألتني عن أسفاري، وعندما أخبرتها أنني أمضيت معظم وقتي في الولايات الهندية قالت: أنت تعلم أنه ليس لنا شأن مع الهنود بأكثر مما تحتمه الضرورة. وعلى المرء أن يعاملهم بتحفظ وبصورة رسمية." وقد أثنى بقية الحاضرين على كلامها.

كانت النوادي محظورة على الهنود حتى تم إقناع البعض منها، بتأثير من اللورد ولينغدون، بالسماح لهم بالدخول، ولكن حتى هذا الأمر لم يُحدث، في رأيي، كبير فرق ما دام أنه بقي البيض والملونون يجلسون في هذه النوادي على مسافة تفصل بعضهم عن بعض.

عندما كنت في حيدر أباد، دعاني ولي العهد إلى الغداء وكنت وقتها قد أمضيت بعض الوقت في بومباي في طريقي إلى كلكتا. قال ولي العهد " أظن أنك قد مُنحت عضوية الشرف في النادي عندما كنت

في بومباي "، وعندما أجبته بالإيجاب أضاف " وأظن أنك ستمنح عضوية الشرف في النادي في كلكتا". فأجبت، " آمل ذلك."

وسألني، " هل تعرف الفرق بين نادي بومباي ونادي كلكتا ؟. فأومأت برأسي علامة النفي. فقال: " في الأول لايسمحون بالدخول للكلاب والهنود، وفي الآخر يسمحون للكلاب فعلاً بالدخول." ولم أستطع في حياتي قط العثور على جواب لذلك.

لكن لم تكن الهند البلد الوحيد الذي سادت فيه مثل هذه الأحوال التعيسة. فقد وجد في الامتيازات الأجنبية في الصين الروح الاستعمارية المتعجرفة وضيق الأفق ذاته، ولم يكن الموقف العام تجاه الصينين أقل فظاعة وإثارة للسخط." جميع الفنادق الممتازة كانت ترفض دخول الصينيين إلا في أجنحة جانبية أعدت خصيصاً لهم. وكان الشيء نفسه في المطاعم. ولم يسمح لهم بدخول أندية الأوربيين قط. وحتى في المحلات التجارية، كان على الزبون الصيني أن يتنحى جانباً وينتظر إذا ما دخل زبون أوربي أو أمريكي بعده وطلب الاهتمام به وتلبية طلباته." كان اللورد كرومر المقيم البريطاني عندما ذهب الآغاخان إلى مصر. ووجد أن البريطانيين لم يكونوا قابضين على السلطة السياسية فحسب، بل وادعوا تفوقاً اجتماعياً بدا أن المصريين قد تقبلوه بانصياع." لم يكن هناك أرضية مشتركة للتفاعل الاجتماعي. ولذلك، لم يكن خلف تلك الواجهة من الاستكانة مفرّ من استياء مضمر ومؤلم، وشخصي إلى حد ما، سمم فيما بعد، بإصرار ومرارة، صدام القومية المصرية بمصالح بريطانيا باعتبارها القوة المحتلة." أما وأنه لم يعد للامتيازات الأجنبية وجود الآن في الصين، وأن آخر جنود بريطانيا يغادرون مصر الآن، وأن الحكم البريطاني قد انحل وتلاشى في الهند، كما يقول الآغاخان، كما

ينحل ويتلاشى ضباب الصباح أمام نور الشمس الساطع، فقد خلّف البريطانيون وراءهم تركة من الضغينة والكراهية، ونحن أيضاً قد نسأل أنفسنا ما الذي دفع الإنكليز للتصرف بطريقة أثارت العداوة وكان لابد أن تفضي إلى مثل تلك النتائج المكروهة. أنا لست مقتنعاً بالتفسير الذي قدمه الآغاخان. وأظن أنه يجب التفتيش عن السبب في القول المأثور الدارج الذي استعاره اللورد أكتون: " السلطة تُفسد، والسلطة المستبدة تفسد بشكل مطلق. "

لا فائدة ترجى من البكاء على اللبن المسفوح، هكذا يخبرنا الجبريون. وإذا ما تناولت هذا الموضوع فإنما لغاية في نفسي. يحتل الأمريكيون في عالم اليوم المركز الذي شغله البريطانيون طويلاً وبصورة رائعة على الرغم من أخطائهم. ولعل من صالحهم (أي الأمريكيين) الاستفادة من تجربتنا وأن يتجنبوا الأخطاء التي كلفتنا غالياً جداً. ويستطيع الرجل الأسمر إطلاق النار من بندقية ستن الخفيفة والتصويب بالدقة ذاتها التي يستطيعها الرجل الأبيض، وكذلك يستطيع الرجل الأصفر أن يسقط قنبلة ذرية بالفاعلية ذاتها التي للرجل الأبيض أيضاً. ماذا يعني ذلك سوى أن حاجز اللون هو اليوم سخافة مطبقة؟ أراد البريطانيون أن يكونوا محبوبين، وتم اقتناعهم أنهم كانوا كذلك، والأمريكيون يريدون أن يكونوا محبوبين أيضاً، إلا أنهم مدركون بطريقة مزعجة ومؤسفة أنهم ليسوا كذلك. ويجدون صعوبة في فهم ذلك. لقد أغدقوا الأموال بكرمهم غير المحدود على البلدان التي أفقرتها حربان مدمرتان، ومن الطبيعي أنهم يرغبون في رؤية تلك الأموال تنفق بالطريقة التي يعتبرونها مناسبة، وليس دائماً بالطريقة التي يود الذين يتلقونها أن ينفقوها بها. صحيح أن من يدفع للزمار يطلب اللحن الذي

يريد، ولكن إذا ما وجد الأصحاب صعوبة في الرقص على إيقاع اللحن ،ربما كان من المفيد أن يشار عليه بتعديله بحيث يصبح سهلاً. مما لا شك فيه أن العطاء خيرٌ من الأخذ، ولكن أكثر خطورة عليك أيضاً أن تجعل المتلقي لكرمك ملزماً بشرط لا يقبله عن طيب خاطر سوى الممعنين في الشهامة. إن عرفان الجميل ليس فضيلة تتأتى بسهولة للجنس البشري. ولا أظن أنه بمقدور أحد إنكار أن البريطانيين قد قدموا فوائد عظيمة للشعوب التي حكموها، لكنهم أذلّوها فاكتسبوا كراهيتها. وسيحسن الإميركيون صنعاً إذا ما تذكروا ذلك.

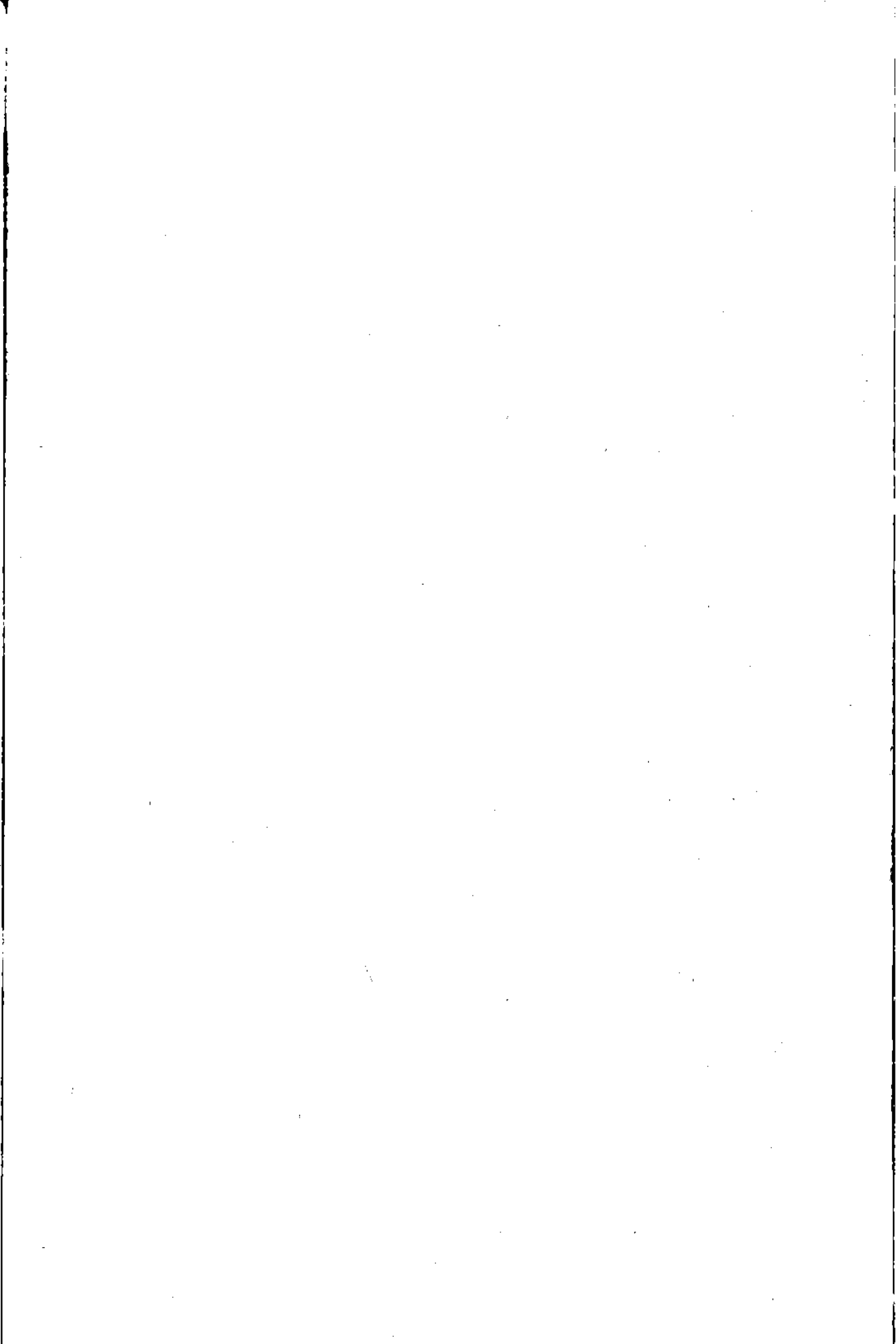
ولكن لنكتف بذلك. يتحدر الآغاخان من النبي محمد عبر ابنته فاطمة، كما يتحدر من خلفاء مصر الفاطميين أيضاً. إنه فخور وبحق بسلالته الذائعة الصيت. وكان جده، المعروف بالآغا خان أيضاً، والزعيم الروحي بالوراثة للإسماعيليين، رجلاً فارسياً نبيلاً وصهراً للملك القوي فتح علي شاه وحاكماً بالوراثة لمدينة كرمان. وقد حمل السلاح ضد شاه لاحق يدعى محمد، بسبب إهانة وجهت إليه، وغُلب في المواجهة وأجبر على الهرب، محاطاً بعدد قليل من الفرسان، عبر صحارى بلوجستان باتجاه السند. وأنشأ هناك فرقة فرسان خفيفة، ووصل إلى بومباي في نهاية الأمر بعد تقلبات عديدة، ومعه مئتا فارس وأقاربه وأتباعه ومؤيدوه. فاستحصل على قطعة أرض كبيرة بنى عليها قصوره وعدداً كبيراً من البيوت الصغيرة لمرافقيه إضافة إلى الأجنحة الصغيرة والحدائق والنوافير. وقد عاش في حالة قريبة من الإقطاع حيث لم يكن في اسطبلاته يوماً أقل من مئة جواد. وتوفي عندما كان مؤلف الكتاب الحالي طفلاً، وخلفه ابنه الذي لم يعش بعده طويلاً، وعندئذ ورث الآغا خان الذي نعرف، في سن الثامنة، ألقابه وثروته ومسؤولياته الزمنية

والروحية. وجرى تحديد تعليمه وثقافته لإعداده للمهمة المقدسة التي ولد لأجلها. وتمّ تعليمه اللغات الإنكليزية والفرنسية والعربية والفارسية. كما تلقى التعليم الديني على يد أستاذ شهير بالعلوم الإسلامية. ولم يُمنح يوم عطلة قط، وأيام الراحة الوحيدة لديه كانت أيام السبت والأعياد حيث كان يستقبل أتباعه الذين كانوا يحضرون لتقديم الهدايا والتعبير عن الولاء.

كان الآغا خان، الذي جرت تنشئته في وقت مبكر من عمره لمثل هذه المرتبة السامية، محظوظاً في أن أمه كانت امرأة رفيعة التهذيب والثقافة. كانت متضلعة بعمق في الشعرين الفارسي والعربي، وكذلك كان الحال مع وصيفاتها، وفي أوقات الطعام على مائدتها، " كان حديثنا عن الشعر والأدب، أو ربما قامت إحدى السيدات المتقدمات في السن ممن سافرن إلى طهران مرات كثيرة بالتحدث عن تجربتها وخبراتها في بلاط الشاه." كانت البيجوم امرأة متصوفة، وكان من عادتها قضاء وقت طويل في الصلاة من أجل الاستنارة الروحية والاتصال بالله. ويكتب الآغا خان قائلاً: " لقد سمعتها، بشيء يشبه النشوة، تقرأ بعضاً من أشعار الرومي أو حافظ بتشبيهاتها الرائعة بين جمال نظرة الإنسان لما هو إلهي والجمال الطبيعي، وألوان الأزهار وبين الموسيقى وسحر الليل، وروعة الفجر الفارسي الوقتية العابرة." والآغا خان رجل متدين بدرجة عميقة. ومن أكثر فصول هذا الكتاب أهمية، الفصل الذي يقدم فيه، بعد حديثه حول معتقداته الشخصية، عرضاً مختصراً ووجيزاً للإسلام كما هو مفهوم ومطبق اليوم. وهناك على القارىء أن يقرأ، ولن أقول شيئاً آخر حوله سوى إنه مقنع ومثير للتعاطف. ربما قد يخطر له أن واجبات الإنسان، كما يتعلمها من آيات القرآن وأحاديث النبي،

لاتختلف عن تلك التي قد يتعلمها من موعظة الجبل. ولكن الإنسان مخلوق غير كامل واقع تحت رحمة عواطفه، ولذلك ليس لأحد أن يصاب بالدهشة إذا ما علم أن هذه الواجبات كثيراً ما لا يطبقها المسلمون والمسيحيون على حد سواء.

يعرف الجمهور العام من الناس الآغا خان كرجل يُعنى بسباق الخيل بشكل رئيس، ولن يكون الأمر مفاجئاً بالنسبة لقارىء الكتاب إذا ما قرأ هذا الفصل المؤثر والرزين والصادق، وهو يستذكر الصفحات التي يتحدث فيها الآغا خان عن خبراته كمرب للخيول ورابح سعيد في كثير من المناسبات الكلاسيكية. وليس هناك من سبب يجعل القارىء كذلك. فالطراد كان الشغل الرئيسي للنبلاء الإيرانيين الذين يتحدر منهم. وهو جزء من تقليد ورثه وبيئة نشأ فيها وترعرع. فقد كان لجده ولأبيه كلاب صيد وصقور وخيول تعد من أسرع وأجمل ما يستطيع المال شراءه وتربيته. ولم يحتفظ من الخيول التسعين التي ورثها عند وفاة والده سوى بعشرين أو ثلاثين، وهذه كانت تشارك في السباقات، طيلة فترة حداثة الآغا خان، تحت رايته في جميع أنحاء الهند الغربية. فسباق الخيل يجرى في دمه. لكنه يبقى، أولاً وأخيراً، الزعيم الروحي لجماعة من المسلمين يعد أتباعها بالملايين. ولديه اعتقاد راسخ بالدين الذي هو دين أجداده العظام، وهو واعٍ دائماً للمهمة المقدسة، بما تنطوي عليه من مسؤوليات ضخمة، والتي انتقلت إليه بالوراثة. نحن جميعاً مختلفون ولا يشبه أحد منا الآخر. ويقول الآغا خان في مكان ما إننا جميعاً مركّبون من عناصر مختلفة ومتناقضة: ولا ينطبق هذا القول إلا على عدد قليل غيره هو. لكن من حسن حظه أن العناصر التي تجتمع فيه لا تتناقض إلا بصورة سطحية، إنها تنحل وتذوب بتماسك شخصيته وقوتها.



تمهيد

الحقيقة التي تقال عن إنسان ما هي كالحقيقة التي تقال عن بلد أو مؤسسة، أفضل من الخرافة والأسطورة والكذب. وأنا إنسان حيكت حوله أسطورة كاملة، وإبان حياتي بالذات.وفي السنوات الأخيرة، كثيراً ما ألحّ علي المؤلفون والناشرون كي أكتب مذكراتي، وأدوّن سيرة حياتي وتجاربي، وأتحدث عن معتقداتي وآرائي، والطريقة التي تمت صياغتها بها. ونصحني الأصدقاء بأن من واجبي تجاه سمعتي الشخصية، الآن وفي المستقبل، أن أروي الحقيقة عن نفسي كما أراها، وأن أدحض الأكاذيب التي أضحت موضع التصديق. ومع أن هذه الطريقة في الإقناع اشتملت على شيء من التملق، إلا أنها كانت سليمة القصد بكل تأكيد.

هناك أوهام ضخمة بعينها بحاجة إلى تصحيح- على سبيل المثال، التقديرات المبالغ فيها لثروتي الخاصة وثروة عائلتي. لقد رأيت تقديرات لكل من رأس مالي ودخلي بلغت من عدم الدقة درجة لاتحتاج معها لحذف صفر واحد فقط من نهايتها، بل صفرين. ومنذ مدة ليست طويلة، نُشرت لي سيرة مزعومة بلغ هامش الخطأ فيها في مجال التواريخ ما بين سنة وعشر سنوات. فإذا كان مثل هذا القدر من المعلومات الخاطئة بخصوص حقيقة بسيطة يسهل اكتشافها، فأي نوع من أنواع الصدق والحقيقة يحتمل أن يكون في أمور أكثر عمقاً وأصعب إدرا كاً.

لقد كانت حياتي، وبطرق عديدة، جسراً يصل ما بين عهود مختلفة اختلافاً شاسعاً. فإذا ما نظرت إليها الآن وببساطة من وجهة النظر الغربية- فقد عشت حياة كاملة في عصر الملكة فيكتوريا، وأعيش الآن حياة كاملة كذلك في عصر الملكة اليزابيث الجديد. عندما كنت شاباً جلست إلى جانب الملكة فيكتوريا في حفلة عشاء، وتحدثت إليها طيلة الحفلة، ومنذ أيام جلست إلى جانب الملكة اليزابيث الثانية في حفلة شاي، وتحدثت إليها طيلة الحفلة. في شبابي كان المحرك الذي يعمل بالاحتراق الداخلي في طوره التجريبي، وكانت السيارات الأولى أشياء تبعث على السخرية؛ أما الآن فنحن جميعاً نعتبر الطائرات النفاثة الأسرع من الصوت أمراً مسلماً به؛ والارتحال ما بين الكواكب يُناقش اليوم بجدية أكبر من تلك التي كانت تناقش بها أصغر مغامرة جوية في الوقت الذي كنت فيه فتى يافعاً يعيش فعلاً حياة كاملة مليئة بالنشاط. كان لي الشرف بالتعرف على اللورد كيلفن، أعظم فيزيائيي العالم في زمنه. وقد أكد لي بوقار وترو أن الطيران يشكل استحالة مادية بالنسبة للبشر ولا يمكن تحقيقه مطلقاً. وحتى هـ. ج. ويلز رأى في كتابه المبكر، " توقعات"، أن غزو الهواء واكتشاف الطاقة الذرية سيتأخر قرنين أو ثلاثة من الزمن. ومع ذلك، فإن هذين وكثيراً غيرهما، قد تحققا في مدة قصيرة لم تتجاوز النصف قرن.

خلال هذه الفترة، لم أكن متفرجاً فحسب، بل شاركت فعلياً، بحكم مولدي، في هذه الأمور. إن مدى الثورة التي شهدتها لا يمكن أن يقاس بعد، لكننا نستطيع رؤية بعض مظاهرها في مستويات متعددة من التجربة الإنسانية. وشهدت طريقة الحياة في العالم كله تغيرات أساسية

عميقة الجذور، ولعل أعظمها هو أن متوسط حياة الإنسان قد زاد بنحو عشرين عاماً. وتأخرت شيخوخة النساء والرجال في الغرب من عشر إلى عشرين سنة عما كانت عليه في شبابي، ويمكن ملاحظة ازدياد مماثل في العمر في الهند والشرق عموماً الآن ولو أنه أقصر في الوقت الحاضر. إنه ملحوظ بدرجة أكبر في أوربا وأمريكا. فهناك أعداد أكبر بكثير من أي مكان آخر من الشيوخ الأحياء الناشطين من الجنسين. ولا شك في أن رجلاً في مثل سني سيلحظ الفرق إذا ما مشى في شارع مزدحم مثل شارع بيكادللي أو أيّ من شوارع باريس. وأخذ الحد من النسل ينتشر انتشاراً واسعاً بين الطبقات العليا والوسطى في أوربا، فأسرة التسعينيات من القرن التاسع عشر، والمكونة عادة من سبعة أولاد أو ثمانية، قد اختفت تماماً أو كادت. ولا ينظر إلى الطلاق في أي من البلدان الأوربية على أنه أمر غير عادي، وعندما كنت شاباً يافعاً فإن رجالاً من مرتبة تشارلز دايلك وتشارلز ستيوارت بارتل قد طردوا من الحياة العامة لمجرد علاقتهم بحادثة طلاق. أما اليوم، فإننا نجد في جميع أنحاء أوربا رجالاً ينطبق عليهم مصطلح" الفريق المذنب" بشكل دقيق يحتلون أرفع مناصب الدولة. والعقوبة الوحيدة التي يبدو أنهم يتعرضون لها هي عدم السماح لهم بالدخول إلى الكنف الملكي في أسكوت- وهو لعمري امتياز لا يكترث به إلا القليلون على أي حال.

أما التبدلات في وضع المرأة، من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، فهي عظيمة جداً، فقبل خمسين أو ستين سنة كان العمل الوحيد المتاح للنساء هو الزواج أو الاعتماد بشكل غير مباشر على حماية الرجل، أما اليوم فالمجال مفتوح لهن لممارسة مهن عديدة شريفة

ورابحة، ونراهن يسلكن في الحياة سلوكاً يعبر عن العزيمة والثقة بالنفس. وكان ينظر إلى العلاقات الشاذة كما كان الحال بالنسبة للجذام تماماً. أما اليوم، فنجد في معظم الدول الأوربية إما نظرة شفقة فرويدية أو أعذاراً لهذا الأمر، بل وهناك تبرير علنيّ إن لم يكن تمجيداً من قبل شخصيات مثل أندريه جيد وآخرين.

كنت شاباً في ذلك العالم القديم، وآمل ألا أكون في طفولتي الثانية في العالم الجديد. ولذلك أشعر أن من واجبي تقديم سرد مفصل بعض الشيء لتجربتي في هذه المرحلة الطويلة والخطيرة، وتدوين معرفتي الشخصية- وفي معظم الأحيان صداقتي الحقيقية والعميقة فعلاً- ببعض أولئك الذين ساهموا في تحقيق التبدلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الهائلة.

كانت إنكلترا- ما زلنا نتكلم عن إنكلترا عندما كنت يافعاً- تعيش في " عزلة سيئة"، وهي حالة حركت كبرياء فاق بقوته وعمقه ذلك الذي حركته الانعزالية الأمريكية الأكثر تطرفاً في عشرينيات وأوائل ثلاثينيات القرن العشرين. وكانت فرنسا العدو التقليدي لإنكلترا في تلك الأيام، بينما كانت ألمانيا الصديق الوحيد المحتمل في أوربا. ولم يكن هنالك سوى قلّة من الرجال الذين كانت أفكارهم تجتمع وتتأتىّ من مصادر مختلفة- من أمثال السير تشارلز دايلك، وإمبرياليين كالأدميرال ماكس وبضعة راديكاليين من " الإنكليز الصغار- يدعون إلى صداقة فرنسا وعدم الثقة بألمانيا.

كانت إنكلترا تمارس سيادة لا ينازعها فيها منازع في مناطق شاسعة من الشرق، وبدا أن امبراطوريتها الهندية كانت من بين

المؤسسات السياسية المعاصرة الأمتن أساساً والأكثر دواماً. ولابدّ أن رجلاً كاللورد كورزون- وفي الحق يتعين علي القول إن تسعة وتسعين بالمئة من الطبقة البريطانية الحاكمة- كان سيتولاه الذعر لمجرد التفكير بإنشاء جمهورية هندية، فكيف بتقسيم الامبراطورية الهندية الضخمة ونشوء دولتين قوميتين سليمتين لكل منهما شخصيتها التاريخية الخاصة. حتى في ثلاثينيات القرن العشرين، عندما أُعطي الوعد بمنح الهند وضع الدومنيون، سمحت هذه الطبقة البريطانية الحاكمة نفسها أن يستولي عليها الوهم الطفولي بأن الإمبراطورية الهندية، التي بناها أسلافهم، يمكن أن تسلّم، كقطعة من الأرض بعد وفاة صاحبها، إلى ورثة يحافظون على الوحدة المصطنعة للبناء كما لو كانت وحدة حقيقية ذات أسس روحية وفكرية عميقة. وحتى في أربعينيات القرن العشرين، كان هنالك رجال من مثل اللورد ويفل وغيره يأملون ويؤمنون بأن من الممكن الاحتفاظ بجيش هندي متحد، حتى بعد مغادرة البريطانيين للهند. وهناك دول أوربية استعمارية أخرى روجت أوهاماً لم تكن أقل وبالاً. فمنذ أقل من عقد واحد من السنين كان هناك من يعتقد جدياً في فرنسا بأن الدول الهندية- الصينية الثلاث لابد أن تنضم- باستكانة وكشريكات صغيرات- إلى اتحاد فرنسي تكون فيه باريس القلب والرأس.

لقد شهدتُ ثورة آسيا الطويلة على الحكم الأوربي. في تسعينيات القرن التاسع عشر كانت تشكل غمامة في حجم يد الرجل. ما الذي بدت أنها آيلة إليه آنئذ؟ أمل صغير متواضع في عدد قليل من الوظائف وعدد قليل من الألقاب التشريفية. أما اليوم فالثورة قد تحققت واكتملت

في آسيا، وفي كل مكان إلى الشرق من الشرق الأوسط انتهى الحكم الأوربي بالفعل وبالاسم. ولقد عشت ما يكفي لأن أشهد العملية نفسها تبدأ في أفريقيا. لكن من حسن الحظ أن الطبقات الغربية الحاكمة قد تعلمت الدرس من آسيا. فالبريطانيون في أفريقيا الغربية، والبلجيكيون في الكونغو، والفرنسيون في ممتلكاتهم الاستوائية الأفريقية يستعدون ويعدون الخطط لانتقال السلطة، وهو مالم يكونوا مستعدين قط لفعله في آسيا.

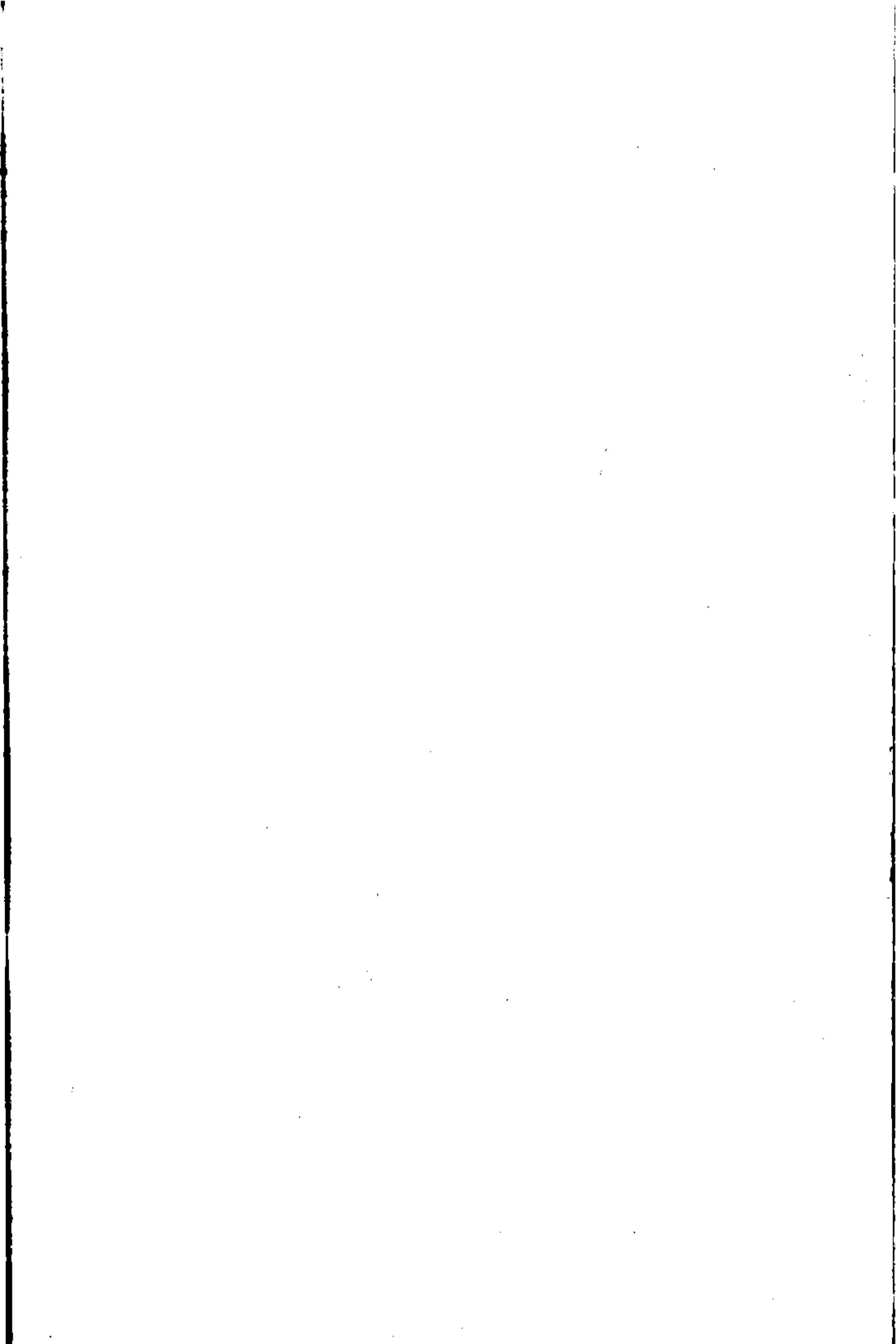
ولقد كان لي نصيبي في هذه التغييرات. لكن ينبغي علي التأكيد بأنه بغض النظر عن الدور الذي قد أكون لعبته في الشؤون العامة وفي التطورات السياسية في الهند وغيرها، إلا أن ذلك لم يكن مهمتي أو واجبي الرئيس. فمنذ طفولتي كان همي الأول، ومسؤوليتي الأولى، طوال حياتي كلها، الأمانة العظمى التي ورثتها بصفتي إماماً للفرع الإسماعيلي من المذهب الشيعي للمسلمين. وسأقدم في مكان آخر من هذا الكتاب شرحاً مفصلاً لما أعنيه بهذا القول. أما هنا فما علي إلا أن أوكد أن واجباتي في هذه المهمة كانت همي الأول، وأنها من جميع النواحي- في مراسلات عديدة متنوعة وفي المحافظة على عدد لايحصى من الروابط في الولاءات الشخصية والدينية- قد شغلت جزءاً كبيراً من كل يوم من أيام حياتي. وكل ما قمت به أو سعيت للقيام به عدا ذلك، سواء استمتعت به أم عانيت منه، كان شيئاً ثانوياً بالضرورة. وبهذا التحفظ المهم الذي أقررته هنا، أظن أن باستطاعتي تقديم سرد للعديد من الحوادث والتجارب الأخرى في حياتي.

وفيما أنظر إلى الماضي، أجد أن هناك ذكرى واحدة، جزءاً واحداً من

معرفة الذات، ترضيني غاية الرضا. ذلك أني كنت شخصياً السبب في اعتناق ثلاثين أو أربعين ألفاً من المنبوذين الهندوس للإسلام، كان معظهم من الطبقات المهنية العليا. كانوا أناساً لادين لهم، فوجدوا ذلك الدين. إن أيّاً من جدي أو أبي لم يحاول قط القيام بمهمة دينية بمثل هذه الضخامة. وكان لتحقيقها أثر مهم ومفيد واحد هو أن الأكثرية الساحقة من هؤلاء المتحولين إلى الإسلام يعيشون اليوم في ما يدعى باكستان، ولو أنهم ظلوا هندوساً لكان من الأرجح أن يشملهم الإجلاء الجماعي وأن يعانوا سائر الأحداث الفظيعة التي رافقت التقسيم عام ١٩٤٧ .

لقد حاولت طوال السنين التي أمضيتها في الحياة العامة أن أقوم بأفضل ما في وسعي حسب استطاعتي. وليس بإمكاني أن أقدر نجاحي أو فشلي فيما حاولت صنعه، فالحكم النهائي في يد غيري.

ولكن لما كنت قد شهدت عملية التغيير الشاملة هذه، في كل مجال من مجالات الاهتمام والخبرة الإنسانية- الثورة التكنولوجية والميكانيكية في عصرنا هذا، وسيادة الإنسان المتطورة على القوى الطبيعية، والاعتراف بأهمية الوعي الباطن، والزيادة الكبرى في معدل طول الحياة، ونشوء مقاييس أخلاقية جديدة وما يقابلها من التبدلات العميقة في النظرة إلى المستقبل، والتغيرات السياسية العظمى التي لم تكن موضع حلم في شبابي- فإني آمل أن أقدم في الفصول القادمة صورة عن كل عهد من العهود كما تكشفت في ذهن وقلب وأمام عيني أمرىء كان في العادة متفرجاً؛ ولكنه كان في بعض الأحيان مشاركاً بصورة ناشطة فعلياً.



الفصل الأول

الطفولة والصبا

إن الذكرى الأولى التي مازلت أعيها هي عن شيء وقع عندما كنت طفلاً في الثالثة والنصف من عمري. لاأزال أذكر بوضوح رجلاً مسناً، كليل البصر، ممتطياً صهوة جواد عربي أشهب، يراقب صفاً من جياد أخرى تعدو في تدريبها. المشهد كان في بومباي، والوقت كان شباط أو آذار من عام ١٨٨١ . أما الرجل المسن فكان جدي، الآغا خان، الذي قدر لي أن أرث اسمه ولقبه وامتيازاته ومسؤولياته. وكنت أنا أيضاً على صهوة مهر، واقفاً بالقرب من جدي، وكان إلى جانبي رجلان يثبتانني فوق سرج الحصان.

كان جدي، كما أنا الآن ومنذ مدة مشارف على السبعين عاماً، إماماً بالوراثة أو زعيماً روحياً للجماعات الإسماعيلية من المسلمين الشيعة. كان رجلاً نبيلاً فارسياً له قرابة وثيقة الصلة بالسلالة الحاكمة في فارس آنئذ، ولكنه كان كذلك بحكم حقه الشخصي في أنه من أنقى دم نبيل في العالم الإسلامي، لأن أسرتنا تقول إنها تتحدر بشكل مباشر من النبي محمد عبر ابنته فاطمة وصهره المحبوب علي، ونحن نتحدر من خلفاء مصر الفاطميين أيضاً.

وسأقوم في مكان آخر من هذا الكتاب بتقديم عرض أكثر شمولية لمفهومي العام عن الإسلام ومبادئه وممارسته، مع شرح للطريقة التي تطور بها ونما في مختلف عهود التاريخ. وسأتطرق، على نحو خاص، إلى النظرة الخارجية للإسماعيليين الإماميين ممن يخضعون لزعامتي الروحية. في الوقت الحالي، اسمحوا لي بالقول إن فارس كانت لقرون طويلة قلعة للفرع الشيعي من الإسلام، باعتباره متميزاً عن الفرع السني، وكان أجدادي، الذين برزوا منذ أقدم العهود بالدعوة إلى المعتقد الشيعي وممارسته، قد رسخوا أقدامهم هناك منذ أمد طويل محافظين على ملكية للأرض ومشيخة إقطاعية إضافة إلى زعامتهم الروحية للإسماعيليين.

كانت فارس خلال القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر تشهد انحطاطاً يصل أحياناً إلى ما يشبه الفوضى الاجتماعية والاقتصادية. وكانت فترات الانحطاط تميل للظهور عقب وفاة شاه(أو ملك) كبير. فينفجر صراع داخلي عنيف ليس بين ورثة الشاه فحسب، بل بين شيوخ قبائل كبار لهم وزنهم. وبنتيجة هذه النزاعات المريرة والطويلة الأمد المصحوبة بسفك الدماء، هاجر جدي من فارس بعد أن كان قد سبقه معظم أفراد أسرته وعدد لابأس به من حاشيته، واستقر في بومباي وبونا بعد بضع سنوات من التجوال والتقلبات المتنوعة.

لقد ولدت في كراتشي في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٧٧، ولكني قضيت عهد صباي كله في بومباي وبونا. ولكن بومباي تلك الأيام كانت تختلف اختلافاً كبيراً من نواحٍ لا تحصى عن المدينة الصناعية والتجارية المتلألئة الهائلة التي هي بومباي اليوم. صحيح أنها كانت ميناء كبيراً مزدهراً، وعاصمة لرئاسة بومباي، وإحدى المقاطعات

الأوَلى في الهند البريطانية، ومقر الحاكم وإدارته، وجيشٍ لابأس به. ولكن الفرق البارز بين بومباي تلك الأيام وبومباي اليوم يكمن بالطبع في كلمتين هما " الهند البريطانية." وإذا ما كانت عاصمة التاج البريطاني ومركزها في الهند تقع، في تلك الأيام، على بعد مئات كثيرة من الأميال إلى الشمال الشرقي، أي في كلكتا (وفي بلدة سيملا الجبلية صيفاً) ، فقد كان في بومباي تراث طويل وثيق الصلة ببريطانيا، ألم تلحق بومباي فعلاً في بداية الأمر بممتلكات التاج البريطاني كجزء من مهر " ماري أوف مودينا "، زوجة تشارلز الثاني؟

كانت بومباي منتصف القرن التاسع عشر، التي استوطنها جدي، مدينة أصغر كثيراً، وأكثر سكاناً من بومباي اليوم. وكان منزل عائلتي- أو منازلها- يغطي قسماً كبيراً من بعض أجزاء بومباي المعاصرة الأكثر كثافة في السكان والأكثر ازدهاراً أيضاً. وحتى في طفولتي في ثمانينيات القرن التاسع عشر، كان ذلك القسم فسيحاً ومكاناً للتنزّه، وكان يضم قسمي المدينة الحاليين، مازاغون وبايكولا، ويمتد من طريق نسبيت إلى حسن آباد، حيث قبر جدي. إن ذلك يبدو (من حيث المقارنة) وكأن قسماً كبيراً من وست إند في لندن أو مركز مانهاتن عقار واحد مسور؛ أو، إذا ما وصفناه في مصطلحات باريس، سياجٌ يبلغ طوله، لنقل، من ماديلين إلى ما بعد الأوبرا بمسافة لابأس بها، وعرضه من ماديلين إلى بونت دى إينا. وضمن هذه المنطقة الكبيرة كانت هناك قصور عظيمة وبيوت أصغر منها وتوابع لها لايحصى عددها، كما كان فيها جنائن ونوافير مياه وحديقة حيوانات صغيرة. كما وجد فيها عدة إسطبلات، ذلك لأن السكان الخيالة- وهم الدليل على اهتمام جدي

الموروث والملح في سباقات الخيل وتربيتها وحبه لها- لم يقل عددهم قط عن مئة خيال.

أما السكان فقد كانوا، بالطبع، أكثر عدداً بما لايقاس، وكانوا ينقسمون إلى أقسام وفروع عدة، كانوا عيال مُطالبٍ بحق سياسي (بالمعنى الصحيح لتلك الكلمة) ذي مكانة مرموقة. كان جدي قد اصطحب معه في هجرته من فارس أكثر من ألف من أقاربه ومواليه ومعارفه ومؤيديه الشخصيين والسياسيين، وكان هؤلاء يتراوحون بين أوضع الوصيفات أو الخدم، والأمير من سلالة نادر شاه، الذي انحاز إلى جانب جدي في نزاعاته ومحنه في فارس، واختار النفي معه.

وبمرور الوقت، لم يعد هذا المكان بمثابة ذلك المنفى، لأن جدي حصل على تثبيت لحقوقه وألقابه بموجب حكم صدر عن محكمة بومباي العليا عام ١٨٦٦ . كان زعيماً مكرّماً ومعترفاً به للجماعة، ومنحه التاج البريطاني وممثلوه في الهند مقام الإمارة. وكان منزلنا في بومباي،" آغا هول،" مقر إقامته الرئيس، ولكن كان له مقر آخر، أو مجموعة من القصور، في بونا التي كنا نقوم جميعاً بهجرات موسمية إليها. كانت حياته وعالمه اللذان ولدت فيهما حياة وعالماً لإقطاعيين بطريقة لايفهمها الناس جميعاً في الوقت الحاضر. لقد كان رئيساً ومركزاً لنظام واسع من الولاء والأمانة والتماسك ولكنه، مع ذلك، نظام مفهوم بصورة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام. فحيثما ذهب كان منزله، حتى ولو كان مؤقتاً، مركز الولاء والطاعة- وحسب تعبير الإسماعيليين، دار خانه، وهو مكان يحج إليه من آن لآخر أكبر عدد ممكن من معارفه ومؤيديه. وقد استلزم ذلك الإبقاء على مؤسسة مؤثرة- وهي حاجة قوّتها ظروف ارتحال جدي من فارس والعدد الكبير من الموالين الذين اصطحبهم معه.

وقد سكنت عائلته وأفرادها، وأبناؤه وزوجاتهم، وموظفوه، وأتباعه، وخدمه في سلسلة من البيوت والقصور من حوله، في كل من بومباي وبونا. وعلى مر الأيام تزوج أتباعه الفرس من زوجات هنديات كثير منهن من عائلات إسماعيلية. وظل هؤلاء وأولادهم في رعاية جدي وحمايته، وبعد وفاته في رعاية والدي، ومن ثمّ في رعايتي أنا شخصياً. وعندما توفي جدي جرى تقسيم الأملاك بصورة تقريبية غير رسمية، لكن من دون الزعامة والمسؤولية بالطبع، بين والدي- الذي كان وريثه الشرعي الوحيد في الإمامة- وأعمامي وعماتي. وكنت أنا الوريث الوحيد لوالدي بمقتضى الشرع الإسلامي، خلافاً لوالدي بالنسبة لجده.

فمنذ طفولتي المبكرة دربوني على أن أعي هذا الذي سأرثه، وأن أعي أيضاً عظمة مسؤولياته وجسامتها. ولقد كانت سنواتي الأولى عسيرة من نواح متعددة، بل خشنة قاسية. كنت الوريث الحي الوحيد، ذلك أن شقيقيّ الإثنين قد توفيا وهما في سن الرضاع، كما توفي أخواي(من أبي) في شبابهما. وكان معروفاً عني أني كنت رقيقاً نحيفاً وقد تنبأ عدد من الأطباء الانكليز، بإجماع كئيب، بأني لن أعيش حتى أبلغ الخامسة والعشرين. لذلك فقد أحاطتني أمي بعنايتها التامة، يستبد بها قلق وخوف عظيمان. وجرى تدليلي وإحاطتي بممرضات ومربيات ومجموعة من وصيفات أمي الكثيرات، واللواتي كنت في نظرهن " الأمير المدلل الصغير ".

وقد تنغصت طفولتي- وتعقدت- بوفاة أبي المفاجئة بذات الرئة، وذلك بعد وفاة جدي بما يزيد قليلاً عن أربع سنوات. كان والدي قد ورث عن جدي اهتمامه بالرياضة، ليس فقط بتربية الجياد وسباقات الخيل، بل

بالصيد وإطلاق النار. وكان في هذه الهواية الأخيرة على جانب كبير من المهارة والشجاعة، ذلك أن جرابه عبر السنين لم يحو آلاف الغزلان وطيور الصيد من كافة الأصناف والأنواع فحسب، بل نموراً عدة أيضاً. ففي صيد النمور كانت جرأته تعادل مهارته. وعندما قام أمير ويلز (الذي أصبح الملك إدوارد السابع فيما بعد) بزيارته الرسمية للهند، استقبله جدي في " آغا هول"، فعلّق باهتمام على عدد جلود النمور المعروضة في القصر، وتساءل كيف حصل والدي عليها جميعاً. ولعل من الجدير بي أن أوضح أن صيد النمور في الهند يتم إما عن ظهر فيل مدرب خصيصاً على ذلك(في الشمال) أو من على منصة تُبنى في شجرة تشرف على مأوى النمر(في الأنحاء الأخرى من الهند).

" هل تتسلق الأشجار؟ " سأل أمير ويلز، الذي كانت له- باعتباره بديناً- ذكريات حزينة لكونه خضع لعملية دفع وسحب إلى أعلى الأشجار خلال القيام بهذه اللعبة من إطلاق النار التي تعد الأكثر إثارة من بين جميع الألقاب الأرستقراطية. وأجاب والدي، الذي كان محيط خصره لابأس به، لكن أصغر من محيط خصر الضيف، " كلا، أنا بدين بما يكفي لمنعي من تسلق الأشجار. أنا أطلق وأنا واقف." لكن وفاة والدي لم تكن نتيجة لأي حادث جرى له وهو يقتنص النمور، بل إثر يوم كامل من التخويض في الماء بالقرب من بونا في شهر آب من عام ١٨٨٥ . لقد أمطرت السماء مطراً شديداً عدة ساعات وكانت الأرض رطبة موحلة غاصت بها قدما والدي طيلة هذه المدة وتبلل جسمه حتى الجلد. وقد أصيب ببرداء فظيعة لم تلبث أن انقلبت وبسرعة إلى داء ذات الرئة.وتوفي والدي بعد ذلك بثمانية أيام.

وأستطيع أن أرى أن تلك كانت أول أزمة عاطفية وروحية في حياتي. وقد أنهت هذه الأزمة فترة خلو البال الوحيدة التي عرفت. لقد جرت في الحال محاولة يائسة ولطيفة في الوقت نفسه لمنعي من أن أشعر بالحزن على أبي. ولكن الإحساس السائد بالحداد والحزن العميقين قد غلفاني، أنا الغلام ذا الأعوام الثمانية من العمر. وكنت، بوصفي وريثاً لأبي، نقطة الارتكاز لشعور جديد عظيم ومُلح بالمسؤولية. فعائلتنا، وأتباعنا الذين هاجروا معنا، ومؤيدونا الإسماعيليون في جميع أنحاء العالم الإسلامي أعلنوا الحداد العميق على والدي، ولكنهم جميعاً التفتوا إلي، على صغر سني، الآن وعلى مدى حياتي التي يتعين علي أن أحمل خلالها الأمانة المقدسة التي ولدت من أجلها. وهكذا، فإن التبدل في ظروف حياتي قد تم بصورة سريعة باكرة ملحة. وجرى تحنيط جثمان والدي ونقل من بونا إلى بومباي ومنها أرسل ليدفن في النجف على الضفة الغربية من الفرات بالقرب من الكوفة ومن قبر جدنا الإمام علي– وهي من أقدس الأماكن عل سطح الأرض في نظر الشيعة – ولم تكد هذه المراسيم تنتهي حتى كرّس لي عهد جديد.

كان هذا، بالطبع، نتيجة مباشرة لمركزي الجديد، ولكني حتى اليوم لا أستطيع أن أفهم لماذا لم أمت أو أتحول إلى شخص بليد غبي في ظل المعاملة التي عوملت بها. لقد كان إعدادي للمسؤوليات والمهام التي ورثتها جدياً وعنيفاً معاً، وكان من المحتم تكييفه بحيث يتفق مع النظام الدوري لهجرات عائلتنا الموسمية. فمن تشرين الثاني وحتى نيسان، إبان الطقس البارد من كل عام، نكون في بومباي؛ وكنا نمضي نيسان وأيار في ماها بلشوار؛ ومن حزيران إلى تشرين الأول في بونا، وفي تشرين

الأول كنا نذهب لوقت قصير إلى إحدى المحطات الجبلية الصغرى، ومنها نعود إلى بومباي. وقد استمر هذا النظام عشر سنوات بكاملها- من عام ١٨٨٥-١٨٩٥- دون أن يتغيّر أو يتبدل، ولم يكن لدي فيه متسع لعطلة لشهر، لأسبوعين، ولا حتى لأسبوع أخرج فيه من هذه القيود، لكن ربما كان هناك يوم نادر في أحسن الأحوال. وتم إبقائي بقسوة ضمن سلاسل هذا النظام.

وفيما يلي وصف لنمط حياتي اليومية الثابتة: كنت أُدعى بين السادسة والسادسة والنصف إلى تناول الفطور- وكان يتألف في العادة من شاي خفيف، وخبز، وزبدة، ومربى وحلوى فارسية. وفي السابعة، سواء شئت أم أبيت، كان علي أن أقضي ساعة في ركوب الخيل خبباً أو عدْواً في بعض الأحيان على أرض أحد ميادين الخيل في بونا، أو في ميدان سباق، وأحياناً أخرى على رمال شاطىء بومباي. ومن الثامنة حتى الحادية عشرة والنصف كنت أتلقى دروسي على أساتذتي الإنكليز والفرنسيين. ثم أدعى إلى تناول طعام الغداء، وأبقى حراً إلى الساعة الثانية من بعد الظهر. وبعد ذلك، كنت أقضي ثلاث ساعات في دراسة اللغة العربية، ثم يسمح لي بالقيام بنزهة في السيارة أو بلعب التنس في الحديقة أو غير ذلك من وسائل الاسترخاء حتى يحين وقت العشاء في الساعة السابعة. وبعد العشاء كنت أخضع لأفظع الفظائع، وذلك إني كنت أجبر على الجلوس ساعتين لتعلم أصعب أنواع الخط وأكثرها فتكاً بالروح. كانت أمي قد تأثرت بالنصيحة- وقد تبين فيما بعد أنها كانت نصيحة خرقاء- التي أسداها إليها الأدباء ومدّعو العلم من العرب والفرس الذين أكدوا لها أن الخط في العربية والفارسية الكلاسيكيتين

على جانب عظيم من الأهمية، كما ذكروا لها أن كلا من أخوي اللذين كانا قد توفيا كان له خط جميل. وقد تحدث أمي وأعمامي وكل من كان في بيتنا على إكراهي على هذه الجلسة الرهيبة. فلقد كان تعلم الخط بالنسبة إلي يوازي الاستشهاد الفعلي، لأن أحداً لم يدرك أني منذ ولادتي مصاب بقصر النظر لدرجة أنه كان يتعين علي أن لا أبعد القرطاس أو الكتاب عن أنفي أو عيني أكثر من بوصة أو بوصتين، وأن كل ما كان يقع على مسافة تزيد على بضع بوصات من أنفي لم أكن أستطيع تحديده أو التمتع به، سواء كان حديقة أو مرتفعاً أو بحراً أو غابة. وقد ظلت هذه العلة بي غير ملحوظة سنين عديدة، أما كيف أصلحت في النهاية فهذا ما سأصفه بعد قليل.

كان النظام الذي أخضعت له قاسياً، وحتى أوقات الفراغ التي كان يسمح لي بها كانت عرضة للغزو، ذلك أنه كان من واجبي، على صغري، أن أستقبل من أتباعي أولئك الذين كانوا يأتون إلى بيتنا ليقدموا احتراماتهم المخلصة. كانت أيام السبت، وأيام الأعياد هي المناسبات المعتادة لهذه الاستقبالات، وكان ضيوفي يجلسون في الحديقة، ينحنون ويحيون، حاملين معهم الهدايا ومتقبلين للشكر والبركات. أما دوري في هذه الاحتفالات فقد كان دوراً مهيباً تفرضه التقاليد- ولكني كنت طفلاً أكره مجيئهم في وقت الفراغ القليل الممنوح لي، لكونهم لا يأتون قط في وقت الدرس.

هذا هو النظام الذي أخضعت له وأنا بعد في الثامنة من عمري. ولعل من الملائم أن أقدم شرحاً موجزاً لطريقة حياتي في السنوات اللاحقة. ففي حين لم يحدث أي تبديل في مبادئي الخاصة بالاستشراف العقلي، إلا أن من الواضح أنه كانت هناك تعديلات ملحوظة في نمط

وجودي. فالآغا خان، الذي تعشى مع الملكة فيكتوريا سنة ١٨٩٨، لم يكن الآغا خان نفسه الذي تناول الشاي مع الملكة اليزابيث سنة ١٩٥٣. لكن طوال هذه الفترة الطويلة كنت أقتنص ساعات من روتيني اليومي كما أقتنصها حتى في هذه الأيام لقراءة الشعر والروايات والصحف والمجلات الأدبية والنقدية. فقد كانت هذه خصلة من خصال شخصيتي دامت ستين عاماً بكاملها. وبتلك الطريقة كنت أكرس جزءاً معيناً من الوقت للرياضة البدنية. فحتى بلوغي الخمسين من العمر، كان الوقت المخصص للرياضة البدنية ينقضي في الملاكمة وتمرينات ساندو والمشي الطويل، وفي السنوات الأولى من القرن العشرين كنت أقوم بجولات طويلة على الدراجة عبر فرنسا وإيطاليا وألمانيا وغيرها من الدول الأوربية. وبعد الخمسين من العمر كان علي أن استبدل هذه التمرينات الأكثر عنفاً بألعاب أخرى كالتنس والغولف. ومنذ أن أصبحت في الستين من العمر كان لزاماً أن أقصر رياضتي على الجولف والمشي.

وكذلك تبدلت حياتي الاجتماعية بطبيعة الحال- لا لأني أنا نفسي قد تقدمت في السن فحسب، بل لأن ظروف العالم الاقتصادية قبل سنة ١٩١٤ كانت تختلف اختلافاً كلياً عن ظروفنا الاقتصادية الحاضرة. في المجالات التي عشت فيها منذ أربعين سنة وأكثر، كان النشاط الاجتماعي بالغاً؛ ففي كل أربعة أيام أو خمسة، إن لم يكن في كل يوم، كانت تقام حفلات غداء أو عشاء في أي مكان أجد نفسي فيه. كما كانت حفلات المسرح أو الأوبرا تقام بالكثرة نفسها. وبين الحربين نقص هذا الجزء من الحياة نقصاً كبيراً، ويمكنني القول بأن الارتباطات الاجتماعية تدنّت بنسبة عشرين إلى مئة. وبعد الحرب العالمية الثانية،

تلاشت هذه الارتباطات الاجتماعية واضمحلت- إلا عندما كنت أدعو وزوجتي بضعة أصدقاء، حيثما أكون، للغداء أو الأوبرا أو الحفلات المسرحية. أما الفترة الاجتماعية الكبرى فكانت بين عام ١٨٩٨ وبداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ . كنت أعرف معظم أفراد الأسر المالكة في أوربا، الذين كنت ألتقي بهم مرة بعد أخرى، مع أفراد الأرستقراطية والبلوتقراطية الذين كانوا كالتوابع التي تدور حول الكواكب الرئيسة سواء في لندن أو باريس، في روما أو برلين، في مونت كارلو أو نيس أو سانت موريتز. تلك الحياة الاجتماعية هي، بالنسبة لي، من ذكريات الماضي. ولقد انقطعت فعلاً باندلاع نيران الحرب العالمية الأولى لأن المجتمع الذي لقيته بين الحربين كان يختلف اختلافاً أساسياً.

ولكي أعطي القارىء فكرة عن التبدل الاجتماعي، يمكنني القول إنني بين عامي ١٨٩٨و١٩١٤، كنت ضيفاً تسعاً وتسعين من أصل مئة مرة، ومضيفاً واحداً بالمئة فقط. وبين الحربين أصبحت النسبة مناصفة وأخذت تتضاءل تدريجياً إلى أن وجدت نفسي منذ الحرب الأخيرة مضيفاً تسعاً من أصل كل عشر مرات.

ازاء هذه التبدلات في حياتي الخاصة وفي المجتمع الذي أتحرك فيه، والذي قمت بتشييده بشكل موجز على خلفية ما يقرب من ستين سنة، كيف أعيش الآن عندما أكون في البيت في دارتي في كان، أو عندما نكون في منزلنا في بومباي، أو عندما نكون في فنادق في لندن أو باريس أو البندقية أو جنيف أو إفيان، ثمانية أشهر تقريباً من كل سنة؟

يبدأ يومي- كما كان منذ شبابي الباكر- في الرابعة صباحاً. فأنا أصحو بصورة آلية في هذه الساعة تقريباً وأمضي الساعة الأولى- بين

الرابعة والخامسة- في صلاة مركزة. وليس في غرفة نومي تماثيل، وإنما سجادة خاصة للصلاة مُعّدة دائماً، أما سبحتي فهي دائماً معي. وفي الخامسة أعود فأنام لأستيقظ ما بين الثامنة والتاسعة، فأتناول فوراً فطوراً مكوناً من الخبز المحمّر والشاي والعسل، لكن دون زبدة. ولاتبلغ الساعة العاشرة إلا وأكون قد اطلعت على الصحف، واغتسلت وارتديت ملابسي، وعندئذ أخرج عادة فأمشي بين ميل واحد أو ميلين، أو ألعب لعبة جولف بتسع حفر. أما إذا كان الجو ممطراً فلا أخرج أبداً. وحتى الساعة الواحدة تقريباً، أباشر عملي مع موظفي السكرتاريا فأرد على المراسلات، وأعنى بسائر كتاباتي وأعمالي المتنوعة. ونادراً ما أؤجل عمل يوم إلى آخر، ولا أدع من أعمالي عادة إلا الشيء القليل ليوم آخر. وفي الواحدة أو الواحدة والنصف أتناول طعام الغداء عندما أكون في منزلنا في كان، أما إذا كنت خارجاً ففي أحد المطاعم دائماً، ونادراً في مطعم الفندق. إن وجبة الغداء هي وجبتي الرئيسة، وهي تتألف من السمك أو البيض أو اللحم- شرط الاقتصار على إحداها فقط، ومن الأرز بانتظام، ونوعين من الخضار والفاكهة المطبوخة، ثم المثلجات أو فطيرة في بعض الأحيان.

وعندما أكون في باريس أو لندن، فإني قد أذهب بعد الظهر إلى ميادين السباق، أو أعتني بمراسلاتي، أو أكمل مطالعاتي. وفي الساعة الخامسة أو السادسة أتناول فنجاناً من الشاي، ثم أحاول عادة أن أعود في السابعة أو الثامنة إلى مطالعة الشعر أو القصص الخيالية أو المجلات الأدبية، كما أطالع بدقة صحف الصباح والمساء. أما عشائي فيتألف من الفاكهة الطازجة، فأنا لا أتناول مطلقاً أي طعام مطبوخ أو مملح في الليل.

فإذا كان الثمر غير صالح، أتناول عندئذ السلطة. وفي المناسبات النادرة التي أدعى فيها إلى العشاء، أطلب من مضيفي أن يقدم إلي السلطة أو الثمار أو بعض الخضار النيئة مثل الطماطم أو الكرفس، الخ.....

زوجتي وأنا كلانا محبان للمسرح والأوبرا والباليه. ففي مدن لندن وباريس نقصد إلى إحداها أربع أو خمس مرات في الأسبوع. وعادة نصطحب معنا بعض الأصدقاء. وفي كان نذهب إلى المسرح المحلي من آن إلى آخر إبان الموسم- وأحياناً إلى أوبرانيس أو إلى مونت كارلو او إلى أماكن مشابهة. ومن عادتي أن آوي إلى الفراش بسرعة بعد المسرح، فقد علمتني تجاربي الطويلة أن النوم كالمشي- فأنت تستطيع أن تحصل من نوم يمتد إلى أربع أو خمس ساعات على فائدة تعادل الفائدة التي تحصل عليها من ثماني أو تسع ساعات، تماماً كما تستطيع أن تحصل من المشي الجدي الرشيق عشرين دقيقة على الفائدة نفسها التي تحصل عليها من المشي ساعتين يتخللهما التسكع في الشوارع والنظر إلى واجهات الحوانيت. وباختصار تستطيع إما أن تنام ببطء أو بسرعة، وإني شديد الإيمان بالنوم الخفيف السريع. ويسعدني القول إني عندما أنام فأني أنام فعلاً، وليس لدي وقت أضيعه عندما أذهب إلى الفراش، وحتى لو أيقظوني لأي سبب من الأسباب، فإني أعود إلى النوم حالاً. وبوسعي التأكيد أني لم أر حلماً طيلة حياتي. وأعتقد أن هذا يعود إلى أني جعلت نومي معقولاً كما جعلت تماريني معقولة. وقد يجد أولئك الذين يشكون كثرة الأحلام قدراً من السلام والأمن، وقد يتغلبون على الجهد الجسماني والعقلي إذا تمكنوا من ترويض أنفسهم على عادة التركيز على العمل الذي بين أيديهم.

ولكن، وبالعودة إلى فترة صباي، فقد كان لي ثلاثة أساتذة بريطانيين هم: السيد جالاغر، وكان إيرلندياً، والسيد لورنس، وإيرلندي آخر يدعى كيني. وهؤلاء الثلاثة أوجدهم لي اليسوعيون في بومباي. قد يبدو غريباً أن تلجأ عائلتي إلى اليسوعيين في تثقيفي بالأمور الخاصة بالغرب؛ غير أن في بونا وبومباي مدرستين يسوعيتن كبيرتين وهامتين، وكانت كل منهما قريبة من المكان الذي كنا نعيش فيه- سانت ماري في بومباي وسانت فنسنت في بونا. وكان جميع الأطفال في بيتنا الكبير- الذرية المتكاثرة أبداً من أتباع جدي وموظفيه وأقاربه وجنوده- يذهبون إلى هاتين المدرستين اليسوعيتين. كما كان أهل البيت على معرفة جيدة بالآباء اليسوعيين، ولم يكن أسهل من الحصول على مشورتهم وعونهم.

وبالمناسبة، أقول إنه لم يكن هناك مايدل أبداً على محاولتهم تحويل أي من أطفالنا المسلمين إلى دينهم.كانوا يحترمون الدين الإسلامي، ولم يتوخوا قط، سواء بالمناقشة أو بالإيحاء أو بالإيعاز، أن يضعفوا إيمان المسلمين بدينهم. هذه من أوضح ذكريات طفولتي، ولقد رأيت الظاهرة نفسها تتكرر في مصر وباكستان المعاصرتين. وفي أحد الأيام، منذ بضع سنين، ناقشت هذا الأمر مع يسوعي بارز من إسبانيا وامتحنته فيه.

قلت له: " أستحلفك ماذا تريد من مجيئك إلى هنا وإضاعة وقتك؟ أنت مبشّر ولديك جميع الفرص التي تمكنك من القيام بعملك التبشيري، ولكنك لاتحاول أبداً أن تحوّل ولداً واحداً من دينه إلى دينك! لأي غرض أنتم هنا، وماذا تفيدون من كل هذه المبالغ الضخمة التي تنفقونها على المعلمين والأبنية؟ وما تفسير هذا كله؟" وابتسم اليسوعي، الذي كان صديقاً قديماً لي، ابتسامته العريضة وقال: " ألا ترى ما نفيد منها؟"

" كلا!"

" أنتم الذين تدفعون لنا. إننا نقدم أفضل ما نستطيع من الثقافة لكل ولد مسلم وغير مسيحي. إن رسومنا المدرسية مرتفعة جداً لأولئك الذين يستطيعون أن يدفعوا، ولكن أبناءنا الكاثوليك الفقراء يتعلمون مجاناً. وهكذا فإنكم تدفعون إلينا بصورة غير مباشرة، وإن فقراءنا يحصلون على ثقافة من الدرجة الأولى على حسابكم".

فيما يتعلق بي، كان المعلمون الثلاثة الذين أوجدهم اليسوعيون لي رجالاً ممتازين. فالدروس التي أعطوني إياها لم تكن قط ضيقة أو محدودة، ولقد ارتقوا بعقلي إلى آفاق واسعة، وفتحوا عينيّ على العالم الخارجي. كانوا رجالاً حكماء واسعي العقل، وكانوا يتمتعون بالقدرة على إثارة الشوق إلى المعرفة وإعطائها- سواء في التاريخ أو العلوم الطبيعية أو السياسية. ولعل الأهم من هذا كله أنهم شجعوني على أن أطالع بنفسي، ومنذ أن كنت في العاشرة أو نحو ذلك كنت أدخل بحرية إلى مكتبتنا الواسعة الغنية بالكتب الإنكليزية والفرنسية والفارسية والعربية. لقد أعطاني أساتذتي الثلاثة مفتاح المعرفة، ولذلك كنت وما أزال مديناً دائماً بالشكر لهم جميعاً- للسيد جالاغر ولورنس وكيني.

عن هؤلاء الثلاثة لا أستطيع إلا أن أقول الخير. ولكني، مع الأسف، لا أستطيع أن أذكر بخير ذلك الرجل الذي كان مسؤولاً عن تثقيفي بالعربية والفارسية وجميع الأمور الإسلامية. كان عالماً كبيراً، وأديباً بارعاً، وكان واسع الاطلاع على الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، ولكن علمه كله لم يوسّع عقله ولم يدفىء قلبه. كان طائفياً متعصباً، وبالرغم من مطالعاته الواسعة فإن عقله كان من أظلم العقول

التي لقيت في حياتي وأضيقها. ولو إن الإسلام كان فعلاً ذلك الدين الذي بشّر به، لكان الله بالتأكيد قد أرسل النبي محمداً لا ليكون نعمة وبركة للناس جميعاً، بل نقمة عليهم ولعنة.

لقد كان من المحزن، بل من المخيف، أن استمع إليه وهو يتحدث. كان يعطي المرء شعوراً بأن الله قد خلق الناس ليبعث بهم إلى الجحيم والعذاب الأبدي ليس غير. ومهما كانت معرفته عميقة دقيقة- وأعترف أنها كانت من هاتين الناحيتين فريدة إلى حد ما- فإنها تلاشت وانتهت إلى مرارة وحقد. وفي السنوات التي تلت، عاد إلى طهران حيث غدا استاذاً شهيراً في العلوم الإسلامية، واكتسب شهرة لكونه أعظم علماء إيران، ومع ذلك، فإني أعتقد أنه ظل إلى النهاية المُلا المتعصب الذي عرفت.

لعل هذه الخبرة المبكرة هي التي غرست بي طيلة حياتي ميلاً إلى التحامل على رجال الدين المحترفين- سواء أكانوا من صنف المُلا أو الخوري أو الوكيل أو القسيس، ولو كنتُ أُقّر بأن كثيراً منهم رجال هم في الحق قدوة حسنة. لقد عرفت أناساً بسطاء- خوارنةالقرى في فرنسا، القساوسة المتواضعين في مناطق إيطاليا الريفية، والأخوات اللطيفات المتواضعات التقيات في المشافي في مختلف أرجاء العالم- وأعجبت بهم وقدّرتهم حق قدرهم. في انكلترا كان لي طوال حياتي أصدقاء من بين الكويكرز، وإني لأعي وأدرك أن احترامنا المتبادل لدين كل منا- احترامي لمذهبهم واحترامهم لديني الإسلامي- احترام كلي مطلق. إن الأكثرية الساحقة من المسلمين في العالم أجمع ذوو اتجاه ودي نحو أولئك الذين يعتنقون أدياناً أخرى، وهم يطلبون المغفرة للجميع. غير أنه قد نشأت في إيران والعراق مدرسة من الفقهاء تشبه في تصلبها

وتعصبها وعدوانها الروحي معلمي القديم. وإبان رحلاتي في العالم لقيت الكثيرين من أصناف هؤلاء من مسيحين ومسلمين ويهود- يرتلون بخشوع آيات الله، ومع ذلك نراهم في شوق لأن يرسلوا إلى جهنم وعذابها المقيم كل الناس باستثناء من يقولون بأقوالهم ذاتها ويعتنقون آراءهم نفسها. وعليّ أن أعترف بأني توخيت أن أتفادى هذا النوع من الناس منذ سنين عديدة.

لقد كان من الغريب وفي غير محله أن ولداً كانت نشأته وتربيته كما كانت نشأتي وتربيتي في الهند، قد أخضع في مراهقته إلى مثل هذا التلقين العقائدي الإسلامي الضيق. ذلك أن بيئتي المبكرة كانت بيئة يسودها التسامح بأوسع معانيه، فلم يكن في بيتنا أي تحامل على الهندوس أو الهندوسية، وإن كثيراً من أتباعنا وخدمنا- عمالنا في الحدائق، ورسلنا، وحراسنا، وكثيراً من أولئك الذين كان لعملهم صلة بالبيع والشراء وقبض الإيجارات- كانوا من الهندوس.

يضاف إلى ذلك، أن أمي كانت صوفية خالصة بالمعنى التقليدي الإسلامي(كما كان معظم أقرب صاحباتها إليها) وكان من عادتها قضاء وقت طويل في الصلاة من أجل الاستنارة الروحية والاتصال بالله. وفي مثل هذا الجو لم يكن هناك محل للتعصب. وكانت أمي، شأن غيرها من المتصوفات، تتذوق الشعر وتفهمه فهماً عميقاً. لقد سمعتها، بما يشبه الذهول، تتلو بعضاً من أبيات الرومي وحافظ الشعرية بما تتضمنه من مشابهات رائعة بين رؤية الإنسان الجمالية لما هو إلهي والجمال الوقتي للأزهار وألوانها، بين الموسيقى وسحر الليل وبين الروعة المؤقتة للفجر الفارسي. ومن ثم كان عليّ أن أعود إلى غرفتي المظلمة

لأستمع إلى أستاذي يلعن ويعنّف كعادته. وإذ كان شيعياً من أضيق طراز، فقد ركز أعظم حقده لاعلى غير المسلمين، ولاحتى على أولئك الذين عذبوا النبي، بل على الخلفاء وصحابة النبي. كان لايحترم إلا ابنة النبي، وحفيديه، وصهره علياً، وأربعة أو خمسة من أقرب أصحاب علي، وكل من عدا هؤلاء كانوا في نظره أعداء الله وأعداء رسوله الذين سعوا جاهدين لأن يكتموا وفاة النبي، والذين أقدموا، بعد وفاة النبي، على قتل علي- ابنه المختار وخليفته الطبيعي- بوحشية، وقتل ولديْ علي، حفيديه الحبيبين. هذا الشكل من أشكال المذهب الشيعي إنما يبلغ ذروته في شهر محرم بما يتخلله من مناحات ولعنات رهيبة. أنا أعرف أن كرهي لكراهيته وتصلبه وتعصبه، قد صبغ حياتي كلها، وإنما وجدت جوابي في دعائي البسيط أن يغفر الله بواسع رحمته ذنوب المسلمين جميعاً، القاتل والمقتول، وأن يتصالح الجميع في الجنة في وفاق كلي نهائي. كما أبتهل أيضاً أن تكون الجنة من نصيب المؤمنين بالله إيماناً حقيقياً صادقاً، سواء أكانوا مسيحيين أم يهوداً أم بوذيين أم براهمة، والذين يعملون الخير ويجتنبون الشر، وهم رحماء كرام، وأن تشملهم الرحمة والمغفرة والسلام. لقد كان باستطاعتي أن أرجو هذا البرّ نفسه بالمسلمين من جانب بقية الأديان الأخرى، غير أن هذا الاتجاه- باستثناء أولئك الشرفاء المتواضعين ممن سبق لي أن ذكرت- ليس هو الاتجاه الذي لقيته بين الأحبار المسيحيين. إن من المحزن والممض أن أقول، ولكنني مؤمن أن قولي صحيح، أنه بوجه عام كلما سمت منزلة رجل ما في أي من الكنائس المختلفة كان اتجاهه أقل براً وأكثر قسوة نحو الإسلام والمسلمين.

بوسع القارىء أن يرى الآن أن البيت الذي ترعرعت فيه كان بيتاً

أدبياً، وقد ذكرت تذوق أمي للشعر، حيث كانت متضلعة في الأدبين الفارسي والعربي، شأن الكثيرات من وصيفاتها وصديقاتها المقربات. وكانت تحفظ الكثير من الشعر عن ظهر قلب، وكانت تحسن اختيار المقطوعات الشعرية الكلاسيكية الملائمة، وهي خاصة لم تفقدها طيلة حياتها. حتى عندما بلغت التسعين، كانت لاتخطىء اختيار هذه المقطوعات، لا من أشعار العظام كحافظ وفردوسي أو الرومي فحسب، بل من كثير من الكتاب المغمورين أيضاً.

حادثة واحدة بسيطة قد تفسر للقارىء ما ذهبت إليه. فقبل وفاتها بفترة قصيرة، اقتبس أحد أبناء عمومتي في إحدى الليالي على مائدة العشاء بيتاً من الشعر الفارسي لم يُسمع به إلا نادراً. ولكي لا أزعج أمي أو أقلقها فقد نسبت البيت إلى حافظ. ولكن أمي قالت إن ذلك البيت لم يكن من شعر حافظ على الإطلاق، وذكرت اسم القصيدة واسم الشاعر المغمور الذي نظمها.

وكان من نتائج هذه الميزة أنه لم يكن على مائدة أمي مجال للثرثرة أو الدردشة الفارغة، بل إن حديثنا كان ينصب على الأدب أو الشعر، أو تتحدث إحدى السيدات المسنات، اللواتي سافرن من طهران وإليها مرات عديدة، عن خبراتها وتجاربها في بلاط الشاه.

إن نوراً صافياً يسطع على هذا الطور من صباي. فهل كنت سعيداً أم شقياً؟ كنت في عزلة، بمعنى أنه لم يكن لي رفاق من سني، باستثناء ابن عمي المحبوب آغا شمس الدين وأخيه عباس، اللذين كانا في مثل سني، ولهما النظرة نفسها، كما كانا أقرب وأعز صديقين لي في شبابي. غير أن أيام عطلتي كانت قليلة وأوقات فراغي محدودة بحيث أني

أتساءل اليوم ماذا كان عساي أن أفعل لو كان لي عدد كبير من الأصدقاء ؟ هناك حقيقة واحدة تنتصب واضحة إلى أقصى الحدود، وهي أني كنت أعمل بجد، وبجد أكثر من معظم تلاميذ المدارس الصغار. فما إن بلغت الثالثة عشرة حتى كان بإستطاعتي أن أقرأ وأكتب الإنكليزية والفرنسية بصورة مقبولة، والفارسية بصورة ممتازة، والعربية بصورة لابأس بها، وكانت لي معرفة صحيحة بالتاريخ الروماني والتاريخ الإسلامي أيضاً. وكنت ذا أساس حسن بمبادىء العلوم الطبيعية، الكيمياء، والفيزياء، وعلم النبات، والبيولوجيا، وعلم الحيوان، فضلاً عن أن ثقافتي العلمية لم تكن نظرية فحسب، ففي كل بيت من بيوتنا كان لي مختبر صغير، وكان علي أن أقضي وقتاً محدداً في إجراء التجارب العلمية المخبرية كل يوم.

وكما ذكرت سابقاً، فقد اكتسبت رغبة نهمة للقراءة. وقد نما هذا الذوق فيّ وتطور منذ أن كنت في سن العاشرة أو نحوها، وكنت عندما استنفد مصادر مكتبتنا مؤقتاً أتطلع إلى مصادر غيرها. كنت أريد أن أبتاع كتباً خاصة بي، غير أنه كانت هناك عقبة صغيرة واحدة، ذلك أن أمي لم تكن تسمح لي بأي مصروف للجيب. وقد تمكنت وابن عمي من أن نوجد مخرجاً عبقرياً من هذه الصعوبة. لقد كان كل منا يرتدي عباءة (وهي لباس واسع فضفاض يستخدم على نطاق عالمي في كل من فارس والبلاد العربية). ثم نتوجه إلى إحدى مكتبات بومباي الشهيرة. وكان أحدنا يشغل صاحب المكتبة بحديث مشوق، بينما كان يقومُ الآخر بإخفاء عدد من الكتب في ثنايا عباءته. لكن طريقتنا هذه لم تلبث أن اكتشفت، وعمد صاحب المكتبة إلى إبلاغ عمي وأمي. ولقد سددت

فاتورتنا في الحال طبعاً، ولكن العائلة قررت أن من الواجب تلقيننا درساً. لم يقل لنا أحد شيئاً، واستمررنا في لعبتنا الصغيرة الشيطانية، وكنا منهمكين فيها يوماً عندما دلف عمي إلى المكتبة وأمرنا بجفاء:

" اخلعا عباءتيكما "

وما إن امتثلنا للأمر حتى سقطت الكتب المخبأة على الأرض، وبلغ منا الخجل والخزي أقصاهما، ومنذ ذلك الحين لا أذكر أني أقدمت حتى على قطف زهرة من بستان رجل دون أن أخبره.

وتابعت مطالعتي- ولكن في غير الكتب المسروقة- وبعد عام أو عامين تحولت مطالعتي، بل نظرتي كلها إلى الحياة، تحولاً عميقاً ودائماً بفضل قرار صغير حكيم؛ إن جلّ ما كان بالنسبة لي مؤلماً عسيراً قد انقلب إلى متعة وحبور، فقد تحسنت صحتي تحسناً عظيماً، وإني واثق من أن ذلك قد وفر عليّ كثيراً من المتاعب والمصاعب في ما تلا من حياتي. وتفسير ذلك أن السيد كيني، ثالث أساتذتي الأوربيين وآخرهم، كان يعمل في وقت مضى في مؤسسة لصنع النظارات. ولم يكد يراني أجلس إلى العمل حتى أدرك مدى العذاب الذي أعانيه من قصر بصري ومن جهل المحيطين بي في هذه الأمور.

إن من الغريب والمؤسف معاً أن أذكر أنني، قبل وصول السيد كيني، التقطت مازحاً غير مرة زوجاً من النظارات التي كان يتركها جانباً أحد أفراد عائلتي أو أحد أصدقائنا. وكنت في اللحظة التي أضعهما فيها على عيني تعروني بهجة رائعة وأكتشف عالماً رائعاً جديداً؛ عالماً زاخراً بأناس من أشكال مختلفة محددة، عالماً مليئاً بالأشجار الخضراء والأزهار الزاهية الألوان؛ عالماً مضيئاً بالنور الحاد القوي بدلاً من ذلك

المحاط بالضباب والإبهام. ولكن لحظات الفرح تلك لم تكن تدوم إلا وقتاً يسيراً، ولقد كانت بالفعل محرمة علي، ذلك أن الأوامر كانت قد صدرت إلى الخدم بأن يأخذوا مني النظارات، لأن عائلتي لم يكن في وسعها الاعتقاد بأن ولداً مثلي يمكن أن يكون مصاباً بقصر النظر، وكانت تعتقد أني كنت سخيفاً أحب العبث. وهكذا أدرك السيد كيني حالاً ورطتي وما يمكن ان تنطوي عليه من تأثيرات في مستقبلي، فألح عليّ أن يأخذني إلى مؤسسة النظارات التي كان يعمل بها. وهناك أجروا لي اختباراً لعيني وأعطوني نظارتين ملائمتين للقراءة، وأخريين للمسافات. وقد أراد أعمامي التدخل في الموضوع، ولكن السيد كيني تشبث بموقفه، وانتصر آخر الأمر. هذا العمل العاقل العطوف قد وفّر عليّ ألماً وقلقاً لانهائيين، وأعطاني عالماً جديداً أعيش فيه.

وأيّ نوع من العالم تفتحت عليه عيناي في صباي؟ أي نوع من الحياة كنت أتشقف له؟ أولاً، وقبل كل شيء، كنت الرئيس الروحي بالوراثة والزعيم لجماعات واسعة الانتشار في العالم أجمع، بعيدة جداً عن أن تكون ضئيلة الأهمية في العالم الإسلامي. وما إن أصبح باستطاعتي أن أكون ذلك حتى كان عليّ تحمّل مسؤولياتي واتخاذ القرارت. جرى تنصيبي على عرش الإمامة سنة ١٨٨٥، عندما كنت في الثامنة من عمري، وهناك صورة ما تزال موجودة لهذا الاحتفال تستذكر بوضوح فترة انتهت واختفت. وبعد ذلك بعدة سنوات، وجدتني أمارس نفوذي وسلطتي في أمر على جانب عظيم من الأهمية في حياة بومباي- أمر يتعلق بالسلام والأمن كما نقول في أيامنا هذه. ففي أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر، اندلعت في بومباي اضطرابات طائفية

عنيفة. فأصدرت أوامري الصارمة إلى جميع أتباعي بتجنب المشاركة في تلك القلاقل. ولم يكن تأثير أوامري سلبياً بشكل مجرد، بل ساعدت على إطفاء جذوة الغضب وإعادة السلام في بومباي بين المسلمين والهندوس. وقد حاز عملي هذا- السياسي المستقل الأول- على شكر الحاكم ومفوض الشرطة في بومباي، ومع إني كنت ما أزال ولداً فقد فزت باعتبار الزعماء السياسيين لجميع الجاليات وتقديرهم لي.

في هذا الوقت، كان أهل بيتي وأتباعي والمؤيدون لي وأقاربي وخدمي يشكلون عنصراً مهماً من سكان بومباي، وكما سأروي قريباً، فإنهم خلقوا مشكلة أمنية خاصة بهم. إن جدي، إذ كان يعي ويدرك أنه كان منفياً من فارس، وكان يعي ويدرك أن القسم الأعظم من حياته المغامرة ربما قد انتهى عندما استقر في بومباي، لم يشارك في الحياة السياسية الهندية. أما والدي، فقد قبل، في أيام حكم السيد جيمس فيرغسون، مقعداً في مجلس بومباي التشريعي، وأما أنا، فقد قدّر لنضجي ومصالحي ومثلي العليا السياسية أن تذهب بي إلى أبعد من ذلك. ولكن العالم الذي كنت أنمو فيه وأترعرع في أواخر ثمانينيات وأوائل تسعينيات القرن الماضي لم يكن خالياً من مشاكله وتعقيداته السياسية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة به.

لقد استطاع جدي، في كل من بومباي وبونا، أن يحيا حياة عزلة في معظمها، تكاد تشبه نمط الحياة في العصور الوسطى، وهو النمط الذي كان قد اختفى منذ زمن طويل. لقد أحضر معه من فارس النبلاء الفرس من الطراز القديم، والأسلوب الإقطاعي الرائع في تنظيم تلك الأزمنة الماضية. وكانت رياضيات الميدان الهوايات الكبرى في المجتمع

الذي ترعرع فيه، وجرت المحافظة على الاسطبلات الفخمة، وتمت تربية أعداد كبيرة من كلاب الصيد، وكان هناك بحث مستمر عن أفضل أنواع الصقور في إيران والعراق.لقد أحضر معه جميع هذه الهوايات إلى المنفى- وحشداً كبيراً من الأتباع الذين اقترنوا بهذه الهوايات. وما إن استقر في بومباي حتى اشترى الخيول وأشركها في السباقات- خيول عربية وإنكليزية وأسترالية وحتى تركمانية. واعتنى بجمع الصقور وكلاب الصيد من جديد، ورتب حياته بحيث تتلاءم مع هذه الهوايات جميعاً. كان نهاره يبدأ في السادسة صباحاً، إما بصيد الغزلان أو الطيور أو بزيارة إلى ميادين التدريب في مواسم السباق لتفقد جياده وهي توضع في مسارب الميدان. وما إن تأزف الساعة التاسعة حتى يكون قد عاد إلى البيت حيث يتناول إفطاراً مغذياً ثم يأوي إلى فراشه لينهض في منتصف الأصيل ويقصد إلى اجتماع في ميدان السباق أو إلى الصيد حتى الغسق. فيعود عندئذ إلى البيت وينفق الليل يؤدي مهامه التي تفرضها عليه زعامته الروحية، فيستقبل أتباعه، ويعنى برسائله وينظر في الأمور المالية إلى غير ذلك. ثم يتوقف حوالي الساعة التاسعة لتناول وجبة عشاء كبيرة إلى حد ما، يعود بعدها إلى العمل المتواصل حتى الساعة الخامسة صباحاً فيتناول وجبة خفيفة قبل الشروع بدورة النهار كرة أخرى.

تلك كانت عادات مألوفة لديه ولدى الكثيرين من أفراد الطبقة الحاكمة في أيامه في إيران وأفغانستان، ولم ير جدي سبباً لعدم المحافظة عليها والتمسك بها فيما تلا من حياته.

ويمكنني أن أقول، بالمناسبة، إن جدي قد حظي بسلسلة من الفوز في

حلبة السباق الهندية في خمسينيات وستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر، شبيهة جداً بسلسلة الفوز التي حظيت بها في انكلترا وفرنسا من عشرينيات القرن الحالي(القرن العشرين) إلى خمسينياته.

وقد حافظ والدي في عهده القصير على الكثير من هذه الطريقة في الحياة، فوسّع الإصطبلات، ونظمّ صقوره وكلاب صيده بطريقة أثارت إعجاب كل من كان له إلمام ومعرفة بهذه الأمور، من مثل السياح الأوربيين وأفراد الطبقة الحاكمة البريطانية، الذين كانوا يحتلون مراكز رسمية سامية في الهند. وكان عليّ أنا أن أكيّف هذه النظرة إلى الحياة وطريقتها حسب الأزمنة المتبدلة.

كان من المحتم إبان صغر سني أن يهتم التاج البريطاني وممثلوه في بومباي أوثق الاهتمام برفاهيتي وتنشئتي. فقد صادف صباي ما كان دون شك ريعان الأبوّة البريطانية وأوجها في الهند. لقد بدت الحكومة البريطانية بصورة واضحة صريحة آمنة ثابتة لاتتزعزع، وكان ممثلوها وموظفوها- الذين كانوا في معظمهم رجالاً متنورين أحراراً تتفق عقولهم مع مزاج العصر الفيكتوري السامي الذي نضجوا فيه- رصينين واثقين من أنفسهم. وكانت تصرفاتهم وقراراتهم تصدر عن قوة عقلية وروحية قدّر لخلفائهم من بعدهم أن يفقدوها. كان التمرد ذكرى بعيدة جداً، والحق أن تأثيره كان ينحصر كله في الهند الشمالية. أما القومية فكانت في أول عهدها بالتحرك داخل رحم الزمان. كان الكونغرس موجوداً في أوائل ثمانينيات القرن الماضي والفضل في وجوده يعود إلى جهود عضو بريطاني من أعضاء الخدمة الملكية الهندية، يدعى السيد هيوم. وأنشئت مؤسسة إسلامية مشابهة بعد ذلك بقليل، وكان أخي الأكبر غير الشقيق واحداً من مؤسسيها. ولكن الذي

لاشك فيه أن قليلين كانوا يظنون أن هاتين المؤسستين كانتا أولى علامات الشدة والغليان في السنوات اللاحقة.

كانت العلاقات بين البريطانين والهنود سهلة وودية عموماً لايشوبها أيما توتر. وكان حاكم بومباي آنئذ، اللورد راي، ليبرالياً من أتباع غلادستون، ذا مبادئ سامية، محسناً أنيساً، وكانت تعاونه في مهامه زوجة جميلة موهوبة. ولم يكن قائد جيش بومباي سوى صاحب السمو الملكي، دوق أوف كونوت، أصغر أبناء الملكة فيكتوريا، الذي اتخذ الجندية مهنة له في الحياة، والذي كان قد تمت ملاءمته كابن في العمادة وسميّ لآرثر، أول دوق لويلنغتون. ومنذ البداية، كان من حسن حظي أن الدوق والدوقة أوف كونوت قد اهتمّا بي اهتماماً متواصلاً ودوداً ووثيقاً. كانا يحضران لتناول الشاي في بيتنا عدة مرات في السنة، وكثيراً ما دعواني، على الرغم من صغر سني، إلى منزلهما حيث كانا يدللاني ويقدمان إلي من الحلوى والشكولاته ربما أكثر مما كان صالحاً لي. وكانت هذه الزيارات المتبادلة أياماً سعيدة لاتنسى بالنسبة إلي. ففي بونا وماهايلشوار كان الدوق جاراً قريباً جداً منا، وكنا في كل يوم، وفي أحيان كثيرة مرات عدة في اليوم، نلقاه راكباً جواده، وكان الدوق يتوقف عندئذ ويتحدث إلي. وهكذا، فقد نشأتُ بطريقة ما قريباً من العائلة البريطانية المالكة، وفي السنوات اللاحقة، عندما التقيت بالملكة فيكتوريا، قالت لي على الفور، كما أذكر، إنها كانت قد سمعت كل شيء عني وعن بيتي من نجلها.

كذلك، كانت عائلتي تتبادل زيارات مشابهة غير رسمية مع عائلة الحاكم، وفي أيام صباي في عهد "راي " كثيراً ما ذهبت لتناول الشاي في

منزل الحاكم. لم يكن في هذه العلاقة في هذه الفترة أي شعور بالتوتر، كما لم يكن فيها أي رجعية أو تنازل. كانت صلات حميمة مخلصة تختلف اختلافاً كبيراً عن " الإمبريالية الاستعمارية " التي صاحبت اسم كبلنج وبعضاً من ملاحظاته التعيسة - من مثل قوله: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا، لم تكن قد ظهرت إلى الوجود بعد ولو أن الحياة الاجتماعية والعلاقات بين الهنود والبريطانيين استمرت على ما كانت عليه في ثمانينيات القرن الماضي، لشككت إذن في أن المرارة السياسية كانت ستنمو وتتطور إلى الحد الذي نمت وتطورت إليه، ولعل شيئاً أقل كلية من انفصال جمهورية الهند عن الرابطة كان ممكناً إجراؤه.

كانت الملكة فيكتوريا نفسها واعية للمسؤليات بالطبع، لا المسؤوليات السياسية وحدها بل الشخصية والاجتماعية أيضاً، تلك المسؤوليات التي مارستها بفضل لقبها الجميل: إمبراطورة الهند. كانت تصرّ على أن يلقى الأمراء والسادة الهنود الاحترام والوضعية المعظمة الممنوحة في تلك الأيام للأمراء والسادة الأوربيين. وقد طبق دوق كونوت بإخلاص مبادئها طيلة الوقت الذي قضاه في الهند، وكان نائب الملكة ونائبتها، اللورد والليدي دومزين، شأن اللورد والليدي راي، ذوي حساسية كريمة وقلبين مفعمين بالإخلاص وآداب جمة. ولم يكن بالإمكان تجاهل توجه جرى ترسيخه، وكانت العلاقات الهندية- البريطانية تسير وفق هذا النموذج من التناغم والتوافق عموماً. فكان هناك اختلاط اجتماعي محبب وبعيد عن التوتر سواء في الاستقبالات أو في ميدان السباق أو على أرض ملعب البولو.

أذكر مثالاً بارزاً على ذلك: أقام السير جامستجي جيجيبهوي،

وكان شخصية بارزة بين الجالية المجوسية في بومباي، حفلة استقبال على شرف نائب الملكة ونائبتها، اللورد والليدي دوفرين، وحاكم بومباي وزوجته، اللورد والليدي راي، ودوق ودوقة كونوت، وحضر الحفلة جميع ممثلي الجاليات الرئيسة في بومباي. وكما يحدث لو أن الحفلة كانت مقامة في انكلترا أو أي بلد آخر، فقد قدم سير جيجيبهوي، بوصفه المضيف، ذراعه لليدي دوفرين ودخل قاعة العشاء، وتبعهما نائب الملكة مع مضيفته، الليدي جيجيبهوي، ثم دخل كل من المدعوين بدوره. غير أنه في السنوات التالية وما بعدها، حتى نهاية الإمبراطورية الهندية، كان من المستحيل أن يخطر في بال أحد أن نائب الملك، الأمير في البيت المالك البريطاني، وحاكم المقاطعة الكبيرة المسماة بالهند البريطانية، يمكن أن يذهب إلى استقبال في بيت رجل مجوسي، مهما سما مركزه، ويسمح له بأن يقود نائبة الملكة ويدخل معها قاعة العشاء أولاً، ثم يتبعه مع مضيفته. وحل برتوكول متزمت محل الآداب السهلة الخيّره- مما لم يؤذ الحياة الاجتماعية وحدها أذى خطيراً فحسب، بل آذى في النهاية شيئاً أهم بكثير. ولكن "الإمبراطورية" في تلك الأيام الطيبة لم تكن تعني "الاستعمار أو الإمبريالية"، ولم تكن تعني الخشونة الاجتماعية، أو أسوأ من هذا، البغيَ والاستعلاءَ الاجتماعيين. صحيح أن النوادي كانت تغلق في وجه الهنود، ولكن تلك الحقيقة لم تكن لها تلك الأهمية العصبية التي اتخذتها فيما بعد؛ إن أحداً لم يعترض على أن يتخذ الأوربيون أمكنة خاصة بهم، وكانت الصلات الاجتماعية خارج هذه الأماكن على أساس من المساواة الحرة.

حقيقة مستغربة لا تخلو من صبغة الغرابة هي أن الكثير من

السيدات الهنديات بدأن يتركن، في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وبمبادرة منهن، عادة لبس"البردع"، وأخذن يستقبلن الأوربيين في بيوتهن ويكرمن ضيوفهن. وكان ذلك نتيجة شعور تلقائي لديهن بأنه لم يعد بامكانهن التخلف عن الركب في هذا الجو من المعاملة الحسنة والقيود المبعدة. ولو تمت المحافظة على هذا الجو، لكان من المحتمل أن عادة لبس "البردع" كانت قد اختفت تدريجياً بين طبقات المجتمع العليا في غرب الهند بعقود قبل اختفائها الفعلي فيما بعد.

تلك كانت فترة سعيدة تعمّدت أن أظهر جوها بشيء من التفصيل، ذلك أنها نُسيت بالكلية فيما تلاها من السنوات القاسية التي شابها التوتر. والذي يبدو لي أن التبدل قد بدأ في عام ١٨٩٠، فقد عاد الدوق كونوت إلى وطنه فضاع بذلك نفوذه العظيم الخيّر في كل الأمور الاجتماعية. وقد تلاه في منصبه، كقائد للجيش، الجنرال سيرجورج غريفس[١]، كذلك تقاعد اللورد راي وخلفه اللورد هاريس وكان لاعباً شهيراً من لاعبي الكريكت، ولكنه كان أيضاً محافظاً من المدرسة الاستعمارية الجديدة الناشئة. وقد أصبحت علاقتنا ببيت الحكومة أكثر رسمية وكلفة، ولو أنها ظلت ودية للغاية. إن لحن العلاقات كله قد خشن، فلم يعد الناس من جميع الجاليات يحضرون الحفلات والاستقبالات، ولم يكن يقام في بيت الحكومة سوى حفلات رسمية في الحديقة بدأ يُشجب فيها الاختلاط الاجتماعي. وأخذ الأوربيون يقللون

١- بعد تقاعد الجنرال غريفس بسنوات عديدة، لقيته على الباخرة دوفركاليه. كان وحده، ووجدت من اللائق أن أوجه إليه السؤال التقليدي فقلت: "هل الليدي غريفس ذاهبة معك إلى باريس ؟" فلم يكن من المحارب القديم إلا أن أجاب: "أنا لا آخذ معي سندويشة من لحم الخنزير عندما أذهب إلى مأدبة."

من دعواتهم للهنود إلى منازلهم، وسريعاً ما أصبح من النادر أن يجتمع أناس من أجناس مختلفة حول مائدة غداء أو عشاء. حتى في المناسبات التي كان فيها الانفصال التام مستحيلاً، كسباقات الخيل مثلاً، بدأت الفروق اللونية تظهر نفسها. لقد أقيمت القواعد لا على أساس الود الشخصي والنفور الشخصي الطبيعيين. بل على أساس مصطنع ضار من العرق واللون، وهي نظرة نفرتُ منها نفوراً عظيماً، أنا الذي قضيت معظم سنوات انطباعاتي في جو مختلف بالكلية.

ولعل المجوس في بومباي كانوا أول من عانوا من هذا الأمر في تسعينيات القرن التاسع عشر. فقد لعب المجوس، وهم النشيطون الموجودون في المجالين الاجتماعي والتجاري، دوراً مهماً في تحسين العلاقات وتهدئتها بين البريطانيين والهنود. أما الآن، فقد كان مصيرهم مصير الوسطاء الذين لم يعودوا مرغوبين. وأصبحوا محط احتقار الفريقين معاً، فأخذوا يزدادون عزلة وانطواء فيما بينهم، وقصروا اتصالهم على بعض العائلات الهندوسية والمسلمة الأكثر تقدماً. وامتنع الأوربيون عن معاشرتهم لأنهم كانوا آسيويين. أما الهندوس والمسلمون فقد اعتبروا أن المجوس قد ربطوا مصيرهم بمصير الأوربيين وأن هؤلاء لم يلبثوا أن نبذوهم، مما شكل لهم ورطة ظالمة وكريهة في الوقت نفسه.

وهناك تبدل أتعس وأكثر تأثيراً اعترى النظرة البريطانية الرسمية إلى الشعور السياسي الوليد. فالكونغرس الذي تم تشجيعه في البداية ونُظر إليه(ربما بحق) على أنه علاقة نضج عند عضو أو أكثر من أعضاء العائلة الإمبراطورية العظمى، أُعتبر الآن منظمة سياسية معادية لا يمكن أن يكون هدفها النهائي سوى إضعاف الصلة البريطانية وهدمها. وكان من أثر ابتعاد الطبقات البريطانية الحاكمة(أو القسم الأعظم من أولئك الذين

أرسلوهم إلى الهند على كل حال) عن الطبقات الهندية المثقفة، التي كانت تنمو عدداً وقدرة، عقلياً وروحياً، أن حلت البرودة محل الدفء.

وفي إبان هذه العملية لم يزرع الفريقان إلا بذور المرارة التي قدّر لهما أن يجنياها في المستقبل.

إن ما حدث للرجل الإنكليزي كان مصدراً للعجب والدهشة بالنسبة لي طيلة حياتي. فقد أخذ يشعر فجأة أن مقامه كعضو من جنس إمبراطوري حاكم لابد من أن يُفقد لو أنه تقبل بشكل جوهري أولئك الذين يختلفون عنه لوناً أقراناً له. ولم تعد عقبة اللون تعتبر فارقاً جسمانياً فقط، بل (الأخطر من ذلك أنها) أضحت تعتبر - وبشكل مدمر في النهاية- فارقاً عقلياً وروحياً. وما دام الذين تبنّوا طريقة الحياة الأوربية من الهنود قليلين، فقد كان من الممكن أن يشعر موظف الحكومة البريطانية(الراج) بقليل من الخطر على منصبه. ولكن العنصرية- من الجانبين- كانت تمشي الآن بخطوات مارد. وسرعان ما انتفت من كونها مجرد علاقة بين الحكام البريطانيين والمحكومين الهنود، بل فشت النظرية الوبيلة القائلة بأن الآسيويين جميعاً هم جنس من الدرجة الثانية، وأن" البيض" يملكون تفوقاً جوهرياً غير قابل لأي تحدٍ على الإطلاق.

وأعترف أنه كان للعدوى بعض وجوهها المضحكة. فقد حدث أن كان القنصل التركي العام - شأن الكثيرين من أفراد الطبقة التركية الحاكمة في تركيا العثمانية - سلافياً بوسنياً من أصل أوربي مئة بالمئة، ولكن التحامل الأعمى جعله من فئة" الآسيويين" لأنه كان مسلماً. فقد أخذه بعض معارفه الأوربيين إلى أحد نواديهم، فأحدث أعضاء النادي الآخرون ضجة وجلبة كبيرتين إلى درجة جعلت القنصل العام يقول

بصراحة إنه قد عومل، بوصفه مسلماً وممثلاً لإمبراطورية شبه آسيوية، بخشونة واحتقار على أسس عنصرية، وإنه من ذلك الحين فصاعداً ستكون اتصالاته بالبريطانيين، عند قيامه بواجباته كقنصل عام، في الهند، رسمية إلى أبعد الحدود وأقساها، وإنه لن تكون لديه أي صلات شخصية بهم. وقد شاركه في خبرته ومشاعره القنصل الإيراني. أما اليابانيون، الذين كانوا في طور الخروج من عزلتهم الطويلة، فقد عملوا بحذر واحتراس، ذلك أنهم أنشأوا أعمالهم التجارية الخاصة بهم أولاً، حتى إذا جاء قنصلهم العام وجد أن النوادي والجمعيات اليابانية قد سبق تأسيسها ولم يشعر بالعزلة ولا بالاعتماد على أريحية الجالية الإنكليزية الهندية- بالمعنى القديم لتلك الكلمة " الإنكليزية- الهندية".

أما الأسباب العميقة لهذا الاتجاه الجديد فكانت الخوف وانعدام الثقة بالنفس. وكان من العوامل المساعدة وجود الزوجات البريطانيات اللواتي كن يزددن عدداً واللواتي لم يكن لديهن معرفة أو اهتمام بعادات الهنود ونظرتهم. كان الخوف مسيطراً على الناس في التجارة بقدر ما كان مسيطراً على الرسميين، إن لم يكن إلى درجة أكبر. واتسعت الهوة وتعمقت على مر الزمن. وكان مقدراً لعقبة اللون أن تبقى كلّية وقاسية لئلا تنشأ (كما صور الخوف لأولئك الذين كانوا واقعين في قبضته) عملية تلوث رهيبة تقوّض إيمانهم بتفوقهم وبحقهم- المعنوي والعقلي والبيولوجي- في حكم الآخرين.

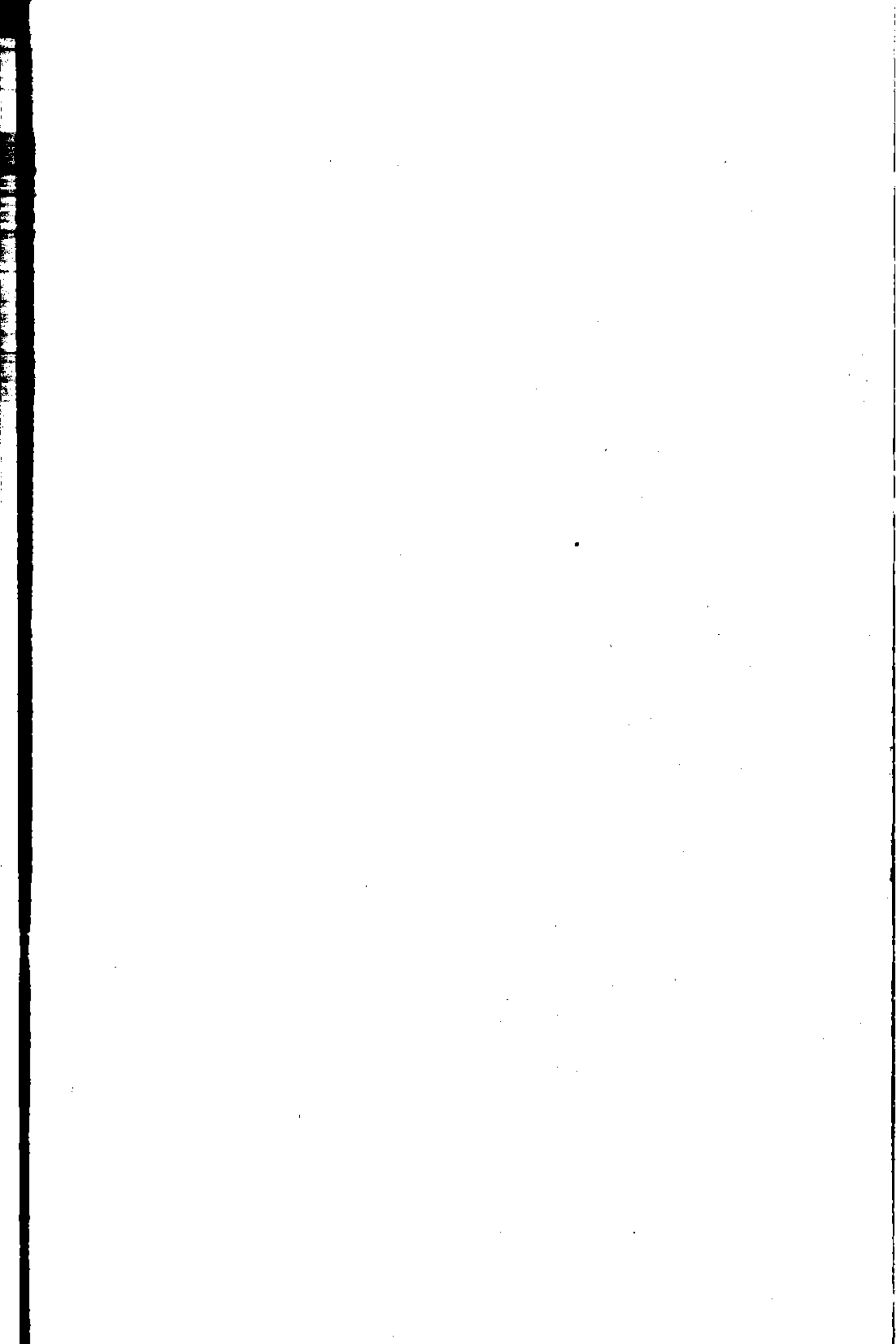
لقد كان اتجاهاً عصبياً مختلفاً كل الاختلاف عن اتجاهات العهود السابقة عندما كان رجال من مثل السيرجون مالكوم، والسير ما ونتستورت الغنستون، ومن بعدهما اللورد ريبون واللورد راي، يعتبرون

شيئاً مسلّماً به أن واجب إنكلترا- حالما تحقق السلام والوحدة والازدهار للهند، وحالما تعلم أهلها أسرار الحكم الليبرالي- هو الرحيل. لم يكن هناك وقتئذ حديث عن وضع الدومنيون، ولكنّ سوابق كندا ومستعمرتي أستراليا ونيوزيلندا، اللتين كانتا آخذتين في النمو السريع، هي التي كانت تلوح واضحة في أفق الهند. غير أنه ما إن حلت تسعينيات القرن التاسع عشر حتى كان قد ضُرب بعرض الحائط بمثل هذه الآراء واعتبرت معادية لأمن الحكم البريطاني، وأنها كانت عدوانية مثيرة للفتنة والعصيان.

أذكر مأدبة إفطار أقمتها في بومباي لبعض الرسميين البريطانيين الكبار. كان على المائدة ضيف آخر هو ابن عم لي- وكان من رعايا الملكة المخلصين ومن الميالين إلى البريطانيين- غير أنه كان مؤرخاً، وشرع يشرح كيف أن العرب، وهم جنس آسيوي، قد حكموا اسبانيا خمسمئة عام، وأنهم بعد رحيلهم عنها خلفوا وراءهم آثاراً جميلةً رائعةً من مدنيتهم في جميع أنحاء اسبانيا الجنوبية، وكيف أن الأتراك، وهم جنس آسيوي آخر، قد أنشأوا إمبراطورية كبرى في البلقان وحول شرقي البحر الأبيض المتوسط، وأنهم كانوا وما يزالون يحكمونها بعد مضي بضعة قرون، مما اعتبره ضيوفي البريطانيون إهانة لهم.

قالوا: " لن نسمح بحصول هذه المقارنات. إن حكمنا دائم، وليس شيئاً يدوم بضعة قرون ثم يختفي. حتى مجرد التفكير كما تفكر هو خيانة."

إن أفكاراً كهذه تبدو في الحق غريبة الآن في خمسينيات القرن العشرين، ونحن نرى الحكم البريطاني في الهند ينحل ويتلاشى كما يتلاشى ضباب الصباح الباكر أمام نور الشمس الساطع. ولكن هذا هو الجو الذي قضيت فيه القسم الأخير من صباي، والذي كان يتميز بإدراك الاختلاف المتزايد وسوء الفهم والعداء الناميين.



الفصل الثاني

رحلتي الأولى إلى أوربا

مع اقترابي من سن الرجولة أخذت حياتي تكوّن لنفسها مجاري خاصة بها. وأخذت المهام والقرارات التي يقتضيها منصبي الموروث تلقى عليّ بصورة متزايدة. والحق أنني لم أخضع إلى أي نوع من أنواع الوصاية، بالمعنى المقبول؛ ومع تزايد قدرتي على اتخاذ القرارات، راحت أمي وعمي يشجعانني على تحمل المسؤولية. لقد كانت أمي، التي تشبثت بالنهج التثقيفي الذي سرت عليه في أيام صباي الأولى، ذكية حذرة بقدر ما كانت مُحبة. وبقينا، هي وأنا، وكما كنا طوال حياتها الطويلة، تربطنا أوثق أواصر المودة والإخلاص. ففي كل ليلة من تلك السنوات كنت أدلف إلى جناحها وأشترك معها في الصلاة- صلاة من أجل التوحد والتواصل مع الرفيق الأعلى، التي هي لب الدين الإسلامي. وهذه الخبرة المشتركة قد زودتنا، في اعتقادي، بالقوة على تحمل عبء التعب والقلق، عقلاً وروحاً، ذلك العبء الذي لم يكن قط خفيفاً إبان تلك السنوات العسيرة. غير أن دين أمي كان عملياً بصورة ثابتة أيضاً. فهي لم تكن ترى أي فضلٍ في الإيمان دونما عمل. وقد توخيت منذ بداية حياتي العامة أن أتقبل هذه الرؤية وأن أمارس المقاييس نفسها.

لقد استمر تثقيفي إلى أن بلغت الثامنة عشرة. وتمكن معلمي الإنكليزي، السيد كيني، مرة أخرى من إقناع أولي أمري بأنه كان بوسعي الإقلاع عن تعلم الخط. كان ذهني يتفتح بسرعة على آفاق جديدة. وبدأ فهمي يتسع بقراءاتي بالإنكليزية والفرنسية والفارسية والعربية. لقد اكتشفت البهجة العقلية- الدقة والوضوح- في طريقة "ميل" المنطقية. وقرأت بنهم الكتب التاريخية والسير الشخصية وأصبحت، مع ابن عمي شمس الدين، قارئاً لا يشبع من مطالعة الروايات، وهو تحول أستطيع القول إن مباهجه لم تَخْبُ أبداً.

عند وفاة والدي انتقلت، بطبيعة الحال، إليَّ ملكية إسطبلاته. ومع أني كنت قاصراً، إلا أن جيادي شاركت في السباقات باسمي سنة بعد سنة، وقبل أن أبلغ العقد الثالث من عمري بزمن طويل، كانت جياد صاحب السمو الآغا خان ذات شهرة كبيرة في حلبة غربي الهند. وقد أظهرت تأثيراتي الموروثة والبيئية نفسها هناك منذ البداية. وكان جميع أفراد عائلتي- بما في ذلك أمي- من المتابعين الحريصين لمختلف أشكال السباق، الإنكليزية منها والهندية. فقد كانت لدينا معرفة بميدان السباق الإنكليزي، وكانت نجاحات أورموند العظيمة، على سبيل المثال، تعني لنا ما كانت تعنيه لمعاونيه في ميادين السباق الإنكليزية. وأذكر جيداً أنه عندما كنت صغيراً جداً ، كان الرابح في سباق المهور، بين أولاد عمي وأنا، يلقي التحية طيلة ما تبقى من ذلك اليوم وينادي باسم (فريد آرتشر) وقد وضعتنا وفاته المأساوية في حالة من الحزن وكأن صديقاً عزيزاً أقدم على الانتحار. لم تكن نجاحاتي كمالك للجياد غير مهمة. فبوسعي الادعاء بأني وابن عمي آغا شمس الدين الذي كان شريكاً لي

في ملكية عدد من الخيول الممتازة، قد طغينا على حلبة السباق في غربي الهند. وقد فزت أربع مرات متواليات "بكأس نظام الذهبي" وهو أهم السباقات وأعظمها جائزةً. وبجواد لي يدعى يلدز، ربحت كأس الحاكم في بونا إبان هذه السنوات وبعدها بقليل أيضاً.

وأخذت أمارس رياضة الصيد، لا صيد الثعالب كما في إنكلترا، بل صيد ابن آوى في كل من بومباي وبونا. والواقع أنني لم أمارس صيد الثعالب في إنكلترا قط، ولكني بصراحة لا أعرف رياضة أجمل من صيد ابن آوى في حقول الأرز في بومباي في صباح يوم بارد من أيام الشتاء، عندما تكون الرائحة قوية، وتركض كلاب الصيد مسافات طويلة في أثر ابن آوى ماكر.

وكنت رائداً في رياضةٍ أخرى في الهند- وأعني بها الهوكي - التي هي في أيامنا هذه من الألعاب الوطنية الرئيسة في كلٍ من الهند وباكستان. وقد بدأت ألعبها مع ابن عمي ورفاق آخرين من سني في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر. كما شجّعت الاهتمام بها فقدمت الكؤوس، وتمكنت من جعل الجيش الهندي يلعبها، وأنشأت مختلف الجاليات في بومباي فرقها الخاصة بها، واتسعت المنافسات فيها حتى شملت الهند كلها، وقد تطورت لعبتا الهوكي والكريكت في الهند في الوقت نفسه تقريباً، ولكن الأخيرة إنما كان يرعاها ويشجعها حاكم بومباي آنئذ، اللورد هاريس، والهنود الشباب الذين ذهبوا إلى إنكلترا لتحصيل قسم من تعليمهم استمروا في ممارسة هذه اللعبة عندما عادوا إلى وطنهم، فكان أن اتسع نطاقها في مختلف الأوساط في كلٍ من باكستان والهند، وكل منها تخرج الآن فرقاً قوية ممتازة.

وتبعت هواية أخرى في أواخر سني مراهقتي ، وهي الملاكمة، وقمت بدراسةٍ جدية لاستخدام نظام يوجين ساندوز في الثقافة البدنية . وكنت طيلة حياتي داعياً وممارساً لمبادىء اللياقة البدنية البسيطة، كما كنت دائماً مؤمناً بالتمرين المستمر. كنت من الممارسين الكبار لرياضة المشي، وهويت لعبة الغولف بعد بلوغي سن الخمسين، ومن العبارات التي استعملها الصحفيون عني أن مطمحيّ العظيمين كانا الفوز بالدربي وبطولة الجولف المفتوحة. حسناً، لقد ربحت الدربي ، ولأكثر من مرة واحدة، أما المطمح الثاني (إذا لم يكن أكثر من ابتكار صحفي) فلم يتحقق، لكن تقصيري فيه قد استمر سنوات تبلغ اثنتي عشرة. أنا لم أؤمن قط، كما يؤمن الكثير من الإنكليز ، بحشر الكثير من التمارين في بضع ساعات في نهاية الأسبوع، وبالتمرين القليل أو عدمه في سائر أيام الأسبوع ، بل لقد كانت عادتي ولا تزال أن أقضي قدراً معيناً من التمرين المطرد كل يوم، التمرين الذي يتفق مع منهاج يومي المليء بالأعمال. ومن الخبرات التي أذكرها في الأيام من فترة صباي، اجتماعي بالكاتب مارك توين؛ فقد أمضيت بصحبته أصيلاً كاملاً، وأنهيته بتناول طعام العشاء معه في فندق واطسون في بومباي، حيث كان يقيم. لقد كان ذا شخصية ساحرة مبهجة وذا لطف بالغ أسرني أنا الولد ذا الذهنية الجدية.

لقد جمع- أي مارك توين- ثروة طائلة، كما أعتقد، وخسرها في المضاربة. وأصبح الآن وهو في سن الشيخوخة يتعين عليه، أن يحصل على قوت يومه من جديد، ولذلك كان يطوف العالم ويقابل الناس في طريقه. إنه لم يظهر أبداً أية أمارة من أمارات المرارة أو الأسى على

ثروته، ويدا لي لطيفاً، عزيزاً وقدسياً، وحزيناً متواضعاً جداً بالرغم من أنه كان ذلك العبقري الذائع الصيت. لقد ذكّرني بواحدة من تلك الأزهار البيضاء ذات الحساسية المفرطة بحيث إذا ما لمستها تنكمش وتكشف عن أوراق صافية بلون الشمع، وكأنها خجلة منكفئة إلى حد كبير.

وكنت كلما أمعنت قدماً في سني مراهقتي ازدادت مشاغلي. كنت واعياً إلى درجة كبيرة أن علي مسؤولية مزدوجة، وربما فرصة مزدوجة: أولاً في الهند، بوصفي زعيماً لجماعة ذات نفوذ ضمن الجالية الإسلامية الكبيرة في عصر كانت فيه المطامح السياسية تتحرك؛ وثانياً بوصفي زعيماً لجماعات دولية واسعة الانتشار، وزعيماً روحياً امتدت سلطته إلى صميم بلدان كثيرة وقلوب شعوب عديدة. لم يكن باستطاعتي قط أن أكون قومياً هندياً، ولو إني منذ عام ١٨٩٢ التزمت، وبتأثير أناس طيبين من مثل السيد فيروز شاه مهتا والسيد بدر الدين طيبجي، بموقف القومية الهندية المعتدلة في ذلك الحين. كانت مهمتي الوحيدة، في عالم كانت أمارات النزاع الأولى تتبدّى فيه، مهمة دولية بالتأكيد، ذلك أن أتباعي كانوا منتشرين في بورما وآسيا الجنوبية الشرقية، وفي أعداد أكبر جداً على طول الساحل الإفريقي الشرقي من مومباسا إلى إيست لندن، وفي داخل أفريقيا الجنوبية، وفي سوريا وفارس وأفغانستان وتركستان الصينية والأراضي الروسية في قلب آسيا، والمقاطعات التركية بين النهرين والتي عُرفت فيما بعد بالعراق. وكان بيتي، بالضرورة، ملتقى للأفكار والآراء والآمال والمخاوف والمطامح من جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكانت نصيحتي الأولى، بل قل أمري الأول، لأتباعي الذين كانوا مواطنين في بلدان متعددة، أن الولاء الذي هم

مدينون به لبيتي وشخصي هو ولاء روحي غير زمني، وأن ولاءهم الزمني مرتهن للدولة التي هم مواطنون فيها، وأن جزءاً لا يتجزأ من واجبهم أن يكونوا مواطنين صالحين. إن كل عملي، سواء في السياسة أو الدبلوماسية طيلة حياتي، قد سار في هدي هذه المسؤولية المزدوجة التي عُهد بها إلي منذ أيامي الأولى.

في نهاية عام ١٨٩٥ وبداية ١٨٩٦ كنت على حافة الرجولة، وكنت الآن ممسكاً بزمام مهمتي في الحياة. وودعني أساتذتي وخرجوا من حياتي. وكسائر الشبان في مثل سني في الشرق، فكرت في الزواج، وكان طبيعياً أن أبحث عن زوجة لي في الوسط العائلي الضيق الذي نشأت فيه. وكانت ابنة عمتي، شاهزاده بيجوم، إحدى رفيقاتي في اللعب منذ حداثتي، وكان أبوها، آغا جنجيشاه، زوج عمتي، واحداً من أوائل الرجال الذين أستشيرهم وأقتدي بهم. وفي إبان مراهقتنا، كما كانت العادة في زمننا ومجتمعنا، لم نكن نرى بعضنا بعضاً إلا قليلاً، ولكني عندما اقتربت من الرجولة أحسست إحساساً بالغاً بجمالها وسحرها، ووقعت أسير حبها. وقد زعم الزاعمون ظلماً، بأن زواجي الأول كان زواجاً رسمياً(زواج دولة)، وأن عائلتي هي التي دبرته ورتّبته لأسباب سلالية. والواقع أن شيئاً لم يكن أبعد من هذا الزعم عن الحقيقة. كنت شاباً محباً، يتلمس طريقه إلى تلك الخبرة، إلى ذلك المزيج من الجور والألم الذي يقلب الصبي إلى رجل. وكنت أنا وحدي وراء مبادرة زواجي. فقد أخبرت أمي بمشاعري ورجوتها أن تخاطب عمي وزوجته نيابة عني، وأن تطلب إذنهما بالسماح لي بالزواج من شاهزاده. وجرت المفاتحة وتمت الموافقة على طلبي الرسمي. وتم الاتفاق على إتمام

الزواج خلال تلك السنة. في غضون ذلك، انطلقت عمتي وزوجها، ومعهما ابنتهما وأخوها، شاه عباس،إلى مكة لأداء مناسك الحج. وبعد إتمامهم لشعائر الحج، عادوا، وفي طريقهم مكثوا بعض الوقت، كما هي العادة، في جدة. واغتيل زوج عمتي وأخوها في ظروف وحشية عنيفة، وكانت عمتي وابنتها في البيت عند وقوع الجريمة. لم يكن في جدة في تلك الأيام تحقيقات شرطة بالمعنى الغربي للكلمة، وكانت الاتصالات نادرة ولا يعتمد عليها. وأجرت شرطة بومباي تحقيقاً دقيقاً مع الحجاج الهنود العائدين، ولكن، وعلى الرغم من أن قدراً كبيراً من ظروف تلك الواقعة قد بقي غامضاً إلى الآن، وعلى الرغم من أنه قد قيل إن القتلة إما أنهم سمموا أنفسهم فوراً أو إنهم ضربوا حتى الموت على أيدي الخدم والنظارة، إلا أن الذي اتضح أخيراً هو أن زوج عمتي وأخاها قد ذهبا ضحية التعصب الديني الجبان.

أحدثت هذه المأساة في نفسي أعمق الأثر، جسدياً وعاطفياً. ذلك أني بقيت طيلة ذلك الصيف مريضاً جداً، ووقعت فريسة لسلسة من موجات الحمى، وظهرت علي أعراض عصبية مؤلمة. وفي تشرين الأول، عندما انقضت حرارة الصيف العظمى وانتهت الأمطار الموسمية، قمت برحلتي الأولى إلى الهند الشمالية. وحتى ذلك الحين، كانت رحلاتي إلى خارج الهند الغربية والجنوبية، باستثناء زياراتي لبغداد وبوشهر ومسقط، محدودة جداً. أما الآن، فقد تذوقت طعم السفر ولم أزهد فيه بعد ذلك مطلقاً. وقد زرت في رحلتي الأولى هذه مزارات الهند الإسلامية ومراكزها الكبرى في أكرا، ودلهي، ولاهور: تلك المجموعة البديعة من آثار المدنية والثقافة الإسلاميتين- تاج محل، والقلعة الحمراء في دلهي،

ومسجد الجمعة، وتلك الدور النفيسة وأعني بها مساجد اللؤلؤ في دلهي وأكرا. كما قادتني طريقي إلى الكلية الأنكلو- إسلامية(كما كانت تسمى عندئذ) في أليكار، حيث التقيت بالسير سيّد أحمد ونواب محسن الملك. كان ذلك هو أصل ما ظل سنين عديدة موضع اهتمامي الخاص- اهتمامي بتوسيع التعليم الإسلامي العالي وتحسينه، ولاسيما في كلية أليكار وجامعتها.

لقد تبنيت قضيتها عندئذ باندفاع الشباب الذي لم آسف عليه قط. كانت أليكار في العقد الأخير من القرن التاسع عشر مؤسسة مدهشة، ولكن يعوق تقدمها قلة الأموال والتسهيلات. فهل أدركت حينئذ، على صغر سني، أنها كانت قادرة أن تصبح بيتاً قوياً للطاقة الإسلامية، فكرياً وثقافياً وعلمياً، تتفق تمام الاتفاق مع التقاليد والتعاليم الإسلامية، ومع ذلك مكيّفة بحيث تتفق مع مظهر عصرنا الحاضر وتقنياته؟ إن أحداً لم يكن باستطاعته أن يتنبأ بكل ما حدث فعلاً، ولكنني أعرف بالتأكيد أني كنت متحمساً لجعل مجال أليكار يتسع وفائدتها تعم، وأن أجد المال لها، ولو بوسائل تعتمد على ضغط النفقات عند الضرورة. وقلت في نفسي باندفاع الشباب، لم لا أذهب إلى أحد أصحاب المؤسسات الخيرية الأمريكية الكبار- السيد روكفلر أو كارينكي- وأطلب منه منحة ضخمة؟.

لكن رفاقي الجدد كانوا أكبر سناً مني وأكثر حكمة. قالوا إن مسؤولية ذلك تقع على عاتقنا ضمن جاليتنا الإسلامية القوية، التي كانت تعد ستين أو سبعين مليون مسلم في الهند؛ فإذا ما سعينا باتجاه المساعدة الخارجية، حتى من أغنى أغنياء الأمريكان وأشدهم حباً للخير،

حق علينا الخزي والعار على طول الزمن. ولقد كانوا محقين بالطبع، ذلك أن هذا كان عصراً لم يختبر حربين عالميتين ولم يسمع قط بالنقطة الرابعة. ولكن ذلك القرار، واندفاعي في سبيل القضية التي تبنّيت، أدّيا (شأن أمثالهما من القرارات) إلى سنوات من الجهد المضني، والرحلات، وإلقاء الخطب، والاشتراك في اللجان، والكفاح ضدّ الجمود وتبلّد الأحاسيس، والمناقشات الطويلة مع أولئك الذي يحتلون المراكز الرفيعة، تلك المشاق التي هي من نصيب أولئك الذين ينذرون أنفسهم لمثل هذا المسعى.

في التاريخ المتمدن، كثيراً ما توفر جامعة ما الأساس لنهضة الأمة فكرياً وروحياً. ولقد قيل في زماننا إن كلية روبرت التبشيرية الأمريكية في القسطنطنية أدت إلى إعادة انبعاث بلغاريا أمة مستقلة ذات سيادة. ثم من يستطيع تقدير أثر الجامعة الأمريكية في بيروت على القومية العربية؟ وأليكار ليست مستثناة من هذه القاعدة. غير أنه يجوز لنا الادعاء بفخر أن أليكار قد كانت نتيجة جهودنا وحدها من دون أي إحسان من الخارج.

ومن المؤكد أنه يمكن الادعاء أيضاً بأن دولة باكستان المستقلة ذات السيادة قد ولدت في جامعة أليكار الإسلامية.

وإذ استعدت صحتي ونشاطي بفضل هذه الأسفار، فقد عدت إلى البيت في نهاية العام للانشغال في حفلات الزواج. لقد كان زواجاً مزدوجاً؛ ذلك أن صديقي المؤتمن آغا شمس الدين، شقيق شاهزاده، تزوج هو أيضاً من إحدى بنات عمنا. وقد جرى عرسنا في جو بهيج أجريت فيه الطقوس الملائمة؛ ولكن الحزن ما لبث أن غمرني وزوجتي.

إنها قصة طويلة من شقاء الشباب، وبوسعي روايتها باختصار وأسى. كان كل منا جاهلاً وبريئاً في الوقت نفسه. وأحدث جهلنا وبراءتنا هوة بيننا كان من الممكن إزالتها عن طريق المعرفة لوقدّر لها أن تطبق بحكمة وبصورة مفيدة. كنا خجلين إلى درجة لم نتمكن معها من معرفة الطريقة للشروع في اكتسابها، ولم يؤد العطف والحب إلى فائدة- فقد أسبغت على زوجتي منهما كل ما استطعت- في ورطتنا اليائسة. ولم تكن ورطتنا أقل درجة من المأساة لأنها بحكم التقاليد الحديدية السائدة في تلك الأيام، كانت معلومة وخفية في آن واحد. وقد اعتقدت أن اللوم في الحزن وسوء التفاهم، اللذين كانا يلفاننا، يقع علي، مما زاد في عطفي على زوجتي وحبي لها، ولكن لم يشكل هذا الحب بالنسبة لها أيما تعويض أو تفكير. وهكذا، لم يكن لنا مفر من الابتعاد بعضنا عن بعض، فانصرفت هي إلى مظهر خاص يخلصها من الحنق واللوم، بينما انصرفت أنا إلى نشاطات العالم الخارجي وهواياته.

ولقد كان الفرج أيسر عليّ، ذلك أن حياتي الرسمية والسياسية سرعان ما أصبحت مليئة ناشطة، وكان هناك قدر كبير من الأعمال الشاقة التي ينبغي إنجازها. فإذا ما كان زواجي شيئاً صورياً كاذباً، فإن واجباتي ومسؤولياتي قد كانت حقيقة جدية في ذلك العام ١٨٩٧ .

في السنة السابقة، سرت شائعات شريرة مفادها أن وباء الطاعون الدّملي آخذ في الانتشار غرباً عبر آسيا دونما توقف. لقد فشا بصورة سيئة في هونغ كونغ، وأخذ يظهر هنا وهناك في بلدان ومدن إلى الغرب منها. وعندما ضرب الطاعون بومباي في صيف ١٨٩٧، كان هناك ميل طبيعي إلى التقليل من خطورته؛ لكن كنا مجبرين جميعاً خلال فترة

قصيرة من الزمن على مواجهة الحقيقة، فقد كان ذلك الطاعون وباء عظيماً. كانت البيئة التي تساعد على ظهور الطاعون غير مفهومة تماماً في تسعينيات القرن التاسع عشر، حتى السلطات الطبية في بومباي قد اعتراها الوجل لضخامة الكارثة التي حلت بالمدينة وتعقيداتها. وكانت ردة فعل هذه السلطات حذرة ومحافظة معاً، فلم يكن لديها العلاج اللازم، بل إن الوقاية الوحيدة التي اقتصرت على تقديم النصح باتباع أساليب الصحة العامة التي لم تكن ملائمة لتلك المشكلة الدقيقة التي عليها معالجتها. قالت تلك السلطات إن على السكان فتح نوافذ بيوتهم وأبوابها، وأن يدعوا النور والهواء النقي يدخلان إلى الأكواخ الصغيرة والزرائب والعشش التي فيها مئات الألوف من العمال الصناعيين والزراعيين في رئاسة بومباي، وعليهم، عندما يدخل الهواء النقي، رش أقوى المطهرات الممكنة. ولم تكن هذه الاحتياطات عديمة الفائدة فحسب، بل إنها كانت معاكسة لعادات الجماهير الهندية المتأصلة. ولو أنها نجحت لكان من الممكن أن تغتفرها هذه الجماهير، غير أنه بسبب فشلها، وبسبب ارتفاع عدد الوفيات يوماً بعد يوم،كان من المحتم نمو شعور متعاظم بالاستياء والسخط.

لقد كانت فترة مظلمة، وكان للطاعون أثره الاجتماعي البشع على أخلاقيات العامة، حيث ضعف احترام القانون والنظام، وفشت حوادث العنف والسلب، وازداد السكر والفحش، وكان هناك قدر كبير من الحقد على الحكومة للطريقة العاجزة التي عالجت بها الأزمة. وبلغت الأزمة ذروتها باغتيال أحد كبار الموظفين البريطانيين، المسؤولين عن التدابير الوقائية المتخذة، وهو عائد إلى داره من عمله في دار الحكومة.

وقد حدث أنه كان تحت تصرف حكومة بومباي عالم وبحاثة عبقري يدعى البروفسور هافكين، وكان روسياً قدم ليعمل في بعض المسائل المتعلقة بالكوليرا. وكان قد جعل السلطات تعالج الكوليرا بتطعيم الجماهير. وحقق في هذه الناحية نجاحاً عظيماً. لقد كان رجلاً حازماً يتمتع بطاقة كبرى، وكان مقتنعاً بمعالجة الطاعون الدملي عن طريق التطعيم أيضاً. ولذلك حاول فرض آرائه على الأوساط الرسمية في بومباي لكن دونما جدوى تذكر. وكان الناس، في الوقت نفسه، يموتون كالذباب، وكان من بينهم عدد من أتباعي.

كنت أعرف أن شيئاً ما يجب فعله، وكنت أعرف أنه يتعيّن علي أخذ المبادرة. وكما سلفت الإشارة، فإني لم أكن خالياً من المعرفة العلمية اطلاقاً، وكنت أعرف شيئاً عن أبحاث باستور في فرنسا. كنت متيقناً بأن دائرة الجرّاح العام لم تكن تعمل على أسس صحيحة، ولذلك تجاوزتها وخاطبت البروفسور هافكين مباشرة. وشكلنا، هو وأنا، تحالفاً سريعاً وصداقة لم يقتصرا على العمل البشع الذي يواجهنا، واستطعت أن أقدم إليه، على الأقل، التسهيلات اللازمة لإجراء أبحاثه وتجاربه المخبرية. وقد وضعت تحت تصرفه المطلق واحداً من أكبر بيوتي، وكان قصراً واسعاً غير بعيد عن آغاهول(وهو الآن جزء من كلية سانت ماري في مازاغون). وأقام البروفسور هافكين في هذا القصر حيث مكث قرابة عامين إلى أن أخذت الحكومة الهندية على عاتقها مشروع الأبحاث كله ووضعته على أساس حكومي صحيح بعد أن اقتنعت بنجاح أساليبه.

في غضون ذلك، كان يتعين علي العمل بسرعة وحزم. كان تأثير الطاعون مقلقاً وكان في مقدوري أن أكون قدوة لغيري. ولذلك عرضت

بأن أخضع لعملية تلقيح علنية واعتنيت بأن ينتشر نبأ ما فعلته إلى أبعد ما يكون، وبأسرع ما يكون. وقد تمكن أتباعي أن يروا بأنفسهم أنني أنا إمامهم، قد أخذت اللقاح أمام شهود كثيرين لهذه العملية المخيفة الهائلة، وإذن فلم يكن هناك أي خطر من الاقتداء بي. وكان للمناعة التي كانت صحتي الحسنة ونشاطاتي المستمرة دليلاً واضحاً عليها، أثرها في نفوسهم فتبددت مخاوفهم.

كنت عندئذ في العشرين من عمري، وقد وقفت(مع هافكين بالطبع) ضد الآراء الأرثوذكسية السائدة عن الطب في ذلك الوقت- بين الأوربيين والآسيويين على السواء. وإذا كان الأطباء يعارضون فكرة التلقيح، فما قولك بآراء الناس العاديين، في بيتي وبين حاشيتي، وبين الجماهير بصورة عامة؟ لقد خاف الناس العاديون خوفاً عظيماً. فإذا ما نظرت إلى الوراء عبر نصف قرن أو يزيد، أليس لي مايبرر شعوري بأن الشاب الذي كنته قد أظهر قدراً معيناً من الشجاعة والتصميم؟

وعلى كل حال، فقد نجحت الفكرة. وسرى النبأ بين أتباعي بصورة خاطفة، كما أردت، من أن إمامهم قد لقح وأنه كان يتعين عليهم أن يحذوا حذوي. لقد تعمدت أن أضع قيادتي موضع الامتحان. وقد نجحت في الامتحان ووجدت ما يبررها بأسلوب جديد، ولو أنه كان خطيراً إلى حد ما. وأقبل أتباعي على التلقيح، لا فرادى، بل جماعات، ولم ينقض وقت طويل حتى كانت الأرقام تؤيد ظني، فقد تدنى معدل الوفيات بين الإسماعيليين بأكثر مما تدنى بين القسم الآخر من الجالية.

وانخفض عدد الحوادث الناجمة عن العدوى بصورة حادة، وارتفع معدل الشفاء في النهاية ارتفاعاً عظيماً.

إن معركة الإنسان الأولى في الحياة هي معركة مهمة دائماً. ولقد علمتني معركتي الأولى الشيء الكثير، عن نفسي وعن غيري من الناس. لقد حاربت الجمود والمحافظة الرسميين إضافة إلى الخوف والجهل. وتنبأ ماضي بمستقبلي، ذلك أن هذه الأشياء كانت أعداء قدّر لي أن أواجهها مرة بعد أخرى طيلة حياتي.

بحلول الوقت الذي انتهت فيه الأزمة، ربما ظهرت وكأني أتصرف بوقار يفوق ما يسمح به؛ غير أنه كان لي من الثقة بالنفس والشجاعة بحيث لم تعد تقلبات الحظ العاثر المؤقتة تهزني منذ تلك الفترة وفيما بعد ذلك. وكان من نتائج النفوذ والسلطان اللذين مارستهما أن آخرين من غير الإسماعيليين تطلعوا إلى قيادتي وزعامتي. كانت سنة ١٨٩٧ سنة اليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا. وكان من الطبيعي جداً أن أذهب إلى سملا لكي ألقي أمام نائب الملكة، اللورد إلجين، خطاب تهنئة لجلالتها بصفتي إماماً للجماعات الإسماعيلية؛ ولكني، في الحقيقة، ذهبت بصفة مثلثة: لقد ألقيت ثلاث خطب، واحدة عن جماعتي الخاصة، وأخرى بوصفي زعيماً لمسلمي الهند الغربية، وثالثة نيابة عن تجمع تمثيلي لمواطني بومباي وبونا.

استقبلني اللورد إلجين بترحاب وكرم ضيافة. ودعاني الفيلد مارشال السير جورج وايت، رئيس الأركان في الهند آنذاك، إلى حفل غداء. وكان لقب الفيلد مارشال هذا، السير جورج قاتل التنين. ولم يكن هناك رجل آخر أفضل منه ليعطي هذا الانطباع حيث كان طويلاً ومحارباً أنيقاًيوحي بالقوة. وبينما كنت جالساً إلى جانبه على مائدة الغداء تراءى لي خيال هذا الرجل العجوز بتنورة حمراء وبيده رمح يتحدى بشراسة كل

القادمين إليه من البشر والحيوانات، تنين واحد أو إثنان أو كتيبة من الفرسان أو قطيع من وحيد القرن. وكما ترى، لقد كان ذلك الشاب، الذي ألقى ثلاث خطب أمام سمو نائب الملكة بطلاقة واقتدار، لا يزال يحتفظ بشيء من الرومانسية يجري في عروقه.

وعدت إلى بومباي لاستعد لأكبر وأهم رحلة قمت بها حتى ذلك الحين.

لقد سافرت لكي أكتشف أوربا، التي كنت قد قرأت وسمعت عنها الشيء الكثير، والتي جذبتني إليها بإلحاح شديد.

في زماننا القلق المهدد بالحرب يشعر المرء بالأسى إذا ما ذكر الأمن والروعة- وكلاهما كانا وطيدين على ما بدا- اللذين حققتهما الحضارة الأوربية الغربية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر . وقد شهدت في شبابي ذلك العالم القديم في أوج مجده. وعشت لأشهد كل التقلبات التي تمخضت عن هذا الانحطاط الغريب والسريع . عندما وطئت قدمي أرض أوربا لأول مرة ، كان نصف قرن تماماً قد انقضى على قلاقل (ثورات) ١٨٤٨ . فالسلام والازدهار والتقدم بدت عالمية شاملة. صحيح أن الحرب الفرنسية -البروسية فيما بين عامي ١٨٧٠-١٨٧١ قد أومضت إنذارات كالحة لأولئك الذين كانوا عارفين بخفايا الأمور إلى درجة مكنتهم من رؤية تلك الإنذارات ، ولكن الكثيرين رأوا في ذلك النزاع انحرافاً مؤقتاً مؤسفاً عن الاتجاه العام المطرد نحو الرقي الإنساني. فبريطانيا، التي قامت زعامتها العالمية على أساس السيادة البحرية المطلقة، كانت غير قابلة للتحدي، وكانت قوية ، غنية في عهد ملكتها الجليلة كما لم تكن من قبل قط . ولم تضطر ملكتها، منذ عام

١٨١٥، إلى التدخل في أي نزاع قاري معهم، وتدربت أجيال من رجال دولتها ودبلوماسييها على واجب وفن المحافظة على توازن القوى في أوروبا. وبالرغم من إمارات التهديد القليلة بالخطر الحربي والاقتصادي، إلا أن العلاقات التي كانت تسود أوروبا سنة ١٨٩٨ كانت علاقات صفاء وطمأنينة ورخاء.

وهكذا غادرت بومباي في أوائل شباط، وكنت عندئذ قد تخطيت قليلاً العشرين من العمر، وصحبني اثنان من أفراد بيتي كمرافقين شخصيين لي. وقد سافرنا إلى مرسيليا على ظهر إحدى بواخر شركة مساجري مريتايم الجديدة. وبالمناسبة، يمكنني القول- على الأقل فيما يتعلق بما يختص بخطوط السفر إلى الهند وأفريقيا والشرق الأقصى- إن السفر في السفن المتصدعة في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر كان أفضل من السفر في البواخر" الفخمة" التي خلفتها في القرن العشرين. ذلك أن غرفها كانت أكثر رحابة وراحة للمسافرين، وجميع تجهيزاتها أكثر مدنية من التي أعقبتها بكثير. وفي اعتقادي أن الكثير من الزخرف ومعدن الكروم لا يعوض عن النقص في الراحة الحقيقية.

ومن مرسيليا قصدت رأساً إلى نيس، وكان موسم الشتاء في الريفييرا في ذروته. فلم يكن جنوب فرنسا يعرف موسماً صيفياً في تلك الأيام. وكان كل فندق وكل نزل من فنادق شاطئ الكوت دازور غاصاً بالنزلاء، ولذلك لقيت صعوبة بالغة في العثور على فندق أنزل فيه مع مرافقي. ومع ذلك، فإن عدداً لابأس به من نبلاء أوربا وأفراد عائلاتها الملكية احتشدوا على طول هذا الشريط من الشاطئ. وكانت الملكة فيكتوريا تنزل في فندق سيمياز. وبعد وقت طويل عثرت على غرفة في

الفندق الذي كانت الملكة قد حلت فيه ، وهكذا وجدتني وسط تلك الجالية الأرستقراطية الواسعة الثراء التي احتشدت لموسم الريفيرا: الإمبراطور فرانزجوزيف في كاب مارتين، وعشرات الغراندوقات الروس والأرشيدوقات النمساويون في فيلاتهم وقصورهم. والأمراء والأشراف الإنكليز مع أصحاب الملايين من رجال الأعمال والصناعة، من ألمانيا والإمبراطورية النمساوية -الهنغارية، وبلاد البلقان التي(تحررت) مؤخراً من الحكم العثماني، وروسيا القيصرية، مما أذهل الشاب القادم من بومباي وبهره وألقى في قلبه الروعة والرهبة.

لم أكن أعرف أحداً، وأعتقد أن الأشخاص الوحيدين الذين تكلمت معهم قليلاً من الكلمات، إلى جانب مرافقَيّ الخاصين، كانوا رجال الفندق والموظفين في كازينو مونت كارلو. ولكني قضيت وقتاً ممتعاً إلى أبعد الحدود. فكنت أنظر وأصغي، وأقوم بنزهات طويلة في السيارة من سيمياز على طول شاطئ مونت كارلو ومينتون. كنت أحدق في واجهات الحوانيت، وأي واجهات، خصوصاً واجهات بائعي المجوهرات. بعد مضي أكثر من خمسين عاماً لا تزال ماثلة أمامي تلك الثروة المعروضة أمام أعين أغنى أغنياء أوروبا، سواء كانوا مولين أو أصحاب عقارات من الإنكليز أو أصحاب مصانع من الروس. لم يكن في تلك الأيام شيء من هذه القطع أو الأحجار التي لا قيمة لها والتي تراها اليوم مصنوعة بشكل أقراط وأساور وخواتم كاذبة؛ كلا- فتلك كانت جواهر حقيقية، من ماسات عظيمة براقة، ولآلئ، ويواقيت وغيرها من الأحجار الكريمة التي يسطع بريقها في ضوء شمس الشتاء الباهر.

كانت الشوارع في كان ونيس ومونت كارلو تكتظ، في الساعات

المعتادة، بعربات العظماء والأغنياء، تجرها جياد مطهمة ويقودها سائقون ومشاة في أبهى الحلل. أذكر أنه كانت هناك سيارتان معروضتان كشيء مثير للفضول أمام فندق باريس في مونت كارلو، ولا أزال أتمثّل نظرة الازدراء التي كانت الجماهير ترمي بها تينك اللعبتين الصخّابتين العابقتين. لقد كان هناك عدد قليل ممن كان له بعد نظر ليرى فيهما أسلافاً ليس لأجيال سيارات اليوم الفارهة فحسب، بل وللطائرة النفاثة ذات الأجنحة الفضية الضخمة التي تمرق عبر السماء كالخط.

ومع أن الرخاء كان منتشراً في جميع المدن والقرى على طول الكوت دازور، ومع أنه لم يكن هناك جوع ولم تكن عينك تقع على ثياب بالية، وكان أفقر الناس يتناولون وجبة لحم غنية كل يوم، فإنه لا يمكن القول إن الحياة كانت رخيصة على الريفييرا في تسعينيات القرن التاسع عشر.

إن بدل الغرفة والخدمة، لي ولمرافقيّ، كان يبلغ في أحسن الفنادق، دونما تبذير أو إفراط أو ضيافة من أي نوع كان، نحواً من مئتي فرنك ذهبي يومياً، أي ما يعادل نحواً من أربعين ألف فرنك في أيامنا هذه. ولكن هل كان بالإمكان العيش بالتسعيرة وبالمقياس ذاتهما كما عشت في أول رحلة لي، وأتجرأ على القول بأن كشف حسابي كان سيتضمن- بالمصطلحات العاصرة- حوالي ٦٠٠٠-٧٠٠٠ فرنك في اليوم. ولذلك فإن كلفة العيش، فيما يتعلق بمقياس الذهب لتسعينات القرن التاسع عشر- وكما كنت أعيش في تلك الأيام- كانت حوالي خمسة أو ستة أضعاف الكلفة حالياً.

ولما كنت مقيماً في الفندق نفسه الذي كانت تقيم فيه الملكة فيكتوريا، فقد سنحت لي فرص كثيرة رأيتها فيها تخرج من الفندق

وتعود إليه من نزهاتها في عربتها المقفلة. كان يساعدها على ركوب عربتها والنزول منها خدم هنود من حاشيتها الخاصة. وقد توصلت مع مرافقيّ إلى الاستنتاج الغريب نفسه، وأستطيع القول إنه قد تعزز من بعد عندما رأيت خدمها عن كثب في وندسور. كانوا خدماً من الطراز الثاني بشكل مميز، من ذلك النوع الذي تراه في الفنادق والمطاعم، النوع الذي يتسنى لأي عابر أو قادم أوربي جديد الحصول عليه في أول فندق يحل فيه. إنهم من النوع الذي يختلف كل الاختلاف ولا يمكن أن يقارن بالرجال المدهشين، المخلصين الممتازين الذين كان المرء يلتقيهم ، طوال سنوات الحكم البريطاني في الهند في بيت نائب الملكة (فايسريجال لودج)، أو بيت الحكومة في أي مقاطعة من المقاطعات. وقد بدا ذلك غريباً جداً، وأقولها بصراحة إنه لا يزال يبدو غريباً حتى الآن. فهل كان تفسير ذلك أن المرتبات المدفوعة لم تكن مرتفعة بحيث تجتذب رجالاً من الطراز الأول إلى ما وراء البحار؟ الذي لا شك فيه أنه قد حدث تبدل بعد وفاة الملكة فيكتوريا، فالملوك- الأباطرة المتعاقبون لم يكن لهم خدم هنود حقيرون، غير أنه وجدت مراكز شرف عدة في الحاشية الملكية للمرافقين والضباط المقيمين الهنود.

وأمضيت في الريفييرا عشرة أيام مشهودة غادرتها بعدها إلى باريس. لقد امتدحت الراحة التي توفرها سفن تلك الأيام، لكن لايحق هذا الثناء لعربات النوم- فأيّ شخص يعرف عربات النوم الحديثة أو سيارات البولمان، وفخامة" القطار الأزرق" لا يستطيع أن يكوّن أية فكرة عن عربات النوم البدائية المزعومة والمحطمة لتسعينيات القرن التاسع عشر وأوائل عشرات القرن العشرين- غير أنها أوصلتني إلى باريس،

على أي حال، وأكرر هنا أني كنت في العشرين من عمري وكنت قد ثقفت نفسي بالتاريخ والأدب الفرنسيين في القرن التاسع عشر كله وقبله أيضاً. كنت أعرف أسماء الشوارع وكيف يعيش الباريسيون ويتصرفون ويفكرون. كنت أقرأ عن باريس، وأحلم بها: باريس النابليونيين، وباريس بلزاك وباري، باريس البولفارات والمتاريس. وأين كنت سأنزل سوى في فندق بريستول الشهير؟ وما الشيء الذي فعلت صباح أول يوم في باريس سوى زيارة السفارة البريطانية؟

لقد سبق أن ألمحت إلى أنني كنت شاباً رزيناً، أنظر إلى اهتماماتي الثقافية والعلمية بعين الجدّ. وإذ كان السفير غائباً، فقد أعطاني الوزير كتب التعريف التي كنت بحاجة إليها، وأكملت تلك التي أحضرتها معي. وذهبت إلى متحف الكارنافالت وإلى اللوفر والمكتبة الوطنية. وهناك، أطلعني قيّم المكتبة على الكتب والمخطوطات الشرقية، وكان يرافقه سلمون رانياك، عالم الآثار الشهير. وقد دهش، كما قال لي، من أن شاباً يتكلم الإنكليزية والفرنسية بطلاقة كاملة يستطيع في الوقت نفسه قراءة المخطوطات الكلاسيكية العربية والفارسية القديمة بسهولة. وقد دهشت أنا بدوري(ولو إني لم أعبر عن دهشتي) لأني رأيت عالماً شهيراً مثله ينسى أن العربية والفارسية كانت، على أي حال، لغتيّ الوطنيتين، اللغتين اللتين تكلم بهما أسلافي مئات السنين.

وكان صديقي، البروفسور هافكين قد زودني في بومباي بكتاب تعريف إلى الدكتور روس من معهد باستور الطبي. وفي الأمسيات، كنت أقصد إلى المسرح والأوبرا، ولكن الموسم لم يكن قد آن في باريس، ولذلك، لم تكن هناك تلك الأبهة التي رأيتها في الريفيرا. ومع ذلك،

فقد شاهدت مدام بارتين على مسرح" كوميدي فرانسيز" وخلت أنها أبرع الممثلات اللواتي رأيت، واليوم، بعد انقضاء فترة عمر كاملة، لا أرى سبباً لتغيير هذا الانطباع. كما شاهدت سارا برنار، ولكنها بصراحة خيبت ظني. ولم أعتقد إطلاقاً أنها كانت ترقى إلى مستوى بارتيت. وذهبت إلى الأوبرا عدة مرات، وكل أوبرا شاهدتها، ما عدا أوبرا" فاوست"، كانت من تأليف ميربير. فمن يسمع أوبرا لميربير هذه الأيام؟ لقد سقطت سمعته فجأة كجوزة ميزان البنّاء بتحقير شرس أرى أنه لا يستحقه. إني أعلم أنه ليس بمستوى فاغنر، ولا يمكن مقارنته بموزارت أو فيردي، لكني أعتقد أنه إذا ما جرى إحياء لموسيقى ميربير، فإن ذلك سيحقق نجاحاً لابأس به.

لكني لم أنفق الأيام التي قضيتها في باريس في الأمور الثقافية وحدها، فقد كان بحوزتي رسائل تعريف إلى أعضاء من نادي" جوكي كلوب"، وقد ذهبت بالفعل إلى سباقات الخيل. وبعد أسبوعين توجهت إلى لندن.

وهنا أصبحت الصفة الشخصية التي سافرت بها حتى الآن متعذرة علي؛ فقد وصلت إلى عاصمة الإمبراطورية وقلبها. ووجدت في استقبالي في محطة لندن، مجموعة من قصر باكنغهام يمثلون صاحبة الجلالة؛ ومن وزارة الهند، كان هناك المرافق السياسي السير جيرالدفيزجرالد ممثلاً لوزير الدولة وذهبت إلى فندق ألبيمارل في ساحة البكاديللي، حيث جعلته مقراً لي طوال ذلك الربيع ومن بعده طوال الصيف.

ولم أكد أصل الفندق حتى زارني فيه دوق أوف كونوت، الذي كان

قد عرفني في طفولتي وصباي في الوطن، ومكث لدي وقتاً طويلاً، فاهتمام العائلة المالكة الودي بي لم يخب إطلاقاً. لقد كُتب عن لندن في تسعينيات القرن التاسع عشر الشيء الكثير، إلا أنه يصعب على المرء المبالغة في تأثير لندن السحري وجمالاتها في تلك الأيام البهيجة من العصر الفيكتوري- في السهولة والأمن والبحبوحة والثقة بالنفس التي كانت تسود المدينة. كانت المدينة مركزاً مالياً للعالم المتمدن، وكانت غنية لدرجة فاحشة وقوية لدرجة هائلة. كانت الإمبراطورية العظمى تحكم وتدار شؤونها من وستمنستر بثقة خيرة. وإذا كانت وزارة الخارجية خشنة المنظر غير مناسبة، وإذا كانت طرق وزارة الهند ملتوية فوضوية في حكمها، فمن ذا الذي يُنكر مقدار القوة والسلطة اللتين كانتا مركزتين في هذه الأفدنة القليلة؟ لقد كان المظهر الخارجي لتلك السلطة والقوة واضحاً إلى درجة مؤثرة، فالجنيه الاسترليني لم يكن قد خرج عن قاعدته الذهبية، وكانت قيمته تعادل ثمانية أضعاف قيمة الجنيه الاسترليني الورقي في هذه الأيام. وكان الانحدار من قمة الغنى إلى الفقر حاداً جداً، من أقصى طرف إلى أقصى الطرف الآخر ؛ ومع ذلك، فقد كنت تشعر بالرخاء والازدهار في معظم أقسام المجتمع. لم تكن هناك" دولة رفاه". بل شعور لطيف قوي بأن بريطانيا كانت كلباً من مستوى القمة؛ فكان هناك، بالنسبة للجمهور العام، حياة من الفرح والنشاط والمغامرة.

كانت القوة الحقيقية، من سياسية واقتصادية، في أيدي قلة من الرجال. فحكام إنكلترا والأمبراطورية يتألفون من حلقة صغيرة مغلقة من الطبقة الأرستقراطية، ومن أعضاء البلوتوقراطية(أو الغنية) الناشئة

الذين ربطوا أنفسهم بالطبقة الأرستقراطية وفرضوها عليها. وقد مكنتني منزلتي، وما كان لي من ارتباطات رفيعة، من الدخول فوراً وبصورة مباشرة إلى هذه الحلقة. لقد رأيت، أنا الذي عشت لأرى الديموغاجية والديكتاتورية تطغى على قسم كبير مما كان يدعى في الماضي أوربا المتمدنة، عن كثب في شبابي، القلة من الأفراد (الأولغاركي) الذين كانوا يهيمنون على إنكلترا والإمبرطورية في العصر الفيكتوري.

عندما وصلت لندن، كان موسمها في بداياته الأولى. وسريعاً ماوجدت نفسي أنجرف إليه. لقد فتحت لي أبواب المجتمع كلها. واتخذت مكاني وسط حلقة لامعة من الطقوس الرائعة التنظيم. حلقة ضمت: إبسوم، سكوت، نيو ماركت، عشاء في لانسداون هاوس، وفي منزل اللورد ريبونزأو اللورد راي، والأوبرا والحفلات في قصور دوقات فخمة؛ حفلات حدائق ، وعطلات نهاية الأسبوع في بيوت ريفية، وكانت الألبسة الرسمية أمراً لا مفر منه في لندن، فكان يتعين على المرء أن يرتدي معطف فراك أو معطف الصباح، وقبة منشاة وقبعة حريرية وقفازات، مهما بلغت حرارة الطقس، وكان استعراض الكنيسة صباحات الأحد في حديقة هايد بارك مناسبة رسمية بكل ما تضمنته من تفاصيل احتفالية. كما كانت هناك طقوس مفصلة خاصة بالمناداة، بدءاً بأفراد البيت الملكي نزولاً إلى جميع طبقات المجتمع بتنظيم معتنى به وصارم بدرجة غير قابلة للفهم والاستيعاب اليوم. واستذكار ذلك كله الآن هو بالفعل إثارة لعالم اختفى وانتهى.

وقد دعيت، في الوقت المناسب، إلى مقابلة رسمية مع جلالة الملكة في قلعة وندسور. واستقبلتني جلالتها بمنتهى الحفاوة والرقة. والشخص

الوحيد الذي حضر تلك المقابلة هو دوق أوف كونوت، الذي لم أشعر في وجوده بالخجل أو الرهبة. كانت الملكة، التي ارتدت ملابس سوداء فضفاضة، تجلس على أريكة كبيرة. فهل كانت طويلة أم قصيرة، نحيفة أم بدينة؟ إن وضعها وثيابها جعلت تقدير ذلك ضرباً من المستحيل. قبلت اليد التي امتدت إلي، وسمعتها تبدي ملاحظة مفادها أن دوق أوف كونوت كان صديقاً قديماً لي ولعائلتي أيضاً. كانت ذات لهجة غريبة مزيج من الاسكتلندية والألمانية- وهذه الأخيرة يمكن تفسيرها بأنها نشأت بصحبة والدتها، وكانت أميرة ألمانية، ومربية ألمانية تدعى البارونة ليهزن. كما كان لديها ميل لإقحام زخرفة الحديث الألمانية المتمثلة باستخدام (لذا = SO) وتلفظها (تزو) مرات كثيرة في ملاحظاتها. وقامت الملكة بمنحي وساماً من رتبة فارس في هذه المقابلة، لكنها لاحظت أنني كنت أنا نفسي أميراً وسليل ملوك عديدين، فإنها لم تطلب مني أن أجثو وأن أتلقى لمسة السيف على كتفي، بل ستكتفي بمناولتي الوسام فحسب، ولقد تأثرت كثيراً بعطفها وحفاوتها.

وبعد قليل دُعيت لقضاء الليل في القلعة وتناول طعام العشاء مع جلالتها، وكان ذلك أيضاً حدثاً لن أنساه. جلست إلى المائدة بين صاحبة الجلالة وابنتها الأميرة بياتريس - الأميرة هنري أوف باتنبرج، أم الملكة إينا ملكة إسبانيا. وكانت الملكة ترتدي ثوبها العادي الأسود- أي ثوب الحداد الذي لم تخلعه منذ وفاة زوجها. وكانت تحلي معصمها بسوار ماسي كبير كان في وسطه مصغّر جميل للأمير كونسورت يبلغ طوله ثلاث بوصات وعرضه بوصتين تقريباً. كانت الملكة يومئذ في التاسعة والسبعين من عمرها، ولكن حيويتها ووضوح حديثها وسهولته كانت

تدعو إلى العجب. حضر العشاء عدد كبير من رجال الدولة، ومن بينهم اللورد تشانسلر وإيرل اوف هالزبوري، وكان رجلاً صغيراً مربوع القامة لا يوحي منظره بأي تأثير. وقد دهشت وأعجبت في الوقت نفسه عندما همست الملكة في أذني قائلة إن اللورد هالزبوري كان بالفعل رجل دولة ومحامياً مخيفاً، بالرغم من أنه لم يكن يملأ العين. وتحدثت الملكة إليّ عن الهند بصورة خاصة. وسألتني ما إذا كان المسؤولون والممثلون البريطانيون يحسنون التعامل مع الأمراء والأعيان الهنود. فأجبتها صادقاً أنه فيما يختص بي وبأسرتي، كان المسؤولون البريطانيون الذين كنا على اتصال بهم، يعاملوننا بلطف وأدب دائمين. وطوال فترة العشاء كان يقوم على خدمتنا- الملكة والضيفين عن يمنها ويسارها، اللورد تشانسلر وأنا نفسي، هنود من ذلك الطراز الثاني الذي لاحظته في حاشيتها في نيس.

وقُدمت إلينا في فترة العشاء الطويلة ألوان متنوعة من الطعام، الواحد بعد الآخر، وكان يتألف من ثلاثة أنواع أو أربعة من اللحم، والفطائر الساخنة والفطائر المثلجة وجميع أصناف الفاكهة المنتجة في بيوت زجاجية- وكلها كانت تقدم بطريقة ملكية بطيئة. فقد جلسنا إلى المائدة في التاسعة والربع، ولا بد أنها كانت الحادية عشر إلا ربعاً عندما انتهى كل شيء. وكانت الملكة، بالرغم من سنها، تأكل وتشرب بشهية كل نوع من أنواع الشراب الذي كان يقّدم إلينا مع كل لون، كما أكلت الفطائر الساخنة والفطائر المثلجة. وبعد العشاء، في قاعة الاستقبال الرسمية، جرى تقديم كل ضيف من الضيوف إلى جلالتها وتحدثت إليه بضع لحظات. وقد قدّمت إلي صورة لها مرصعة بالجواهر ومزينة بزهرة

إنكلترا، وعوسجة اسكتلندا، وقيثارة ايرلندا- وكانت القيثارة من الزمرد. وفي الصباح التالي، جاءني سكرتيرها الهندي وقدّم إلي شيئاً كانت الملكة نفسها قد كتبته بالأحرف الأوردية والعربية.

أن تكون ملكة- إمبرطورة، فهذا لا يعني بالنسبة للملكة فيكتوريا، امتلاك لقب رسمي غريب. لقد كانت واعية أشد الوعي ومهتمة أعظم الاهتمام بحاجات رعاياها الهنود ووجهات نظرهم. كانت محبتها لهم خالصة وعطفها عليهم شديداً. أذكر بصورة خاصة أنها قالت لي أثناء العشاء إنها ترجو أن يكون سلوك البريطانيين وتصرفهم عندما يزورون المساجد والمعابد الهندية سلوكهم نفسه الذي يتجلى فيه الاحترام والتبجيل لدى دخولهم الكنائس في بلادهم بالذات.

وخلال زيارتي هذه، تعرفت أولاً بأفراد متنوعين آخرين من العائلة البريطانية الحاكمة- وكان في مقدمتهم، بالطبع، أمير ويلز، الذي أصبح فيما بعد الملك إدوارد السابع. وكان هذا الأمير لطيفاً معي للغاية منذ البداية، ذلك أنه جعلني في الحال عضو شرف في ناديه الخاص، المارلبورو، وبعد بضعة أشهر، أي في أوائل عام ١٨٩٩، رشحني هو نفسه لعضوية النادي الكاملة. كانت العضوية في نادي المارلبورو في تلك الأيام، ذات أهمية شخصية واجتماعية خاصة، إذ كان العضو يعتبر الصديق الشخصي لأمير ويلز. ويمكنني أن أذكر، بالمناسبة، إنني ما أزال، بعد أكثر من خمسين سنة، عضواً في نادي مارلبورو- واندهام. كما يمكنني القول إني ورئيس الحجاب أقدم من في هذا النادي. فقد دخل هو في خدمة النادي عام ١٨٩٦أو ١٨٩٧، على ما أعتقد، وعندما نجتمع معاً نستعيد ذكريات الماضي البعيد، وتمثل أمامنا أطياف كثيرة كثيرة كما عرفناها في أيام الشباب.

وقد شرفني الملك إدوارد السابع بصداقته الشخصية الحميمة طيلة العقد الأخير من حياته، وكانت علاقتي به أبعد من أن تكون علاقة رسمية. كان هو متقدماً في السن وكنت أنا شاباً، وغريباً في بادئ الأمر، ولكنه كان يعاملني دائماً معاملة يتجلى فيها أكبر قدر من اللطف والعطف والأريحية. والحق أني لو أردت أن أبحث عن كلمة أختصر بها صفات الملك إدوارد وشخصيته، لكانت كلمة" أريحي" هي الكلمة الصحيحة، ذلك أنه كان يرجو الخير للجميع. صحيح أنه كان يحب مباهج الحياة، وأنه قد قضى وقتاً طيباً، ولكنه كان يريد، مخلصاً وبصورة دائمة، أن يقضي الجميع، من أوضع رعاياه إلى أرفعهم شأناً، وقتا طيباً مماثلاً.

كان يُعنى عناية كبرى بإزالة الألم والبؤس. ولم تكن رعايته للمشافي شيئاً أخذه على عاتقه كواجب ملكي فحسب، ولا هواية شخصية للتسلية، بل كان تعبيراً عن اتجاه صميمي إزاء الحياة، وعن عطف تلقائي كريم على البؤس في جميع أشكاله.

وكثيراً ما اقتبس الناس اثنتين من ملاحظاته في هذا الموضوع. وأعرف، أنا الذي عرفته جيداً، أنهما كانتا صادرتين من أعماق قلبه. فقد قال مرة: (إن الرجل الذي يكتشف دواءً للسرطان يجب أن يقام له تمثال يحيي ذكراه في كل عاصمة من عواصم أوروبا.) وأستطيع أن أسمع نبرة صوته وهو يقول هذا القول. أما قوله الآخر بخصوص بعض الأمراض التي يقول الأطباء إنه من الممكن تجنبها، فهو:" إذا كان اجتناب هذه الأمراض والوقاية منها أمراً ممكناً، فلماذا لا تجتنب؟".

في عام ١٩٠٤، عندما كان يجري بحث أمر زيارة رسمية لأمير

ويلز عندئذ- الملك جورج الخامس فيما بعد- إلى الهند، اتفق أني كنت في إنكلترا، فأرسل الملك يدعوني إلى مقابلة خاصة في قصر بكنغهام. وقد سألني بصورة مستفيضة مطوّلة عن أحوال المشافي في الهند، وأظهر معرفة كبرى واهتماماً بالغاً في هذه الناحية. وكان يقلقه بصورة خاصة حالة المستشفيات الفظيعة، وبخاصة في كلكتا، وقال لي إنه يريد إطْلاع ابنه على الموضوع بكل تفاصيله، ويجعله يلح على الحصول على تقرير شخصي وثيق المعلومات بخصوص حالة عدة مستشفيات مدن، وقال أيضاً إنه يدعو إلى إنشاء البيوت في الجبال وفي المقاطعات الصحية من البلاد للوقاية من السل ومعالجته في أول مراحله.

وبعد عامين تقريباً، أي في صيف ١٩٠٦، عاد الملك، أثناء محادثة طويلة خاصة، إلى الكلام في هذا الموضوع بتفصيل كبير. وقد أوصى أمير ويلز بالعمل على الأسس نفسها التي كان هو أشار بها، وكانت وصية أيدتها أنا نفسي بناء على معرفتي الخاصة. وكان الملك قد حصل على سلسلة من التقارير المستقلة، ومنها عرف أنني وعدداً من أصدقائي كنا أنشأنا مصحاً في محطة جبلية لمعالجة السل في مراحله المبكرة.

لم يكن اهتمام الملك إدوارد البالغ بالألم والمرض وإزالتهما (وبوسعنا أن نتساءل فيما إذا كان لهذا الاهتمام علاقة بمرض التيفوئيد الذي ألمّ به وكاد يقضي على حياته) ناشئاً عن شعوره بواجب ملكي، بل إنني مقتنع بأنه كان صادراً عن إنسانيته الحقة. ومن المهم، في اعتقادي، القول إن هذا الاهتمام قد ازداد وتعمّق بعد مرضه الخطير، قبيل تتويجه ملكاً. لقد تحمّل هو نفسه الألم بشجاعة وجرأة، ولكنه

كرهه كرهاً بالغاً وسعى لتخفيف هجماته لصالح الآخرين أكثر من صالحه هو بالذات.

كان الاعتقاد الشائع أن الملك إدوارد كان ضد الألمان، وأنه حمل غّلاً وضغينة لألمانيا كدولة لأنه لم يكن على علاقة طيبة بابن اخته القيصر ويليام الثاني. ولكن الدليل على بطلان هذا الاعتقاد قوي- بشهادة الملك نفسه وبشهادة الذين لا يرقى الشك إليهم من مثل بارون فون إيكاردشتاين وكونت وولف متيرنيخ- وكان كل منهما يحتل منصباً مسؤولاً في عهده بالسفارة في لندن- اللذين قالا لي إن الملك كان مخلصا كل الإخلاص في رغبته بأن تسود الصداقة بين بريطانيا وألمانيا، وإنه كان يبذل جهده كي يبقى على وفاق مع ابن أخته. لكن لايمكن إنكار حقيقة وجود خلافات ومصاعب شخصية عميقة بينهما. فالعلاقات كان مآلها إلى التأزّم. كان القيصر قد ارتقى العرش وهو شاب، وسيطر على جميع شؤون بلاده سيطرة تامة طيلة عقد من الزمن أو أكثر، في حين لم يكن يسمح لخاله، المتوسط السن، بأن يمارس أي نوع من المسؤولية، ولا حتى الإطلاع على أوراق وزارة الخارجية. كذلك، لم يكن القيصر أكثر الناس لباقة وحصافة، وفي لغة القرن العشرين، كان يشكو من عقدة نقص هائلة، ولم ينس أبداً أن يؤكد ذاته. بينما كان خاله يسعى ببسالة إلى كبت انفعاله الطبيعي، إذ لم يكن ينفجر إلا نادراً، كما لم يكن سلوكه تجاه ابن أخته ليتميز سوى باللباقة واللطف والاعتبار.

كان الملك إدوارد على جانب عظيم من اللباقة والذوق الرفيع. وكان يعرف السلوك الجدير بالملوك، ويعرف أيضاً كيف يجدر بالناس أن

يسلكوا إزاء الملوك. ولذلك كان يمقت إقدام أيّ من الناس على التمادي مستغلين لطفه ودماثة خلقه. وأعرف أمثلة جمة فعلاً على هفوات نالت استياءه الفوري القاطع. ومع ذلك، فعندما كان المخطئ يكتب إلى جلالته رأساً أو يعتذر أو يطلب الصفح بوساطة أحد موظفي القصر ويدلل على أسفه المخلص لما بدر منه، لم يكن الملك يغفر له هفوته فحسب، بل ينساها إلى درجة أنه لم يكن يظهر له أبداً أقل أمارة من أمارات العداء أو البرود. لقد كان الملك إدوارد شهماً بطبيعته. كذلك كان يملك ذخيرة كبيرة من اللباقة والحصافة في الأمور الكبيرة والصغيرة على السواء. في أحد مواسم الشتاء، كانت سيدة أميركية غنية مقيمة في باريس تدعى السيدة مور تقوم بزيارة لندن. كانت صديقة للملك وصديقة لي (وكثيراً ما كان الملك يلبي دعوتها للعشاء في بيارتز). ولقد زارها الملك في أصيل بارد، فاستقبلته في قاعة استقبالها الدافئة في الطابق الأعلى حيث بقي لتناول الشاي على مقربة من المدفأة. وبعد بضع دقائق من مغادرته قاعة استقبالها طرق بابها أحد سعاة الملك ودخل وقدم إليها رسالة صغيرة. كان من عادة الملك أن يحتفظ إلى جانبه دوماً بورق وأقلام ومغلفات صغيرة كيما يستطيع أن يدوّن أية فكرة قد تخطر له. وكانت رسالة الملك إلى السيدة مور تتضمن، في ذلك الأصيل الممطر، تحذيراً لها بأن تكون حذرة عندما تخرج لأن الرصيف كان زلقاً جداً، فقد تسقط وتؤذي نفسها. وجلس الملك ينتظر في عربته حتى عاد الساعي من أداء رسالته.

أذكر مناسبة أظهر فيها اللباقة نفسها نحوي؛ وبعد أربع وأربعين سنة، لا أزال قادراً على تحديد زمان هذه المناسبة ومكانها بالضبط. كان

ذلك في يوم الجمعة من أسبوع آسكوت سنة ١٩٠٩ . وكان الملك قد دعاني إلى تناول طعام الغداء معه في المقصورة الملكية. كنت جالساً إلى مائدة جلالته، وعندما قدّم الطبق الرئيسي من الطعام، تجاوزني النادل عمداً، مما أدهشني فعلاً ولكن نادلاً آخر لم يلبث أن وضع أمامي زوجاً من الكستيلتا.

وناداني الملك عبر المائدة بصوته القوي العميق قائلاً: " فكرّت في أنك لن تحب الصنف الموضوع في لائحة الطعام، ولذلك أمرت لك بهذا الزوج من الكستيلتا." وألقيت نظرة على طبق جاري فألفيت فيه قطعة من لحم الخنزير. لقد أدرك الملك أني، كمسلم، لن آكل من لحم الخنزير، فآثر عدم إحراجي وأعد ترتيباته الخاصة مسبقاً.

بالخروج قليلاً عن الموضوع فإن هذا النوع من الحصافة ضروري لأولئك الناس الذين يمثلون المناصب الرفيعة. عندما كان اللورد كيرزون نائباً للملك في الهند، قام نجل أمير أفغانستان آنئذ بزيارة رسمية لكلكتا. وفي ليلة وصوله أقيمت مأدبة عشاء رسمية على شرفه، وكنت أنا أحد الضيوف. وقد جلست قبالة الأمير الأفغاني فرأيت بأم عيني حدثاً يدعو إلى الرثاء. كان الحساء ممزوجاً بنوع من الخمرة الإسبانية اسمها (شري). وقبل أن يتسنى للأمير أن يرفع ملعقته الأولى إلى فمه، كان المعتمد السياسي الجالس إلى جانبه قد قال بلهجة فضولية:" ياسمو الأمير، في الحساء شري."

وتقيّداً منه بالتعاليم الإسلامية، وضع الأمير حساءه جانباً دون أن يمسه. ولم يكن في لون السمك الذي قدّم إليه ما يمنعه من أكله. ولكن اللون الآخر كان فيه بعض قطع لحم الخنزير. وهكذا، كان القسم الرئيس

من العشاء كله صفراً بالنسبة للأمير المسكين. وأخيراً جاء الحليب المثّلج، وتهيأ الأمير للهجوم عليه، ولكن السياسي الفضولي قال:" يا سمو الأمير، إن فيه شرتريز"[1]

ووضع الأمير ملعقته على المائدة كرة أخرى، لكنه عوّض، في النهاية، عما فاته بقطعة من الجبن وبعض الحلوى. وكان عجيباً حقاً أن اللورد كيرزون لم يدرك قط أن ضيفه الأول قد غادر المائدة وهو جائع، كما كان غريباً أكثر أن اللورد كيرزون كان في منزله- حيث كنت ضيفه أكثر من مرة في هاكوود- من أكثر المضيفين الذين يمكنك تصورهم إدراكاً وذوقاً ولباقة. وأعتقد أن تفسير ما حدث في تلك المأدبة التي أقيمت على شرف الأمير الأفغاني هو أنه، كنائب للملك، ترك الأمور اليومية لموظفيه، وأن أحدهم تصرّف بطريقة لم يكن اللورد كيرزون ليسمح بها في منزله إطلاقاً.

وسأعترف بأني أنا نفسي قد تورطت في كارثة مشابهة- في بومباي، في نادي " ويلنغدون كلوب"، من بين جميع الأمكنة، حيث كان كبير النظّار فيه مجوسياً. وأقمت مرة حفلة عشاء ضخمة كان عدد من مهراجات الهندوس ضيوفاً عليّ فيها. وكنت قد ذهبت إلى النادي قبل الحفلة وأخبرت النادل من هم ضيوفي على العشاء، وقلت له إنهم متشددون كثيراً بخصوص طعامهم، ولذلك يجب أن لا يقدم لحم العجل ضمن الطعام بأي حال من الأحوال. فأجاب النادل،" أفهم ذلك يا سمو الأمير، وسأكون حذراً للغاية. وأوكد لك أنه لن يحصل أي خطأ."

جلسنا للعشاء، وكنا تجمّعاً لابأس به من مهراجات الهندوس، وكان

---

١ – مشروب حلو كالعنبري .

بعضهم من الراجبوت الأكثر تشدداً في الأمور الدينية. وجرى كل شيء بشكل مقبول حتى حان تقديم الطبق الرئيس. فقد أرعبتني رؤية صحن لسان العجول يتوارد الواحد إثر الآخر. وكان في مقدور ضيوفي تفسير ذلك على أنه إهانة متعمدة ومدروسة؛ لكنني اعتذرت لهم بتذلل. وما إن انتهت حفلة العشاء حتى ذهبت إلى ذلك النادل وقرّعته بصوت مسموع.

" ما الذي فعلته بحق السماء؟ لقد حذرتك ألا تقدم لحم العجل؛"

فاعترض النادل بهدوء قائلاً،" ولكن ذلك لسان ثيران، يا صاحب السمو".

كان مجوسياً، وعاش طوال حياته في الهند وما يزال يعتقد، ولو أن ذلك لا يصدق، أن لسان الثور لا يعتبر لحم عجل.

إن تأثير هذا النوع من التحريم أو التوجيه الذي يُفرض على المرء في طفولته من حيث الغذاء، تأثيرٌ قوي دائم. أذكر أنني كنت أتعشى مرة في أوربا مع صديق هندي واسع الثقافة من الطائفة الهندوسية. ولكن لم يكد الخادم يضع على المائدة رأس عجل صغير حتى صدم صاحبي وبدا عليه حزن عميق، وكاد يُصاب بانهيار عصبي تام. وبعد بضعة أيام، عندما سألته، بغض النظر عن ذلك التوجيه الديني الذي أفهمه تماماً، لماذا أصيب بذلك القدر العظيم من الانزعاج، أجابني بأن رؤية رأس عجل يعرض بتلك الطريقة على المائدة تساوي رؤية رأس طفل سواء بسواء. وقال:" كيف ستشعر إذا ما قام أحد الطهاة بطبخ رأس طفل وقدمه إليك مع كل ما يحتاجه من بهارات وتوابل؟" ولم يكن لدي رد جاهز على ذلك.

وسألت مرة صديقاً آخر، وكان رجلاً عاقلاً ذا ثقافة عالية من طائفة

البراهما ومن الباحثين في جامعة كمبردج، عما إذا كان، وهو الذي لم يتناول أي طعام حيواني في حياته قط باستثناء المنتجات اللبنية، والذي لم يلمس أجداده البيض أو السمك أو اللحم طيلة ألفين من السنين، لديه شعور غريزي بالنفور من هذا النوع من الطعام. تردد صديقي طويلاً ثم أجابني قائلاً: " لو أنك نشأت كما نشأت أنا فإني أشك فيما إذا كان باستطاعتك التغلب على الهول الغريزي لرائحة السمك أو اللحم أو البيض."

حسناً، لقد ابتعدت قليلاً عن لندن في ذلك الصيف البعيد من عام ١٨٩٨، إلا أن المسافة كانت أكبر بالنسبة للمكان الذي أول ما تعرفت فيه على مجتمع لندن. لقد تحدثت عن مباهج لندن وروائعها، وعن لقاءات سباق الخيل فيها، عن أمسياتها في الأوبرا، وربما عن ما بعد انتهاء الأوبرا، حيث نقوم بزيارة متأخرة لنادي المارلبورو ونتحدث مع أمير ويلز- فقد كانت له طريقته في الحضور إلى النادي، وهو في طريقة إلى بيته، ليتناول مشروبه الأخير(والمؤلف دائماًمن ماء ساخن وعصير الليمون والجن)- ولكني قطعاً يجب ألا أعطي القارئ الفكرة القائلة بأني أمضيت وقتي كله على هذه الشاكلة.

كان صديقي البروفسور هافكين قد زودني في بومباي بأكثر من كتاب تعريف إلى علماء بارزين في بريطانيا، ومنهم اللورد ليستر، الجراح الكبير. وقد تلقاني اللورد ليستر بترحاب عظيم؛ وكذلك قابلت اللورد كيلفن، الذي كان عندئذ أقدم العلماء الانكليز، والذي أكد لي(كما ألمحت سابقاً) استحالة الطيران مادياً في آلات أثقل من الهواء. وكثيراً ما كنت ضيف البارونة بورديت- كوتس التي اجتمعت في منزلها بعدد من زعماء ذلك العصر الروحيين.

كما زرت الأنسة فلورنس ناتينجال، وكانت، هي والبارونة، بعد الملكة فيكتوريا نفسها، أبرز نساء ذلك العصر. ومع أن الأنسة نايتنجال كانت قد تقدمت في السن وأصبحت عاجزة تماماً في ذلك الحين، تلتزم الجلوس على أريكة في غرفة استقبالها في منزلها في بارك لاين، أقول مع ذلك، فإنها كانت تحتفظ باهتمام شديد في الأمور جميعاً. وكان أحد المواضيع التي بقيت على اطلاع دائم عليها، الإدارة البريطانية في الهند- ولا سيما فيما يتعلق بالأمور الصحية. فعبر السنين، كانت نايتنجال قد جعلت من نفسها مشيرة رسمية للراج، مع أنها لم تذهب إلى الهند إطلاقاً، وكانت كل من وزارة الهند ووزارة الحربية تعرف قوة مذكرات الأنسة نايتنجال وضرورتها، ولم يكن أي نائب جديد للملك يجرؤ على مغادرة انكلترا لتولي شؤون منصبه قبل القيام بزيارتها، وفي كل مرة كانت هذه الزيارة تجربة ناجحة ومفيدة لهم جميعاً. وقد وضعت الخطط لنظام المخيمات الحربية للمعسكرات البريطانية في طول الهند وعرضها، وابتكرت نظاماً إدارياً طبياً، وأنظمة للمرتبات والعلاوات استمرت دونما تغيير في المبدأ، حتى نهاية الحكم البريطاني في الهند.

كان من الطبيعي جداً أن أزورها، لكن ليتون ستراتشي، المؤرخ الفكاهي البعيد عن كونه مؤرخاً ثقة، اختار في مقالته عن الآنسة ناتينجال في كتابة،" فيكتوريون بارزون،" اختار أن يقص نبأ زيارتي لها بأسلوب هزلي كاريكاتوري. وما أغفل طبيعياً ذكره(في هذه المقالة) هو أننا سريعاً ما أصبحنا صديقين وانني عدت إلى زيارتها كرة بعد أخرى. وكان طبيعياً أيضاً أن تتحدث الأنسة ناتينجال بإسهاب وطلاقة وصدق عما يمكن ولا يمكن فعله لتحسين الحالة الصحية في الهند، وبخاصة بين

النساء والأطفال. غير أني خضت في مواضيع أكثر عمومية، ذلك أني كنت، كما سبق مني القول، شاباً رزيناً، فسألت الآنسة ناتينجال حول ما إذا كان قد طرأ فعلاً تحسن حقيقي في الشؤون الإنسانية منذ صباها، وعمّا إذا كان الإيمان بالله قد انتشر وتعمّق. وقد قابل ليتون ستراتشي سؤالي بهزء، غير أني لا أزال أعتقد أنه كان سؤالاً سديداً. وعلى كلٍ، فقد اعتبرته الآنسة ناتينجال سديداً أيضاً، وشرعت تبحثه بالجدية التي طرحته بها. لقد طرأت في حياة الآنسة ناتينجال زيادة عظيمة كبرى في قدرة الإنسان على استثمار موارده الطبيعية- من المحرك البخاري إلى محرك الاحتراق الداخلي ومن ثم إلى التفجير الذري- تلك الزيادة التي تشكل علاقتها بالإيمان بالله أو استقلالها عنه موضوعاً على جانب من الخطورة. وهكذا، لم تشأ الأنسة نايتنجال أن تقابله بضحكة المستهزئ، كما فعل ليتون ستراتشي، بل أفصحت لي عن آرائها فيه، وشرفتني بصداقتها منذ ذلك الحين.

وفي ذلك الصيف نفسه، قابلت علماً آخر في تاريخ الجيش البريطاني، وأعني به الفيلدمارشال لورد وولزلي. فقد أقام السير الفردليال مأدبة إفطار دعي إليها ليونارد كورتني، الكاتب والسياسي الليبرالي(اللورد كورتني فيما بعد)، والسيد بول، المؤرخ والمحرر، واللورد وولزلي، وكاتب هذه السطور. وذكر أحدهم السيد غلادستون، فلم يكن من الفيلدمارشال وولزلي إلا أن شن حملة شعواء على غلادستون وأفعاله جميعاً، ولم يكن في كلماته أي شيء حسن عنه، ولم يتمكن أي واحد منا بالتفوّه حتى بجملة واحدة، بل جلسنا جميعاً نصغي إلى حملة من الطعن لا آخر لها. كان غلادستون في نظر وولزلي شراً

وأكثر هدماً من أي شئ آخر في حياته، بل كان مسؤولاً عن تدني سمعة بريطانيا وسلطانها في أوربا وفي العالم أجمع، وعن نكبة السودان، ومسؤولاً شخصياً عن موت الجنرال غوردون. وباختصار، على الرغم من أن نصف سكان انكلترا على الأقل كانوا يعبدونه(بغض النظر عما يعتقد النصف الآخر)، إلا أن غلادستون في نظر وولزلي، هو مجرم شرير غير جدير بأن يكون من أفراد المجتمع المتمدن.

وبالرغم من أن شعور وولزلي العميق ودرجة صراحته الكبيرة في مأدبة السير الفرد ليال ذلك الصباح قد أدهشاني إلى حد كبير، إلا أنني أدركت فيما بعد أن موقفه ذاك من غلادستون لم يكن شيئاً غير عادي. وأذكر أنه عندما توفي غلادستون، كانت تعليقات المجتمعات الخاصة وملاحظاتها كما سمعتها في حفلات العشاء أو البيوت الريفية الكبرى (وكانت أوساط المحافظين والاتحاديين أكثر أقسام المجتمع نفوذاً) عنيفة ضد غلادستون وغير مسامحة، وفي السنوات التالية، أذكر أيضاً كيف تحدث الناس عن لويد جورج(الذي سأتحدث عنه كثيراً فيما بعد). وأعتقد أنه حتى في هذه الأيام، فإن عضواً من أعضاء حزب العمال، ومن أصل ويلزي مثل لويد جورج، هو مارد مخيف لخصومه المحافظين.

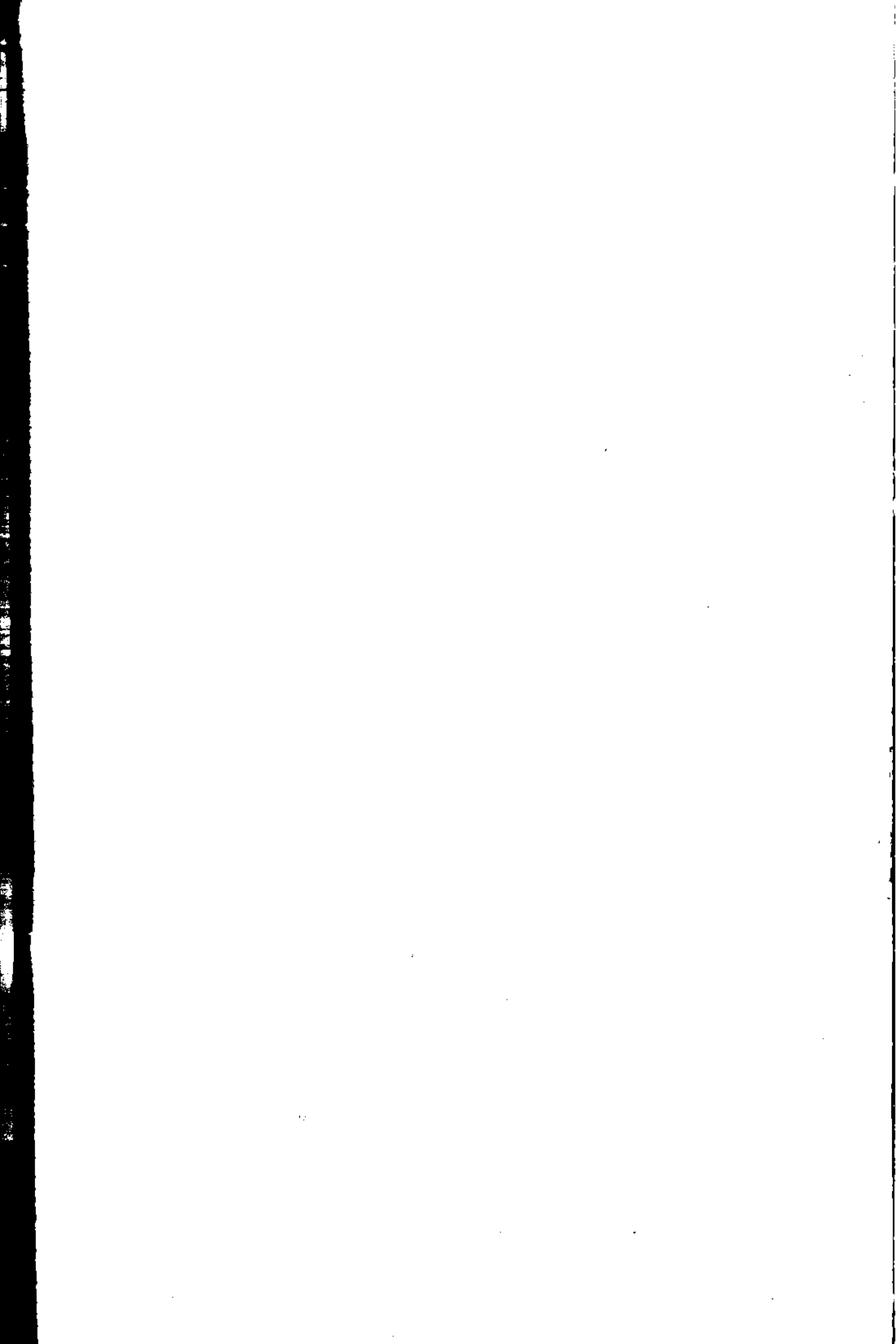
وبالطبع، كان المرء يسمع في الأوساط الليبرالية الخالصة آراء مختلفة جداً. كنت في ذلك الصيف ضيفاً على اللورد سبنسر، الذي كان زميلاً قريباً جداً من غلادستون، وعضواً في وزارته. كان سبنسر قد اشترى بيتاً صغيراً بالقرب من بارمنغهام للمعرض الزراعي . وفي الليلة الأخيرة من ضيافتي، شرع اللورد سبنسر يتحدث، بعد انصراف سائر الضيوف، بحرية عن تلك القضية الشائكة في السياسة البريطانية في

العصر الفيكتوري، وأعني بها القضية الإيرلندية. كان هذا في عام ١٨٩٨؛ وكانت محاولة غلادستون إقامة حكم وطني قد فشلت منذ زمن طويل، وكانت حكومة اللورد سالزبوري الاتحادية ثابتة الأركان في الحكم، وقامت سياستها تجاه إيرلندا على مبدأ" الحكم الحازم"- الذي اقترن باسم آرثر بلفور- وعلى محاولات لمعالجة مشكلة ملكية الأراضي الشائكة. وقد ألحّ اللورد سبنسر على عدم وجود طريقة لحل مشكلات إيرلندا إلا بمنحها حريتها السياسية الكاملة، وأنه بعد عشرين سنة- أو مئتي سنة- لن يتمكن الحكم البوليسي من جعل الإيرلنديين"مخلصين" أو مذعنين صاغرين، وأن فرصة كبرى قد سنحت وضيعت في عام ١٨٨٦، وأنها لن تسنح مرة ثانية، وأن النتائج الحتمية لابد أن تكون، عاجلاً أو آجلاً، ثورة مسلحة مع كل ما يرافقها من القتل وإراقة الدماء، وفي النهاية ضياع إيرلندا من الإمبراطورية. وخلال ربع قرن، تحققت كل كلمة من تلك النبوءة التي أصغيت إليها في تلك الليلة من صيف ١٨٩٨، وكان هنالك في الهند من يراقبون مصير إيرلندا، ومن كانوا واقفين على الدروس التي علمتها إيرلندا، وعلى الرسالة التي أعطتها إلى العالم أجمع.

وإذ رجعت إلى لندن، فقد شهدت الموسم حتى نهايته، ومن ثم، في شهر آب، عندما بدأ المجتمع الإنكليزي ارتحاله السنوي إلى كاويز واسكتلندا- استأنفت رحلاتي إلى أوربا، إلى باريس مرة أخرى، ومنها إلى جنيف ولوزان، إلى إيطاليا وفيينا، وكانت ما تزال عاصمة إمبراطورية تاريخية عظمى.

في ذلك الصيف البهيج صدمني نبأ مؤسف تلقيته من الهند صدمة

عنيفة وأحزنني إلى حد عظيم. لقد قتل نسيب قريب لي يدعى هاشم شاه، كان أبوه أخي من والدي، على يدي خادم في منزلي في بونا. ولحسن الحظ لم تكن الدوافع إلى هذه الجريمة تعصبية دينية، شأن الدوافع التي أدت إلى جريمة جدة سنة ١٨٩٦، بل نتيجة حقد شخصي. وأيّا ما كان السبب، فإن نذير هذه الجريمة لم يكن بالشيء الذي يمكن إغفاله. فقد كان هناك عنصر الخروج على القانون والعنف في بيئتي ومحيطي ذاته، وكان من الواجب، عاجلاً أم أجلاً، معالجته بحزم إذا أريد ألا يصبح قرحة مزمنة في حياة بونا وبومباي.



الفصل الثالث

زيارات مبكرة إلى الشرق الأوسط

عملت خبراتي في لندن وسياحتي في القارة الأوربية على توسيع آفاقي وتحريض اهتمام متنامٍ - ورغبة في لعب دوري- في السياسة والدبلوماسية العالمية. فبعد وقت قصير من وصولي إلى انكلترا اتصلت بالسير ويليام لي وورنر، رئيس الدائرة السياسية في وزارة الهند، وهي الدائرة التي كانت تُعنى بجميع النواحي السرية من العلاقات الخارجية. وعن طريق صداقتي لصاحب خيول سباق معروف، السير ج.ب مابل (مؤسس محل المفروشات الكبير الذي يحمل اسمه، ومديره)، تعرفت إلى صهره البارون فون إيكارد شتاين، الذي كان يتولى مهام السفارة الألمانية بالنظر إلى مرض السفير.

في صحبتي الوثيقة والمتكررة لهؤلاء الأصدقاء، تمكنت من أن أراقب عن كثب سلسلة من الأفعال الديبلوماسية البالغة الأهمية. كان هنالك إدراك متزايد في بعض الأوساط في بريطانيا أن تلك" العزلة الجميلة:، التي بدت قبل ذلك بزمن قصير طبيعية جداً ومستحبة جداً، كانت لها سلبياتها الخطيرة أيضاً. وكان من شأن أزمة افريقيا الجنوبية أن تُظهر، بجلاء، مقدار عزلة بريطانيا الحقيقية؛ وكان الشعور المعادي

لبريطانيا من العمق والمرارة وظاهراً في سائر أنحاء اوربا بحيث لم يعد بالإمكان تجاهله. وكان السيد جوزيف تشمبرلين، وزير المستعمرات، هو الروح المحركة في وزارة اللورد سالزبوري في هذه السنين، وكان واقعياً بالرغم من الطبيعة الوهمية لمثله الإمبريالية أحياناً. وكان يدرك إدراكاً حاداً أخطار الوضع الذي كانت بريطانيا فيه. فتولد لديه إيمان نتيجة استعراضه لتوجهات القوة العالمية في ذلك الوقت، بأن هناك إمكانية للوصول إلى تفاهم مع ألمانيا، ورأى بوضوح الأخطار الكامنة إذا لم يتم الوصول إلى مثل هذا التفاهم. وكشفت سيرته الذاتية[1] مؤخراً حجم الجهود التي بذلها تشمبرلين لتأمين اتفاق ودي بين إنكلترا وألمانيا.

إن ذكرياتي الخاصة تؤكد ذلك بحذافيره. فقد بذلت بريطانيا جهداً مخلصاً كبيراً للوصول إلى تفاهم؛ وإذا كانت أخفقت في ذلك ، فإن السبب يعود إلى موقف الألمان أنفسهم؛ وهو موقف نجم عن تعنت المفاوضين الألمانيين الرئيسيين، الأمير فون بولوف والهر فون هولشتاين، ونظرتهما المنحازة. ولم أكتف بمراقبة المقاربات البريطانية فقط، بل وكنت مدركاً لردود الفعل الألمانية على هذه المقاربات وعالماً بها عبر صداقتي لفون إيكاردشتاين. كنت قادراً على رؤية مقدار حزن إيكاردشتاين بسبب رفض الألمان المستمر يد الصداقة التي مدتها إليهم بريطانيا بإخلاص- ذلك الرفض الذي كان يقوم دائماً على حجج ومراوغات مصطنعة. ومن المحزن حقاً التفكير في النتائج البعيدة المدى لفشل هذه المفاوضات. أفلم يكن مجرى التاريخ في القرن العشرين

---

١ - حياة جوزيف تشمبرلين ، م٣ لـ ج . ي غارفن ، وم٣ ، وم٤ لجوليان اميري (لندن ، ماكميلران وشركاه المحدودة) .

مختلفاً جداً لو نجح تشمبرلين في الحيلولة دون نمو العداء الإنكليزي- الألماني؟ أفلم يكن باستطاعتنا تفادي حربين عالميتين اثنتين؟ ولو استجاب الألمان، لكان هذا هو ما حدث، ولكن علامة الاستفهام الكبرى للسلام الأوربي تقع دائماً في موقف ألمانيا.

إن مزاج الرجلين الألمانيين، اللذين أشرفا على هذه المفاوضات، قد منعهما من السمو إلى عظمة الفرصة التي أُعطياها. لقد نشأا في ظل بسمارك الكبير، ولكنهما لم تكن لهما براعته وحنكته السياسية. كانا في الأساس بيروقراطيين صغيرين لهما جميع كبرياء بسمارك وعجرفته، ولم يكونا قادرين على إزالة الشك من نفسيهما فيما اعتقداه مكراً ودهاء بريطانيين.

بعد ذلك بزمن طويل جداً، أخبرني اللورد رينال- سابقاً: السير رينال رود سفير بريطانيا في روما لسنوات عديدة- أنه بعد الحرب العالمية الأولى، عندما كان الأمير بيلوف يعيش متقاعداً في روما، بحث معه هذه المسألة بأكملها، وأن الأمير بيلوف اعترف بتردد كبير وأسف أنه قد أخطأ في رفض يد الصداقة التي عرضتها بريطانيا بصدق وإخلاص.

وعندما انتهت جولتي الأوربية الأولى، شرعت في رحلتي إلى افريقيا الشرقية. لكن هذه الرحلة لم تكن رحلة بهيجة، وذلك لأن مهمتين دقيقتين تتطلبان قدراً معيناً من الديبلوماسية وحسن التصرف كانتا في انتظاري هناك. كان هناك عدة مستوطنات على طول الشاطئ عاش فيها الإسماعيليون، وكانت تنمو وتزداد عدداً وثروة، وكانت أكثر من واحدة من هذه الجاليات قد تورطت في منازعات- لم تكن ضئيلة الشأن إطلاقاً- مع السلطات المحلية.

كانت إفريقيا الشرقية في بداية تفتحها وتطورها السريعين المذهلين؛ غير أنها قدمت عند مدار القرن صورة تختلف اختلافاً تاماً عما هي عليه اليوم. فقد تورطت عدة دول أوربية ذات مطامح استعمارية، عبر آلاف الأميال من البحر الأحمر إلى الكاب، فيما أثبت أنه ناحية متأخرة وإنما دراماتيكية من نواحي التزاحم على أفريقيا. فالحبشة، وهي الدولة الأفريقية الوطنية الوحيدة ذات المطامع التوسعية، كانت قد اشتبكت في حرب دامية، ولكنها مظفرة، مع إيطاليا. وكان رس ماكونن، الملازم القدير وخليفة الإمبراطور مينيلك، قد أوقع هزيمة كبرى بجيش إيطالي في معركة عدوه سنة ١٨٩٦، ووضع بذلك حداً لجهود إيطاليا، التي استمرت طيلة ثلاثين عاماً أو أكثر، لتوسيع معقلها المتزعزع بعض الشيء على الساحل. أما البريطانيون الذين كانوا قد وقعوا معاهدة مع سلطان زنجبار، فقد أنشؤوا ما كان يعرف عندئذ بالمحمية الأفريقية الشرقية(وهي اليوم مستعمرة كينيا الغنية ذات الجاليات المتعددة الأجناس)، وقاعدتها ممباسا، تحت إشراف وزارة الخارجية. وبعد ذلك بوقت قصير، كانت هنالك مشاريع للإسكان تقدم بها اللورد ديلامير وآخرون غيره في ما سمي" المرتفعات البيضاء" في الأراضي الداخلية للمحمية.

وإلى الجنوب كان الألمان قد ركزوا مطاليبهم في الداخل من دار السلام إلى الأراضي التي تعرف اليوم بتانغانيكا. وأبعد إلى الجنوب كان للبرتغاليين، الذين كانوا أول من غامر من الأوربيين بدخول هذه المناطق في عصر الكشوف الجغرافية العظيم، مستعمرة قديمة. وإلى الداخل، كان جيمسون ورواده يعبرون الفلاة والبطحاء من الأراضي

الحالية والتي قدّر لها أن تصبح روديسيا الشمالية والجنوبية. وإلى الجنوب أيضاً، كان البريطانيون والبوير قد اشتبكوا في ذلك النزاع الطويل الكالح: حرب أفريقيا الجنوبية.

وإذا كانت بدايات العظمة والازدهار الاقتصاديين المستقبليين ملحوظة في أفريقيا التي زرتها لأول مرة سنة ١٨٩٩، فإن بذور المصاعب والمشكلات السياسية والاجتماعية لم تكن أقل وضوحاً وظهوراً.

فزنجبار، التي زرتها أولاً، كانت مركزاً قديماً من مراكز الثقافة العربية. ولم يعد السلطان يمارس سلطات مطلقة، كما كان شأنه في السابق، ولكنه كان حاكماً دستورياً يحكم بمشورة المقيم البريطاني وموظفيه. وكان قد نشأ نزاع معقد بين هؤلاء الموظفين وأتباعي الإسماعيليين حول ملكية بقعة من الأرض على شاطئ البحر كانت قيمتها قد ازدادت بسرعة، ولكنها كانت مقبرة إسماعيلية. وتمسك كل من الفريقين في هذا النزاع الحاد بموقفه، غير أني تمكنت في آخر الأمر من الوصول إلى حل لهذا النزاع أعترف بأنه كان بمثابة تسوية. وأقرّ هنا بأني قد عملت طيلة حياتي على أساس المبدأ القائل بأن التسوية هي أفضل من الخلاف المتصلب الذي لا يؤدي إلى شيء. وقد نجحت التسوية التي توصلت إليها في زنجبار إلى درجة أنه لم يحدث بعد ذلك في السنوات التالية أي نزاع ذي أهمية بين الإسماعيليين والسلطات البريطانية.

وواجهت في دار السلام نوعاً مماثلاً لنزاع زنجبار، وذلك بين السلطات الألمانية وأتباعي حول حقوق التجارة البرية. وقد استمر هذا النزاع واشتد طوال العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وكان الألمان

يشكوّن في أتباعي الإسماعيليين، وكانوا يتهمونهم بتهريب السلاح إلى البلاد ، وبأنه كانت لهم يد في الثورة العربية التي نشبت قبل ذلك بنحو عشر سنوات. لهذا السبب، كان هناك قدر كبير من الجفاء من جانب الحاكم الألماني وموظفيه عند وصولي، ولكني تجالدت وتمكنت من حسم النزاع ومحو الشك(الذي ربما كان سبباً في حدة النزاع) قبل مغادرتي لدار السلام.وعندما غادرت البلاد ، كنت أعرف أنه لم تبق أية خلافات بين الإدارة الألمانية وأتباعي.

وعدت من أفريقيا الشرقية إلى أوربا لوقت قصير. ثم حولت وجهتي، مع دخول فصل الشتاء، جنوباً وشرقاً، وفي طريقي إلى الهند زرت مصر للمرة الأولى. إن اولئك الذين لم تكن لديهم مثل خبرتي، ولم يسعدهم الحظ بالوقوع في سحر مصر، سيجدون من العسير عليهم، في اعتقادي، أن يدركوا سحر النظرة الأولى التي تلقيها العين على مصر. أضف إلى ذلك أن نظرتي الأولى إنما كانت في الصباح الباكر من يوم شتوي كامل، ولست بحاجة إلى القول إني منذ ذلك الحين وطيلة حياتي احتفظت لمصر بزاوية خاصة من قلبي وإني كنت أعود إليها كلما وجدت إلى ذلك سبيلا.

إن لجمال مصر صفة خاصة تنفرد بها: فالسماء الواسعة الهادئة، والصفاء الغريب الذي يتميز به نورها وجوّها، وجلال غروب شمسها ولياليها المضاءة بالنجوم، وتماثيلها الهائلة التي تنبئ عن ماضٍ جليل مجيد. ولكن كان هناك أشياء أخرى بالنسبة لي غير مجرد تلك الأشياء المرئية. فقد أردت إقامة اتصال شخصي مع جماعتي الكبيرة من الإسماعيليين السوريين وما تبقى من الإسماعيليين المصريين ممن لم تتح

الفرصة لهم بعد للقدوم لزيارتي في الهند. كما زرت المقر العظيم للعلوم الإسلامية، جامعة الأزهر.

لقد حدثت في ذلك الحين أحداث خطيرة مثيرة. كان انتصار اللورد كيتشنر العظيم في أم درمان في السودان لا يزال ماثلاً في الأذهان وكان الجنرال وينجيت قد عاد من الجنوب، وقتل الخليفة وقضي على آخر أتباعه من الدراويش.

وقمت بزيارة المقيم البريطاني في مصر، اللورد كرومر، الذي كان في أوج سلطانه آنذاك. قال لي إن مصر بحاجة ماسة لرجل من مثل السير سيّد أحمد لكي يقدم للمسلمين المصريين ذلك النوع من التجديد الثقافي الذي كان قد قدمه وفعله في أليكار. وكان في مصر وقتذاك هوّة عميقة بين المحافظين القدماء من أتقياء المسلمين الذين كانوا يزدرون العلوم والتقنيات الحديثة، ويتكلمون اللغة العربية ويقرؤونها من جهة، وبين الطبقات العليا" المتفرنسة" التي انحصرت قراءاتها في الروايات الفرنسية، وكانت تجتمع في النوادي، وتقضي أوقات فراغها في لعب الورق والمقامرة الليلية، وكانت تكره البريطانيين وتتوق إلى خروجهم وعودة عهد الخديوي إسماعيل، من جهة أخرى. لم يكن في مصر شيء مثل جامعة أليكار تنير لسكانها الطريق نحو تسوية لفهم العلوم الغربية الحديثة، ولتنشئة نخبة قادرة على التعاون مع الإداريين والفنيين البريطانيين في عملية النهوض الاجتماعي والاقتصادي، التي كانت البلاد في حاجة يائسة إليها.

ولسوء الحظ، كان الخديوي عباس حلمي مريضاً أنذاك- وكان الأطباء يشكون في أنه مصاب بنوع من الباراتيفوئيد- ولذلك لم أتمكن

من مقابلته. غير أننا أصبحنا في السنوات التالية صديقين حميمين، وقد أعجبني فيه توقد ذهنه، وسعة اطلاعه على الأمور السياسية والتاريخية، وستسنح لي الفرصة للحديث عنه في مكان لاحق من هذا الكتاب. أما الوزراء المصريون الذين قابلتهم، فلم يكونوا إلا أشخاصاً معينين من قبل البريطانيين، وفي الواقع من قبل اللورد كرومرنفسه.

إن اولئك الذين لا يعرفون القاهرة إلا كما هي اليوم لايستطيعون أن يكونوا أية فكرة عن الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في أوائل العقد الأول من القرن العشرين. كانت الفنادق مليئة بالأغنياء من الأجانب، الذين" يشتون" في مصر. وكان ذلك عندئذ تسلية شائعة بين أكابر القوم. كانوا يقومون برحلات في النيل في ذهبيات يستأجرونها لهذه الغاية أو في إحدى بواخر شركة" توماس كوك". وكانوا ينفقون الأموال عن سعة ويقضون وقتاً طيباً يحيط بهم المرشدون والمترجمون الذين كانوا يتكلمون تشكيلة غريبة ومكسرة من كل لغة اوربية.

كانت محتويات متحف القاهرة مدهشة، كما كانت دائماً، وكما ستكون أبداً. ومع أن اكتشافات اللورد كرنرفون العظيمة لتوت عنخ آمون لم تكن قد تمت بعد، إلا أن المتحف ضمّ أكثر مما يكفي للمشاهدة، ولكن ترتيبها كان أقل ملاءمة مما هو اليوم. وكانت هناك عادة غير مستحبة متبعة في المتحف قوامها الجثث المحنطة لجميع الفراعنة العظام لكل من يود مشاهدتها. وهكذا كان باستطاعتك رؤية رعمسيس الثاني بملامحه النبيلة التي تشبه ملامح الصقر ممدداً في نعشه كما كان يبدو في حياته تقريباً منذ قرون مضت، وغيره من جبابرة الملوك الفاتحين القدامى، عند قدمي أي زائر يدخل إلى المتحف.

غير أني لما كنت مهتماً بالحاضر أكثر من اهتمامي بالماضي، فإن أعظم حقيقة عن القاهرة في تلك الأيام أنها كانت، بالنسبة لي، ومن جميع الوجوه العملية، بونا أو سيملا أخرى. بل كانت قاعدة للسيادة البريطانية أكثر من الهند نفسها. لم يكن الإنكليز قابضين على زمام السياسة في البلاد فحسب، بل كانوا يدعون تفوقاً اجتماعياً بدا أن المصريين يتقبلونه بخنوع. أما الهياج السياسي القليل الذي كان موجوداً، فقد عزي إلى" دسائس القصر".

كان الاتجاه العام لدى جميع الطبقات نحو السلطة البريطانية المحتلة، ونحو موظفيها ومعتمديها، وضباط الجيش البريطاني ومستخدمي المؤسسات البريطانية المتزايدين، اتجاهاً يتسم بالخضوع والطاعة الظاهريين. ولسوء الحظ لم يكن هناك إلا صلة ضعيفة بين أفراد الجالية البريطانية- السياسيين منهم والعسكريين والتجار- وبين الأرستقراطية المصرية والبورجوازية الثرية في القاهرة والإسكندرية. وعندما كان أثرياء المصريين يأتون إلى أوربا فإنهم كانوا يذهبون إلى باريس، أو سويسرا، أو النمسا، أو إيطاليا، ولكنهم كانوا يحاذرون الاقتراب من إنكلترا. وكان عدد قليل من السياح الذين يؤمون مصر في الشتاء، باستثناء بعض الأفراد من القارة نفسها، يهتمون بمعرفة الطبقات المصرية العليا والوسطى. حتى عضويةُ نادي الجزيرة الرياضي في قلب القاهرة، كانت محرمة على المصريين إلا في بعض الحالات الاستثنائية النادرة. والأشخاص الوحيدون من غير البريطانيين الذين كان البريطانيون يجتمعون إليهم- باستثناء مرؤوسيهم وخدمهم- كانوا عديداً قليلاً من أفراد الأسر الشامية الثرية، الذين سعوا للاندماج اندماجاً كلياً

بالسلطة الحاكمة، فكان ذلك سبباً في قبولهم. إن عمق هذا الانقسام الاجتماعي وحدّته يمكن رؤيتها في حقيقة أنني أنا نفسي، الذي التقيت بالطبع مصريين إبان اسفاري في أوربا- ومعظهم من الطبقة الأستقراطية وأبناء السلالة الحاكمة- نادراً ما رأيتهم عند زيارتي القاهرة إلا في بيوتهم. فلم يكن هناك أساس مشترك للمخالطة الاجتماعية، وإذن فوراء واجهة الخنوع والمذلة قد تطوّر حتماً شعور بالاستياء الكئيب المفرّخ الذي كاد أن يكون شخصياً، والذي سمم فيما بعد، دونما ضرورة وبمرارة، اصطدام الحركة القومية المصرية بمصالح بريطانيا بوصفها الدولة المحتلة.

وبعد ثلاثة أسابيع أو نحوها أمضيتها في القاهرة، عدت إلى الهند فوجدت أن العمل الذي أنجزته لم يمر دون أن يحظى بانتباه من كان يعنيهم الأمر. فقد أنعم علي سلطان زنجبار بوسام نجمة زنجبار البرّاقة، وهو أرفع أوسمة زنجبار، وتلاه من بعدُ إمبراطور ألمانيا فأهداني وسام التاج البروسي الملكي من الدرجة الأولى.

ومن الهند، قمت بجولة قصيرة في بورما والتقيت أتباعي هناك للمرة الأولى. وبهذه المناسبة، لا أزال أذكر خبرة مفزعة نوعاً ما. فقد حدث أن مسلماً من معارفي- وليس من أتباعي- كان كريماً جداً معي وقدّم إلي مساعدته بطرق مختلفة. ولذا زرته لأشكره، وبينما كنا نتبادل عبارات المجاملة أرسل يطلب لي قدحاً من الشراب. وأُحضر الشراب. وعندما ناولني الخادم القدح الطويل، رأيت أن اليدين اللتين كانتا ممدودتين به كانتا يدي مجذوم. وقد خلت أن الزمن قد توقف، واستولى علي قدر لا يوصف من الرعب والفزع. وانتحلت كل ما استطعت من الأعذار قائلاً إنني لم أكن عطشان، وحاولت التخلص من قبول القدح

الذي كان لا يزال ممدوداً إليّ، ولكن مضيفي ألحّ علي بحماس وبالغ في الإلحاح حتى إني، آخر الأمر، أغمضت عيني وأخذت القدح وأفرغت ما فيه في جوفي، ولكن هول تينك اليدين لم يفارقني أبداً.

وعدت إلى أوربا سنة ١٩٠٠، وهي سنة المعرض الكبير في باريس. وهناك التقيت شاه إيران، مظفر الدين. وأعتقد أنْ ما من ملك آخر آذى إيران أكثر مما آذاها هو. كان رجلاً عليلاً ضعيفاً وجاهلاً إلى درجة هائلة. كان متقلب الأطوار شاذ المزاج مبذراً، يوزع الهدايا على أحبائه، عاجزاً عن إدراك أيّ من مسؤولياته وواجباته بوصفه شاه إيران. لقد بدد كل تلك الثروة التي جمعها والده ناصر الدين طيلة خمسين عاماً قضاها في حكم البلاد حكماً فطناً قوياً بدّدها على طيشه وحماقاته. كان له ولع صبياني يدعو إلى الرثاء والشفقة بأسخف الأدوات وأغلاها ثمناً- من مثل الصناديق الموسيقية المطعمة بالجواهر والذهب والفضة، حتى إنه أنفق على هذه وأمثالها من البهارج والزينات الكاذبة ثروة طائلة. فلا عجب أن قامت الطبقة المثقفة في إيران بإطلاق لقب" قضية موفز" عليه لإضافة شيء للتورية إلى اسمه، مظفر الدين، وقد التقط الأجانب في طهران تهكمهم هذا وتبنّوه.

لقد كان بالفعل" قضية موفز" لبلاده. وإذ كنت أمت إليه بصلة القربى من ناحية أبي وأمي معاً، فقد تلقاني بترحاب وعطف ومنحني أرفع الأوسمة لديه، وقدم إليّ هدايا من الحلي الماسية. لكنه كان أبله حزيناً. فالتحدث إليه كان كالتحدث إلى طفل- وإلى طفل لا يتمتع بأي قدر من الفطنة والذكاء. وكان رئيس وزرائه القوي، أتابك، يستغل مظهره وسلوكه الطفولي لمقاصده الخاصة. ولم يكن يقدم إليه أية تقارير

جدية في الجلسات الصباحية، بل كان يقص عليه ذلك النوع من القصص الخيالية التي يقصها المرء على الطفل الصغير بغية تسليته.

وعندما قابلت الرجل المسكين اتفق أن ذكرت أني عدت مؤخراً من بورما، فسألني عندئذ قائلاً:

" أليس لسكان بورما رؤوس أضخم كثيراً من رؤوس سائر الآدميين؟"

وعندما كان في باريس سمع بمسيو ومدام كوري وباكتشافهما الراديوم. فطلب أن يرى الراديوم في حالة العمل. وقال العالمان المميزان إنهما سيحضران إلى الفندق ويقدمان له عرضاً لخواص الراديوم، ولكنهما أوضحا أن الظلمة المطلقة شرط ضروري لإجراء التجربة. وهكذا، تم تحويل أحد أقبية الفندق إلى غرفة مظلمة، وأسدلت الستائر السود، ولم يسمح لأي قدر من النور بالدخول إلى الغرفة. ونزل الشاه وبعض أفراد حاشيته إلى القبو، ثم وصل مسيو ومدام كوري وأخرجا قطعة من الراديوم أنار بريقها الساطع جميع أرجاء الغرفة. وفجأة ذُعر الشاه وشرع يصيح ويزعق ويركض في الغرفة، ثم راح يهذي ويلغو ويتهم مسيو ومدام كوري بمحاولة قتله.

لم يكن مسيو ومدام كوري معتادين على هذا النوع من المعاملة. وإذ اعتبرا أنهما أهينا إهانة بالغة، فقد استأذنا بالانصراف. وأفهم الشاه آخر الأمر أنه قد آذى شعورهما إلى حد كبير. وكتعويض عما بدر منه نحوهما، قدم إلى كل منها أرفع الأوسمة، وأمر أن يرصع كل وسام بأحجار الماس. لكن ما إن وصلت الألعوبتان إلى مدام وميسو كوري حتى أعاداهما مع شكرهما، ذاكرين أنهما تعرضا لإهانة كبرى بحيث لم يكن بإمكانهما قبول أي شيء من هذا النوع.

ومن الطبيعي أن الشاه قد رغب في الصعود إلى برج إيفل، ومن الطبيعي أيضاً أنه قد ذعر في منتصف الطريق. الأمر الذي اقتضى إيقاف المصعد وإنزاله كَرّة أخرى.

كان سلوكه أمام الناس، وفي الخفاء أيضاً، سلوكاً يدعو إلى الرثاء. ولما كنت أنا نفسي من سلالة متحدرة من أصل إيراني ومن أفراد العائلة الحاكمة آنئذ، أعني عائلة قاجار، فقد كنت واعياً بصورة حادة للعار والخزي اللذين يسببهما هذا السلوك. كذلك كان رجال الدولة والديبلوماسيون الإيرانيون، الذين شانهم ما كان يفعله لسمعته وسمعة بلاده. ولذا فقد حاولنا جميعاً حجبه بأكثر ما نستطيع متذرعين بسوء صحته، وهو ما كان يستند إلى قدر معين من الحقيقة والصدق لأنه كان يعاني من مرض الكلى منذ زمن طويل.

لقد كان لجنونه، بطبيعة الحال، جذور أعمق إلى حد كبير. فقد أظهر جميع أخطار الملكية الشرقية الأتوقراطية العتيقة. غير أنه مهما كان مثل هذا المستبد العاتي عاجزاً، سخيفاً أو مجرماً، فإن أحداً من رجال دولته الأذكياء المقتدرين من حوله لم يتصد له يوماً ويخبره بالحقيقة عن نفسه. إن الهيبة الغامضة التي تحيط بالملكية وبدم الملوك قد شجعت نوعاً من الشلل العقلي حتى في الرجال الصالحين المخلصين، إلى درجة أنهم عجزوا، لمصلحة ملكهم ومصلحة بلادهم، وحتى لمصلحتهم هم بالذات، عن تقديم النصح والتوجيه الحقيقيين. ومما سمعته من بعض الأصدقاء الروس، يبدو أن هذا النوع من الجو قد ساد روسيا القيصرية. وإني لأتساءل: هل اختفى هذا الجو، حتى في روسيا الستالينية؟

ليس باستطاعتك وصف هؤلاء الرجال المشلولين بالجبن؛ ذلك أنهم

لم تنقصهم الشجاعة الكلية، وإنما عجزوا عن خدمة زمانهم. وفي اعتقادهم أن مثل هذه القداسة قد صانت ببساطة ملكهم بحيث أن المسألة لم تكن مجرد مسألة تغاضٍ عن سخافاته ونواحي ضعفه ومسامحته على ذلك- لأنهم لم يروا لهذه السخافات ونواحي الضعف أيما وجود إطلاقاً. إن التاريخ يعلم الناس هذا الدرس المرة تلو الأخرى: يؤسس رجل عصامي مقدام سلالة حاكمة، ثم تحيط ذريته الضعيفة العاجزة نفسها بهالة شبه إلهية، ثم تنهار السلالة لتبدأ العملية من جديد، إلا إذا أُغلق على الملك نصف الإله، كما حدث في اليابان منذ قرون، وحُبس في قصره، لا يمكن أن يقربه إنسان، ولا أن يراه إنسان، وتمارس السلطة كلها باسمه ونيابة عنه على يدي محافظي القصر. لقد كان مظفر الدين المسكين مثلاً ساطعاً على النقائص التي تدعو إلى الرثاء في هذا النوع من الاستبداد والجور.

من باريس ذهبت إلى برلين، والتقيت هناك فون هولشتاين على الغداء- وكان أحد الرجلين المسؤولين عن فشل المحاولات للوصول إلى تفاهم أنكلو- ألماني. كان رجلاً منزوياً، سكوتاً يأكل كثيراً ويتكلم قليلاً. كما قابلت القيصر في بوتسدام. كان ويليام الثاني عندئذ، كما أعتقد، في ذروة حكمه الغريب، وقد قابلني بلطف ومودة. وجرى تحذيري بأنه كان شديد الحساسية فيما يتعلق بعاهته الجسدية، وأنه كان يكره أن ينظر أيّ كان إلى ذراعه اليسرى الذاوية. ولكن رجال بلاطه وآخرين ممن عرفوه قالوا إن فضول الناس من الشدة بحيث أن كل من يقابل القيصر لأول مرة يجد نظره ينجذب بصورة آلية نحو الجانب الأيسر من لباسه العسكري. وبينما كنت منتظراً دوري ظللت أردد بيني وبين نفسي: " لن أنظر إلى ذراعه ... لن أنظر إلى ذراعه...".

دخل القيصر إلى الغرفة بخطوته الواسعة، ولم تلبث عيناي أن أخذتا تحدقان في ذراعه اليسرى. ولحسن حظي، كما أعتقد، لابد أنه كان قد اعتاد على ذلك الصنيع إلى درجة لم تدعه يقلل من الحرارة واللطف اللذين استقبلني بهما.

ومد يده اليمنى وصافحني بها، ولا أغالي إذا قلت إنه كاد يسحق يدي سحقاً. كان القيصر، وكتعويض عن عاهته، قد وطّد العزم منذ طفولته على أن تكون ذراعه اليمنى من القوة بحثي تؤدي عمل الاثنتين معاً. كان يؤدي تمرينات قوية بصورة مستمرة، ويقضي عشرين دقيقة يومياً في لعب السيف؛ كما كان يلعب" تنس- الباحة" مرات كثيرة ساعتين متواليتين، ويقوم بجميع أنواع التمرينات العلاجية الأخرى. وكان نتيجة ذلك أن نمت قوة هائلة في ذراعه اليمنى، من آثارها تلك المصافحة القوية إلى حد مفزع مريع. وقد علمت أن تجربتي لم تكن الوحيدة من نوعها. قالت لي دوقة أوف تاك (المركيزة أوف كمبردج فيما بعد) إنها، شأن معظم النساء الأخريات اللواتي صافحن صاحب الجلالة الامبراطورية، وجدت صعوبة بالغة في كبت صيحة الألم عندما أخذ يدها في يده.

ولكنني واثق من أنه لم يكن يعي أبداً ما كان يفعل. لقد كان رجلاً مهذباً لدرجة لم يكن بالإمكان معها أن يفعل ذلك عامداً متعمداً، ولكن عقله الباطن كان يدعوه إلى إظهار هذه القوة الجسمانية العنيفة حالما تقع أعيننا على يده الذاوية.

وإذ أعود بالذاكرة إلى الوراء، أدرك أني كنت أقضي وقتاً ممتعاً مع ملوك ذلك الزمان. ففي السنة نفسها ذهبت إلى القسطنطينية، حيث

استضافني السلطان عبد الحميد في فندق بيراbالاس، وكانت لي مقابلة طويلة معه في قصر يلدز. لقد كان هذا اللقاء موضوع تأويلات سياسية غريبة في ذلك الوقت وفي وقت لاحق. كان السلطان هو الخليفة أيضاً، وبالتالي رأس الطائفة السنية في العالم الإسلامي بأجمعه، وكنت أنا رأس الطائفة الإسماعيلية من الشيعة، وهكذا كان أساس تلك التأويلات واضحاً للعيان.

ويتعين علي القول بأنه كانت لاجتماعنا رائحة الدراما الغريبة، لأن عبد الحميد كان يعيش وقتئذ في خوف عصبي من الاغتيال[1]. كان مدمناً على التدخين، وكنت أنا طيلة حياتي شديد الحساسية للسجائر. وما إن دخلت إلى غرفته حتى أغلقت الأبواب فوراً، ولم يكن في الغرفة إلا أنا والسلطان وأحد المترجمين، ذلك أني لا أتكلم التركية، ورفض عبد الحميد أن يتحدث بالعربية أو الفارسية، على الرغم من اعتقادي بأنه كان يقرأ هاتين اللغتين. كانت الغرفة حارة وسحب الدخان تطفو فوقنا في الهواء، وكان السلطان مرتدياً ثوباً فضفاضاً، ورمانة الفيلدمارشالية تتدلى من كل من كتفيه. وأدركت ببطء أنه كان يخفي تحت أثوابه سلاحاً ما، وأن أثوابه كانت من النوع الذي لا يخترقه الرصاص إلى

---

١ – إنه لأمر هام، لكن ليس من دون سخرية، إدراك أن كلمة "Assassin" التي لها معناها الخاص المعاصر (قاتل)، أول ما أطلقت، قبل قرون عديدة مضت، على أسلافي الإسماعيليين وأتباعهم. فمنذ أقدم الأزمنة، كانت تلصق بالأقليات المضطهدة شتى أنواع التسميات السيئة– وبعد كل شيء لا يمكنك أن تقتل كلباً ما لم تطلق عليه اسماً سيئاً– وكان الإسماعيليون في العصور الوسطى من مثل هذه الأقليات التي قاتلت من أجل وجودها وحقوقها. وكان على مضطهديهم تسميتهم باسم سيء؛ فألصقوا بالإسماعيليين تهمة صناعة واستخدام عقار "الحشيش" وزُعم أنهم كانوا مدمنين عليه. وهكذا جرى اختراع الاسم السيء، والتصق بهم.

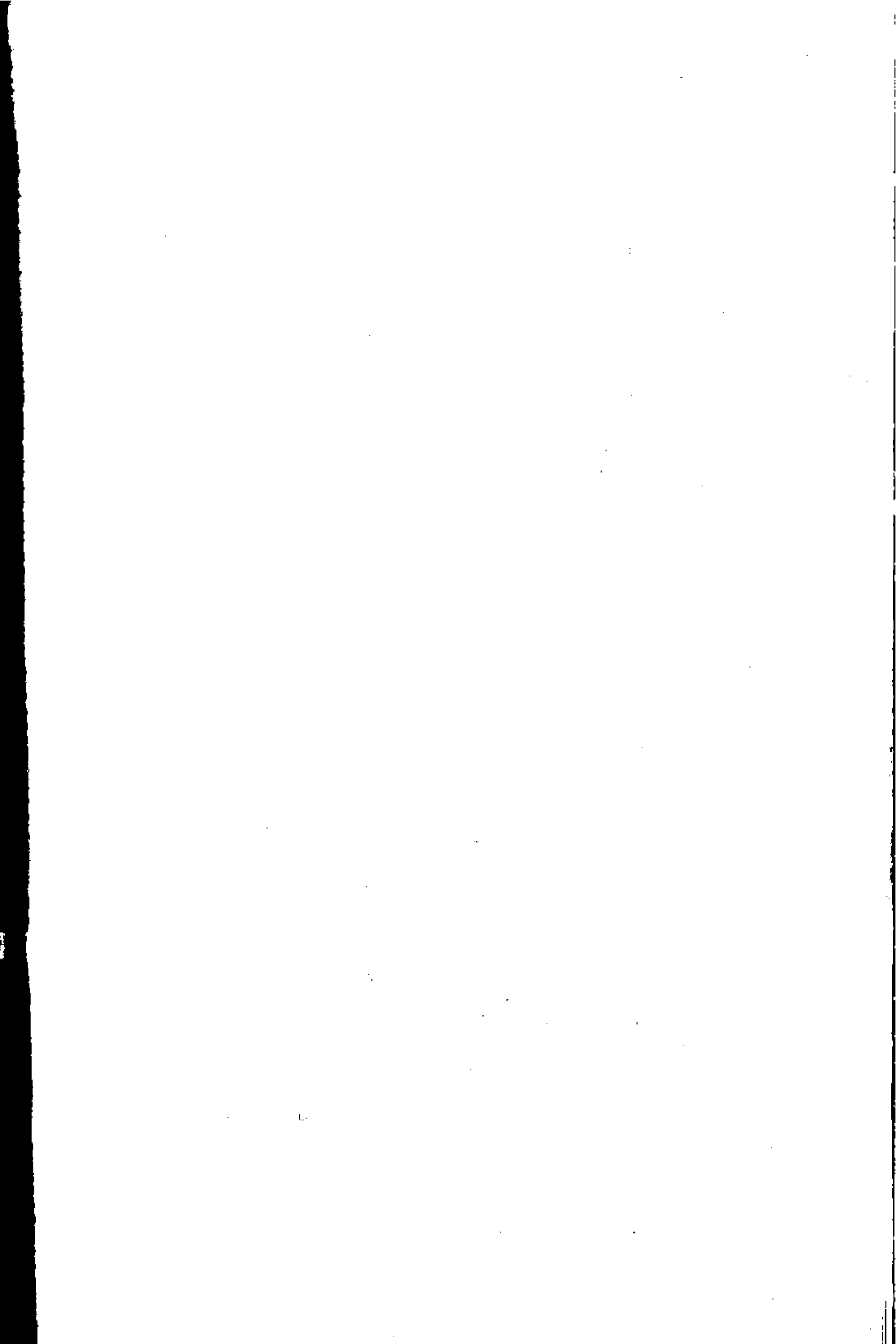
الدرجة التي كانت ممكنة في تلك الأيام. وهكذا، تساءلت عما إذا كان قد ظن أنني إنما أتيت لأقتله؟

وبهرني منظر آخر. فقد كان عبد الحميد يتصنع في مظهره إلى حد كبير- كانت لحيته تصبغ بالصباغ الأسود، وكانت شفتاه تلونان باللون القرمزي، وخداه باللون الأحمر، وحاجباه يعدلان إلى درجة مضحكة. كان يمكن أن يكون بهلولاً مضحكاً في سيرك، ولكن عينيه كانتا تقدحان الشرر. ومع ذلك، لم يكن هذا المكياج تعبيراً عن تخنث، ذلك أنه كان كامل الرجولة إلى أبعد ما يكون، وكان والداً لأطفال كثيرين، وزوجاً وحامياً محباً لعدد كبير من النساء.

كان حديثنا ودياً أنيساً، وأذكر أنه قد اهتم وتأثر لكوني كنت أملك، عن طريق كاشغر وسينغيانج، معلومات حديثة موثوق بها عن مسلمي الصين الغربية.

ولقد قيل إن خوفه من الاغتيال حدا به إلى جعل عدد كبير من الناس يذوق كل ذرة من الطعام وهي في طريقها إليه، بمن فيهم الطاهي. وبما أنني لم أتناول معه الطعام، فإني لا أستطيع أن أشهد بصحة القصة، ولكني أعرف فعلاً أنه كان يعتقد أن الطعام في فندقي لم يكن صالحاً، وهكذا كانت عربة مقفلة تقطع المسافة بين القصر والفندق، وهي تنقل حملاً من الأطباق فيها مالذ وطاب من المآكل التركية والفارسية أعدت لي في القصر، وأرسلت إليّ بأمر صريح من عبد الحميد.

ومن القسطنطينية عدت أدراجي إلى الهند لمعالجة أحد الأمور في منزلي وحاشيتي، وكان ذلك عمليةَ تنظيف تطلّبت قدراً كبيراً من الطاقة والصبر والاحتمال أشهراً عديدة.



الفصل الرابع

تسع سنوات مزدحمة (١٩٠٠- ١٩٠٩)

كان اغتيال قريبي في بونا، صيف ١٨٩٨ قد أكّد، بأسوأ مثال ممكن، الصفات المفككة الكامنة في الحاشية الكبيرة الاقطاعية المبذّرة التي ورثتها، والتي وصفتها بشيء من التفصيل في فصول سابقة.

كنت مسؤولاً الآن عما يقرب من ألفين من الناس في منازلي في بونا وبومباي، وكنت في الحقيقة أعيلهم بينما يقضي معظمهم أوقاته دون أن يؤدي أي عمل. كانوا يأكلون ويسكنون البيوت على نفقتي الخاصة. غير أن العبء المالي، على ضخامته، لم يكن مقلقاً لي بقدر ما أقلقتني الأساليب المكروهة لطريقة حياتهم.

عندما غادر جدي إيران أخذ معه- كما بدا له طبيعياً ومناسباً- قافلة أميرٍ من أمراء العصور الوسطى. ولكننا في بومباي، في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، لم نكن نعيش في العصور الوسطى.

ولم تكن هناك العائلة المباشرة وحدها، وهذه كانت كبيرة إلى درجة كافية. ففي القسم الأول من تجوله، كان جدي يصطحب معه جيشاً من الفرسان الذين كانوا يحاربون تحت إمرته في فارس وأفغانستان، وأدّوا مهمات عسكرية كثيرة كلفهم بها فيما بعد. وكان هؤلاء يعدون في

بادئ الأمر مئتين على الأرجح، وكان منهم الأمراء والفرسان والفلاحون، لكنهم كانوا جميعاً متفانين في ولائهم وإخلاصهم لجدي. وعندما استقر جدي في بومباي، أقاموا من حوله- ألم يكونوا أتباعه ومواليه الذين صبروا وقاتلوا معه؟- وقبل أن أولد بزمن طويل، وطيلة أيام طفولتي، كانوا هناك؛ محاربين مسنين انتهت معاركهم، في بيوت وغرف منتشرة في أرض فسيحة الأرجاء مع عائلاتهم التي كانت تنمو وتتكاثر من حولهم. لقد أرسل البعض منهم، بعد أن استقر بهم المكان، في طلب زوجاتهم من إيران، ولكن معظمهم اتخذوا لأنفسهم زوجات هنديات.

ولكن هؤلاء المحاربين القدماء وعائلاتهم لم يكونوا كل شيء. ففي إبان خمسينيات القرن التاسع عشر، توافد الأتباع بأعداد لابأس بها من آسيا الوسطى، ومن تركستان وسينغيانج، ومن بخارى وأفغانستان، لتقديم ولائهم وإخلاصهم وما يتوجب عليهم من [أموال لإمامهم]. وكان بعضهم يعودون إلى بلادهم البعيدة، وبقي بعضهم حيث هم، وهؤلاء تزوجوا من فتيات هنديات أو من بنات أولئك الذين استوطنوا قبلهم. وجاء بعض الإسماعيليين من إفريقيا ومعهم العبيد من الزنوج، ولكنهم عندما عادوا إلى بلادهم رفض بعض عبيدهم العودة معهم ومكثوا في بومباي. جميع هذه العناصر المختلفة تزاوجت وتكاثرت حتى اذا حلّ عام ١٨٩٨ أصبحت تؤلف مجموعة من ألفين من الخلق، منهم الرجال والنساء والأطفال، الذين لم يكن لديهم ما يشغلهم إلا القليل. في أيام جدي وأيام أبي كان من المسلّم به (مع أنهم لم يكونوا طبعاً من الكثرة إلى هذا الحد) أنهم يعتمدون عليهما في حياتهم ومعاشهم، وطوال حداثتي لم يكن لأمي في الحقيقة من خيار سوى أن تستمر في إطعامهم

وإسكانهم. واتخذت المسألة، على مر الأجيال، طابع العادة في مجملها، وإن لم يكن طابع الحق المكتسب.

كان العسكريون المسنون يأخذون مرتبات تقاعدية من جدي بطبيعة الحال، وكانت هذه المرتبات تدفع إلى ذويهم أولاً من قبل والدي، ومن ثم من قبل والدتي في إبان حداثتي. ولكن كان لابد من توزيع المبلغ الأصلي بين ذرية المتوفى، وكان هؤلاء من الكثرة في معظم الأحيان بحيث أن نصيب الواحد منهم تضاءل إلى حد كبير. وكان معظمهم يزيدون دخلهم بطريقة أو بأخرى، ولكن هذه السنوات الطويلة من الحياة الخالية من المسؤولية في مدينة بومباي ومن حولها لم تجعل منهم بصورة خاصة مواطنين مفيدين. إلا إنهم كانوا ينحدرون من أصل نبيل عالي الروح، وانحصرت طاقاتهم الطبيعية الآن في الدسائس والمؤامرات والعداوات. كانوا سريعي الاستياء والامتعاض، ولذلك كانوا سريعين أيضا في إشهار السلاح.

وبالرغم من أن الاحتمالات كانت خطرة، إلا أن الوضع لم يبلغ درجة كبيرة من السوء حتى قتل قريبي في بونا. لقد كان هذا الحادث بمثابة إشعال الفتيل. ومنذ ذلك الحين، كانت أية محاولة للسيطرة على هذا العش من الدبابير، داخلياً من جانب الحاشية أو خارجياً من جانب الشرطة، تلقى تهديدات عنيفة ووحشية، وتلقيت تحذيراً إبان سفري بأن حياتي نفسها ستكون في خطر إذا ما حاولت تصفية أي من الأشقياء الذين أصبحوا يشكلون خطراً وفضيحة.

ومع ذلك، فقد صممت على وضع حدٍ لهذه الحالة. كانت الشرطة في بومباي في أشد القلق مخافة أن أقدم على شيء حاسم، كأن أوقف جميع

المعاشات وأطرد الجميع إلى الشارع. وكانت حجتهم أن ألفين من الأشخاص الكسالى، الأصحاء الجسم، الشديدي الشكيمة، المنتمين إلى عدّة أجناس من إفريقيا وآسيا الوسطى وإيران وأفغانستان خليقون، إذا ما انطلقوا فجأة بين سكان بومباي، بأن يشكلوا خطراً عاماً حقيقياً. وهذا خطر لم تكن الحكومة- كما أُفهمت ذلك بحزم- مستعدة للسماح به.

كان من الضروري، إذن، العمل بمؤازرة الحكومة الكاملة وبالتعاون التام مع الشرطة، اذا ما أردت معالجة مشكلتي. وكنت محظوظاً بصورة خاصة لأني كنت على علاقة من الصداقة الحميمة والتفاهم الكامل مع السير ويليام لي وورنر في وزارة الهند. فكان من خلفي كالقلعة الحصينة. وفي بومباي نفسها كان حاكم جديد، اللورد نورثكوت، قد خلف ساندهرست، وهو أيضاً منحني صداقته الدائمة وساعدني على أداء مهمة صعبة جداً كان يمكن أن تكون أصعب بكثير من دون حلفاء من هذا المقام وبمثل هذه السلطة.

وهكذا، شرعت في معالجة المشكلة تدريجياً وبإصرار. كان بعض ذوي المراس الصعب من غير الرعايا البريطانيين؛ وهؤلاء رُحّلوا إلى منطقة الخليج حيث نزعاتهم فيها أقل خطراً منها في بومباي المكتظة بالسكان. وحصل البعض الآخر على منح مقطوعة بشرط أن يرحلوا من تلقاء أنفسهم. وعملت على ترحيل فريق آخر، بمساعدة الشرطة، إلى بعض المراكز الجبلية النائية، ومنعوا بعد ذلك من العودة إلى بومباي. وما إن تمّ لنا إخراج أسوأ الساخطين من كبار السن، حتى أتيحت لنا الفرصة للانصراف إلى المهمة الأخرى، وأعني بها إصلاح أبنائهم وتثقيفهم. وهكذا أنشأنا لهم المدارس، وأرسلنا بعضهم إلى مدارس

اليسوعيين، أما من كان منهم يتصف بذكاء ظاهر فقد أرسلناه ليتلقى علومه الجامعية. لقد انصرفوا جميعاً إلى العمل، ويسرني أن أقول إن أغلبيتهم اليوم مواطنون صالحون متقيدون بالقانون، وإن من بينهم محامين ومهندسين وموظفين كباراً وأعضاء مفلحين في مهن أخرى.

ولكن لم تكن عملية التطهير تلك مهمة سهلة، ولم يتم إنجازها في يوم واحد، بل كانت صراعاً طويلاً استغرق مني أشهراً عديدة.

ومع أني كنت مستغرقاً في هذه العملية العسيرة والكريهة، إلا أنني لم أقطع صلتي بالعالم الخارجي. وقد بدت وفاة الملكة فيكتوريا في كانون الثاني ١٩٠١ نهاية عصر بالنسبة لأولئك الذين ولدوا وترعرعوا في ظل حكمها الطويل المجيد. وكنا مدركين أن كلمة " النهاية" قد كتبت في ختام فصل جبّار.

واعتلى العرش صديقي ونصيري أمير ويلز، حاملاً لقب الملك إدوارد السابع. وقد وجه إلي دعوة شخصية لحضور حفل تتويجه عام ١٩٠٢. ولذلك، فقد عدت إلى لندن ذلك الصيف، إلى لندن التي أعرفها جيداً، وإلى مجتمع كان لي فيه أصدقاء كثيرون استقبلوني بحرارة وترحاب. وكان من الممكن الآن أن يتبين المرء أن العصر الإدواردي كان في بدايته، وأن أسلوباً اجتماعياً جديداً قد شرع في الظهور، كما يتبين تحولاً في المقاييس وتميزاً لمعنى وتحدي القرن الجديد.

في بداية الأمر، كان صيفاً بهيجاً حافلاً بالأحداث. كانت هناك جولة كاملة من الاستعراضات والحفلات، وقدر عظيم من الكرم الذي تجلى نحوي ونحو سائر الأمراء والمهراجات الهنود الذين تمت دعوتهم لحضور حفلات التتويج. وفجأة، قبيل التتويج، مرض الملك، الذي كان

قد تخطى سن الشباب. وفي اعتقادي أن قليلين أدركوا في ذلك الحين خطورة المرض الذي ألمّ بالملك، وضآلة الأمل بنجاته منه. لم يكن التهاب الزائدة الدودية في تلك الأيام مسألة عادية تقريباً كما هي الحال اليوم، وكان استئصالها عملية خطيرة إلى أبعد الحدود. وكان لابد من تأجيل التتويج؛ فألغيت الحفلات والأفراح، وأستأذن الضيوف الملكيون بالعودة إلى بلادهم نظراً لعدم قدرتهم على الانتظار طويلاً. غير أن الملك شفي من العملية بصورة سريعة مدهشة، وما إن حل شهر آب حتى بدا راغباً، بل تواقاً إلى مواجهة الجهد الذي تستلزمه حفلات التتويج الجميلة المحكمة. ولم يدرك الجميع آنذاك أن الملك كان، إبان القسم الأعظم من الاحتفال الرسمي، يتحمل آلامه المضنية بصبرعظيم. ومنحني الملك وساماً من رتبة رفيعة.

وأقيم، بمقتضى التقاليد، استعراض بحري عظيم في سبيتهد كان لي شرف حضوره بوصفي ضيف الملك على ظهر يخته الخاص. وبين سائر الضيوف، كما أذكر، كان هناك راس ماكونان، تلك الشخصية النحيفة في آن معاً، والزعيم الإقطاعي الحبشي، والجنرال المظفر، والساعد الأيمن للامبراطور مانليك ونائبه، والذي خلفه فيما بعد. واتصفت شخصيته بالغموض، إذ أن الوزير البريطاني في أديس أبابا قال لي، كما أذكر، إن باستطاعته قراءة أفكار مانليك والتنبؤ بمقاصده، ولكن كان مستحيلاً عليه فعل الشيء ذاته بالنسبة لماكونان. وإن تقلب الشؤون الإنسانية إنما يتوضح في صروف الدهر وعاديات الزمن التي عاناها ولده، راس تافاري، الذي أصبح الأمبرطور هيلاسلاسي، وقاوم الغزو الإيطالي لبلاده سنة ١٩٣٥، ثم هزم ونفي، فطرح قضيته على عصبة الأمم في جنيف،

وأنفق وقتـه في منفـاه حتى كـان عـام ١٩٤١ عندمـا مُني الإيطاليـون بالهزيمة الساحقة في إفريقيا الشرقية(على يد جيش صغير ساهمت فيه الهند إسهاماً رائعاً) فعاد مظفراً إلى عرشه. ومن المؤكد أن هذه واحدة من أعجب روايات عصرنا، وهي عرضة لخطر النسيان بسبب من أنه قد تلتها قصص غريبة وكثيرة أخرى.

عدت إلى الهند في تشرين الثاني من عام١٩٠٢، وهناك فوجئت عندما وجدت في انتظاري كتاباً من نائب الملك، اللورد كيرزون، يطلب مني أن أصبح عضواً في مجلسه التشريعي. وكان ذلك شرفاً عظيماً لشاب في عقده الثالث(كنت أصغر الأعضاء سناً بكثير)، ذلك أن مجلس نائب الملك التشريعي في تلك الأيام كان عبارة عن هيئة صغيرة تضم نخبة من ذوي النفوذ وتمارس سلطة فعلية. وقد تطلب قبولي لهذه العضوية الانتقال، مؤقتاً، إلى كلكتا، قاعدة السلطة البريطانية في الهند آنئذ.

كان للسنتين اللتين قضيتهما في عضوية المجلس التشريعي(طلب إليّ أن أقبل تعييني مرة ثانية ولكن رفضت) تأثير عميق دائم في حياتي وشخصيتي، من نواحيها الخاصة والشخصية والعامة معاً. فلأول مرة في حياتي أصبح لي منزل طبيعي خاص بي يضم العدد العادي من الخدم، وأصبحت أعيش الحياة الاجتماعية والمنزلية العادية التي يعيشها رجل في مثل مكانتي، وتخلصت من تلك الكثرة من الأتباع والأشرار الذين لم تنقرض آثارهم قط في بومباي وبونا، والذين سبق لي أن وصفت نشاطاتهم الخطرة في هذا الفصل.

ولم تكن تلك العضوية أقل أثراً في حياتي العامة والسياسية. فقد

وجدت نفسي أعمل جنباً إلى جنب مع رجال من وزن اللورد كيرزون نفسه، والقائد العام الفيلد مارشال اللورد كيتشنر المعروف. ومن بين زملائي الهنود، كان هناك السيد ج. ك غوكهايل، رجل الدولة الهندي البارز حتى ظهور المهاتما غاندي ونهرو الأب ونهرو الإبن. وقد توطدت بيني وبين غوكهايل صداقة استمرت حتى وفاته. كان هندوسياً وكنت أنا مسلماً، ولكن صداقتنا تجاوزت حدود المذهب والعنصر. كان رجلاً يتميز بسعة النظر والشجاعة والكرم، وكان له تأثير عظيم على تفكيري ونظرتي إلى الحياة. إنه لم يكن بالطبع أول مفكر سياسي ذي أساس مختلف احتككت به أو وجدت تبادل الأفكار معه أمراً مغرياً، فقبل ذلك بسنوات كنت قد تعرفت في بومباي إلى السيد نافروجي دوماسيا، وكان مجوسياً موهوباً يعمل في خدمة صحيفة" تايمز أف إنديا"، والسيد فرانك براون(الذي نال فيما بعد لقب سير)، وكان صحفياً ومحرراً في صحيفة " بومباي جازيت" ومن ثم في صحيفة" ذي تايمز". وإنني مدين لهؤلاء الأصدقاء بالشيء الكثير مما فعلت ومما حاولت أن أفعله أيضاً في عملي السياسي.

لقد لقيت في غوكهايل شخصية قوية ومحبة أيضاً، وإنني لأدرك مدى العمق والقوة التي كانت عليها القوى التي كان ينطق بلسانها في الهند. كذلك رأيت أن الحكومة قد أصبحت بعيدة عن شعب الهند، لا عن الجماهير فحسب، بل عن النخبة المفكرة المتزايدة التي كان تأثيرها ووضوحها يزدادان أبداً؛كما لمست عن كثب إلى أي حد كانت الحكومة غريبة روحاً وجواً. ورأيت في الجانب الآخر أن زعماء الهند السياسيين، الذين أسخطهم أنهم لم ينجحوا في الحصول على مطاليبهم المعتدلة

السابقة، قد شرعوا في الأيتوخوا الإصلاحات الإدارية فحسب، بل السيطرة التامة على مصيرهم السياسي. أما أنا نفسي، فقد ظللت أؤمن إيماناً كبيراً بالتقدم الثقافي، وكنت أرى أن الجهل خطر يهدد الشعب والحكومة على حد سواء، وأن الفقر والمرض هما الآفتان اللتان تنتجان عنه وتصاحبانه. حتى إن خطبي في المجلس التشريعي انقلبت أكثر من مرة إلى التماس قوي للإنفاق السخي العاقل على شؤون التعليم، كما ألححت على وجوب تعميم التعليم الإبتدائي شأن كل بلد متمدن، وأشرت كلما تسنى لي ذلك إلى أن السبب الأساسي لفقر الهند المدقع إنما كان، في رأيي، جهلها المطبق. وفي الوقت نفسه، بدأت أدرك، خلال هاتين السنتين الحاسمتين أن حزب " المؤتمر"، الذي كان المنظمة السياسية الناشطة والمسؤولة الوحيدة في الهند، سيثبت أنه عاجز- كما كان يثبت ذلك فعلاً- عن تمثيل مسلمي الهند، أو عن الاهتمام اهتماماً سديداً حقاً بحاجات الجالية الإسلامية ومطامحها. كانت ضغوط المتطرفين الهندوس هائلة، وكانت تلك الوحدة المصطنعة التي فرضها الراج البريطاني من الخارج آخذة في التصدع. وتطورت الفروق العميقة الجذور، والتي عبرت عن نفسها مرة في شكل نشاطات سياسية، وتخطت مراحلها الأولية بشكل كبير. كانت الثغرة موجودة حقاً- في عناد الهندوس وعدم تقبلهم مثل المسلمين العليا وآمالهم. وفعلت ما بوسعي كي أحول دون اتساع الثغرة، فتابعت حملة احتجاج لدى السير فيروز شاه مهتا، الذي كان حزب المؤتمر يقدّر آراءه ومشورته ويحترمها، والذي كان صديقاً لعائلتي ويعرفني منذ صغري. وقد رجوته أن يستخدم نفوذه ويحمل " المؤتمر" على أن يدرك مدى أهمية اكتساب ثقة المسلمين؛ ولكن كل ذلك كان بلا طائل.

مهما كان السبب في ذلك الموقف الذي اصطنعه زعماء حزب المؤتمر، فإنهم واصلوا تجاهلهم لحقائق الوضع الطائفي. كانت هناك مقاطعات يشكل المسلمون فيها أكثرية بيّنة: في البنغال، مثلاً، وفي البنجاب التي لم تكن مقاطعة الحدود الشمالية الغربية قد سلخت منها بعد. وحول دلهي وأكرا وأليكار كان قد أنشىء وطن روحي، قدّسته بعض التقاليد الإسلامية القيّمة وزينته كنوز لا تفنى من الفن الإسلامي والثقافة الإسلامية، وكان كل ما طلبناه بعض التفهم للمعنى الذي كان يحمله هذا في عقول المسلمين. كان الوقت مناسباً- كما لم يكن بعد ذلك أبداً- للوصول إلى تفاهم، ذلك ان الخلافات السابقة في الرأي مع المؤتمر كانت قد تضاءلت ولم تعد ذات أهمية نسبياً، وحتى ذكراها التي بقيت كان بالإمكان محوها- كما كنت أقول بأقصى استطاعتي- لو أن بعض مقترحاتنا في سبيل تمثيل منصف وإعطاء المسلمين نسبةً عادلة من الوظائف الحكومية لاقت القبول ووضعت موضع التنفيذ.

كانت الخطوة الأساسية تتمثل في وجوب قيام حزب المؤتمر باختيار ممثل له في مجلس نائب الملك التشريعي على أن يكون مسلماً من البنغال أو البنجاب. ولم يكن لنا رأي في ذلك. فقد استمر حزب المؤتمر بعناد في إرسال مسلمين من الدرجة الثالثة ومن مقاطعات أكثرية سكانها من الهندوس كمدراس وبومباي. وقناعتي هي أن غوكهايل كان يتوق بإخلاص إلى أن يفعل ما بوسعه لتبديل موقف حزبه. ولكنه لم يستطع أبداً الاعتراف بذلك علناً. كان شديد الألم لرؤية رفاقه وأصدقائه السياسيين يزرعون عمداً بذور الشقاق الدائم بين الهندوس والمسلمين. وكثيراً ما تقدمت باقتراحات ملحة لاتخاذ خطوات إجرائية عملية

تساعدنا في تدعيم حزب المؤتمر بالشعور السياسي الإسلامي، فنكوّن بذلك جبهة متحدة تجاه الحكومة البريطانية. ومع ذلك، فحتى التأييد الخاص الذي أعطاه غوكهايل لمقترحاتي لم يحدث أي تبديل؛ لا في الذهنية، ولا في القلوب. والتفت إلى أصدقائي في أليكار، وبصورة خاصة إلى نَوَّاب محسن الملك، الذي كان قد خلف السير سيد أحمد بوصفه زعيماً مسلماً. ولم يكن محسن الملك ضيق العقل، بل كان معتدلاً وواقعياً، كما لم يكن قط لا لحزب المؤتمر ولا للهندوس بصورة عامة.ولو أنه كان هناك أخذ وعطاء في الأمور الصغيرة التافهة آنذاك، إذن لكان قد ضمّ قواه إلى قوى حزب المؤتمر عن طيب خاطر. في مثل هذا الجو- يشجعه انتخاب مشترك وتمثيل مشترك- كان التحالف السياسي بين الطائفتين أمراً ممكناً، ولكن آمالنا تبددت مرة بعد أخرى، ذلك أن الأحوال ازدادت سوءاً في الانتخابات التالية، ولم يحل عام ١٩٠٦ حتى كنت ومحسن الملك وزعماء مسلمون آخرون قد استنتجنا أنه لم يكن لنا أمل إلا بالاستقلال في التنظيم والعمل، وأننا يجب أن نحصل على اعتراف سياسي مستقل من الحكومة البريطانية بوصفنا أمة ضمن أمة.

أثناء إقامتي في كلكتا تعرفت إلى " الجدير بالتشريف" سيد أمير علي، والمستشار الخاص فيما بعد، الذي كان آنذاك قاضياً في المحكمة العليا في كلكتا. وكنت بالطبع قد قرأت كتبه الشهيرة عن الإسلام؛ وكان أعجابي بعلمه وبقدرته على بسط ديننا الإسلامي وشرحه لا حصر له. وبالرغم من أنه استثني من أية مشاركة في السياسة، إلا أنني لم أتردد قط في الذهاب إليه طلباً لنصحه وعونه في مساعيّ السياسية-

وأهم من كل شئ لكي أحصل على تمثيل عادل للمسلمين، وأفتح عيون قيادة حزب المؤتمر العليا على أخطار الطريق الذي بدا أنهم سائرون عليه. غير أنه مما شجعنا، عندما خابت آمالنا، أن سيد أمير علي، على ما كان له من منزلة رفيعة ومعرفة كبرى بالعلاقات السياسية بين الهندوس والمسلمين(وبخاصة في البنغال) قدألحّ علينا بالاستمرار في تبادل جهودنا لإنشاء منظمة إسلامية مستقلة، وقدم لنا مؤازرة صامتة وثابتة عندما جادلنا، أنا ومحسن الملك، بأن أملنا الوحيد في الحصول على نصيب عادل من البريطانيين هو أن نقنعهم باتساع الهوة- تاريخياً وثقافياً ودينياً- بيننا وبين جيراننا.

إن حزب المؤتمر، بتعاميه عن المطالب والمطامح المشروعة، وبمثابرته على عادته السخيفة في اختيار مسلمين مطاويع من مدراس وبومباي لتمثيله في مجلس نائب الملك التشريعي، قد أضاع فرصة ذهبية لم تكن لتسنح مرة أخرى. تلك كانت وقتئذ سنوات عصيبة، لا في تطوري السياسي الخاص فحسب، بل في تلك العملية الواسعة المعقدة التي سببت، في مدة تزيد قليلاً عن أربعين عاماً، تقسيم الهند إلى دولتي بْهارات وباكستان المستقلتين.

ومن الأحداث البارزة التي حصلت أثناء الفترة التي خدمت فيها عضواً في مجلس نائب الملك التشريعي استعراض التتويج في دلهي وكانت ذروته عرضاً رائعاً لنحو من أربعين ألف جندي ساروا، وعلى رأسهم القائد العام اللورد كتشنر، أمام ممثل الملك- الإمبراطور. كان ذلك الممثل شقيق الملك، دوق أوف كونوت، وهو صديقي الذي حدب علي وحباني منذ طفولتي. وبعد الاستعراض مباشرة، عقدنا مؤتمراً

ثقافياً إسلامياً في دلهي تكلمت فيه مطولاً عن مشاريع ثقافية عديدة كنت أنشط في مساندتها- وأهمها أليكار. وقد توجهت بالتماس إلى أصدقائي وزملائي قلت فيه:

" أرجوكم أن تحملوا لواء جامعة مركزية- جامعة أدعو الله أن تصبح يوماً في مصاف أكسفورد ولا يبزغ وباريس موئلاً للأفكار العظيمة والمثل العليا النبيلة- جامعة يمكن لشبابنا فيها أن يتلقى أسمى التوجيه في علوم الغرب، جامعة لايُهمل فيها تعليم تاريخ الشرق وآدابه من أجل إعطاء معرفة ببغاوية بالتفكير الغربي، جامعة يمكن لشبابنا أن ينعموا فيها، بالإضافة إلى هذه الفوائد، بجوّ إسلامي. إنني أستعطفكم صادقاً ألا ننسى قضية مثل هذه الجامعة في خضم صيحات السوق التجارية التي ترتفع بيننا يومياً."

تلخص تلك الكلمات التي تفوهت بها منذ خمسين سنة، المطامح التي رعيتها وعززتها منذ البداية نيابة عن أليكار، والتي يسعدني أني عشت لأراها تتحقق.

قضيت عامين بنّائين متعبين في مجلس نائب الملك التشريعي. وفي صيف عام ١٩٠٤ عدت إلى أوربا لاستئناف حياتي الاجتماعية والشخصية هناك. أما في الناحية السياسية، فقد كانت هناك تبدلات كبيرة وشيكة. كان آرثر بلفور قد خلف خاله، اللورد سالزبوري، في زعامة حزب المحافظين ورئاسة الوزارة؛ غير أنه كان واضحاً أن العهد الطويل الذي سيطر فيه المحافظون على السياسة البريطانية كان يقترب من نهايته. كان جوزيف تشمبرلين الديناميكي قد ألقى بقضية مذهب الحماية إلى الساحة، فأحدث بذلك انقساماً خطيراً في حزب المحافظين.

وكان الأحرار يجمعون قواهم بثبات واضطراد، وكانت المسألة الأيرلندية قد أخذت، بعد سنوات من الهدوء الخادع، بالتأجج مرة أخرى، كما أن ظهور حزب العمال- الذي كان صغيراً جداً حتى ذلك الحين- كان حدثاً تجدر ملاحظته.

لم أكن حتى ذلك الحين قد نويت العناية بتربية الخيول وسباقاتها في أوربا، ولم يكن لي أن أفعل ذلك إلا بعد انقضاء سنين عديدة، ولكن اهتمامي بهذه الأمور لم ينقص قط. كنت أذهب إلى حفلات السباق بانتظام عندما أكون في انكلترا. وكان في هذا الصيف بالذات، كما أذكر، أن تعرفت لأول مرة بالكولونيل هال وولكر (اللورد وايفرتزي فيما بعد)، الذي كان أحد الشخصيات البارزة في الحلبة البريطانية وذا إلمام هائل بكل ما له علاقة بالجياد، مستقلاً في أحكامه، صريحاً وموجهاً. وقد اعتبر بعض الناس آراءه وطرائقه شاذة لدرجة أنهم أطلقوا عليه اسم "وولكر غريب الأطوار"، ولكني آخر من يشك في حكمته وعلمه وخبرته.

كان عندئذ صاحب إسطبل" تولي" الشهير في إيرلندا، الذي أصبح فيما بعد" الاسطبل الإيرلندي الوطني"، والذي أصبحت لي علاقات كثيرة به في السنوات التالية.

وعدت إلى بومباي ذلك الشتاء لأشرع في السنة التالية، ١٩٠٥، في رحلتي الثانية إلى أفريقيا الشرقية. وهناك حرّضت أتباعي الاسماعيليين على تطبيق بعض الأفكار التي كنت أمارسها وأدعو إليها في الهند، من الناحيتين الثقافية والصحية. وقد أحزنني حزناً عميقاً تدني مستوى البنية الجسمانية في زنجبار، فقد كان السل واسع الانتشار. وكنت إذا قيل بأن الطقس الحار جداً يضعف الذين يعيشون

فيه ويوهنهم ويشجع على النحافة والمرض، أرد قائلاً بأن الشئ نفسه يمكن أن يقال عن الهند حيث بدأنا في اتخاذ خطوات جبارة لمقاومته. وفي زنجبار، تشاورت مع المكيين، قادة الجماعات المحليين، وحولت قصراً إلى نادٍ رياضي ومركز للتدريب البدني، وجعلت فيه مسرباً للجري وملعبين لكرة القدم وكرة المضرب(الكريكت)، وقد قدمت جوائز للفائزين في جميع أنواع المباريات، من البلياردو إلى سباق الدراجات، ويسعدني القول بأن ما أحدثته هناك أصاب نجاحاً عظيماً.

وبينما كنت في أفريقيا أقام بعض من أفراد عائلتي الطامعين علي الدعوى لدى محكمة بومباي العليا، وتقدموا ضدي بسلسلة من المطالب والادعاءات المالية وغيرها. ولم تكن هذه القضية، التي استطالت عدة أشهر، نتيجة للدعوى القديمة التي ساقتها على جدي في العقد السابع من القرن التاسع عشر عناصر منشقة من الخوجا(والتي سبقت مني الإشارة إليها في فصل متقدم)، بقدر ما كانت نتيجة للطريقة السخية الإقطاعية التي أنشأ بها جدي مؤسسته وأعالها في بومباي. وجرى في أثناء المرافعات المستفيضة ذكر الكثير من تاريخ عائلتي وتاريخ الإسماعيليين، وأرسلت لجان التحقيق إلى مناطق نائية من آسيا وافريقيا لجمع الأدلة على أملاك سلالتي وشؤونها. وقد أدلت أمي بشهادتها نيابة عني، وحازت ثناء القاضي الذي قال إنها قد" أظهرت حافظة غير عادية". وكنت محظوظاً بمحاميٍّ البارع، السيد انغراريتي. وعندما انتهت المرافعات آخر الأمر، وفحص القاضي، السيد راسل، القضية، جاء حكمه مثلاً كلاسيكياً من نوعه- استعراضاً رائعاً وواسعاً للتاريخ والدين والعادات والقانون الإسلامي. وبانتهاء هذه القضية الطويلة التي كلفتني

غالياً، تثبتت لي نهائياً حقوقي الكاملة ولم أتعرض بعدها لتحد مماثل آخر.

وعدت إلى الهند وطقسها البارد عام ١٩٠٥- ١٩٠٦، وكان وصولي في الوقت المناسب بحيث تمكنت من السلام على أمير ويلز (الملك جورج الخامس فيما بعد) في كلكتا. وكان موجوداً هناك في زيارة رسمية للهند، تلك الزيارة التي بحث أمرها عندما كنت في انكلترا عام ١٩٠٤ . ولم يكن ذلك أول لقاء لي مع سموه الملكي(كما كان لقبه آنذاك)، ذلك أن صداقتي معه ومع زوجته الملكة، الملكة ماري، كانت صداقة قديمة. وقد قابلت الملكة ماري لأول مرة سنة ١٨٩٨ عندما كانت دوقة يورك. كانت في بيتها في إنكلترا مع أولادها الصغار الثلاثة (الملك إدوارد الثامن، الذي أصبح من بعد دوق وندسور، والمرحوم الملك جورج السادس، وكبرى بنات الملك)، بينما كان زوجها خارج البلاد يقوم بدورته الأولى كضابط من ضباط البحرية.

إن جميع ذكرياتي حول هذين الزوجين الرائعين الكريمين ذكريات حميمية دافئة. وكنت فخوراً دائماً بأني فزت بصداقة الملك جورج الخامس وحافظت عليها حتى نهاية حياته. فقد أولاني ثقته إلى الدرجة نفسها كما فعل أبوه من قبله. كان يتحدث إلي دائماً بصراحة مطلقة تامة عن موضوعات مختلفة- شخصية وسياسية ورياضية واجتماعية، وكثيراً ما كان لي شرف تلبية دعواته إلى الغداء، أولاً في مارلبوروهاوس عندما كان أمير ويلز، وفي قصر بكنغهام بعداعتلائه العرش. كانت وجبة الغداء مسألة عائلية هادئة غير رسمية، ولم يكن يحضرها سوى الملكة ماري وولد أو اثنين من أولادهما، وكنت أنا الضيف الوحيد. وكانت

العادة أن تذكر هذه الدعوات في نشرة البلاط، غير أنها كانت تغفل أحياناً لأسباب خاصة. وانطبعت الحياة التي عاشها الملك جورج بطابع تدريبه المهني المبكر كضابط في البحرية الملكية، بشخصه الأنيق المعتدل، وتركيبته القوية الحيوية، ولحيته التي هي من شكل لحى البحارة، وبصوته ولهجته الحادة والواضحة المثيرة للإعجاب والتي تذكرنا بوضوح بأنه قد مارس قيادة لسنوات طويلة في البحرية قبل أن تضعفه وفاة شقيقه الأكبر في ولاية العهد المباشرة. كان حاد المزاج، وكان سريعاً ما يغضب لأخطاء بسيطة، إلا إنه سرعان ما كان يغفر تلك الأخطاء ويتجاوزها. لقد تمتع بقلب طيب تحركه العاطفة تجاه معاناة الآخرين.

أعرف مثالاً على عفوية عاطفته وكرمها. فخلال حفلة تتويج الملك الإمبراطور في دلهي، استاء مهراجا بارودا من حقيقة أن عليه الذهاب وإظهار خضوعه بالانحناء علناً أمام الملك. وعبر عن استيائه بالقيام بهذه العملية بطريقة عشوائية. وقد صدم كل من شاهد ذلك، من الهنود والبريطانيين على السواء، لأنه لم يكن هناك مبرر لإظهار قلة الاحترام تلك للملك- الإمبراطور. فقدم اعتذاراً خطياً إلى نائب الملك؛ ومع أنه تم قبول الاعتذار، إلا أن الملك أحس بالطبع بالمرارة لهذه الحادثة، واحتفظ بهذا الشعور لسنوات. لكن البلية لم تلبث أن هبطت على مهراجا بارودا، فتوفي أكثر من ولد له في سن الشباب، بينما سقط آخر طريح الفراش بسبب مرض خطير. وعندما علم الملك بآلام المهراجا، غفر له من كل قلبه وسامحه، وصار يشير إليه في أكثر من مناسبة" بذلك الرجل المسكين التعيس الحظ." تعبيراً عن مؤاساته الصادقة له.

كان الملك جورج الخامس، مثل أبيه، شديد التدقيق فيما يختص

بارتداء الرتب والأوسمة، كما كانت له، شأن أبيه أيضاً، عين شديدة الملاحظة لأي خطأ، مهما صغر، في ترتيبها على صدر صاحبها.

قال لي مرة: " يعجب بعض الناس لكوني ووالدي شديدي التدقيق في هذه الأمور، ولكن أفلا يكون غريباً إذا ارتدى الناس، في المجتمع العادي، قمصانهم فوق سراويلهم، وياقاتهم أو رباطات عنقهم بحيث تكون مقدمتها إلى الوراء ومؤخرتها إلى الأمام؟ فكما أن للمجتمع العادي قواعده وأصوله لارتداء الملابس بصورة صحيحة، كذلك يجب أن يكون للملك وبلاطه قواعدهما وأصولهما لارتداء الملابس الرسمية والرتب والأوسمة بصورة صحيحة."

في حفلة من حفلات البلاط الكبرى، ظهر المغفور له مهراجا راجبيبلا في حضرة الملك ولم يكن مرتدياً- كما كان عليه أن يفعل- ياقة أحد أوسمته لأنها كانت تسبب له الضيق. وقد غضب الملك وأظهر غضبه، ولكن بادرة تعزية سريعة صدرت عن الملكة ماري إذ قالت للشاب المغتمّ:

"لاتقلق، فالملك سينسى سريعاً. وقد نسي الملك فعلاً، وسريعاً ما غفر له خطأه."

وبمناسبة الحديث عن مهراجا راجبيبلا نفسه، أستطيع أن أقدّم مثالاً على اهتمام الملك بجميع الأمور. لقد فاز المهراجا بجائزة الدربي لعام ١٩٣٤ بجواد يدعى" وندسور لاد، وتأخر بعض الوقت في إعطاء مدرب الجواد الهدية التي جرت العادة أن يقدمها المالك الفائز إلى مدربه بعد السباق. وكان مدربه يدعى السيد ماركوس مارش، وكان ابن المدرب السابق لجياد الملك جورج. ومرت أسابيع دون أن يقدم المهراجا الهدية.

وفي أصيل أحد الأيام كنت في حفلة رسمية حضرها السفراء والوزراء وموظفو البلاط، وما إن وقع بصر الملك عليّ بين ذلك الحشد، حتى انتحى بي إحدى الزوايا وقال لي إنه عرف أن مارش لم يكن قد حصل على هديته بعد.

فقال الملك جاداً:" لقد كُنتَ صديقاً حميماً لأبيه، أليس كذلك؟ وأنت تعرف الشاب نفسه، فهل لك أن تفاتحه بالأمر وتفهمه أن هذه الهدية أمر عادي، وأن عليه أن يقدمها."

وطبيعي أني فعلت ما طلب مني الملك، وأرسل المهراجا هديته إلى مارش آخر الأمر، ولم أخبر هذا الأخير بدوري عن تلك الحادثة إلا بعد نحو من عشرين سنة. وبالرغم من أن مارش كان نجل مدرب جياد الملك، وأنه كثيراً ما كان يرى الملك، فإنه لم يذكر شيئاً أمامه، ولكنه أنبأ أحد أصدقائه بسهو المهراجا. وكان الصديق جنرالاً من أركان حرب الملك، فلما أنبأ الملك بقصة مارش، قرر الملك أن يتوسطني في الأمر.

في السنوات الأربع والثلاثين التي عرفت الملك جورج الخامس خلالها كنت كثيراً ما أراه في منزله، وفي حفلات السباق في آسكوت وإبسوم وسواهما، كما رأيته لدى زيارتيه الرسميتين للهند بوصفه أمير ويلز والملك جورج الخامس.

أبان الزيارة الأولى سنة ١٩٠٥، التي أوحت إليّ بهذه السلسة من الذكريات، أقيمت حفلة راقصة رسمية في منزل نائب الملك في كلكتا. وقد أخذني أمير ويلز إلى غرفته وأخبرني أنه يحبذ بشكل كامل تعيين هنود في مجلس نائب الملك التنفيذي، وأنه كان يعتبر غياب الهنود عن ذلك المجلس أمراً يدعو إلى أشد الأسف، ثم قال:" لقد حرضت بقوة

اللورد مورلي واللورد مينتو لتعيين أحد الهنود." وانتقل بعد ذلك ليتحدث مطولاً عن مستشفيات كلكتا التي سبق لأبيه أن ذكرها قبل ذلك بسنة واحدة، وأبدى انزعاجه من الحالة السائدة فيها.

وتم في السنة التالية المصادقة على إصلاحات مورلي- مينتو (التي سأتكلم عنها بإسهاب بعد قليل) ونشرها. ولم يكتم أمير ويلز رأيه، في المجالس الخاصة، في أن هذه الإصلاحات ضرورية وصالحة، لأنه كان، شأنه في ذلك شأن الملكة فيكتوريا من قبل، يعطف عطفاً صحيحاً وسريعاً على رعاياه الهنود، ويتفهم حاجة الهند، قبل كل شيء، لحملة موحدة ضد الجهل والفقر وتدني مستوى الحياة المريع. وقد أرسل إليّ، إبان مؤتمرات الطاولة المستديرة، أكثر من رسالة يحثني فيها ويشجعني على الاستمرار في جهودي لإيجاد حل للخلافات بين الهندوس والمسلمين لكي يتسنى لنا عندئذ الاهتمام بالإصلاحات العملية، الاقتصادية والاجتماعية، التي كان من الواجب تحقيقها منذ زمن طويل. وفي أحد الأيام، شرع يتحدث إلي بحرارة، عقب تناول الغداء معه في آسكوت، حول هذا الموضوع نفسه.

وأذكر أنه عندما تسربت الأنباء من برلين أثناء الحرب العالمية الأولى بأن أعداء الحكومة من الهنود كانوا يدربون في ألمانيا، صدم الملك وأحزنه أن يكون القيصر قد تدنّى إلى أن يستصوب مثل هذه الحركات والحيل الهمجية. وحزن حزناً عميقاً مساوياً، دون أن يعلن ذلك، عندما جرى اغتيال جميع أفراد العائلة المالكة الروسية، أي أبناء عمه القيصر والقيصره وجميع أولادهما، في إيكاترينبرغ سنة ١٩١٨ . إنه لم يأت على ذكر هذه الحادثة علناً، ولكنه لم يتردد في أكثر من

اجتماع واحد من اجتماعتنا الخاصة في أن يفتح قلبه لي ويفضي إليّ بحزنه.

ويؤكد السير هارولد نيكلسون، في كتابه الذي نشره حديثاً بخصوص سيرة حياة الملك جورج الخامس، أن الملك كان دائماً مدركاً للقيود والأصول الدستورية، ولعدم قدرته على التدخل في السياسة، مهما كانت مشاعره وآماله الخاصة قوية. ويقدم السير هارولد في كتابه رواية مفصلة حول الطريقة التي كان يقوم بها بحركة لطيفة، بعد أن يعبر عن آرائه- بقوة من غير شك وبعبارة المفرد الحادة، وكيف كان يمر بيده على جسمه ويقول بابتسامة المستسلم: " ليس لي أن أبدي آرائي، أو أن أتدخل. " إنني أذكر تلك الحركة وتلك الابتسامة تماماً، فلقد رأيتهما كثيراً إبان كثير من الأحاديث التي كانت تجري بعد تناول الغداء.

ومع أن الملك جورج الخامس كان من أكثر الرجال انشغالاً وجداً ومثابرة على العمل، إلا أنه يملك القدرة على تذكر التفاصيل الصغيرة عن حياة أصدقائه الخاصة. قبل بضع سنوات من نشوب الحرب العالمية الأولى، كان مهراجا غواليور قد خطب لنفسه ابنة مهراجا بارودا (مهراني كوتش بيهار حالياً). وفسخت الفتاة الخطبة أثناء استعراض دلهي عام ١٩١٢، وتقبّل مهراجا غواليور ذلك بشجاعة في الظاهر، غير أنه كان شديد الحزن والأسى في أعماق نفسه. ولقد سمع الملك بالأمر، وكان يعرف أنني كنت وغواليور صديقين حميمين. وفي أحد الاحتفالات الرسمية أرسل بطلبي وأخبرني بمقدار حزنه من أجل غواليور، وطلب مني أن أبذل جهدي لتسوية الأمور.

وكما سبق مني القول، فإني كنت أعرف الملكة ماري حتى قبل

لقائي بزوجها. وكان من دواعي سروري وفخري أن أكون في عداد أصدقائها ما يزيد كثيراً على خمسين عاماً. وفي عام ١٩٥٢- أي قبل وفاتها بأقل من سنة واحدة- تلقيت منها رسالتين تفيضان بالود والمحبة. كانت الأولى برقية تهنئة بفوز جوادي توليار بجائزة الدربي، مصحوبة باستفسار رقيق عن صحتي، ذلك أنها عرفت أني كنت قد مرضت مرضاً شديداً وسرت بسماعها أني كنت في طريقي إلى الشفاء. أما الثانية (وكانت آخر رسالة تسلمتها منها) فكانت عندما فاز الجواد نفسه بكأس الملك جورج والملكة إليزابيث في أسكوت، فتكرّمت بإرسال تهنئتها إلي.

إن من أشد التجارب التي مرت بي في حياتي تأثيراً وأكثرها إيلاماً تلك المحادثة التي جرت بيني وبين الملكة ماري قبيل تنازل الملك إدوارد الثامن عن العرش بقليل. كنت قد انتهيت من مقابلة بيني وبين الملك إدوارد الثامن إثر عودتي من جنيف عقب أحد المؤتمرات التي لا نهاية لها في عصبة الأمم. ولقد تحدثت بحرارة وإخلاص إلى الملكة ماري معبراً عن اعجابي العظيم بالملك إدوارد وصفاء رأيه وواقعيته، وأهم من كل ذلك بتقديره الكامل لأخطار الحرب المقبلة. كان باستطاعتي أن أرى أنها كانت فخورة جداً بابنها، ومع ذلك استطعت أن أرى أنها كانت تحاول جاهدة إخفاء دموعها، تلك الدموع التي كانت دليلاً على إدراكها الغم الذي كان يتهدد الأسرة الملكية. لكنها لم تلمّح إلى شيء، ولم أذكر أنا شيئاً، وما كان لي أن أفعل. أما الإدراك في ذلك الصمت الحزين، فكان هو الأكثر إثارة للصدمة. وكان، في كل ما لم نتحدث به في هدوء في غرفة استقبالها، فهم عميق ومأساوي وإحساس بالسحب التي أخذت تتلبّد منذرة بعاصفة رهيبة كانت ستنفجر حولها وحول من أحبتهم بمعزة.

وفي صيف عام ١٩٠٦ عدت إلى انكلترا مرة أخرى. كانت قد جرت انتخابات عامة منذ زيارتي الأخيرة أصيب فيها المحافظون بهزيمة منكرة، وأصبح الأحرار في الحكم بأغلبية لم تعرف قط من قبل، وشكلوا حكومة برئاسة السير هنري كامبل- بانرمان. فاجتمع في الصف الأمامي في مقر الوزارة رهط من الرجال النوابغ المقتدرين الذين لم يعرف لهم مثيل في تاريخ بريطانيا الحديث: أسكويث، وجراي، وهولدين، ولويد جورج، وجون مورلي، وهربرت صموئيل، وونستون تشرشل، وهم قليل من كثيرين كانوا أعضاء في تلك الإدارة المشهودة. وكان مورلي، صديق غلادستون الحميم، وزميله في الوزارة، وكاتب سير الرجال وصاحب أكثر عقول بريطانيا قوة وبناءً، يشغل منصب وزير الدولة للهند. ذلك المنصب الذي كان في نظري ونظر زملائي السياسيين على جانب عظيم من الأهمية. ولم يلبث أن اقترن اسمه باسم نائب الملك، ايرل اوف مينتو، وكان نبيلاً اسكتلندياً ذا نظرة ليبرالية وحكمة واتزان، في إصلاحات مورلي- مينتو التي حققت تقدماً خطيراً في رحلة الهند إلى التحرر السياسي. وكان إسكويث وزيراً للمالية، ولويد جورج رئيساً لمجلس التجارة. أما ونستون تشرتشل، الذي كان قد بلغ الثلاثين عندئذ، فقد شغل منصباً وزارياً ثانوياً، لكنه لم يلبث أن لمع وبرز بشكل لافت للنظر.

لقد نعمت بصداقة السير ونستون تشرشل فترة تزيد على نصف قرن. وكما أذكر، فقد كان لقاؤنا الأول في بونا في أواخر صيف ١٨٩٦. في ذلك الحين، زارني عدد من ضباط فصيلة الفرسان البريطانية، السواري الخفيفة الرابعة، التي كانت تتمركز عندئذ في بنغالور. وكنت في ذلك الوقت مريضاً، لكن ابن عمي شمس الدين أحسن وفادتهم

وأراهم جيادي. وعندما تحدث إليّ فيما بعد عن زيارتهم، قال إنه لم يكن بينهم من هو أكثر تمييزاً وأحسن حكماً على الجياد من ملازم شاب يحمل اسم ونستون سبنسر تشرشل. ولقد وصفه ابن عمي بأنه كان فوق العشرين قليلاً، يبدو كأنه غلام، متحمساً ولاعب بولو جريئاً يبشّر بمستقبل حسن.

إن من المستحيل عليّ أن أفكّر في ونستون تشرشل الشاب دون ذكر أمه، الليدي راندولف تشرشل. إن لجمالها وظرفها وذكائها الآن صفة الأسطورة. ومع أنها كانت زوجة لرجل شهير، وأماً لرجل شهير أيضاً فقد كانت هي نفسها أمراة ممتازة إلى أقصى الحدود.

ومن ذكرياتي العديدة عن ليدي راندولف، في مناسبات كثيرة وأماكن كثيرة، أود أن أختار واحداً من أقوالها الذي يبدو لي أنه يرمز إلى حدة ذكائها بشكل خاص. في يوم من الأيام، في أكس- لي- بان، قال السير روفوس اسحق(أول مركيز أوف ريدنج فيما بعد) معلقاً على عمل معين لم يرق له:" ما من رجل يحترم امرأة تفعل هذا." فأجابت الليدي راندولف بلطف:" ما من امرأة تود أن تكون محترمة."

وقد قدّر لنا أن نلتقي مرة بعد أخرى فيما بعد. فقد التقينا في صيف عام ١٩٠٢، سنة تتويج الملك ادوارد السابع، في وورويك كاسل بوصفنا ضيفين على لورد وليدي وورويك في نهاية أسبوع طويلة. وكان الملازم الخيال الثائر قد سافر كثيراً في ست سنوات، وحيثما وجد قتال، كان يتدبر أمره كي يكون هناك بغض النظر عن آراء رؤوسائه من الضباط الكبار- فقد شارك في معارك مالاكند، التي كتب عنها أول كتبه الكثيرة، وفي" حرب النهر" لكتشنر في منطقة روافد النيل الأعلى؛

وفي هجوم الفرسان على أم درمان؛ وفي جنوب أفريقيا حيث عمل كمراسل حربي ووقع في الأسر ثم فرّ من أسره ووضع كروغر جائزة لمن يقبض عليه. وفي عام ١٩٠٢ كان عضواً محافظاً في البرلمان عن منطقة أولدهام. وفي ووروبك في عطلة نهاية ذلك الأسبوع، كان يتمتع بمزاج جميل، فدخلت معه في حوار حول مزايا رياضة البولو والصيد، فكان إلى جانب البولو بحزم. أما أنا، الذي كنت متابعاً لشؤون كلاب الصيد منذ صباي المبكر، فقد وقفت بعناد إلى جانب الصيد. ولكني أذكر حديثاً آخر جرى لي معه في نهاية ذلك الأسبوع الصيفي، حديثاً كان أقل طلاوة من سابقه. فقد حوّل الحديث- كما كان يفعل الكثير من الإنكليز ذوي الذهنية السياسية في تلك الأيام- إلى المسألة الإيرلندية وردد شيئاً كان اللورد سبنسر قد قاله لي قبل ذلك ببضع سنوات. " إن عشرين سنة من الحكم الحازم ليست حلاً للمشكلة الإيرلندية."

وتابع النائب المحافظ الشاب، والمؤيد الاسمي لآرثور بلفور، حديثه قائلاً: " ما دام شعب إيرلندا غير راضٍ فإنه ليس بالإمكان الوصول إلى أي حل. إننا لن نستطيع حل المشكلة الإيرلندية إلا عندما ينال الإيرلنديون مطالبهم السياسية."

وقد تحدثنا طويلاً، شأن غيرنا من الشباب، في مواضيع كثيرة جداً. وكان تشرشل، الذي تعتبر ذاكرته القوية إحدى صفاته المميزة الكثيرة، يقتبس بحرية أبياتاً شعرية من ترجمة فيتز جرالد لعمر الخيام. وقد أكد لي أنه كان يحفظ القصيدة كلها عن ظهر قلب. وأذكر أني دهشت للحماس الذي أبداه، ذلك أن عمر الخيام، بالنسبة إلينا نحن الذين لغتنا الأصلية هي الفارسية، يبدو شاعراً ثانوياً ذا نظرة محدودة جداً. وعندما

تصارحت مع تشرشل حول تلك الأبيات الشعرية رد علي بالقول إن ما كان يعجبه في عمر الخيام لم تكن فلسفته بل قوته ومتانته الشعرية. ثم اصطنع فجأة حركة جدلية بوجهه وقال: " إن في فلسفته الشيء الكثير، وعلى كل حال، فليس يهم كثيراً ما نفعله الآن، ذلك أنه سيكون هو نفسه بعد مائة عام." وأبديت استثناء قوياً لهذه الملاحظة وقلت: " إن ما تفعله الآن قد يكون ذا أهمية ضئيلة بعد ألف عام، ولكن الذي لا شك فيه أن الأحداث التي تقع بعد مائة عام من الآن ستكون في معظمها النتيجة المباشرة لحسناتنا وسيئاتنا الحاضرة. "

وإني لأذكر أنه قد وافقني على قولي. أما وقد أصبحت الآن أكبر سناً، وأصبحت أملك قدراً أكبر كثيراً من الخبرة، فإني أعتقد بأن الأحداث التي ستقع بعد ألف سنة من اليوم يمكن أن تتأثر بقوة بما نفعله- أو لا نفعله- الآن.

فكّروا بجدي العظيم محمّد، نبي المسلمين. فلو أن محمداً قتل في أول لقاء له مع أعدائه، إذن لما نشأ الإسلام إطلاقاً، ولكانت الجزيرة العربية، على الأرجح، موطناً لعدد من الطوائف المسيحية الصغيرة، وكان الشرق الأوسط مسيحياً بدلاً من أن تكون أكثرية شعوبه من المسلمين، ولكان بالإمكان أن يعتنق المسيحية شعب ذلك الجزء من الهند الذي أصبح إسلامياً. وأذهب إلى أبعد من هذا فأقول إنه لو ذهبت الخلافة بعد وفاة النبي الكريم إلى أنصار المدينة- وكانوا يرتضون البقاء والعمل في الأرض- بدلاً من قريش، قبيلة النبي ذات الذهنية الدولية، الممتلئة بالحياة واللامبالية بالأخطار والمحبة للأسفار والمغامرة، القبيلة التي وصلت إلى القسطنطينية والاسكندرية وحتى إلى روما، وإلى إيران

وبحرا ًإلى الهند سعياً وراء المتاجرة- إذن لاتخذ الإسلام مجرى يختلف كل الاختلاف، ولكان اليوم بزعامة أنصار المدنية- هذا إذا قدّر له البقاء فعلاً- أحد المذاهب الشرقية الثانوية المغمورة.

إن خيال قريش، وخبرتها وعقليتها التجارية هي الأمور التي كانت ضرورية لكي تجعل من الإسلام ديناً عالمياً امتدت دعوته خارج الجزيرة العربية إلى الإنسانية جمعاء.

وفي عصرنا هذا أيضاً، هناك أمثلة عديدة على قرارات- سياسية وغير سياسية- يمتد تأثيرها من الحاضر الآني إلى مستقبل بعيد. فلو أن بسمارك استثنى الإلزاس واللورين من شروط الصلح التي فرضها على فرنسا ساعة انتصاره سنة ١٨٧١، فهل كنت تسمع صرخة " الانتقام، الانتقام!" التي رجّعت صداها بقوة في السنوات التالية! وتلك أوربا المتحدة، التي هي أملنا ورغبتنا اليوم جميعاً، ألم يكن بالإمكان أن تتحقق دون مرارة حربين عالميتين! وحتى بعد الحرب العالمية الأولى، لو استمعت الدول الغربية إلى نصح رجال من مثل اللورد دابرنون إبان السنوات العصيبة الأولى من جمهورية فايمار، اذن لما كنا سمعنا قط بأدولف هتلر، ولا استطاعت عصبة الأمم التي كانت لها حسنات عديدة- لم يكن أقلها إسراعها بقبول ألمانيا ستراسمان في عضويتها الكاملة- أن تقطع شوطاً بعيداً في لأم جراح الحرب العالمية الأولى. غير أنه كان هناك مشيرون أقل استنارة استمعت إليهم شعوب أوربا، وفي السنوات التالية لم يغفل شيء لتعريف الألمان بأنه لم يعد هناك سوى طريقة واحدة للحصول على ما يريدون، وأن تلك الطريقة كانت سياسة القوة.

إذن، فقد كان على الشابين اللذين جلسا يتحدثان بمثل تلك الحرارة في ووروبك كاسل منذ مدة طويلة، أن يتعلما الشيء الكثير. وربما يمكنني القول إن من صفات ونستون تشرشل المميزة- ولعلها أثمن صفة بالنسبة إليه بوصفه رجل دولة- قدرته على التعلم بالاختبار، وقدرته، بعد أن يتعلم، على تصحيح أفكاره السابقة.

في عام ١٩٠٦، أي بعد أربعة أعوام من لقائنا في ووروبك كاسل، شغل ونستون تشرشل وزارة ثانوية في حكومة كامبل- بانرمان الليبرالية، وأذكر أن زميله الأرفع منه في الوزارة، قال لي: " إن تشرشل الشاب، شأن جوزيف تشمبرلين الشاب الذي عرفت، يملك أعظم حاسة سياسية طبيعية. إن في تشرشل الاستعداد الفطري لمعالجة المشكلات كلما نشأت، وهو الاستعداد نفسه الذي كان يتحلى به جو."

يجمع السير ونستون تشرشل في شخصيته القوية ويوحد خصلتين هما في العادة متعارضتان، المفسر الرومانسي ذو العاطفة العميقة والشعرية للتاريخ ممزوجة بالاستراتيجي ذي الإحساس العام والواقعي العملي إلى أخمص قدميه وصاحب الرأس العنيد الذي يحسب لكل شيء حسابه ببرود. لقد كان مزيجاً لا يقاوم، وفي أوقات بعينها رائعاً.

وعلى سبيل المثال، فقد تقبل حقيقة أنه على الهند البقاء ضمن الكومونولث كجمهورية بشروطها الخاصة. وكما قال لي مرة، " نصف رغيف أفضل من لا شيء."

إن كامل علاقته بمسألة الهند هي تعبير على أعلى المستويات السياسية لهذه الأوجه المترابطة داخلياً لشخصية تشرشل. ويعود جزء من استجابته للرومانسية الآنية إلى مفهوم بالغ التلوين للإمبراطورية؛

إلى " اليونيون جاك" الذي لم يتدثر لمواجهة النسيم البارد في بعض المواقع البعيدة؛ إلى الحارس الشجاع الصامد في خيبر النائية؛ إلى جميع نداءات الأبواق لأكثر من قرن من التاريخ الامبريالي البريطاني. ولكن، في جزء آخر من كينونته، هو ذو قدرة عملياتية وإحساس عام ثابت؛ قدرة واقعية متماسكة إلا أنها نبيلة. وهذا الوجه الأخير هو الذي ساد منذ ١٩٤٧؛ فقد تقبل بسرور الحقيقة السياسية كما هي، وجاهد- بقدر كبير من النجاح- لاستغلال حالة جديدة تماماً بأفضل ما يكون.

كنت أتمنى، مع ذلك لو أن علاقته بالهند(بعد انتهاء فترة خدمته العسكرية الوجيزة هناك) كانت وثيقة أكثر، وأن مسؤوليته عن القرارات بشان المسألة الهندية كانت أبكر أكثر في حياته المهنية.

ولقد رأيته كثيراً إبان الحرب العالمية الأولى، وكثيراً ما كنا نتناقش في الأمور السياسية. وبعد نهاية الحرب بزمن قصير، عندما اقتربت ولاية اللورد تشلمز فورد في منصب نائب الملك، وقبل تعيين اللورد ريدنغ، طلب لويد جورج مني ومن أحد أصدقائي الحميمين، السيد باسّو، وكان عضواً في مجلس الهند، مقابلته بشان مرشح يخلف اللورد تشلمز فورد. وقد اقترحت على لويد جورج، باسمنا نحن الإثنين، مرشحيْن لهذا المنصب العظيم: اللورد دربي وونستون تشرشل. ولم يرفض أي منهما على الفور. ثم التفت إلى السيد باسّو، الذي اتفق اقتراحه مع اقتراحي. بالنسبة لي، لم يبد لويد جورج أي تعليق على أي من الاسمين. أما مع السيد باسّو، فقد تجاهل اسم اللورد دربي بصمت. ثم استدار فجأة نحو السيد باسّو وسأله قائلاً: " هل تعرف تشرشل؟" واعترف باسّو بأنه لم يتشرف بعد بمعرفة تشرشل شخصياً.

وعندئذ قال لويد جورج جازماً: " أنا أعرف تشرشل."

وإذا أتطلّع الآن إلى الوراء، مع معرفتي بجميع المناصب العظيمة التي شغلها السير ونستون تشرشل في ظل التاج بتلك المقدرة العجيبة، فإني ما أزال اعتقد أن عدم موافقة لويد جورج على اقتراحنا المشترك كان مدعاة الأسف. فلو أن تشرشل اكتسب خبرة مباشرة حديثة في شؤون الهند، إذن لكانت نظرته كلها وقت مؤتمر الطاولة المستديرة الهندية منذ عام ١٩٣٠ فصاعداً، وخطبه في المناقشات البرلمانية التي أدت إلى موافقة الحكومة على قانون الهند سنة ١٩٣٥، مختلفة بلا أدنى شك. ولكان تأثير تلك النظرة المتبدلة قد لمس طوال تاريخ العلاقات الهندية- البريطانية اللاحق- وأذهب إلى أبعد من هذا لأقول إني أعتقد أن تشرشل، بفضل معرفته الهند معرفة مباشرة لو تولى منصب نائب الملك، ربما وجد طرقاً أقل فظاعة لإسقاط هتلر وإنقاذ ألمانيا لصالح المدنية الغربية.

وفي كل مرة تباحثت فيها مع السير ونستون في الأمور السياسية، كنت أتأثر مجدداً بالواقعية العملية الخارقة للعادة التي تتميز بها نظرته إلى الأمور. فهو ليس عبداً لأفكاره السابقة ولا لرغباته وأحلامه قط، بل هو سيدها.

وعندما كان الكثيرون من رجال الدولة البريطانيين تواقين إبان الحرب العالمية الأولى، لإنقاذ تركيا من المصير الذي كان لابد أن تلاقيه، أذكر أن تشرشل قال لي بخشونة إن تركيا ستكون هدية المنتصر. كانت تركيا، كما قال، رجل أوربا المريض، وكانت تموت وتتفسخ، ولم تكن محاولة إنقاذها بالأمر المجدي.

ولكن من الذي كان في الحرب العالمية الثانية، ومن بعدها إلى يومنا هذا، أكثر إعجاباً وأشد مؤزارة وأعمق صداقة لتركيا الحديثة من ونستون تشرشل؟ لقد توصل إلى إيمان راسخ بالقوة الحيوية العنيدة التي تتحلى بها شخصية تركيا المعاصرة التي ترعرعت في جبال الأناضول، وإلى أن يعجب إعجاباً صادقاً بقوة انبعاث تركيا في ظل كمال أتاتورك، ذلك الانبعاث الشبيه بانبعاث طائر الفينيق الخرافي من بين رماد الإمبراطورية العثمانية، التي كانت كوارثها نتيجة لسياسة زعمائها العمياء والخرقاء.

وأما فيما يتعلق بالهند، فإن التطور الذي اعترى نظرة تشرشل هو أدعى إلى الدهشة. إنني أذكر موقفه زمن مؤتمر الطاولة المستديرة، وأذكر اللهجة التي كان يخاطبنا بها، ومعارضته الجازمة لفكرة الدومنيون. ومع ذلك فقد كان هذا هو تشرشل الذي أرسل السير ستافورد كريبس إلى الهند سنة ١٩٤٢ وحمّله توجيهاً لم يكن بالامكان إلا أن يؤدي في النهاية إلى الاستقلال التام وظهور الجمهورية الهندية. وعندما تمّ الانفصال التام، واختفت أكبر جوهرة من التاج البريطاني. وغادر آخر جندي بريطاني وآخر إداري بريطاني أرض الهند، كان قبول تشرشل للاستقلال الهندي مخلصاً وعن طيب خاطر.

وقد واجه تشرشل، بوصفه زعيم حزب المحافظين، برباطة جأش، سلسلة الأحداث الخطيرة التي أدت إلى استقلال الهند، وتقسيمها إلى دولتي بهارات وباكستان المستقلتين، وقسمة الجيش الهندي أيضاً.

وإذ أعود بالذاكرة إلى السنين الطويلة التي عرفت فيها السيرونستون تشرشل، فإني واثق من أن النعمة الكبرى التي أغدقها

الله عليه هي صحته. إنّ له بنية من حديد حمّلها طيلة حياته أقصى ما تستطيع تحمّله. لقد ضرب عرض الحائط بجميع أوامر الأطباء ونواهيهم. فقد عمل دونما انقطاع، ولعب بإفراط، وحلّق في نشاطات مختلفة من البولو إلى التصوير بالألوان، ولا أذكر مرة أنني رأيته يرفض طبقاً من الطعام الشهي. أو كأساً من البراندي، أو سيكاراً. ولقد حافظ على هذه الشهية والحيوية بفضل بنية جسمه الرائعة. وقد تمتع بها الضابط الشاب الذي جاء لمشاهدة جيادي، ورجل الدولة المحنك الذي كرّمه وأجلّه كل العالم المتمدن. كان للتغيرات الانتخابية في إنكلترا في تلك السنة الحاسمة، ١٩٠٦، أثرها في الهند. فبينما كنت في انكلترا في ذلك الصيف، كتب إلي أصدقائي في الهند وأخبروني أن الحكومة بدأت تدرك أخيراً أن هناك شيئاً يدعى المشكلة الإسلامية في الهند، وأنه لم يعد في استطاعتهم اعتبارها شيئاً مختلفاً.

منذ عام ١٨٥٧، عندما انتقلت السلطة في الهند من شركة الهند الشرقية إلى التاج البريطاني، كان المسلمون، بمعنى سياسي، موضع تجاهل من جانب البريطانيين. ولعله لم يكن أمراً غير طبيعي أن يتحول حكام الهند الجدد عن أولئك الذين كانوا، من طريق الدين أو اللغة، متصلين بالحكام الذين تم إبعادهم. لم يكن للمسلمين تواجد في ميدان الإدارة أو في حلبة السياسة، وقليل منهم درس أو كان يستطيع قراءة الإنكليزية. وإذا كان انهيار أباطرة المغول يدعو إلى الرثاء، فإن آثاره استمرت جيلين وتجلت في العزلة والعجز اللذين اكتنفا مسلمي الهند في أرضهم بالذات. كانت الأكثرية الهندوسية في وضع ملائم مفيد في ظل حكامهم الجدد، وقد أفادوا منه إفادة كاملة. أما المسلمون فقد ظلوا زمناً

طويلاً وهم ما يسميه الفرنسيون " بالكمية المهملة"، ولكن كلمتنا بدأت تسمع آخر الأمر. فقد وافق نائب الملك، اللورد مينتو، على استقبال وفد منا، وكان مقدراً لي أن أترأس ذلك الوفد.

كنا ندرك إدراكاً شديداً أننا قد أهملنا زمناً طويلاً، وأننا لم نكن في نظر الأكثرية الهندوسية- ممثلة بزعمائها في حزب المؤتمر- سوى قطعة صغيرة لا يعتّد بها من الجسم السياسي كله، ولم يكن يحسب لنا حساب، بالرغم من كثرة الحديث عن الوطنية، في المطامح التي كانوا يتطلعون إليها، ولا في الخطط التي يضعونها. لقد استمروا في إرسال رجال مطوعين من الدرجة الثالثة إلى مجلس نائب الملك التشريعي بدلاً من إرسال رجال يمثلون المسلمين تمثيلاً حقيقياً، الأمر الذي أدى إلى نسيان الإنكليز لشخصيتنا المستقلة كطائفة وللوضع الذي كان يمكن أن تكون عليه نسياناً تاماً.

وكان قرارنا قي تلك الفترة أنه حان الوقت لكي نقف موقفاً يبدّل من ذلك الاتجاه، وأنه يجب أن يكون لنا كلمة في الإصلاحات الدستورية عندما توضع على بساط البحث. كان الإصلاح يبدو وشيكاً، غير أنه يجب أن يفهم- في هذا الجو السياسي الذي يختلف الآن اختلافاً كلياً عما كان عليه منذ أربعين سنة- أنه كان اصلاحاً محدوداً جداً. كان على السيادة البريطانية في الهند، الإدارية والتشريعية، أن تبقى مصونة. ففي اصلاحات مورلي- مينتو، كما عرفت فيما بعد، وفي قانون المجالس الهندية لعام ١٩٠٧، الذي كرّس تلك الإصلاحات، لم يكن هناك أي تلميح إلى عملية تطوير نحو حكم ذاتي هندي نهائي، ولا إلى نقل السلطة من الأيدي البريطانية إلى الأيدي الهندية. وجون مورلي

نفسه هو الذي قال: " إن معطفاً من الفراء صالح جداً في كندا، غير أنه لا يفيد شيئاً على الإطلاق في الهند" - وهذا يعني ضمناً أن التطور السياسي والدستوري الذي خبرته كندا قد أنكر على الهند(وليس من قبل الهند). إن كل ما حققته مقترحات مورلي- مينتو، أو أرادت تحقيقه كان عبارة عن تطور متواضع في الأمور الطائفية والمحلية، والسماح للهنود، على نطاق ضيق جداً. بإعطاء المشورة حول شؤونهم الخاصة، وليس بالبتّ فيها أو اتخاذ القرارات بشأنها.

كانت الإصلاحات، ضمن هذه الحدود، تقدماً، وكانت مهمة بصورة خاصة من وجهة نظر المسلمين. كانت تجربتنا منذ إصلاحات كروس- لانسدون سنة ١٨٩٢ وفيما بعد ذلك قد دلتنا عل الطريق، وعلمتنا أنه لم يكن لنا أمل في إنصافنا عن طريق الانضمام إلى صفوف حزب المؤتمر أو التحالف معه. ولذلك طلبنا الآن من نائب الملك بشجاعة، عام ١٩٠٦، مواجهة الحقائق وجهاً لوجه؛ طلبنا اعتبار مسلمي الهند لا مجرد أقلية، بل أمة ضمن أمة؛ أمة من الواجب ضمان حقوقها وواجباتها في القانون. لقد دلل التاريخ أكثر من مرة منذ ذلك الحين، بعد الحرب العالمية الأولى ومرات متكررة بعد ذلك، أن وجود الأقليات- أو وجود طائفة واعية لوطنيتها ضمن أخرى، طائفة أقل عدداً ولكن ليست أقل وعياً أو إدركاً لنفسها كأمة من الأكثرية- هي قضية من أكبر قضايا عصرنا وأكثرها أهمية. إن خرائط العالم مليئة بمشكلات هذه الأقليات- في إيرلندا، وبولونيا، وتشيكوسلوفاكيا، ويوغسلافيا- بكل تعقيداتها ومصاعبها.

في عام ١٩٠٦ طلبنا لأنفسنا إنشاء مبدأ؛ مبدأ يجب أن يشمله

أي تشريع يكون نتيجة لهذه المقترحات الإصلاحية. لقد طلبنا أن يتمثل المسلمون بصورة كافية ومستقلة في الهيئات المحلية والمجالس التشريعية معاً، كما طلبنا أن يجري هذا التمثيل على أساس طائفي انتخابي مستقل. وباختصار، قلنا إنه يجب أن يكون لنا نحن المسلمين الحق في اختيار ممثلينا في هذه الهيئات والمجالس، وقبلنا أن نعطي عدداً معيناً من المقاعد الإضافية للهندوس في المناطق التي كنا فيها أكثرية، من مثل البنجاب وما كان يسمى عندئذ بمقاطعة البنغال الشرقية، وذلك للمحافظة على مصالحهم، ونُعطى بالمقابل عدداً معيناً من المقاعد الإضافية في المناطق التي يشكل فيها الهندوس أكثرية كبرى.

استمع اللورد مينتو بعطف للبيان الذي عرضنا فيه قضيتنا، وأكّد لنا أن مصالح الجماعات الإسلامية وحقوقها السياسية سوف تصان إذا ما طرأ أي تبديل في الإدارة. لقد تم قبول مبدئنا. لقد قُبلت معظم مطالبنا بتفاصيلها، ولو أنها لم تقبل جميعاً. كان من الأفضل، في رأيي، لو أنه جرى النص على وجود عضوين في مجلس نائب الملك التنفيذي- عضو مسلم وآخر هندوسي- بدلاً من النص على عضو واحد كما جرى أخيراً. لكن جون مورلي نفسه هو الذي قال لي عندما أثرت هذه النقطة فيما بعد، " من الأفضل ألاّ تحصل على السلطة بأكثر مما ينبغي."

ربما ليس من الضروري التأكيد على تهكّم التاريخ بتلك الملاحظة لكن إصلاحات مورلي- مينتو كانت، في زمنها، خطوة صادقة إلى الأمام. كنا قد وطّنا مبدأً سياسياً مهماً، مبدأً قدّر لتطبيقه، منذ ذلك الحين فصاعداً، أن يكون أحد الوجوه المهمة لجميع التطورات السياسية

في الهند. ولكن، لم يقرّ هذا المبدأ دونما معارضة، وإذا كان هناك عنصر تهكم في ملاحظة اللورد مورلي التي اقتبستها في السطور القليلة السابقة، فإن هناك رائحة تهكمية أشد في اسم الخصم المسلم الأول للموقف الذي اتخذناه، وفي شخصيته أيضاً. ذلك أن قبول اللورد مينتو لمطالبنا شكّل الأساس لجميع المقترحات الدستورية التي تقدمت بها الحكومات البريطانية المتعاقبة للهند، وكانت نتيجته النهائية الحتمية تقسيم الهند وظهور باكستان.

من كان أشد خصومنا عام ١٩٠٦ إذن؟ لقد كان محامياً مسلماً من بومباي يدعى محمد علي جناح. وكنت أول ما تعرفت عليه عندما دُعي إلى "البار البريطاني"، وأقام في بومباي- دونما ثروة خاصة ودونما نفوذ- ثم نمّى شهرته هناك بسرعة كمحام ومدافع بارع. ومنذ ذلك الحين ربطت بيننا الصداقة، ولكنه تصدى الآن، والأمور في هذه الحالة الحرجة، وبكل قوته، لجميع ما فعلته وأصدقائي وما كنا في سبيل صنعه. كان المسلم المعروف الوحيد الذي اتخذ هذا الموقف، ولكن معارضته لم تكن لينة إطلاقاً، وقال إن مبدأنا القائل بالدوائر الانتخابية المستقلة كان تقسيماً للأمة بعضها على بعض، وظل طيلة ربع قرن أكبر خصم وناقد لنا. وسأناقش في فصل تالٍ، مناقشة أكمل، الظروف- وقبل كل شئ حماقة الأكثرية الهندوسية في حزب المؤتمر وعنادها- التي حولت هذا الداعية الأقوى للوحدة الهندية إلى ألد خصوم هذه الوحدة، وسأرسم بالتفصيل طرق القدر التي حققت له، بوصفه الزعيم غير المنازع لثمانين مليون مسلم، النصر- وأعني به إنشاء دولة الباكستان المستقلة- الذي كنا نعمل له في البداية مداورة ودون أن ندري، والذي عمل له في النهاية

مباشرة وعن إدراك ووعي تامين، وبجميع قوى إرادته وعقله. أما الآن فإنني اكتفي بالإشارة إلى ما تضمنه كل هذا من سخرية وتناقض.

وقد بدا ما أنجزناه سنة ١٩٠٦ مهماً إلى قدر كافٍ، وكان واضحاً لنا، نحن الذين كنا على اتصال وثيق به- وبخاصة نواب محسن الملك وأنا نفسي- أننا لما كنا حصلنا على الاعتراف بحقنا في الانتخاب المستقل، علينا إنشاء المنظمة السياسية التي تجعل من ذلك التمثيل المستقل أمراً فعّالاً مجدياً. لذلك، أنشأنا الرابطة الإسلامية لعموم الهند في اجتماع عقد في دكا في وقت لاحق من تلك السنة، وصدف أنني لم أتمكن من حضوره، ومع ذلك فقد انتخبت أول رئيس لها وبقيت كذلك حتى عام ١٩١٢ .

جميع هذه الأحداث- الوفد الذي قابل نائب الملك، وقبوله لمطالبنا، وتأسيس الرابطة الإسلامية لعموم الهند، وانتخابي رئيساً لها- كانت بالنسبة لي ذروة فترة من الجهد السياسي المركز. وكان لذلك الجهد أثره الواضح على صحتي حتى إنني، أثناء زيارتي لسيملا لمقابلة نائب الملك، أصبت بالإغماء. كنت بحاجة للراحة، وفكرت أن أجمع إلى ذلك توسيع خبرتي وزيادة معرفتي. ولذلك شرعت في جولة حول العالم بصحبة أحد أصدقائي الفرنسيين، السيد رينيه تالومون، الذي أصبح فيما بعد أستاذاً للأدب الفرنسي في الولايات المتحدة، والذي مات مؤخراً. اتجهنا شرقاً، وذهبنا أولاً إلى الملايو وسنغافورة، ومن ثم إلى الصين.

كانت أحوال الصين محزنة في ذلك الحين، ففي بكين، كانت الإمبرطورة العجوز تعيش في عزلة داخل قصرها الصيفي الواسع، بينما كانت إمبراطوريتها تتهاوى وتتخبط في الفوضى والانحلال خارج

أسواره. وفي المدن على الشاطئ وصعوداً على ضفاف الأنهار التي كانت من الصين بمثابة الشرايين، كانت الجاليات التجارية الأجنبية- الأوربية- قد أنشأت نظاماً محكماً من موانئ المعاهدات والامتيازات. فهنا، على أرض بلد لم يكن بأي معنى من المعاني مستعمرة لأي أمة أوربية، كان من المدهش، والمزعج، أن نرى أشد أنواع الاستعمار إحكاماً وأكثرها عنجهية وصلفاً. كانت الامتيازات الأجنبية في مدن من مثل شانغهاي وهانكاو وغيرهما مدناً أجنبية ومعاقل للسلطة السياسية والمالية. وكانت قوة الأجنبي ومنزلته عظميتين، بينما كانت قوة حكومة مانشو ضعيفة بحيث أن حكام الصين الحقيقيين في تلك الأيام كانوا قناصل الدول الأوربية، وعلى رأسهم قنصل بريطانيا العام في شنغهاي. وبسبب الفوضى والانهيار اللذين كانت الإدارة الصينية تشكو منهما ،كان الصينيون الموسرون يأتون برؤوس أموالهم إلى المستعمرات الأجنبية طلباً للأمان والحماية- تماماً كما يرسل اليوم كثير من الأوربيين رؤوس أموالهم إلى الولايات المتحدة وكندا.

كان جو الاستعمار مقرفاً بقدر ما كان عاماً شاملاً. في السفينة التي سافرت على متنها من هونغ كونغ إلى شنغهاي، كان أحد زملائي في السفر نائب الملك الإمبراطوري لمقاطعة يونان- وكان، كما كان للمرء أن يفترض، شخصية لها اعتبارها في بلدها بالذات. وعندما وصلنا إلى شنغهاي، دهشت حقيقة، في حين صدم آخرون، للطريقة التي عامل بها موظفو الجمارك البحرية الامبرطورية الصينية- وكانوا على كل حال موظفين رسميين في الحكومة الصينية- هذه الشخصية بالمقارنة مع موقفهم من الركاب البريطانيين، ومني شخصياً، وحتى من خدامي

الهنود. لقد أظهروا نحونا كل لطف واعتبار، أما هو فقد عومل بخشونة وفظاظة، ففتحت حقائبه كلها، وعبث موظفو الجمارك بأمتعته وأوسمته. كانت مقارنة كريهة لم تبرح مخيلتي قط منذ ذلك الحين.

أما الاتجاه العام إزاء الصينيين ضمن المستوطنات الأجنبية فكاد يكون عدوانياً مثيراً للسخط. كانت جميع الفنادق الممتازة ترفض قبول الصينيين إلا في أجنحة أعدت خصيصاً لهم، وكذلك كان الحال في المطاعم. وكان محرماً عليهم تحريماً باتاً دخول النوادي الأوربية. وحتى في الحوانيت، كان يتعيّن على الصيني أن يقف جانباً وينتظر دوره، بينما يلقى الأوربي أو الأميركي الذي يدخل الحانوت بعده كل ترحيب واهتمام. إننا نسمع الكثير عن عقبة اللون في أفريقيا الجنوبية اليوم، ولكن عقبة اللون في السنوات الأولى من القرن العشرين كانت مفروضة بقسوة وحزم في الصين، ولم يكن أقل مظاهرها التعصب ضد الحكومة التي كان من المفروض أن الأجانب، بموجب القانون الدولي، هم ضيوفها. فهل نعجب بعد هذا كله إذا كانت النخبة المثقفة من الصينين لم تنس قط ذكريات هذه المواقف المؤلمة؟

لم تكن طبقة الموظفين الصينين القديمة، بالطبع، تسافر خارج بلادها، ولم تكن تعرف بالتالي إلا القليل من العالم خارج حدود الصين. غير أنه وجد، حتى في عام ١٩٠٦، عدد من الطلاب الصينيين يدرسون في جامعات الولايات المتحدة، ثم يعودون أدراجهم إلى وطنهم. ولعل استياءهم كان أشد وأعمق من الأنفة الباردة المنطوية على نفسها والتي كانت رد الفعل الطبيعي لدى طبقة الموظفين.

وفي شنغهاي، أقام لنا بعض التجار الموسرين، الذين كانت في

حوزتنا كتب تعريف إليهم من صديق لنا في سنغافورة، حفلة عشاء على الطريقة الصينية. وقدمت إلينا في هذه المأدبة أطباق الفراخ المعتادة ونوع من اللحم يسمونه اللحم المهروس بالطرطور، وهو في الحقيقة" كباب" يشبه الكباب الذي يؤكل في إيران وتركيا ومصر وجميع بلدان الشرق الأوسط، وحتى في بلاد القفقاس. وعندما ألمحنا إلى أن هذا النوع من الطعام معروف في أجزاء كثيرة من العالم قال لنا مضيفونا:" أجل لقد أعده لنا طاه صيني مسلم." ومن ثمّ تلته أطباق الطعام الصينية الكلاسيكية، ومن بعدها قدم إلينا نوع خلنا أول الأمر أنه حنكليس.

وقال تالومون:" من حسن حظنا أن نعرف هذا جيداً! "

ولكن مضيفنا ضحك من خطأ تالومون وقال: " آه، كلا، هذه أفعى! "

لكل شيء حد، وكان هذا بالنسبة لنا تجاوزاً للحدود. وهكذا، وبحذر كبير من أن تقع الأعين على فعلتنا، تخلصنا منه بأن وضعناه تحت منديل الطعام. وأذكر أني قرأت في إحدى الصحف، بعد ذلك بسنوات، وصفاً لتأثير طبق مماثل على بعض الأجانب في حفلة عشاء صينية رسمية، ذلك أنهم جميعهم مرضوا، وبعضهم مات.

قد يهتم طلاب علم الاجتماع بوجود ما كان يسمى في تلك الأيام " بيوت استقبال " في كل من شنغهاي وهونغ كونغ، وهي بيوت كانت تحت إدارة وإشراف جماعات صغيرة من النساء الأميركيات، لم يكن في تلك المؤسسات أي نوع من السماجة أو الخشونة أو الابتذال، بل كان يلفها جو من اللياقة والذوق الكاملين تقريباً. وكان الانطباع الأول الذي

يأخذه أي قادم جديد يدخل إلى هذه البيوت لأول مرة أنه إنما يدخل إلى مجتمع مستحب مقبول. ولم يكن يسمح بدخولها إلا للأوربين والأميركيين من ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة- وليس بالطبع للصينيين. وكان ينظر إلى النسوة اللواتي يملكن هذه البيوت- وقد اشتهرت الكثيرات منهن بالغنى، وبامتلاك جياد للسباق في شنغهاي- نظرة احترام. إلا أنهن كنّ يشبهن الجواري الإغريقيات أكثر من شبههن للسيدات الأوربيات من نصف العالم الغربي. كان معظمهن من أصل إسكندنافي، وقد جئن، كما أعتقد، من جوار مينوستا حيث تقطن جالية إسكندنافية كبيرة. وكانت النظرية الشائعة في الشرق الأقصى أنهن إنما جئن لغرض واحد معين: أن يجمعن مهراً لم يكن باستطاعة أسرهن توفيره لهن، وأنهن، بعد أن يجمعن ثروات لابأس بها، يعدن إلى الحياة العائلية الشريفة المحترمة.

وسافرت وتالومون إلى اليابان. ولما كانت الصورة العالمية قد تبدلت بشكل واضح، في السنوات التي تلت، فقد يكون من الضروري أن أذكر حقيقتين مهمتين عن اليابان في عام ١٩٠٦: أولاً، أن بريطانيا واليابان كانتا حليفتين، بموجب شروط معاهدة وقعت في وقت مبكر من القرن الماضي (التاسع عشر)؛ وثانياً، أن اليابان كانت قد حققت قبيل ذلك انتصارها في الحرب الروسية اليابانية، وهي الحرب الأولى التي شنتها في العصر الحديث دولة آسيوية على دولة أوربية عظمى وهزمتها في معركة استعملت فيها الأسلحة والمعدات الحديثة. وقد أقام وزير الخارجية، الكونت ها ياشي، الذي كان سفيراً في لندن عند توقيع معاهدة التحالف الإنكليزية- اليابانية، مأدبة على شرفي.

وعلى مائدة الطعام، بحثت معه التحالف الياباني الإنكليزي، فأكد لي هاياشي، وهو الذي عرفته جيداً في لندن، أن الاوساط العسكرية النافذة في اليابان كانت تعارض فكرة التحالف مع بريطانيا، وأنها كانت تدعو إلى التحالف مع روسيا. والواقع أنه كانت تجري مفاوضات مع الفريقين في وقت واحد، ويعود فشل الخطة الروسية لأن قبول روسيا الشروط المقترحة إنما وصل بعد أن وقعت المعاهدة مع بريطانيا بالأحرف الأولى. إن من الطريف والمخزي قليلاً أن نخمن إلى أي مدى كان يختلف تاريخ قرننا لو أن حكومة القيصر عملت بسرعة أكبر. ذلك أن الحرب الروسية اليابانية ما كان لها أن تنشب عندئذ- كما نشبت بالفعل- وأن تضعف النظام القيصري. ثم، ألم يكن بالإمكان أن يبقى لينين محرضاً مغموراً في منفاه الدائم؟

كان الفيلدمارشال أوياما من بين الزعماء اليابانيين الذين قابلتهم؛ وإني لأوكد أنني فوجئت بتواضعه وعدم إظهاره أية قوة أو سلطان، وإني لأذكر أيضاً- ألم يكن هو، على أية حال، أحد الرجال الذين قادوا أمتهم إلى النصر ضد روسيا؟- إن سلوكه كان يختلف تمام الاختلاف عن السلوك الذي كان من شأن أي عسكري أوربي أو أميركي أن يسلكه في مثل هذه الحال. وقد أخبرني أصدقائي أن سلوك الأدميرال توجو، القائد المظفر في معركة تسوشيما البحرية الكبرى، كان شبيهاً جداً بسلوك الفيلد مارشال أوياما.

وأسعدني حظي بمقابلة الإمبراطور العجوز، ميكادو ثورة اليابان العظيم، الذي قفزت اليابان في أيامه في خطوة واحدة واسعة من طريقة حياة العصور الوسطى إلى دولة صناعية وحربية حديثة قادرة على أن

تتحدى الغرب بطريقته ذاتها. ولما كان الإمبراطور صبياً قبل الثورة، مع أنه كان ميكادو عندئذ، أبقاه القائد الأعلى للجيش الياباني،" الشوغون "، في كيوتو مغموراً وفي حال تقرب من الفقر، إذ كان أولئك الذين يفترض أنهم كانوا خداماً له يقدمون إليه كمية صغيرة من الأرز كل يوم. لكنه تخلص من هذا الطغيان المتعجرف- وكانت النتائج مذهلة. وما أدهشني هو أنه كان رجلاً طويلاً، قوياً ، شديد المراس. كان يمكن أن يعتبر رجلاً كبيراً في أيما مكان، ولكن ضخامته كانت أكثر ظهوراً في طوكيو نفسها. كانت مقابلتنا صاخبة إذ كان يتكلم بأعلى صوته القوي، وكان يصرخ بأسئلته إليّ، ثم يصرخ أيضاً بتعليقاته عليها. وعندما كان يتوقف عن الصراخ كان يطلق تعجبات عالية متفجرة. وقد أخبرني الجليس المترجم فيما بعد أن صيحات التعجب تلك كانت تدل على موافقة الملك على أجوبتي عن أسئلته.

وأخذنا مركباً يابانياً عبرنا به المحيط الهادي ووصلنا فيه إلى هونو لولو. ويستطيع الناس الذين يعرفون هونو لولو تكوين فكرة عما كانت عليه وقتئذ- عن سحرها وجوها الهادئ العامر بالسلام والسعادة. لم تكن هناك سفن طويلة سريعة عابرة للمحيط الهادئ تنقل في ليلة واحدة من يودون قضاء عطلتهم في هونولولو من الولايات المتحدة. ولم يكن رجال السينما قد اكتشفوا هونولولو واستغلوها بعد، لقد كانت رومانسيتها حقيقية وليست معلبة. وكذلك، لم تكن هناك صناعة سياحية ولا قواعد بحرية وجوية ضخمة.

جميع فتيات الجزيرة خرجن لاستقبالنا مطوقات بأطواق من الزهور، وكنا كلما قدمنا إلى إحداهن أخذت طوقها من الزهور ووضعته حول

أعناقنا. كانت ابتسامتهن جميلة فرحة وحركات أيديهن بهيجة ناعمة. كنت وتالومون ما نزال شابين سريعي التأثر، وكان سرورنا واغتباطنا بهذه العادة اللطيفة عظيماً.

وتابعنا سفرنا باتجاه الولايات المتحدة، فعبرناخط التوقيت الدولي وأمضينا يوماً إضافياً كاملاً حتى وصلنا إلى سان فرنسيكو في شهر كانون الأول من عام١٩٠٦، في أعقاب الهزة الأرضية. كانت المدينة كلها أنقاضاً. يتحدث الناس عن الدمار المادي الذي أحدثته الحرب في فرنسا وألمانيا، وأنا نفسي قد رأيت، بعد انتهاء الحربين العالميتين، كثيراً من المدن التي أصابها الخراب. ولكن سان فرنسيسكو في عام ١٩٠٦ فاقت كل ما رأيت في حياتي. كان من العسير أن تجد حانوتاً مفتوحاً، ولكننا عثرنا مصادفة على مخزن الأدوية. كانت تجربة عجيبة- وسط كل هذا الدمار- أن تقدم إلينا المرطبات الباردة في ما يمكن تسميته في أي مكان آخر في العالم بحانوت كيميائي. كذلك لم يكن هناك سوى فندق أو فندقين يستقبلان النزلاء، ولكن الحياة والعمل كانا بوجه عام في بدء عودتهما من جديد وسط ذلك الدمار الهائل الذي كان يدعو للرثاء.

ومن كاليفورنيا عبرنا القارة بالقطار متوقفين بين حين وآخر لنقضي يوماً أو يومين في مختلف المدن على الطريق. وفي شيكاغو نظمت لنا رحلة إلى مرابط الماشية والمسالخ. وقبل ذلك بوقت قليل، كانت قد نشرت رواية آبتون سنكلير الدعائية وأحدثت أثراً قوياً. ويتعين علي القول إن الأحوال التي رأيتها في المسالخ لم يكن بينها وبين الفظائع الموصوفة في تلك الرواية أي شبه.

ولعل من واجبي أن أذكر أن معرفتي بأميركا وقتئذ لم أكتسبها من الروايات. فقد قرأت كتاب اللورد برايس عن الدستور الأمريكي، وكنت ملماً بكتابات رجال متنوعين من مثل والت وايتمان، وهاوثورن، وهنري، ووليام جميس ومارك توين(الذي سبق مني القول إني اجتمعت به في بومباي). وكان لي أصدقاء ومعارف أميركيون كثيرون في أوربا. وكسائر الذين يزورون الولايات المتحدة، أعتقد أنه كانت لدي أفكار سابقة عنها، ولكنها كانت تقوم على معرفة حقيقية، علمية لهيكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وصلنا نيويورك بعد عيد رأس سنة ١٩٠٧ تماماً، وكان موسم الشتاء في المدينة في ذروته. وقد ذهبت وتالومون إلى حيث نزلنا في فندق سانت رجيس؛ وبعد ذلك بخمسين سنة اعتاد ولدي الأصغر، صدر الدين، عندما كان طالباً في هارفارد، أن يقيم هناك كلما كان في نيويورك.

من كل ما يخبرني به أصدقائي، أستطيع القول إنه ليس هناك مجال للمقارنة بين الحياة الاجتماعية في نيويورك كما كانت في تلك الأيام، وبين الدوامة الهائلة التي تعيش بها هذه المدينة في أيامنا هذه. كنت طبعاً أحمل معي عدة كتب تقديم من أصدقائي الأوربيين في أوربا، ولذا استقبلت فوراً على الرحب والسعة. إن الأميركيين من الناس الذين يكرمون الضيف ويستقبلون الأجانب بلطف وترحيب بحيث أن كل من يزور الولايات المتحدة مرة واحدة لا ينسى مطلقاً الوقت الذي يقضيه هناك. كنت أدعى إلى الغداء والعشاء كل يوم، وكنت ضيفاً على أحدهم في الأوبرا كل ليلة. كانت دار أوبرا مترو بوليتان في تلك الأيام أشبه

بمعرض للجواهر والأزياء. لقد عرفت دور الأوبرا في باريس ولندن ولكن أياً منها لم تكن لتقارن من حيث الأناقة والترف بين الحضور بدار أوبرا متروبوليتان نيويورك في تلك السنوات الأولى من القرن العشرين.

ومن النيويوركيين البارزين الذين حملت إليهم معي كتاب تقديم كان السيد جيروم، وكيل المقاطعة وابن عم الليدي راندولف تشرشل. وقد تكرم السيد جيروم فدبّر لي جوازاً خاصاً مكنني من حضور واحدة من أهم القضايا الشهيرة في ذلك الزمان، وأعني بها محاكمة هاري ك. ثاو، المتهم بقتل ستانفورد وايت، مهندس ومصمم ناطحات السحاب.

كان اهتمامي بتلك القضية الطريفة يعود لمعرفتي بثاو حيث كنت قد التقيته قبل ذلك بعامين اثنين في باريس ومعه إفيلين نسبت. وكان ثاو، الذي كسب ثروته من السكك الحديد، ذا منزلة في المجتمع الدولي وقتئذ، غير أنه كان ذا مزاج حاد إلى درجة قصوى، وكان شخصاً غيوراً إلى أبعد حدود الغيرة. لقيتهما مرة عند العشاء، وبينما كنت أتحدث إلى المرأة الشابة في وقت لاحق من تلك الأمسية، وكانت على جانب وافر من الجمال والجاذبية، وقف ثاو في المؤخرة قلقاً، مما حمل أحد الأصدقاء على أن ينذرني بهدوء بأن ثاو كان رجلاً خطراً- يجدر بي اتقاؤه.

وفي المحاكمة ثبتت التهمة على ثاو، ولكنه نجا من الإعدام لأن الدفاع أثبت اختلال قواه العقلية. والذي بدا أن زوجة ثاو كانت قد اعترفت لزوجها قبل زواجها بأن ستانفورد وايت أخذها إلى شقته وأشربها شمبانيا مخدّرة، ثم زنى بها. وأثار هذا الاعتراف ثاو إلى درجة الجنون، وزاد هياجه عندما شك- دونما أساس- بأن وايت كان لا يزال

يلاحق زوجته. وبينما كان وايت يرقص مع صديقة له في قاعة الرقص في ماديسون سكوير روف غاردن، أطلق هاري ثاو عليه ست رصاصات قاتلة.

كان للمحاكمة سحر عنيف لكنه محير. كنت قد اعتدت على الطرق المتبعة في المحاكم ولكني وجدت أن الاستجوابات والاستنطاقات وجميع قواعد الإثبات في المحاكم الأميركية كانت تختلف إلى حد يبعث على الدهشة. وقد احتجت بعض الوقت حتى أدركت أن القانون الجنائي، بالرغم من أنه كان واحداً في الولايات المتحدة وانكلترا، قد تطوّر على أسس مختلفة منذ القرن الثامن عشر، وأن حرفة القضاء الأميركي قد طوّرت تقنيتها وتقاليدها الخاصة بها.

ومع أن السيارة كانت، بحلول عام١٩٠٧، قد فرضت نفسها ولم تعد تلك الدمية القبيحة العابقة التي كانت قبل ذلك بعقد واحد من السنين، إلا أن نيويورك كانت ما تزال مدينة تنتشر فيها العربات الجميلة والجياد المطهمة، ولم تكن سيارات التاكسي قد حلت محلها بعد. وإني لأذكر كم كان الشعب الأميركي بجميع طبقاته ودوداً أنيساً في تلك الأيام. كان الكتبة والمساعدون في الحوانيت والمخازن ودودين ممتلئين بالحركة والنشاط، ولم تكن العين لتقع منهم على تلك النظرات الحادة المستنكرة التي كانت تقع عليها في حوانيت أوربا. أما الشرطيون فكانوا يقفون في النقاط المخصصة لهم، وكانوا يرشدونك إذا ما سألتهم عن الطريق، بخلاف درك باريس الجفاة أو رجال شرطة لندن ذوي المهابة والجلال.

وإني أدرك أني كنت سعيد الحظ وقت زيارتي الوحيدة هذه لنيويورك، وفي العالم الاجتماعي- الذي اختفى الآن بالكلية أوكاد-

الذي وجدته. لقد اجتمعت بأعظم زعيمات المجتمع في تلك الأيام: السيدة كورينليوس فاندربلت، والسيدة جون جاكوب آستور، والسيدة وايتلو ريد، والسيدة فيلبيس والسيدة أوغندين ميلز، وسواهن ممن غمرنني بلطفهن وأقمن على شرفي مآدب وحفلات رقص عديدة.

لقد أمضيت وقتاً طويلاً في المتاحف، شأني دائماً في أية مدينة أزورها للمرة الأولى. إن كثيراً من بيوت الموسرين كانت متاحف في حد ذاتها بالطبع، وكان عجيباً حقاً أنه بالرغم من أن فجر المدرسة الانطباعية كان قد بزغ في باريس، فإن الذوق الأميركي قد حافظ على كلاسيكيته وتقاليده، وكانت جدران الكثير من البيوت التي زرتها مغطاة بنماذج من اللوحات الزيتية الإنكليزية والإيطالية والألمانية والهولندية من مختلف العصور.

وجرى منحي عضوية شرف في نادي الاتحاد. كما اكتشفت نكهة الطهو الأميركي الوطني اللذيذة، وزرت المسارح مرات عديدة. كانت " الحداثة"- كما كانت تعرف عندئذ- قد بدأت بغزو نيويورك بالفعل، وكانت مسرحيات إيبسن تمثل في المسارح من حول المدينة. ولكن تلك الأيام كانت بالطبع أيام الكوميديا الموسيقية، قبل أن تحل محلها ضروب التسلية الصاخبة والأكثر اصطناعية. كان ذلك الزمن زمن توسع وازدهار عظيمين بالنسبة لأميركا بصورة عامة، وكان من أماراته المنظورة الخارجية تلك البنايات الناطحة للسحاب. كنا نتحدث عن ناطحات سحاب نيويورك آنئذ، ولكنها كانت شيئاً متواضعاً لا يتألف من أكثر من عشرين أو ثلاثين دوراً، ومع ذلك فقد كانت تبدو في أعيننا جبارة هائلة.

وعلى العموم، فقد قضيت في نيويورك وقتاً طيباً جداً. إنني لم أنسه قط، وأتمنى لو أنني استطعت أن أعود إليها مرة ثانية. ولكن من سوء حظي أن هذا لم يكن ممكناً لي، وكان مدعاة لأسف عظيم دائم.

وهكذا، استعدت صحتي ومعنوياتي بعد تلك الجولة. وفي سنة ١٩٠٧ شهدت البلاد إصلاحات مورلي- مونتو الدستورية في الهند وهي تتحول من مقترحات كان لنا تأثير في صياغتها وقولبتها، إلى قانون. ومع أن جون مورلي تلكأ في قبول مبدئنا القائل بوجوب إنشاء تمثيل انتخابي خاص بالمسلمين، إلا أن نائب الملك، اللورد مينتو، أعطى موافقته على ذلك. كان عام ١٩٠٧ بالنسبة لسيد أمير علي، وبالنسبة إلي شخصياً، فترةً أحسن وصف يمكنني أن أصفها به هو حرب عصابات هدفها إبقاء مورلي عند حده. لقد فزنا في النهاية، ولكنها كانت معركة عنيفة قاسية.

تمكنت من إحداث تعديلات جذرية دائمة في حياتي الشخصية، ولكن انقطع كل أمل بالمصالحة مع زوجتي، البيجوم شاه زاده، نهائياً. وهكذا، اتفقنا على الطلاق. وفي حين بقيت مسؤولاً عن الإنفاق عليها حتى وفاتها، إلا أنها اختفت من حياتي تماماً ولم يلتق أحدنا الآخر بعد ذلك إطلاقاً.

ومنذ عام ١٩٠٧ أخذت في زيارة أوربا كل سنة، وكانت حياتي تدور في حلقة رحبة مرضية. عندما زرت أوربا لأول مرة عام ١٨٩٨، كنت شاباً خجلاً ينقصني النضج، وأحببت الريفيرا الفرنسية حباً عظيماً. أما الآن، وقد بلغت سن النضج، فإن حبي لها تعمق ونضج، ورحت أعود إليها المرة بعد الأخرى. وفي عام ١٩٠٨ عثر هذا الحب على

شخص تركّز فيه، ذلك أني تعرفت إلى الأنسة تيريزاما غليانو، وكانت إحدى راقصات أوبرا باليه مونت كارلو اللواتي يبشّرن بمستقبل زاهر. كانت عندئذ في التاسعة عشرة من عمرها، ووقعت وإياها في حب جارف. وفي ربيع تلك السنة صحبتني في زيارة إلى مصر حيث عقدنا زواجنا وفق الشريعة الإسلامية.

حقق لي هذا الزواج رضاً روحياً وعقلياً. وفتح لي الباب للدخول في عالم جديد. كانت طبيعة زوجتي تتذوق الجمال وتقدره تقديراً عظيماً. لقد كانت هي نفسها فنانة خلاقة بحق. وبالرغم من أنها لم تجد بداً من ترك المسرح بعد زواجنا فقد تحولت إلى دراسة جدية للتصوير الريفي أولاً ومن ثم إلى فن النحت. وهنا تجلت مواهبها واتخذت لنفسها الاسم الفني(إيلا). وصارت منحوتاتها تعرض عبر القارة وفي إنكلترا أيضاً.

وقبل وفاتها عام ١٩٢٦، وكانت بعد شابة لم تتجاوز السابعة والثلاثين، بلغت مرتبة عالية في عالم الفن وأصبحت تعتبر نحاتة ذات مواهب فنية رفيعة.

وطلب إليها أن تضع التصاميم لعدد من النصب التذكارية الحربية في إنكلترا وفرنسا ولعدد من تماثيل الجنود المجهولين التي عبرت بصدق عن مشاعر سنوات الحرب. وآخر مهمة كلفت بها وأعطتها رضاً خاصاً جاءت من مدينة فيينا، عندما فازت في مسابقة اشترك فيها أكثر من مائة فنان لتصميم نافورة شكلت التماثيل فيها جزءاً هاماً من المشروع التزييني.

لقد شجعني اهتمام زوجتي بالفن وتذوقها له على استكشاف عالم الفن لنفسي. وأول حب لي في تجربة عالم الفن كان دائماً الموسيقى

والبالية. وردود أفعالي على الموسيقى والرقص كانت عاطفية وحسية. وإني لأذكر بوضوح أول مرة في حياتي استمعت فيها لموسيقى الوالتز ولمنظر الرقص على أنغامها. كنت وقتها لا أزال غلاماً في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمري. وكان المشهد في قاعة للرقص في دار الحكومة في بونا. وإنني لأجرؤ على القول بأن الأوركسترا كانت أقل من وسط؛ وأشك في أن الراقصين كانوا من أصحاب الخبرة، إذ لم يكن لدي معايير للحكم بوساطتها، ولم يكن ذوقي الفني قد تشكل بعد. ولكن الراقصين في تلك القاعة المتلألئة بالأنوار كانوا يدورون كالدوامات أمامي، وبدا المشهد وكأن هؤلاء كانوا كالتماثيل التي نبضت بالحياة فجأة، وراحت أصداء الموسيقى الصادحة تدخل قلبي كأنها مد جارف من المرح والحبور. إن أنوار تلك الحفلة قد انطفأت منذ أكثر من ستين عاماً، والراقصون جميعهم مضوا، إلا أن ذكرى تلك الموسيقى وتلك الحركة لم تخفت عندي قط.

لقد اكتشفت مصدراً للسعادة لم أكن لأفقده أبداً. فمع مضي الأيام أصبحت مهتماً أكثر فأكثر ووجدت المزيد والمزيد من الانتعاش والتجدد في الموسيقا والباليه والأوبرا والمسرح. وجاءت هذه الفنون في المرتبة الأولى من بين الفنون الأخرى. فقد أحببت الصور والرسم ولكن في حقل مقيد بالمقارنة مع بقية مجالات الفن. لقد نشأت، شأن بقية أقراني من جيلي، على أعمال سادة الفن الكبار من المدرسة الإيطالية، ولكن بدرجة أقل، على أعمال المدرستين البريطانية والهولندية؛ ولكني، وأنا أجوب معارض الرسم من باب الواجب، لم أجد فيها ما يحركني، ، ولم أعرف المعنى الحقيقي للرسم إلا عندما رأيت عمل تيرنر لأول مرة. ثم، وحوالي

سنة ١٩٠٤، شاهدت لأول مرة اللوحات الانطباعية الفرنسية؛ ووجدت فيها امتداداً لما أثارته فيَّ لوحات تيرنر. وكان تيرنر، ومونيه، ورينوار، وبيسارو هم من كنت أنظر إليهم كرسامين كبار. أما في مجال النحت والمفروشات فكان ذوقي مصرياً بحتاً- نصب التماثيل الضخمة لمصر القديمة، والخطوط الصافية البسيطة والرسمية في الوقت نفسه للمفروشات اليومية العادية التي يمكن رؤيتها معروضة في القاهرة، هي ما كانت كافية بالنسبة إلي. أما المفروشات الإنكليزية والفرنسية فلم تكن، حتى تلك التي تعود إلى الفترات" العظيمة"، تحرك فيَّ ساكناً. كما لم أبال كثيراً بالمجوهرات أو الأعمال المنقوشة على المعادن الثمينة ما عدا الفضية منها؛ فقد كان للفضة الجميلة دائماً جاذبية خاصة عندي.

ولكني ارتحلت كثيراً واستمتعت عميقاً بمجالات الخبرة الجمالية التي كنت أهتم بها. وإني فخور بتذكر العدد الكبير من كبار فناني القرن العشرين ممن كانوا يعدون ضمن أصدقائي الشخصيين. فقد عرفت سترافنسكي جيداً، ومعرفتي بأعماله المبكرة كانت معرفة لصيقة وحميمية. وكان قد كتب، بالتعاون مع دياغيليف، وكما هو معروف عند الجميع، موسيقا أشهر أعمال الباليه المبدعة؛ وسمعت الكثير من تلك الموسيقى قبل توزيعها على الأوركسترا.

وكنت أعرف كلاً من ماسينيه وبوتشيني بشكل جيد أيضاً. ولابد أنني كنت أول أصدقائهما كما أعتقد، الذين لاحظوا بحة مقلقة متزايدة في صوت بوتشيني، وهي بحة كانت علامة على مرض أودى بحياته في نهاية المطاف. واقترحت عليه باقصى درجة من الكياسة أن يذهب إلى رؤية طبيب بدلاً من المص الدائم لحبوب مقاومة السعال. وكان ماسينيه

صديقاً آخر لي، وكثيراً ما ذهبنا سوية إلى موائد العشاء في فندق دوباريس في مونت كارلو. وعندما مرض مرة بنزلة صدرية، كما أفهمت، ذهبت من كان إلى مونت كارلو لزيارته في فندق دوباريس. وهناك أخذوني إلى غرفة استقباله مباشرة. فوجدته مستلقياً في حوض ماءٍ من المرمر وهو عارٍ ونار متأججة في موقد غرفة الجلوس المجاورة. وكان منشغلاً بإملاء نوتة موسيقية على امرأة سكرتيرة. ولم يظهر على أي منهما أثر لانزعاج أو اضطراب؛ بينما أنا نفسي، وأعترف بذلك، أصابتني الدهشة. لكن ماسينية كان مقنعاً في توضيحاته؛ ذلك إنه تواردت عليه أفكار خلاقة كان عليه وضعها على ورق. وبما أنني جئت كل تلك المسافة من كان، فلم يكن من اللائق أن يرفض مقابلتي. فقال: " إجلس من فضلك، عليَّ أن أنهي قطعة العمل هذه. "

وجلس لساعة تقريباً وهو في حمامه، يدير صنبور الماء من فترة لأخرى، ويردد نوتته الموسيقية بتقطيعاتها، ويطلب من سكرتيرته أن تكرر الجمل الموسيقية بعده بحيث بدا وكأنه يعطي درساً في الموسيقا. وأخيراً توقف فيض الإبداع، فأغلقت المرأة الشابة دفترها وانصرفت مسرعة، عندئذ فقط أدرك الرجل العجوز- فقد كان في السبعين من عمره، أنه كان عارياً وأن الماء أصبح مثيراً للقشعريرة. فقفز من حوض ماء الحمام وركض إلى غرفة نومه وارتدى ثيابه وعاد إلي ليودعني بلطف ومودة.

وتعرفت أيضاً على الكثير من الممثلين والمغنين من مثل مدام بارتيه من " الكوميدي فرانسيه " ، وجين دور سزك، وكاروسو وميلبا الاسترالية. وفي انكلترا عرفت العديد من أشهر شخصيات المسرح بدءاً

بالسير هنري إيرفنغ ومروراً بجورج إلكسندر، وفرقة تريز والسير سيمور هيكز وزوجته إلالين، وانتهاء بكثيرين آخرين.

وتعرفت إلى السير جونستون فوربس- روبرتسون عبر صديق لي، عضو زميل في نادي مارلبورو، دوغلاس اينسلي. وكان اينسلي نفسه رجلاً جمع في شخصه ما بين أصالة الشخصية والموهبة. وقد أسس في نفسه، وهو العضو السابق في الخدمات الدبلوماسية، نوعاً من الارتباط ما بين عالم المجتمع وعالم المسرح. وقد اقترح روبرتسون أن أقوم بكتابة مأساة من الشرق في موضوع تاريخي، وترك لي حرية اختيار الموضوع. لكن ما كتبته لم يعجبه فاقلعت بعدها عن فكرة كتابة شعر تراجيدي.

بالعودة إلى موضوع المؤلفين- عندما زرت اوربا لأول مرة كان الجدل حول فاغنر لا يزال محتدماً في ذروته. غير أن التذوق الموسيقي في تلك الأيام كان مقتصراً في كل البلدان الأوربية ما عدا إيطاليا، على عدد قليل نوعاً ما. واحدى التبدلات العظيمة التي شهدتها في حياتها كانت الانتشار الواسع للفهم والتذوق الموسيقين بين مختلف طبقات المجتمع. وكان لانهيار التمايز الطبقي في دول مثل إنكلترا وفرنسا أثره في ذلك. وهذا أمر ملحوظ في البالية أكثر من غيرها، ويمكنني الزعم هنا بأنني راقبت عن كثب حدوث ثورة هائلة في التذوق منذ بداياتها الأولى.

ألمحت قبل قليل إلى دياغيليف بشكل عابر. لكنه كان هو ملهم هذه الثورة ومبدعها. وشأنه شأن قيصر في بريطانيا؛ هكذا كان دياغيليف الروسي في أوربا الغربية ما قبل الحرب العالمية الأولى- أتى إلى أوربا وشاهد واكتشف وهو نفسه كان يعتقد أنه لم يكن ليستطيع التعبير عن ذاته ويمارس أصالته وتأثيره لو أنه بقي في روسيا ولم

يحضر إلى اوربا الغربية- مع أن روسيا هي أم الباليه. لقد كان كل شيء جامداً ومتزمتاً، ولم تكن هناك فرصة لتلك النار الخلاقة التي، ما إن غادر روسيا، حتى أزكاها دياغيليف وأبقاها ملتهبة، منذ البداية، كنت مؤيداً متحمساً ثابتاً لدياغيليف، وبقيت كذلك حتى وفاته المفاجئة. وأشك في أن ذورة منجزات دياغيليف قد تحققت اليوم عموماً. فالجيل الجديد يأخذ الأمور كلها على أنها مسلّم بها. فالباليه التي عرفتها أوربا الغربية قبل ظهور دياغيليف على الساحة، كانت فناً رتيباً عقيماً خلا من الإثارة والحيوية. ثم أحدث دياغيليف انفجاراً في الوعي الجمالي الأوربي سنة ١٩٠٩ و ١٩١٠ يشبه انفجار القنبلة. ولم يقتصر تأثيره على فن الباليه؛ فقد انساح إلى فنون رديفة، وأحدث ثورة في أفكارها الأساسية، وهي ثورة اتصفت بالإبداع والنقد. وكان تأثير دياغيلف في مفاهيم جمع الحركة في الموسيقى، وفي تقديم الأفكار المجردة والمثل من خلال الحركة كما هو الحال من خلال الموسيقى، كان هذا التأثير هائلاً ودائماً. وكان ذلك، كما هو واضح، لب إنجازه الفريد؛ لكن كيف يمكن أن تكون حالة ديكور المسرح، وتصميم الأزياء، والأزياء النسائية، والفرش، والديكورات الداخلية، في النصف الأول من القرن العشرين لولا دياغيليف؟ أما تأثيره على فنون النحت البلاستيكية والرسم فلم يكن أقل ثورية. قد نستطيع افتراض أنه لم يبدع هو نفسه أي شيء بالفعل، ولكن الحق يقال بأن كل عمل مبدع لأي شخص آخر تعاون معه، كان من إبداعه أيضاً. واشتهر عدد غير قليل من الفنانين ممن ارتبطوا به في مجال الرقص من مثل كارسافينا ونيجينسكي وليفار وماسان، ولكن رسامين أيضاً مثل باكست وموسيقيين مثل سترافنسكي. لقد كان قائد

أوكسترا مبدعاً؛ وكل من تعاون معه اشتهر وأبدع أكثر مما لو لم يتعاون معه، أو حتى ما بعد انتهاء تعاونه معه. ويعتبر نيجينسكي مثالاً تراجيدياً عالياً على القوة الغامضة التي مارسها دياغيليف، وعلى العبقرية التي تنتج عبقرية. ولكن تاثيره على الآخرين لم يكن أقل أهمية. لقد فرض ذوقه القوي الأصيل على مجموعة موهوبة من الفنانين مستخلصاً منهم أفضل ما لديهم وما هو أكثر أصالة، وهذا أدى إلى فرض ذلك الذوق على أوربا بتأثير هائل غير قابل للقياس ولا ينسى.

كثيراً ما اعتدت حضور مؤتمراته مع مساعديه البارزين- " رؤساء الدوائر" كما كان يسميهم: سترافينسكي، وباكست، ونيجينسكي، وكارسافينا، وقائد الباليه وفنانين آخرين. وكان المؤتمر يشبه مجلس حرب؛ فكل واحد كان يدلي بما لديه في حوضة مشتركة، أما دياغيليف فكان، بلا شك، القائد الأعلى الذي يفرض وحدة الشكل والمفهوم الجمالي ويحول كتلة من المشروعات الرائعة إلى عمل فني منظم متماسك. وكان صراع الأفكار يتحول إلى شكل ما، وتكون النتيجة عملاً رائعاً.

وكان الأساس العملي الذي قام عليه استخدام الموهبة يبدو للوهلة الأولى هشاً بأقصى درجة. ذلك أن دياغيليف كان في دينٍ دائم. إذ لم يكن في يده- بنس واحد. غير أن مخيلته المبدعة- وإيمانه الخاص بها- تفوقت على هذه الاعتبارات الصغيرة- كما بدت له. كان يعلم أنه يبدع عملاً رائعاً، أو سلسلة من الأعمال الرائعة، وكان يثق ضمناً بأن جمهوره سيقدر قيمة عمله. وكان لديه إيمان يزحزح الجبال- وقد ذابت جبال من الصعوبات وهو يشق طريقه عبرها. وكلما ظهرت حالة مالية ميؤوس

منها، ظهر راع ثري جديد، محسن جديد مما يجعل أكثر الصعوبات الملحة الطارئة تتلاشى، ويندفع هو نفسه باطمئنان نحو نجاحه التالي. وتجلت قدرته في حل الأمور في آخر لحظة حتى على المسرح. فكل إنتاج جديد كان يبدو في حالة فوضى عارمة حتى آخر لحظة، وبطريقة ما، بسحر خاص منه، كان دياغيليف يحول كل شيء، خلال آخر ليلة قبل العرض، من فوضى تثير الأعصاب إلى أمر منظم يفجّر عاصفة جديدة من النجاح تضاف إلى سجله الحافل. وتبقى الصالات مليئة بالحضور ليلة بعد أخرى، وتتنقل النجاحات إلى باريس وإلى لندن، وإلى بقية مدن وبلدات المقاطعات.

لقد كان فريداً حقاً، لكن الثورة التي أحدثها هذا العبقري تابعت مسيرتها بعد موته. وما نراه من ازدهار في فن الباليه- في باريس ولندن والولايات المتحدة- هو ثمرة جميلة غرس بذورها هذا الرجل الغريب الرائع. إن معرفتي الوثيقة بهذه الثورة الجمالية هي مصدر اطمئنان لي. شكّل دياغيليف والباليه مركزاً لذلك العالم الساحر البالغ التعقيد الذي استثمر عالياً عملاً مبدعاً واستحساناً خطيراً في تلك السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى مباشرة، والتي عشتها بكل ما فيها. وتسبب الوقت، والحظ، والتبدلات الاقتصادية والاجتماعية بإحلال الدمار بنموذج الحضارة الفني وطريقة الحياة التي بدت وقتئذ عصية على التدمير. ومع ذلك، إذا ما فقدنا الكثير، إلا أن الكثير تم كسبه من خلال الآثار الرائعة والواسعة الانتشار للثورة الفنية التي تحققت على يدي دياغيليف. وبينما خسرت الطبقات العليا، إلا أن الجماهير ربحت، ولم يعد انتشار الثقافة مجرد كلام كتب بل هو حقيقة واقعة.

عندما أفكر بالمسارح، ودور الأوبرا، وقاعات الموسيقى والمعارض الفنية لأوربا الغربية اليوم، وبالناس من مختلف الطبقات الاجتماعية (وليس الطبقة المترفة الغنية القليلة العدد وحسب) الذين يرتادونها ويظهر عليهم استمتاعهم العقلي والروحاني بغناها؛ عندما أفكر كيف أن الفهم الشغوف الحقيقي بالفنون وتذوقها قد انتشر في العقود القليلة القريبة إلى كل مستوى من المستويات الاجتماعية- عندما أفكر بذلك أجد أكثر من سبب كي أكون مسروراً وليس بالأحرى حزيناً. هناك البعض، بالطبع، ممن لا يشاركونني تفاؤلي. لكن هناك وجه واحد حزين قابلته في السنوات الانتقالية تلك في المسرح في زيوريخ، منتصف سنوات الحرب العالمية الثانية. وكان ذلك مع رتشارد شتراوس الذي عرفته إبان أوج شهرته العالمية. كان شتراوس رجلاً عجوزاً كسير الخاطر. وعندما رآني، فتح ذراعيه بتعبير حزين يائس، وأدار عينيه إلى الأعلى وغمغم بعبارة غير منسقة لم ألتقط منها سوى كلمة " الله "، وكبا على وجهه بيأس.

ومن عام ١٩٠٧ حتى اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى، كنت أقضي جزءاً من كل عام في أوربا. كان الانتقال من بلد إلى آخر، ومن قارة إلى أخرى، مع أنه كان أبطأ مما هو عليه اليوم، كان كذلك أسهل وأكثر حرية إلى حد كبير؛ ذلك أن الحضارة لم تكن قد تعلمت بعد الشكليات المضنية التي تتعلق بجوازات السفر وسمات الدخول، ومراقبة العملات وأنظمة الأمن.

كان عدد الأميركيين الذين يأتون إلى أوربا يزداد سنة بعد سنة، وكثيرون منهم كانوا من الموسرين ومن ذوي الأذواق الراقية. بعضهم كان

يستوطن بصورة دائمة، في حين كان آخرون يروحون ويجيئون، وبعضهم أنشأ مؤسسات كبيرة على الريفييرا أو غيرها من الأماكن. كان بعضهم من ذوي " الشخصيات " من مثل جيمس غوردون بانيت، صاحب "نيويورك هيرالد " الشهير، والذي كان يملك فيلاً في بوليو- سير- مير. كان عندئذٍ رجلاً مسناً، وكان مظهره ينبئ عن سنه. ومع أنه كان حاد المزاج سريع الغضب، فقد كان طيب القلب. كان إذا أراد هو وزوجته الجميلة أن يبالغا في إكرام ضيفهما دعواه إلى طعام الفطور وقدما إليه وجبة غنية تحتوي كل صنف من أصناف الأطعمة الأميركية. أذكر أنه خلال الحرب العالمية الأولى كان يكره أشد الكره سماع الأنباء السيئة من أي نوع كانت. وإذا لُفت نظره إلى أية نكسة أو كارثة استراتيجية أصيب بها الحلفاء بلغ به الغضب أقصاه وأخذ يصب نقمته على ناقل الخبر، حتى إنه كان من العسير على المرء أن لا يظن أنه هو نفسه المسؤول عن النكسة التي بلغ به الطيش حداً جعله يأتي على ذكرها.

كان السيد هارجس، من بنك مورغان، وزوجته ممن تعرفت إليهم وصادقتهم في هذا الوقت، وكان مؤيداً أميناً لقضية الحلفاء منذ اليوم الأول الذي نشبت فيه الحرب. كما تعرفت إلى السيد رالف كورتيس، المحدث الفكاهي، وزوجته، والسيد هايد وزوجته، وولتر بري، القاضي في المحاكم المختلطة في القاهرة، والذي كان طيلة حياته صديقاً لاديث هوارثون، الروائية المؤرخة من نيويورك.

كان برنارد بيرنسون يظهر الكثير من الفخر بالعناية والدقة التي يلفظ بها اللغة الانكليزية. غير أنه وجدت ثغرة صغيرة في درعه الشفوي هذا؛ فقد كان يلفظ كلمة " كوركسكرو " البسيطة وكأن هناك

مقطعاً ثالثاً فيها- " كوركرسكرو ". وقد علم بعض أصدقائه بنقطة الضعف هذه، واستغلوها ضده في كذبة أول نيسان؛ ومنذ تلك الفترة كان يجري تذكيره بهذه السلبية في كل مرة يتخذ فيها موقفاً متشدداً في مسألة اللفظ الصحيح للغة.

وكذلك، كان لرالف كورتيس ولع باستعمال التورية؛ فقبل سنوات من معرفتي به، حدث أن كان في بومباي عندما وصل السيد و. ك. ثاندربيلت(والد كونسوليو دوقة مارلبورو، ومدام بالسان فيما بعد) على ظهر يخته. وكان اللورد هاريس، الحاكم وقتئذ، يحمل الاعتقاد الخاطئ، الذي كثيراً ما حمله الانكليز، بأن المجتمع الاميركي مبني على المال، وبما أنه كان على علم بأن آل فاندربيلت كانوا أثرياء جداً، فقد سأل رالف كورتيس ما إذا كان يعرف السيد فاندربيلت، مضمناً بوضوح أن ذلك شرف كبير له إذا كان يعرفه.

فأجاب رالف كورتيس، " لم أعرف آل فاندربيلت قط لأنني عندما عشت في نيويورك كانوا لا يزالون فاندربيلدنغ ".

وفي منزل جيمس هايد التقيت عدة مرات بالسيد هانوتو، المؤرخ الشهير وعضو الأكاديمية الفرنسية ورجل الدولة الذي شغل منصب وزير خارجية فرنسا من سنة ١٨٩٤ إلى سنة ١٨٩٨ . ولقد استلطفني السيد هانوتو، ولذلك كثيراً ما وجدنا أنفسنا نبحث ونناقش في الأمور السياسية. أذكر أنه أكد لي بكثير من الجد أنه لو لم تسقط وزارة "مالين" عام ١٨٩٨ ، والتي كان هو عضواً فيها، ولو أن الأحزاب المؤتلفة التي كانت قد رفعت مالين إلى سدة الحكم قد حافظت على مؤازرتها إياه بدلاً من مساندة " دلكاسيه "، إذن لكان من الممكن الوصول إلى

حل ودي وعادل لمشكلة الإلزاس واللورين، حل كان يمكن أن يكون مشرفاً ومرضياً لكل من فرنسا وألمانيا. فإذا صح تأكيد هانوتو، فإنه يكون مثلاً آخر على الفرص المضيّعة في عالم الديبلوماسية، مثلاً آخر على الانحراف الخاطئ، إذ لو اتخذ القرار الصحيح وقتئذ، لما وقعت الحرب العالمية الأولى على الاطلاق.

وقد عرّفني وولتر بري على السيدة اديث هوارثون ومارسيل بروست. كان وولتر بري عازباً ومحدثاً لبقاً، وكان بطريقة ما قد عرف بين نساء الحلقة الصغيرة التي كنت وإيّاه نتنقل فيها بأنه أعظم طوربيد لغواصة الحياة الزوجية وجد إطلاقاً. كانت النسوة يؤكدن ويجزمن بأنه كان يقول لكل منهن على انفراد أن زوجها لا يصلح لها، وأنها كانت أعظم من أن تصلح له. كان رجلاً بارزاً، ومحامياً شهيراً- فماذا كان باستطاعتهن أن يفعلن غير تصديقه؟ وفي كل مرة كانت هناك حياة زوجية يجري نسفها بطوربيد. كانت نكتته من ذلك النوع الذي لا يسع ذلك المجتمع الصغير المتكلف إلا أن يتمسك بها ويناضل حتى الموت في سبيل الاحتفاظ بها. ولكن وولتر بري كان له سبب قوي حمله إلى الشهرة. كان واحداً من أولئك الناس القلائل الذين كان باستطاعتهم في أي وقت أن يدعوا بروست إلى العشاء وهو واثق من قبوله. والغريب أنني لم اجتمع ببروست قط في الريتز، حيث كان يذهب في أحيان كثيرة؛ ولكنني اجتمعت إليه فعلاً مرات عديدة عند العشاء في منزل وولتر بري.

وأكثر ما أذكره عن بروست هوسكوته، ولا أذكر من ملاحظاته سوى واحدة. كانت مدموازيل آتوشا، الآنسة الأرجنتينية، مخطوبة إلى مركيز

فرنسي، وكانت ضيفة بري الثالثة في إحدى الأمسيات. وقد استعرض بروست ملامحها ولاحظ أنها كانت تشبه كليوباترا، ثم اعتصم بالصمت ولم ينطق بحرف حتى نهاية العشاء. وفي هذه المناسبة، كما في غيرها من المناسبات الأخرى، كنت وبري نبذل جهدنا العظيم للقيام بالحديث، بينما كان الروائي الكبير يجلس صامتاً يصغي؛ لقد كانت تجربة مثيرة للإرباك قليلاً.

هذا هو المجتمع. وهؤلاء هم الأصدقاء الذين كنت ألقاهم في هذه السنوات السعيدة. أما العمل فقد استمر، طبعاً؛ ذلك أنني كنت أقضي جزءاً من كل سنة في الهند، حيث لم أكن أعتني بالواجبات الملقاة على عاتقي إزاء أتباعي فحسب، بل بالمصالح والمسؤوليات التي كنت قد اكتسبتها في السياسة الهندية. تلك كانت السنوات التي وضعت فيها إصلاحات مورلي- مينتو موضع التنفيذ، ولقد ثبت أن مبدأ التمثيل الانتخابي المستقل للمسلمين، الذي كنا قد كافحنا من أجل تحقيقه ذلك الكفاح المرير، كان مبدأ سليماً عملياً، وأنه كان أيضاً عادلاً من الوجهة النظرية، وكان الوعي السياسي الإسلامي، بزعامة رجال من أمثال نواب علي تشاودري ونواب دكا في البنغال، والسير محمد شافعي والسيرذو الفقار علي خان في البنجاب، ينضج ويقوى باطراد.

وكنت أنا نفسي أنفق الكثير من الوقت والطاقة في الاهتمام بشؤون أليكار. وأعتقد أنني كنت أقوم مقام فريق كامل برعاية مشروع تحويل أليكار إلى جامعة إسلامية كبرى. لقد ثابرنا في تلك السنوات على إثارة الاهتمام بمشروعنا وأمددناه بالعون والمؤازرة. غير أنه أثار معارضة العنصر البريطاني القوي الذي كانت حجته تستند إلى أن مثل

هذه الجامعة الإسلامية لن تكون شيئاً مستحباً، وأن ميولها وتعاليمها لابد وأن تكون طائفية ضيقة وخاصة. لقد سعيت جاهداً لمقاومة هذه الانتقادات، جاعلاً منها نقطة أساسية في جميع النداءات التي كنت أوجهها طلباً للمساعدة، وفي جميع خطبي ومقالاتي، قائلاً إن أبناء جامعة أليكار " سينتشرون، في طول البلاد وعرضها، ليبشروابالبحث الحر، والتسامح الحقيقي والأخلاق الطاهرة. "

ولكني لم أفقد معاضدة المقامات العليا كلها. فاللورد هاردنج أوف بانشورست حل محل اللورد مينتو في منصب نائب الملك، وكان رجل دولة وديبلوماسياً ذا خبرة واسعة طويلة في الحياة مع مسلمي إيران ومختلف أنحاء الشرق الأوسط. وكان عضو مجلس نائب الملك التنفيذي المسؤول عن شؤون التعليم هو السير هاركوت بتلر، وكان إدارياً عبقرياً، وعم السيد ر. أ. بتلر، وزير المالية في حكومة السير ونستون تشرشل من عام ١٩٥١ فصاعداً، والوزير المسؤول عن قانون التعليم العظيم الذي صدر في بريطانيا عام ١٩٤٤ . فالاهتمام بالتعليم تاريخ متوارث في عائلة بتلر، وقد فهم كل من اللورد هاردنج والسير هاركورت وضعنا كمسلمين، كما كانا مدركين للفروق الأساسية في التاريخ الاجتماعي والثقافي والروحي للمسلمين والهندوس. ولقد حاولت أنا نفسي أن أوضح الكرة بعد الأخرى أنني لم أكن اعتبر التقدم الثقافي بين المسلمين غاية في ذاته، بل وسيلة لغاية، وأنه إذا كان لنا أن نتقدم في طريق الاستقلال والحكم الذاتي- مهما بدا الهدف بعيد المنال- فإن علينا، كطائفة، أن نملك المعرفة والعدة الثقافية التي تمكننا من تحمل المسؤوليات السياسية التي كنا قد بدأنا نطمح إليها. لم يكن لدي غرض طائفي

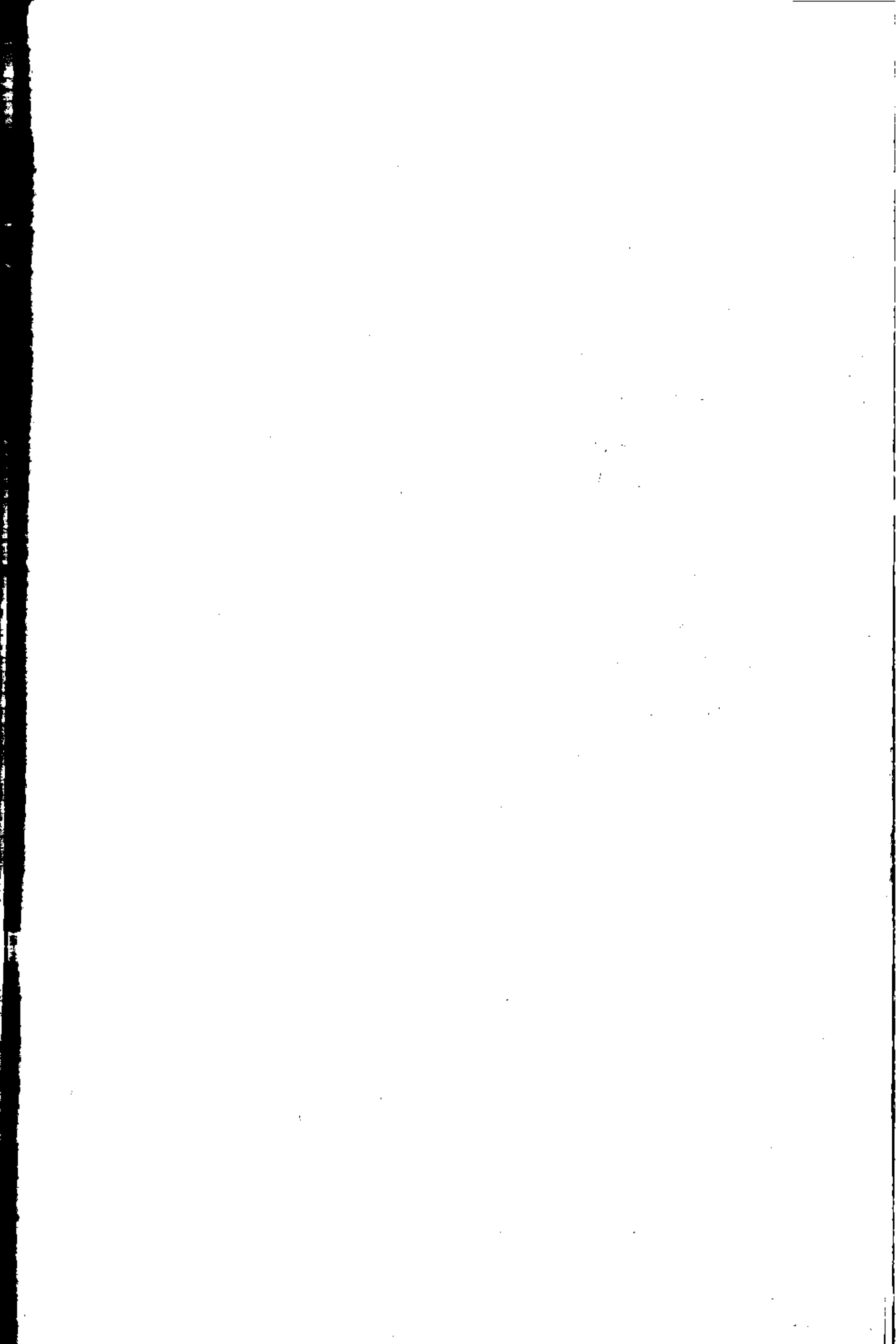
ضيق، وألححت منذ البداية على وجوب تعليم السنسكريتية، وأن يدّرس إلى جانبها تاريخ الحضارة والدين والفلسفة الهندوسية وتطورها جميعاً، وذلك لكي يتمكن شعبنا من أن يفهم جيرانه فهماً أفضل. إن جامعة خاصة بنا كانت شيئاً أساسياً جوهرياً لأنها كانت السبيل الأفضل والأبقى لإنماء وحدة الإسلام الروحية.

كان العمل على إقناع الآخرين بهذا الرأي الذي اعتنقته، وبوجوب تنمية المؤازرة للمشروع، وجمع الأموال له، عملاً شاقاً إلى أبعد الحدود. لقد طفت جميع أرجاء الهند، وقصدت جميع الزعماء المسلمين، إلى الأغنياء والفقراء، إلى الأمراء والفلاحين. أما المساهمة التي تقدمت بها أنا شخصياً فبلغت ١٠٠٠٠٠ روبية نقداً، وكان ذلك مبلغاً لايستهان به في تلك الأيام. سنوات من العمل الشاق المضني. كنت أقضي أياماً وأسابيع في القطارات. وفي كل مدينة يتوقف فيها القطار، كنت أخطب في حشود المسلمين من منصة المحطة. كنت أدعو إلى قضية أليكار في كل مناسبة تسنح لي. وكان سكرتيري الفخري الخاص وساعدي الأيمن طوال الحملة، المرحوم مولانا شوكت علي، الذي أشك في أنه كان باستطاعتي أن أحقق النجاح في حملتي من غير معونته الرصينة الثابتة.

بلغنا الذروة في حملتنا الطويلة في عقد المؤتمر الثقافي الإسلامي في ناغبور سنة ١٩١٠، والذي كان مشروع أليكار فيه أهم بنود جدول الأعمال، وطغى بحق على سائر المواضيع. لقد أحسن رئيس المؤتمر، السيد يوسف علي، التعبير عن أهدافنا، فقد حدد قيمة الجامعة التي كنا نأمل بانشائها بهذه الكلمات: " لن يكون فيها امتحانات، وستشجع

على حرية الفكر وأصالته. ستكون جامعة إسلامية بمعنى أنها ستنشر المثل العليا التي طورها مسلمو الهند من الخبرة الثقافية لجيلين اثنين. "

عندما أتطلع الآن إلى جميع ما مثّلته جامعة أليكار الإسلامية، وما حققته في السنوات الأربعين الماضية، أجد أنها دون شك أحد وجوه حياتي التي أستطيع تسجيلها والتفكّر بها برضى حقيقي دائم. إنني لا أود التشديد على نتائجها السياسية فحسب، مهما كانت هذه النتائج خطيرة، إذ كان يمكن أن نؤسس في أي مكان آخر أكثر من جامعة إسلامية، مركزاً حقيقياً للدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، إلى جانب المكتبات والمختبرات وجميع الوسائل الضرورية لفهم عالمنا وزماننا فهماً كاملاً؛ مركزاً يمكن أن تبسط فيه وتمارس مبادئ ديننا وأصوله، وعالميته وعصريته الحقيقية، وتعقله واعتداله الجوهريان، وروحه العميقة التي تبشر بالتسامح والإحسان واحترام الأديان الأخرى. إن كوني قد أديت دوري في تأسيس مركز كهذا هو بالنسبة لي أسعد الأفكار التي يمكنني أن أحملها معي إلى الشيخوخة وأكثرها عزاء وتشجيعاً.



الفصل الخامس

لندن، دلهي، سانت بطرسبورغ

كانت السنوات ما بين ١٩١٠و ١٩١٤ حافلة بالأحداث والعمل والنشاط. وقد حصلت على نصيبي من المتعة والحزن، والعمل والسفر، والخيبة والإنجاز، والرياضة والصداقة، طيلة هذه السنوات. أما زوجتي، فقد كانت تقضي معظم أوقاتها في فرنسا. وفي سنة ١٩٠٩، رزقنا طفلنا الأول فسميناه مهدي. ولكن حياته القصيرة ما لبثت أن انتهت في شهر شباط من عام ١٩١١، ومن ثم ولد لنا ابننا الثاني، علي، في حزيران التالي. ولقد كانت ولادته تعزية كبرى لنا الاثنين، ولكن سعادة طفولته كانت، بالنسبة لنا، مشوبة بشعور مهيب من المسؤولية. وكانت سنوات طويلة قد انقضت من دون أن يولد في عائلتنا ولد، والحزن الذي شعرنا به إثر وفاة ولدنا البكر، أسبغ حذراً خاصاً على العناية التي كنا نحيط بها تنشئة أخيه، الذي كان في طفولته نحيفاً رقيق البنية. وكان لأحد كبار المختصين بالأطفال في ذلك الوقت إيمان عظيم بفوائد شاطئ النورماندي الصحية في فصل الصيف، وبخاصة هواء البحر والاستحمام. ولذلك، منذ أن كان في سن الثانية أو الثالثة، كانت زوجتي تأخذه كل

صيف إلى دوفيل، وتقضي الشتاء معه في جنوب فرنسا. وعاشت زوجتي عدداً من السنين في مونت كارلو، ومن ثم انتقلت إلى سيمياز.

في شهر أيار من عام ١٩١٠ توفي صديقي العظيم الطيب، الملك إدوارد السابع، في لندن. وكما كان إخلاصي وصداقتي يقضيان، فقد أسرعت إلى حضور جنازته، وقابلت خليفته الملك جورج الخامس.

وجرى دفن الملك في كنيسة سانت جورج في وندسور، وكان مكاني في موكب الجنازة ومقعدي في الكنيسة بالقرب من العائلة المالكة والضيوف الملكيين من البلدان الأجنبية. ومشى إمبراطور ألمانيا في موكب الجنازة إلى جانب الملك جورج الخامس، وقد أدى هذا الترتيب إلى حادث ديبلوماسي صغير وإنما له مغزاه. كان البروتوكول يقضي، إذا ما اجتمع عدد من الملوك معاً في مكان واحد، أن يتقدم أحدهم الآخر لا حسب أهمية بلاده أو اتساعها، ولا حسب الأحرف الأبجدية(كما يفعل المندوبون في المؤتمرات الدولية)، بل حسب الأقدمية في اعتلاء العرش. فإذا كان ملك بلغاريا(في تلك الأيام كان لبلغاريا ملك) أقدم الجميع على العرش، فإنه يتقدم عندئذ أي موكب. وإذا كان ملك المملكة المتحدة أو إمبراطور اليابان قد اعتلى العرش حديثاً فإنه يمشي عندئذ في المؤخرة. غير أن إمبراطور ألمانيا وضع في هذه المناسبة جنباً إلى جنب مع الملك جورج الخامس، بوصفه المشيعَ الرئيسي، وتبعه سائر الملوك الآخرين. ولقد ثارت العاصفة مداورة لأن ملك اليونان، الذي كان أقدم الملوك على العرش، تقدم ملك إسبانيا. ولكن ملك إسبانيا كان قد نُصب على العرش في طفولته، قبل أن يرث الأمبراطور الألماني عرشه، ولذا

اعتبر الملك ألفونسو نفسه مساوياً للقيصر، إن لم يكن يفضله ويعلو عليه. وما إن غادر الملوك إنكلترا وسافروا إلى بلادهم حتى تقدم السفير الإسباني باحتجاج رسمي نيابة عن جلالة سيده وحكومته على الإهانة التي وجهت إلى صاحب الجلالة الكاثوليكية بوضعه خلف الإمبراطور الألماني، وأضاف الاحتجاج أنه لما كان ملك اليونان قد قدّم على ملك إسبانيا بسبب أقدميته في اعتلاء العرش، فقد كان الواجب يقضي بأن يتقدم كل من ملك اليونان وملك إسبانيا على الإمبراطور الألماني فيما إذا تمت مراعاة قواعد البروتوكول بحذافيرها. وقد وضع هذا الاحتجاج وزارة الخارجية والبلاط في مأزق. وكان من شأن الاعتذار أن يكون غير ذي جدوى لأن كبار موظفي الدولة والبلاط لا ينتظر منهم أن يقترفوا أخطاء من هذا النوع. وأخيراً وصلت المشكلة إلى سماع الملك، فحلها بطريقة ديبلوماسية وبمهارة، وقال إن القيصر كان ابن اخت الملك إدوارد السابع وابن عمه هو بالذات، ولهذه الأسباب وحدها قدّم على غيره، لا كملك، بل كمشيّع من أفراد العائلة.

أما فيما عدا هذه المشكلة الصغيرة، فقد كان المأتم كله مؤثراً إلى أبعد الحدود. وحدثت في وقت لاحق، مشكلة أخرى حول الأولوية التي منحت لرئيس الولايات المتحدة السابق، ثيودور روزفلت، الذي كان الممثل الرسمي لبلاده. وإذ لم يكن شخصية ملكية، فقد كان مركزه في موكب الجنازة وفي سائر الاحتفالات وضيعاً، ولكن كلاً من فرنسا والولايات المتحدة احتجت على هذه الطريقة التي بدت لاتليق بالكرامة وخاطئة من حيث مراعاة التسلسل. ومنذ ذلك الحين أصبح ممثلو

الجمهوريات في مصاف الملوك، وأنشئ برتوكول جديد أكثر ملاءمة من سابقه.

لقد كانت هناك عيون دامعة كثيرة ذلك اليوم، ولست أخجل من الاعتراف أني كنت بين الباكين. وبعد ذلك بوقت قصير، أصدر الملك جورج الخامس أمره إلى وزارة الهند بدعوتي إلى حفلات التتويج بوصفي ضيف شرف عليه، ولم تكن الدعوة تشمل الحفلة وحدها بل جميع الاحتفالات والمآدب والاستقبالات الرسمية وغيرها. ولقد جلست في مقصورته أثناء الاحتفالات الخاصة في دار الأوبرا الملكية.

أقيمت احتفالات تتويج الملك جورج الخامس في شهر حزيران من عام ١٩١١، وكانت شاهداً على عظمة إنكلترا وغناها وسلطانها. غير أن سنة ١٩١١ كانت سنة توتر دولي، كما أن النزاع السياسي الداخلي في بريطانيا حول إجراءات السيد لويد جورج الخاصة بالميزانية وحول إيرلندا والوضع الدستوري لمجلس اللوردات كان قد اشتد اشتداداً عظيماً. وبالرغم من كل ذلك، فقد كان لموسم التتويج بريقه وبهجته الخاصة. وإن في نفسي ذكرى واضحة لأمرين، الأول: هو الباليه التي أقيمت في كوفنت غاردن، وكانت بعنوان بافيون دارميد- وهي بالتأكيد أفضل باليه يمكن تقديمها في مثل هذه المناسبة- والراقصون الرئيسون فيها هما ينجينسكي وكارزافينا. لقد كانت ذات جمال وأريحية لا تنسى؛ وتقف في ذاكرتي كإحدى أكثر التجارب المسرحية التي عرفتها روعة وبهاءً. الانطباع الثاني الدائم الذي تركته حفلة التتويج في نفسي هو حضور ولي عهد ألمانيا وما لفته من انتباه، والجهد الصادق المخلص

الذي بذله الجميع، من الملك والملكة فما دون، لإقناعه بحسن نوايا بريطانيا ومقاصدها السلمية نحو بلاده. أذكر أنه كان يجلس إلى يمين الملكة في كوفنت غاردن، ورأيت الملكة بأم عيني منهمكة في حديث جاد، وإن إكرامها له لم يكن يتسم بطابع الرسمية أو البرود. وبعد أشهر قليلة، شرع الملك والملكة في رحلتهما إلى الهند- وكانا أول ملك وملكة يزوران الهند إبان الحكم البريطاني، والوحيدين اللذين فعلا ذلك. وفي أوائل عام ١٩١٢ أقيم استعراض التتويج الرائع في دلهي، فقد أعلن أن عاصمة الحكومة ستنتقل من كلكتا إلى دلهي، وأن مدينة جديدة تتناسب مع مقام الإمبراطورية الهندية وسلطانها وديمومتها (كما كان يبدو آنئذ) قد بنيت، وألغي تقسيم البنغال، وجرى الاعتراف بأليكار كجامعة، فكان ذلك بمثابة الذروة لجهودي في السنوات المنصرمة ولجهود أولئك الذين تعاونوا معي باندفاع وثبات عظيمين. وأنعم الملك- الإمبراطور شخصياً عليّ بأرفع وسام يمكن للتاج البريطاني أن يمنحه لمواطن هندي.

ومع أن حفلات الاستعراض كانت رائعة، فقد شابتها حوادث عارضة عجيبة. ففي المأدبة الرسمية الكبرى التي دعي إليها معظم أعيان الهند وشخصياتها وقعت كارثة في المطبخ. فقد تبين أن الطعام لم يكن يكفي إلا لتقديم وجبة كاملة للملك، ولعدد من الناس الجالسين بالقرب منه فحسب. وكانت تلك الفرصة، بالنسبة لجميع الضيوف تقريباً، هي الفرصة الوحيدة التي تمكنهم في حياتهم من تناول عشائهم مع الملك، ولكن معظمهم لم يأكل شيئاً على الإطلاق.

أما الحادثة الأخرى فقد كان لها تأثير أبعد خطراً إلى حد كبير،

ذلك أن الاحتفال الذي جرى فيه تقليدي وسام G. C. S.T. إنما أقيم ليلاً في خيمة ضخمة منارة بالأنوار الساطعة. كانت حفلة رسمية كاملة. فقد جلس الملك- الإمبراطور وزوجته على العرش، وتجمّع نائب الملك وحكام المقاطعات وقائد الجيش وكبار القادة وحشد من الأمراء وكبار الموظفين، البريطانيين والهنود، من كل زاوية من زوايا الهند، ليشهدوا مناسبة رسمية لا تنسى. وفجأةً أخذ أحد المصابيح الكهربائية المنارة في الارتعاش والتذبذب بالقرب من ظُلة السقف المصنوعة من الخيش. واجتذب ارتعاشه الأبصار جميعاً، وخاف الناس أن ينفجر. في تلك اللحظة بالذات، خطر هذا الخاطر المخيف لكل من كان حاضراً الاحتفال. فشرعت الصفارات تطلق، وكان باستطاعتنا سماع هدير محركات سيارات الإطفاء من حولنا، ومن وراء عرش صاحب الجلالة كان الضباط قد امتشقوا سيوفهم وشرعوا في تقطيع الستائر والسجوف والخيش كي يشقوا طريقاً للملك والملكة. ولكن الباقين منا وقعوا في الشرك، فلو أن الخيمة احترقت إذن لكانت اشتعلت مثل كرة طاولة بينغ بونغ، ولما نجا أحد منا على الإطلاق. كانت الناحية الإنسانية من الكارثة التي واجهناها مريعة إلى درجة كافية، غير أن ما أخاف معظمنا إلى حد أكبر، كان تفكيرنا في الفوضى السياسية والإدارية والاجتماعية التي كان من شأنها أن تعم الهند من أقصاها إلى أقصاها فيما إذا وقعت الواقعة، ذلك أنه لم يكن ليبقى في البلاد أية شخصية بارزة على الإطلاق. وفي اليوم التالي، أخبرني كل من الملك ونائب الملك أن الأوامر الفورية كانت قد صدرت بعدم السماح بإقامة أية حفلة ليلية من هذا النوع في خيمة.

كان العرض العسكري الضخم أحد المظاهر الأساسية لاحتفالات التتويج. وكان الكثيرون منا، هنوداً وبريطانيين على السواء، يزدادون إدراكاً لأهمية الجيش الهندي في استراتيجية بريطانيا الامبراطورية، بارتباطاتها الواسعة والشعور بالتوتر الدولي المتزايد. كان جيش بريطانيا النظامي- وكان جزء كبير منه يقيم في الهند عادة- صغيراً بالنسبة إلى جيوش أي من الدول التي كان يمكن أن تتحداها، مع أنه كان حسن التدريب وكان أفراده يتمتعون بروح معنوية عالية. كان هالدين قد أعاد، بوصفه وزيراً للحربية، تنظيم الآلة الحربية تنظيماً دقيقاً، وأبرز إلى حيز الوجود الجيش الإقليمي المؤلف من المتطوعين. ولكن بريطانيا كانت قد رفضت الاستجابة للنداءات الملحة التي وجهها الفيلدمارشال المحنك، اللورد روبرتس، لإنشاء جهاز قاري للخدمة الوطنية العامة. ولقد تمكنت من الربط بين الاعتراف المتزايد بحاجات بريطانيا العسكرية ووضع الهند بالنسبة إلى تلك الحاجات وبين شغفي وولعي بالثقافة الهندية.

ففي مقال كتبته لمجلة " ناشيونال رفيو " في شهر تموز من عام ١٩١١ (لم تكن مجلة أشاطرها سياستها الاستعمارية، ولكنها كانت واسعة الانتشار بين أناس كنت توّاقاً إلى أن أوصل أرائي إليهم)، عرضت حججي بأقصى ما استطعت من القوة. لقد كتبت عندئذ:

" علّموا، علّموا، علّموا. ألقوا ولو نظرة قصيرة على مسألة القوى البشرية. إن باستطاعة الهند أن تقدم الجنود لإفريقيا الجنوبية بالسرعة التي يمكن إرسالهم بها من إنكلترا. باستطاعتها أن تنزل الجنود في

أستراليا قبل أن يتسنى ذلك لإنكلترا بوقت طويل. وبوسع القوات أن تصل من الهند إلى كندا الغربية بالسرعة التي تصل بها القوات من إنكلترا تقريباً. فإذا أمكن تعليم الأعداد الغفيرة من الهنود أنهم حراس التاج ومعاضدوه، شأن مواطني الإمبراطورية البيض تماماً، فعندئذ يدرك الجميع أن الهند ودول الدومنيون المستقلة تقف وتنطلق معاً، يشدّ بعضها إلى بعض طائفة من المصالح وتجمع بينها قضية مشتركة واحدة. إن من الواجب إعطاء الهنود الثقافة التي تؤهلهم لأن يلعبوا دورهم المقبل في الإمبراطوية البريطانية. "

وفي حربين عالميتين قدّر لإحداهما أن تنشب بعد ثلاث سنوات فقط من كتابة هذه الكلمات، تبين أنه كان لحججي ما يبررها جميعاً.

وفي خريف ١٩١٢، وجدتني أشرع في أسفاري ثانية- وقد سافرت هذه المرة إلى روسيا. كان القيصر نيقولا الثاني- وكان حجمه ضعف حجم ابن عمه الملك جورج الخامس- قد زار الهند عندما كان ولياً للعهد، وكان ذلك منذ سنوات طويلة، ولم أكن التقيته منذ ذلك الحين. كان كثير من أقربائه يزورون جنوبي فرنسا- وكان من بينهم الغراند دوق بوريس ونيقولا وشقيق القيصر ميشال- وكانت تربطني بعدد منهم صداقة حميمة، وكثيراً ما دعوني إلى زيارتهم في منازلهم.

كان لحياة النبلاء والطبقة الأرستقراطية في إنكلترا وكثير من الدول الأوربية الأخرى جلالها وأبهتها؛ ولكنها لم تكن شيئاً بالنسبة إلى حياة الأبهة والسعة التي كان يحياها الأرستقراطيون الروس في بطرسبورغ، والتي شهدتها ذلك الشتاء.

كانت أكثر من ثلاثين سنة قد انقضت منذ أن حطمت الثورة عالمهم؛ فقد قتل منهم الكثير ونفي الكثير إلى مدن من مثل هاربن وشنغهاي والقسطنطينية وبرلين وباريس وجنوبي فرنسا. ومن بين اولئك الذين تعيّن عليهم صياغة حياتهم من جديد كان الجنرال بولوفتسوف، الجندي الممتاز والملحق العسكري السابق في برلين، والذي ظل سنوات عديدة شخصية مرموقة ومحبوبة في مونت كارلو. ولقد تحمّل هذا الجندي، شأن كثير من رفاقه في المنفى، النوائب التي حلت عليه بشجاعة وإباء وروح عالية. واتفق أني كنت في عام ١٩١٢ ضيفاً على الجنرال بولوفتسوف وأخيه في البيت- القصر- الذي كانا قد ورثاه عن أبيهما، الذي كان وزيراً للقيصر.

كان ذلك البيت رائعاً إلى درجة تفوق الوصف وإنني متأكد أن قاعة الطعام التي أقام مضيفاي فيها حفلة غداء على شرفي، كانت ثلاثة أضعاف الصالون الكبير في أي من القصور الإيطالية من القرن الثامن عشر. كانت الصور الرائعة وقطع السجاد النفسية تتدلى على جدرانها، وكانت هناك أزهار متعددة الألوان طيبة الرائحة، كما كان الغداء نفسه على نطاق مدهش حقاً. ولكن، لم تكن هذه سوى واحدة من حفلات عديدة مماثلة أقيمت على شرفي في بيوت مماثلة زرتها.

كان علي أن أكيف حياتي- وأنا الذي اعتدت الحياة الاجتماعية في لندن وباريس، وفقاً لبرنامج مدهش وغير مستقر في البداية، وبطريقة لم أكن مستعداً لها فوراً. ولكن الدعوة الأولى من بين الدعوات الكثيرة التي تلقيتها إلى العشاء أظهرتني على ما كان علي أن أتعلمه. لقد دعيت إلى ما عرفت أنه سيكون حفلة عشاء كبرى في بيت جنرال شهير

يحضرها عدد من الغراند دوقات وعدد من سيدات المسرح البارزات. وإذ كنت قد تعودت على هذا النوع من الحفلات في لندن وباريس، فقد وصلت إلى المنزل بعد منتصف الليل بقليل. وشد ما كان عجبي عندما لم أجد أحداً غيري هناك. حتى الخدم بدوا وكأنهم استيقظوا الآن، فقد انطلقوا مسرعين إلى إضاءة الأنوار. وبقيت ساعة أو نحو ذلك أنتظر مرتبكاً إلى أن نزل أخيراً صاحب الدعوة وزوجته. وبين الساعة الواحدة والنصف والثانية بدأ سائر الضيوف يتوافدون، وبدأت قاعة الاستقبال الرحبة تبدو أقل فراغاً. ولم ننتقل إلى العشاء إلا بعد أن كانت الساعة قد تخطت الثانية صباحاً. وبعد العشاء صدحت الموسيقى، وكانت الساعة تقارب الرابعة والنصف عندما انفرط عقد المدعوين وعدنا أدراجنا إلى بيوتنا. تلك، كما تعلمت سريعاً، كانت العادة المتبعة.

كانت سانت بطرسبورغ عاصمة شتوية وكان موسمها موسماً شتوياً. وقد وصلت إليها في أوائل الموسم، أي أواخر تشرين الثاني. كان البرد شديداً، وكانت النهارات قصيرة ومظلمة، والليالي طوالاً وقاسية، والمدينة نفسها كان يغمرها الثلج. إن اختلاف نمط الحياة هناك يعود، في نظري، إلى أن النهار كان يبدأ في العادة عند الظهر، فالحوانيت والبنوك والمكاتب كانت تبقى مفتوحة حتى ساعة متأخرة من المساء. وكان العمل يتم والأعمال التجارية تجري من الظهر فصاعداً، وتترك الليالي لأنماط متنوعة من المتع الأنيقة والنشاطات المثيرة للفرح والتي يقوم بها المجتمع الراقي. كانت المسارح ممتازة، وكذلك دور الأوبرا والباليه. كان هناك عدد لا يحصى من الحفلات، وكانت هناك نزهات قمرية في الترويكا عبر

النيـفا المحـاط بالثلج إلى بعض الجـزر التـي لم تكن تبـعـد كـثـيـراً عن العاصمة. وفي ساعات النهار المعدودة كانت تقام حفلات الصيد في الريف المجاور، ولم يكن الرياضيون يصطادون الطيور والغزلان فقط، بل والدببة أيضاً.

كانت جميع البيوت، بالنسبة إلى طريقتي في التفكير، مدّفأةً أكثر من اللازم وتفتقر إلى تهوية جيدة إلى حد كبير. ففي مدن من مثل لندن وباريس، كنت قد تعودت على بيوت كانت نوافذها وأبوابها تبقى، حتى في الطقس البارد، مفتوحة بصورة دائمة، ولذا صعقت، لا بل نفرت من عادات الروس في هذا الشأن. كان للبيوت جميعاً نوافذ زجاجية مزدوجة. وعند مدخل الشتاء في أوائل شهر تشرين الثاني، يأتي العمال ويثبتون هذه النوافذ بالمسامير بحيث لا يمكن فتحها مرة أخرى حتى نهاية شهر نيسان، باستثناء لوح صغير من الزجاج يترك دون تثبيت في أعلى كل نافذة، وفي كل صباح يفتح هذا اللوح مقدار ساعة أو نحو ذلك ثم يغلق مرة ثانية. وكانت تلك هي كمية الهواء الوحيدة التي تدخل أية غرفة من الغرف. في ليلتي الأولى التي قضيتها في السفارة البريطانية، قلت لمضيفتي، زوجة السفير، الليدي بوشانان، إن تلك العادة كانت، في نظري، أكثر العادات ضرراً بالصحة وأسوأها. ولكنها أجابتني قائلة إنها عندما قدمت وزوجها إلى سانت بطرسبورغ للمرة الأولى، حاولا أن يعيشا كما لو كانا يعيشان في إنكلترا، وإنهما كانا يتركان النوافذ غير مغلقة إغلاقاً تاماً، سواء في الليل أو في النهار. غير أن أفراد العائلة مرضوا جميعاً نتيجة لذلك واضطروا إلى أن يتبعوا عادة أهل البلاد،

ومنذ ذلك الحين لم يمرض منهم أحد أبداً. وقد أنبأتني أيضاً بأن جميع البيوت الكبيرة التي كانت تقام فيها الحفلات ويجتمع فيها عدد كبير من الناس، كانت غرفها تطيّب وهواؤها يرطّب وينقّى بصورة خاصة.

ولقد ترتّب على هذه التدفئة الزائدة في البيوت أن جميع الروس كانوا يرتدون الملابس الخفيفة نسبياً في الداخل، ولكنهم يرتدون الفراءات الثقيلة عندما يخرجون. فالموسرون منهم يلفون أنفسهم بفرو السمور، وكل فرد يرتدي طاقية من فرو الغنم وقفازين وحذائين خاصين للسير فوق الثلج. لقد اعتدت أن أوصي بأنه على المرء ألاّ يخرج فجأة من الحجرات الحارة إلى العراء البارد، ولذا اعتقدت في بادئ الأمر أن طريقة الحياة الروسية كلها- التي تشبه إلى حد ما، كما أعتقد، طريقة الحياة في كندا وفي كثير من الولايات الشمالية في الولايات المتحدة- كانت " غير صحية "، ولكن بضعة أسابيع في سانت بطرسبورغ وموسكو حررتني من هذا التحامل.

وتوصلت إلى الاستنتاج بأن متحف الأرميتاج كان أجمل المتاحف التي رأيتها في حياتي، وأنه كان يفوق اللوفر إلى حد بعيد، أو الناشونال غاليري أو متحف مترو بوليتان في نيويورك. وتفوّقه إنما يعود إلى أن القيمين عليه لم يكونوا ليسمحوا إلا بعرض نخبة ممتازة من الآثار. لم تكن العين لتقع على أي أثر من الدرجة الثالثة، وكان كل ما يعرض يستحق العرض فعلاً. ولم تكن بحاجة هنا شأن بقية المتاحف الكبيرة أو المعارض الفنية التي سبق لي زيارتها، لأن تسير ميلاً بعد آخر وأنت تشاهد أعمالاً أقل شأناً، ومساهمات مشكوكاً فيها ونسخاً

ودراسات لتلامذة عمالقة الفن. أما في الأرميتاج، فقد تم التخلص، بفضل إدارة الكونت تولستوي، أحد أقارب الروائي الشهير، من كل هذه الأنواع ووضعها في الأقبية. لقد أسس نظاماً، كما فهمت، جرى بموجبه نزع كل ما لا يملك في ذاته جماله وخصائصه المتميزة، سواء لفنان عظيم أو عمل مزعوم له،. وكانت النتيجة أنه لم يبق على الجدران سوى مجموعة نقية من الأعمال الرائعة التي كانت تنعش الذهن بطريقة مدهشة.

ومن كنوز الأرميتاج كانت مجموعة مدهشة من القطع الفضية الإنكليزية القديمة التي تعود إلى عهد الملك شارل الثاني، عندما كان فن صياغة الفضة في إنكلترا في ذروته. وفي اعتقادي أن هذه المجموعة كانت من صنع بطرس الكبير الذي زار إنكلترا وهو شاب، وعمل في أماكن بناء السفن في دبتفورد. كان يملك ذوقاً ممتازاً وفكراً نيراً من غير شك، كما يستدل على ذلك من اللوحات الفنية التي اختارها عندما كان في هولندا. وأذكر أن الطرب هزني عند سماعي لفرقة كورال كاتدرائية القديس إسحق في بطرسبورغ. كنت قد استمعت كثيراً لشدو جميل في كاتدرائيات كاثوليكية وأنجليكانية في أوربا الغربية، لكنني لم أسمع أبداً كورالاً تميز غناؤه بالنقاء والروعة مثل ذلك الذي سمعته في الكاتدرائية في سانت بطرسبورغ. كانت الفرقة ترفد بالأطفال من جميع أنحاء روسيا، كما أخبرت، وكانوا يدربون منذ سن مبكرة بشكل متقن وبطريقة احترافية.

وبالرغم من الحياة الاجتماعية المليئة التي عشتها مع شقيق

القيصر، الغراند دوق ميشال، وأبناء عمه وضباط فصائلهم من الدرجة الأولى، فإني لم أجتمع قط بالقيصر ولم أقابله إطلاقاً. كان يعيش حياة عزلة، وفي السنوات الأخيرة من حكمه الكئيب، اشتدت عزلته وضاقت دائرته. وكانت إمبراطورته تقية ورعة بصورة خرافية، وشجاعة أبيّة، ولكنها لم تكن على اتصال مع الواقع؛ وكان ابنه ووريثه دقيق البنية نحيفاً كثير المرض. وهكذا، اجتمعت جميع ظروف حياته كيما تشجعه على الاستمرار في نأيه وعزلته. ولقد قيل لي إني إذا أردت أن أقابله، كان علي أن أتقدم بطلب رسمي بالطرق الديبلوماسية، وإن تلك المقابلة يجب أن تتخذ طابع زيارة رسمية، ولذلك لم أقم حتى بمحاولة مقابلته. وكانت إحدى الخصائص الاجتماعية القليلة للقيصر، كما أخبرت، هي حبه واستمتاعه بالمسرح، ولاسيما البالية والأوبرا. واتخذ عادة الحضور إلى المسرح بعد بدء العرض مصحوباً بواحد أو إثنين فقط من أصدقائه الضباط، ويدلف دون أن يراه أحد إلى إحدى مقصورات المنصة. والإشارة الوحيدة إلى وجوده كانت التصفيق الحاد وصرخات الاستحسان والإعجاب العالية التي كانت تسمع من خلف ستائر مقصورته. وكان في ذلك المكان فقط، على بعد خطوات قليلة من عالم الواقع، ينسى ذلك الرجل الحزين الخجول المتوحد أحزانه، ويخرج عن طوره.

ومن سانت بطرسبورغ ذهبت إلى موسكو. كان ازدهار موسكو في تلك الأيام قائماً على التجارة والصناعة. كان رجال البلاط والطبقة الأرستقراطية قد اتخذت سانت بطرسبورغ مقراً لها، بينما اتخذ الصناعيون الأغنياء مقرهم في موسكو. وكانت مصادر ثروتهم مختلفة:

السكر، وصناعة النفط التي كانت تنمو بسرعة في منطقة بحر قزوين، والبضائع التي كانت تنتجها مصانع القطن في موسكو. كانوا يشبهون شبهاً عظيماً الطبقة الرأسمالية القوية في الولايات المتحدة، وكانوا يحيون حياة مترفة. كانت بيوتهم قصوراً ومتاحف، ذلك أن كثيراً من أمراء التجارة هؤلاء كانوا، شأن نبلاء بطرسبورغ، ذوي خبرة بالفنون. وبالمناسبة، أذكر أني لاحظت أن أذواق موسكو بدت لي أكثر كاثوليكية من أذواق سانت بطرسبورغ.

كانت الهوة بين الأغنياء والفقراء هائلة حقاً. فقد أقدمت على دراسة الأحوال العمالية في المعامل ومصانع النسيج فوجدت أنها كانت تشبه من نواح عديدة معامل القطن في بومباي، ولكن الظروف والأحوال فيها كانت أسوأ بكثير. وبوسعي أن أقول دونما تردد إنه مهما كان عمال مصانع بومباي فقراء وتعساء وسيئي التغذية في تلك الأيام، فإنهم كانوا يبدون أسعد وأفضل حياة من أمثالهم من عمال موسكو. في بومباي، كان بوسعك على الأقل أن ترى وجوهاً باسمة، في حين أن العمال في كل مصنع من مصانع موسكو كانوا يبدون هزيلين منهوكي القوى يكادون يموتون من التعب والضنك. ومع ذلك، فإني لا أشك في أن عمال موسكو كانوا يتقاضون أجوراً أدنى من عمال بومباي أو أن تغذيتهم كانت أكثر سوءاً. وفي اعتقادي أن السبب كان يكمن في حقيقة واحدة بسيطة- الطقس. ففي ساعات راحته، لمدة ثمانية أشهر من السنة على الأقل، كان باستطاعة العامل في بومباي، مهما كان فقيراً مداساً بالأقدام، أن يمشي في الهواء الطلق وأن يرى الشمس والقمر

والنجـوم. أمـا عـامـل مـوسكو، فلم يكن باسـتطاعـتـه إلا أن يبـقى في الداخل ثمانية أشهر من كل سنة على الأقل- في جو المصنع الحار العابق بالبخار أو في الغرفة الصغيرة المكتظة الحارة في إحدى البنايات الكبيرة الأشبه بالثكنة العسكرية.

وقد انتشرت عـادة غريبـة في الحمـامـات العـامـة في مدن روسـيا الكبرى في تلك الأيام- وقد زرت أحد هذه الحمامات في موسكو، وإذن فأنا الآن لا أروي ما سمعت، بل ما شاهدته بأم عيني- هذه العادة لها علاقة بإدارة ما كان يعرف بحمامات روسيا البخارية التي تشبه في الحقيقة الحمامات التركية. لم يكن اولئك الذين يتولون خدمتك ويقدمون إليك الصابون والمناشف ويدلكون جسمك ويهتمون بجميع حاجاتك من الرجال، بل من النساء- غير أنهن كن نساء متقدمات في السن ذوات وجوه شكسة فظة وبسيطة حتى إنه كان من المستحيل عليك حتى أن تسلك سلوكاً شائناً إزاءهن. ولقد تأكدت من أن هذا السلوك الشائن لم يحدث إطلاقاً، وأن هذا الأمر كان يعتبر بمثابة إتاحة عمل صالح للنساء اللواتي تخطين أوسط العمر، وأن أحداً- باستثناء الزوار الأجانب على شاكلتي- لم يكن يعتبره أمراً خارجاً عن المألوف إطلاقاً.

إبان وجودي في روسيا، أشعل أول عود ثقاب أوقد اللهيب الذي قدر له أن يشمل العالم كله. فحروب البلقان- أولاً هجوم عدد من بلدان البلقان على الإمبراطورية العثمانية ومن ثمّ اشتباكاتها الدامية بعضها ببعض- لم تكن عندئذ تلك النزاعات المحلية التي حاول الكثيرون أن يقنعوا أنفسهم بأنها كانتها، بل الحق أنها كانت الدليل القاطع على ما

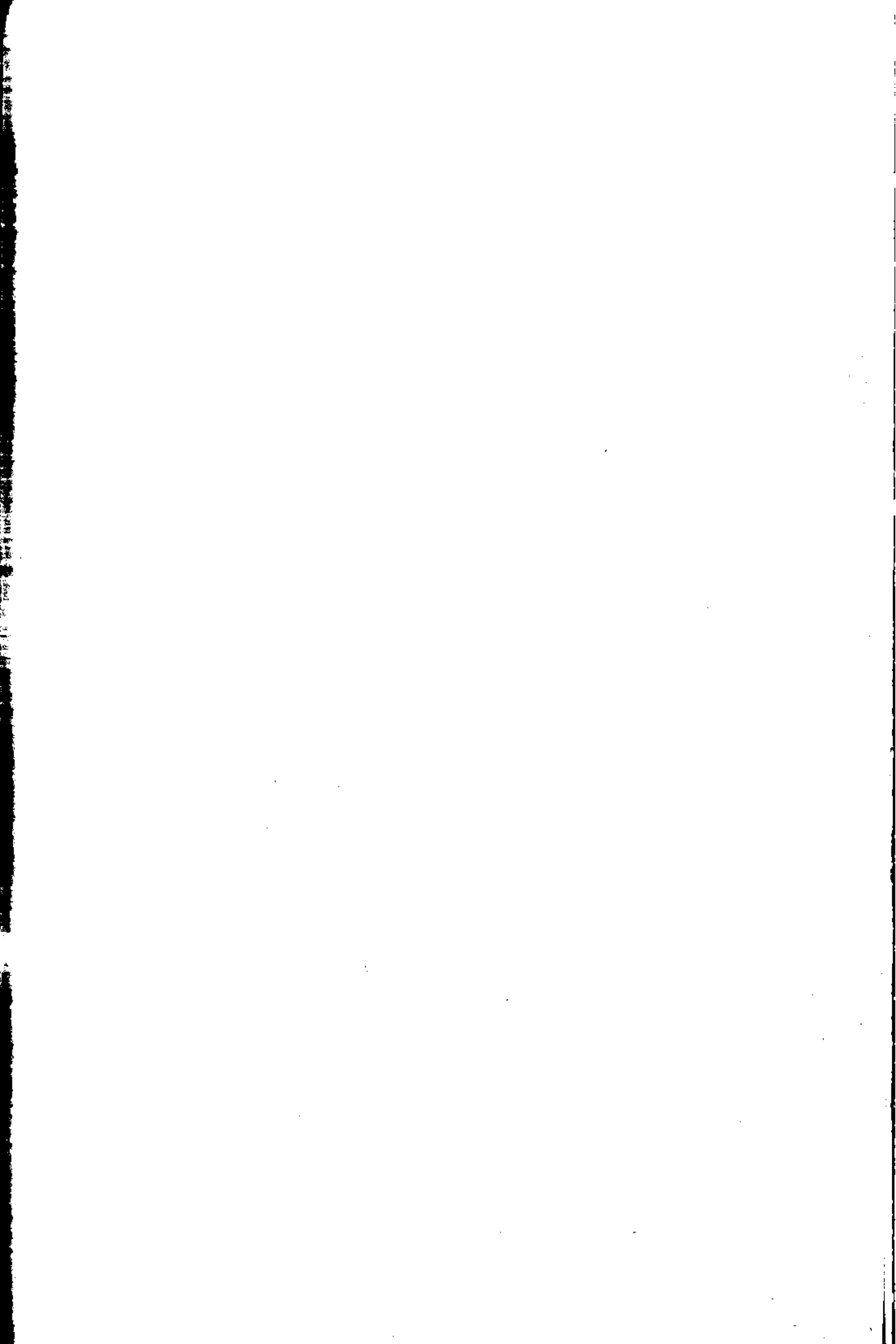
كتب له أن يحدث. فقد تلقت تركيا، التي كانت مصاعبها الداخلية قد تكاثرت في السنوات الأخيرة، صفعات متوالية من أعدائها، وكانت الأخبار السيئة تصل إلى العالم الخارجي يوماً إثر يوم. وما إن وصلتُ إلى باريس، وقبل أن أغادرها إلى الهند، حتى كانت الورطة التي ترددت فيها تركيا قد اتضحت، وبدا أن صيرورتها تحت رحمة أعدائها كانت مسألة وقت ليس غير. واهتاجت مشاعر مسلمي الهند، لا بل العالم الإسلامي بأسره، اهتياجاً شديداً. أما أنا، فقد أسرعت قدر استطاعتي في العودة إلى بومباي، فوجدت أن أقرب أصدقائي ومعارفي قد نشطوا في العمل لمؤازرة الأتراك. لقد أنشأوا منظمة تمثل مختلف فروع الرأي العام الإسلامي في الهند، وتضم الكثيرين من أولئك الذين كانوا على صلة وثيقة بأليكار. وكانت غاية هذه المنظمة أن تؤدي كل مساعدة ممكنة لتركيا، وممارسة أكبر قدر من الضغط على الحكومة البريطانية لبذل نفوذها لدى اتحاد أوربا لجعل الهزيمة محمولة ومشرّفة للأتراك. وقد قامت هذه المنظمة ببادرة عون عملية، فجهزت وأرسلت بعثة هلال أحمر طبية على رأسها الدكتور أنصاري، وكان من أبرز أطباء الهند. كان ذلك هو النوع من العمل الإنساني الذي أسعدني أن أعضده وأسانده. وأسهمت أيضاً في قروض تركيا الحربية، غير أني وجدت نفسي على اختلاف محزن في الرأي مع أكثرية اخواني المسلمين في الهند نحو موقف معين من هذا النوع- اختلاف في الرأي يؤسفني أن أقول إنه قطع، إلى أجل ما، صلات كانت حتى ذلك الحين وثيقة وحميمة بيني وبين زعماء مسلمين آخرين في الهند.

كنا نقدم أقصى مساعدة ممكنة إلى تركيا، ولكن كم كان مبلغ تلك المساعدةفي الحقيقة؟ لم نكن أسياد أنفسنا، بالطبع، وكان كل تأثيرنا في السياسة البريطانية نحو القضية البلقانية التركية بأجمعها ضئيلاً تافهاً. لقد أعارت الحكومة أذناً صاغية، ولو بعيدة، لتوسلاتنا الحارة، ولكن كان باستطاعتها أن لا تعيرنا أيما اهتمام عملي. وكان الرأي العام البريطاني فاتراً عموماً إزاء الإمبراطورية العثمانية- " رجل أوربا المريض "، كما كانت تصوره الرسوم الكاريكاتورية السياسية في صحيفة الـ " بَنْج " وغيرها من الصحف. كما أن الحالة السياسية في أوربا كانت متوترة تنذر بالخطر، وكانت صديقات بريطانيا في اتحاد أوربا- فرنسا وروسيا وإيطاليا إلى حد أقل- غير ميالة إلى مساعدة تركيا لأنها كانت تهتم قبل أي شئ آخر بتفادي الاصطدام بألمانيا والنمسا. وهكذا، فإن سياسة عدم التدخل هي أقصى ما كانت بريطانيا ترغب في الذهاب إليه. غير أن الرأي العام الإسلامي في الهند كان أكثر اتقاداً إلى حد بعيد، ذلك أن شرف الإسلام ووحدته كانا في خطر، فكان علينا أن نحضّ الأتراك على الثبات، وعلى مواجهة كل خطر، وعلى القبول بكل تضحية، وعلى الاستمرار في الحرب حتى نهايتها القصوى.

تلك كانت مشاعر جميلة، ولكني تحفظت إزاءها واعترضت على ما كانت تذهب إليه. لقد ذكرت أنه لم يكن في مقدورنا فعلاً مساعدة الأتراك، وإننا مهما كانت مشاعرنا كريمة فياضة، كما كانت بالفعل، فإننا كنا عاجزين في ذلك الوقت عن تحويل مشاعرنا إلى عمل ملموس.

وأشرت أيضاً إلى أن دعوتنا الاتراك إلى الصمود والقتال والموت حتى آخر قرش وآخر تركي، بينما نظل نحن على قيد الحياة، لم تكن دعوة منصفة بل ظالمة للأتراك، ذلك أنها لم تكن لتساعدهم، بل لتزيد في شدة الورطة التي كانوا متردين فيها.

لم أتأنق في كلماتي عندما أعطيت تصريحاً صحفياً لصحيفة " ذي تايمس أوف إنديا " التي كانت أوسع الصحف انتشاراً وأكثرها مسؤولية في الهند. لقد قلت في ذلك التصريح إنه كان جميلاً جداً وحسناً جداً أن نطيّر برقيات إلى الأتراك نقول فيها: " اصمدوا، تابعوا كفاحكم؛ لا تقبلوا الهزيمة مهما كانت التضحية! " ولكننا نحن الذين أرسلنا البرقية كنا نذهب بعد ذلك إلى بيوتنا وننام مطمئنين في أسرّتنا. لم ترق هذه التعليقات للرأي العام، بل سببت عاصفة من احتجاج المسلمين في طول الهند وعرضها. غير أن تلك العاصفة، شأن غيرها من العواصف، قد مرت، وسريعاً ما نسيت هذه المجادلة في خضم الأخطار والمشكلات التي خلقتها الحرب العالمية الأولى.



الفصل السادس

الحرب العالمية الأولى

في الأشهر الأولى من عام ١٩١٤ قمت بزيارة بورما مرة أخرى. واتخذت في ذلك الحين خطوة هامة بالنسبة لأتباعي الإسماعيليين. لقد نصحتهم بالاندماج بسكان البلاد إلى أقصى طاقتهم، اجتماعياً وثقافياً. وبالرغم من أن بورما كانت ملحقة بالإمبراطورية البريطانية وكانت في هذا الوقت تحت إشراف وزارة الهند، فإنها كانت بلاداً يزداد فيها الشعور الوطني والإحساس بالقومية. وهكذا اقتنعت بأن السياسة الوحيدة العاقلة الصحيحة التي يجدر بأتباعي السير عليها هي الاندماج إلى أقصى حد ممكن بالحياة الاجتماعية والسياسية في بورما، والتخلي عن الأسماء الهندية- الإسلامية، وأن يتخذوا بصورة طبيعية أسماء القوم الذين كانوا يعيشون بينهم وعاداتهم وتقاليدهم، والذين كانوا يشاطرونهم مصيرهم.

ومن بورما، انطلقت برحلة قصيرة إلى أوربا في ذلك الربيع الأخير من الحقبة التاريخية القديمة وبداية صيفها، ومن هناك ذهبت إلى إفريقيا الشرقية. وما أدهش أتباعي هناك نوعاً ما وأحزنهم أن السلطات في أفريقيا الشرقية الألمانية طلبت مني أن لا أزور أرضها. فبينما كنت في

طريقي إلى أفريقيا الشرقية أُغتيل الأرشيدوق فرانسوا فرديناند وزوجته في بلدة ساراجيفيو الصغيرة على حدود البوسنة، مما قدم السبب لإثارة النزاع. ولم أكد أصل إلى زنجبار حتى ازداد الموقف حرجاً، وفي الأيام الأخيرة من تموز والأولى من آب، جرى تبادل برقيات متزايدة الخطورة. لقد اشتعلت الحرب بين روسيا وألمانيا، وغزا الألمان بلجيكا، وفي اليوم الرابع من آب أعلنت بريطانيا الحرب على ألمانيا.

لم أتردد ولم أحجم عن اتخاذ موقف حازم. فمصالحي ومطامحي وآمالي كلها تقلصت إلى قرار أو قرارين شخصيين منفردين. وطغى عليَّ انفعال واحد: أن أذهب إلى إنكلترا بأسرع ما أستطيع وأعرض خدماتي بأية صفة يمكن الإفادة منها على الوجه الأكمل. ولقد أعدت فوراً ودون تعليق وسام التاج البروسي(من الدرجة الأولى) الذي كان قيصر ألمانيا قد منحني إياه، وأبرقت بتعليماتي إلى جميع أتباعي في الأراضي البريطانية. ثم أسرعت بالسفر إلى إنكلترا. وسافرت عن طريق أفريقيا الجنوبية بسبب شائعات- ثبت صحتها فيما بعد- تقول بوجود قوات بحرية معادية في المحيط الهندي. وصلت لندن في منتصف أيلول وقمت بزيارة اللورد كتشنر، وزير الحربية، الذي كنت قد عرفته في الهند وخدمت معه بصفتي عضواً في مجلس نائب الملك التشريعي قبل ذلك بأكثر من عقد من السنين، وألححت عليه كيما أشارك في المجهود العسكري. غير أن اللورد كيتشنز، الذي كان ذا خبرة واسعة عميقة بأمور الشرق، كانت له نظرة أخرى في نوع الخدمة التي كان بوسعي تأديتها. كان يدرك تمام الإدراك المخاطر والاحتمالات الكامنة في إشراك شعوب شرقية أكثرها من المسلمين في حرب شاملة كهذه. وكانت دسائس ألمانيا

ونفوذها في القطسطنطينية قد ازدادت ازدياداً عظيماً في السنوات الأخيرة، وكان حلمها العظيم بزعامة ألمانيةٍ تمتد من برلين إلى بغداد أحد الأوهام التي سيطرت على المفكرين الاستعماريين الألمان. أما الحكومة التركية فقد بدت ممزقة عاجزة تمام العجز عن اتخاذ قرارات مستقلة فعّالة.

كان من الأمور الأساسية لبريطانيا الاحتفاظ بإشرافها وسيطرتها على الشريان الحيوي للإمبراطورية: الممر البحري عبر المتوسط، وقناة السويس، والبحر الأحمر، والمحيط الهندي، الذي لم يكن يؤدي إلى الهند فحسب، بل إلى أستراليا ونيوزيلندا وأراضي المستعمرات في أسيا الجنوبية الشرقية. في هذا الخضم من الحاجات والموجبات السياسية والاستراتيجية بدا للحكومة البريطانية أنني كنت أحتل منزلة مهمة جداً، وأوضح كيتشنر بصورة جازمة أن العمل الحربي لم يكن السبيل الأصلح لي.

والأهم من ذلك كله هو أن الحكومة البريطانية لم تغفل عن ملاحظة أني كنت أحظى باحترام الكثيرين من كبار الأتراك، ولذا طلب اللورد كيتشنر مني استخدام نفوذي وتأثيري على الأتراك لإقناعهم بعدم الانضمام إلى دول المحور، وبالمحافظة على حيادهم. واكتشفت من ثم أن اللورد كيتشنر لم يكن منفرداً بفكرته فيما يختص بنوع العمل الذي كان يمكن أن أقوم به على أحسن وجه. فقد شاطره رأيه وأيده فيه وزير الهند، ووزير الخارجية، السير إدوارد غراي، ورئيس الوزراء، السيد آسكويت. والحق أنه حتى الملك نفسه أشار إلى هذا الموضوع عندما تناولت طعام الغداء معه.

وإذن، ففي حين شغلت نفسي علناً في حث الشبان الهنود الذين كانوا في إنكلترا- بأعداد كثيرة- على التطوع في كتيبة الميدان الهندية

للإسعاف وفي جمع الأموال للترفيه عنهم، فقد اتصلت سراً وبسرعة بالسفير التركي، توفيق باشا. وبناء على طلبي أرسل يدعو رجال "تركيا الفتاة"، الذين كانوا قد تسلموا السلطة في ثورة ١٩٠٨، إلى إرسال وفد وزاري إلى لندن للدخول في مفاوضات مباشرة مع حكومة جلالته. كانت بريطانيا مستعدة، باسمها ونيابة عن روسيا وحلفائها الآخرين، لأن تعطي تركيا الضمانات والتأكيدات الكاملة للمستقبل.

كان أملنا كبيراً بتحقيق انتصار ديبلوماسي على أعظم جانب من الأهمية. وكنت مدركاً تماماً أن عواطفي متورطة إلى درجة عميقة، وبوصفي مسلماً، كنت أرغب في رؤية تركيا تتفادى تجارب وفظائع حرب جديدة، لا ضد دول بلقانية صغيرة، بل ضد مجموعة قوية من أعظم الدول الصناعية والعسكرية في العالم. كان الأتراك قد خرجوا مؤخراً من محنتهم السابقة، وكانوا بحاجة يائسة إلى مجال للتنفس، وبدا أنه كان يستحيل عليهم الانخراط في صراع جديد دون مواجهة كارثة لا حدود لها.

لكن من الواجب الاعتراف بأن الأتراك كان لهم ما يبرر شكوكهم في "ضمانات"، مهما كانت محدودة، تعرضها الدول الغربية. فقد سبق لهم أن اختبروا بصورة محزنة إلى أبعد الحدود، ضمانات مماثلة بدت لهم وعوداً لم تقطع إلا لينكث بها. ومع ذلك، فإن الحياد (الذي كان كل ماطلبته الدول الغربية من تركيا) كان من شأنه أن يتيح لرجال تركيا الفتاة الوقت لتنفيذ برنامجهم الإصلاحي في الحقل الاجتماعي والاقتصادي والعسكري.

كان توفيق باشا شخصية مهمة في مقارباتنا، ذلك أنه كان قبل

ذلك، ولسنوات عديدة، وزير خارجية السلطان عبد الحميد. ومع أن ثورة تركيا الفتاة أخرجته من منصبه، إلا أن العهد الجديد ظل محافظاً على ثقته به بوصفه رجل دولة مقتدراً مجرباً. وكانوا في لندن والعواصم الغربية الأخرى يكنون له كل اعتبار وتقدير، وكان صديقاً مخلصاً لي. كان أحدنا يثق بالآخر تمام الثقة، وأهم من ذلك كله هو أنه كان موافقاً تمام الموافقة على موقفي.

غير أنه اغتنم الفرصة لتحذيري من أن مفاوضاتنا كان يكتب لها قدر أكبر من النجاح لو أن الحلفاء طلبوا من تركيا أن تقف إلى جانبهم بدلاً من أن يعرضوا عليها التزام الحياد الذي لن يشكرها أحد عليه في النهاية. وأضاف توفيق باشا قوله إنه كان مقتنعاً أيضاً بأن روسيا لن توافق أبداً على انضمام تركيا إلى الحلفاء لأن مثل هذه الخطوة كان من شأنها أن تضع حداً لآمال روسيا في التوسع على حساب تركيا، سواء في الشمال الشرقي، حول أرضروم، أو إلى الجنوب من البحر الأسود. وقد نقلت هذه الملاحظات بثقة إلى اللورد كيتشنر، وفي خلال ساعات قليلة أعلمني بأن الحلفاء لا يرغبون في وقوف تركيا إلى جانبهم. في ضوء هذه الملاحظات المتبادلة الأولية، دخلنا في المفاوضات ونحن نستشعر ضعفاً بالغاً. ومع ذلك، ظللت متفائلاً عدة أيام، وبدا لي أن تفاؤلي كان بعيداً عن أن يكون غير ذي أساس.

وفجأة علمنا أن سفينتين حربيتين ألمانيتين، " غوبن " و " برسلو "، قد أفلتتا من قبضة الحلفاء البحرية، وأنهما كانتا راسيتين بعيداً عن القسطنطينية. لقد قلب وجودهما الموقف رأساً على عقب بصورة قوية عنيفة. فالأتراك رحبوا بهما وأسبغوا عليهما الحماية. كانتا أمارة بيّنة

على قوة ألمانيا وقدرتها البحرية. وإلى جانب النفوذ المعنوي العظيم الذي كانت البعثة العسكرية الألمانية، برئاسة القائد البارع وصاحب العزيمة الجنرال ليمان فون ساندرز، قد وطدته في القسطنطينية، فقد كانت السفينتان تشكلان أعظم خطر على آمالنا- التي كانت مؤخراً كبيرة جداً- بالحفاظ على حياد تركيا. وما إن انتهى عام ١٩١٤ حتى كانت دول المحور واثقة من نصر سريع. فقد تمكن أحد الجنرالات البروسيين، ويدعى فون هندنبرغ، من إنزال هزيمة ساحقة بالجيوش الروسية في مستنقعات تانبرغ من بروسيا الشرقية. أما في الغرب، فقد كانت الجيوش الألمانية على مرأى من باريس أوتكاد، وكانت قد عززت مراكزها على تلك الجبهة التي كان يبلغ طولها ستمائة ميل واحتفظت بها حتى شهر آب من سنة ١٩١٨ . وكان طراد ألماني واحد، ويدعى "آمون"، قد أنزل خسائر فادحة في سفن الحلفاء في عرض المحيط الهندي. على ضوء هذه الانتصارات، اتخذت الحكومة التركية خطوتها التي لا تراجع فيها، وأعلنت الحرب على روسيا، مما أدى بالإمبراطورية العثمانية أتوماتيكياً إلى أن تشتبك بالحرب مع بريطانيا العظمى وفرنسا.

شكل هذا القرار، بالنسبة لرجل استراتيجي من مثل تشرشل، فرصة(لم يجر استغلالها بشكل كامل) لإنهاء الجمود القاتل على الجبهة الغربية، ومهاجمة ألمانيا والنمسا من الجنوب الشرقي. أما بالنسبة إلي، فقد كان ذلك بمثابة صفعة قوية. وعندما ادعت الحكومة التركية، محاولة أن تسبغ شعبية واحتراماً على عدوانها الذي لم يكن له ما يسوّغه، أن ذلك كان نوعاً من الجهاد، نوعاً من الحرب المقدسة ضد

المسيحية، انقلب حزني وخيبتي إلى نفور شديد مرير من حماقة حكام تركيا الخارجة على الدين. وزاد في نفوري أني كنت أعرف مقدار قربنا من النجاح في مفاوضاتنا. كانت الثمرة على وشك أن تقتطف من الشجرة عندما نسفت الشجرة، بل البستان كله إلى شظايا.

كان رد فعلي قوياً، ذلك إني اشتركت مع زعماء مسلمين آخرين في نداء وجهناه إلى العالم الإسلامي كله وطلبنا فيه عدم الاكتراث بهذا الجهاد المزعوم. كما أصدرت، على مسؤوليتي الخاصة، منشوراً أبديت فيه رأيي في الخطأ الذي ارتكبته تركيا، وذكرت أن الحكومة العثمانية وقواتها لابد أن تعتبر حجارة شطرنج في استراتيجية ألمانيا العدوانية الاستعمارية، وأن تركيا بإعلانها الحرب على بريطانيا والحلفاء كانت تنفذ أوامر أسيادها الألمان، وأن السلطان ومستشاريه قد أجبروا من جانب الضباط الألمان وآخرين من غير المسلمين على اتخاذ هذه الخطوة.

قلت: " إن الإمبراطوريتين البريطانية والروسية، والجمهورية الفرنسية، قد عرضت أن تضمن لتركيا جميع أراضيها بحالة استقلال تام بشرط واحد هو أن تحتفظ بحيادها. إن تركيا هي المؤتمنة على الإسلام، والعالم باجمعه راض على تركها تحتفظ بالمدن المقدسة في عهدتها. وعلى جميع الناس أن يفهموا أن وضع تركيا لم يكن مهدداً بأية صورة، وأنها لم تدخل الحرب من أجل الإسلام أو دفاعاً عن استقلالها. واذن فإن واجبنا الوحيد كمسلمين هو أن نبقى مخلصين وأمناء لولائنا الزمني والدنيوي ".

وفي اعتقادي أني لا أدعي شيئاً ليس ما يبرره إذا قلت إن كلماتي هذه قد كان لها تأثير حقيقي راسخ عندما كان هنالك حاجة إليه.

فالأكثرية الساحقة من رعايا الدول الغربية المسلمين حافظت على ولائها بأمانة وإخلاص، وأن الجنود المسلمين قاتلوا وماتوا جنباً إلى جنب مع رفاقهم المسيحيين في ساحات القتال في العالم أجمع، وانهارت فكرة " الجهاد " التي اخترعها واستغلها القيصر ومستشاروه لأغراضهم الخاصة، ولم يُسمع بها إلا قليلاً بعد الأشهر الأولى من عام ١٩١٥ .

إلا أنني ما زلت أعتبر فشل محاولتنا لبدء مفاوضاتي مع الباب العالي في الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٤ نقطة تحول مفجعة في التاريخ الحديث. إذ لو ظلت تركيا محايدة، لكان من الممكن أن يكون تاريخ الشرق الأدنى والعالم الإسلامي بأسره، في السنوات الأربعين الأخيرة، مختلفاً اختلافاً عميقاً. لقد قضي على سلطنة القسطنطينية التي دامت مئات السنين مركزاً طبيعياً ونقطة تجمّع للإسلام. وخرجت تركيا، كما سنرى فيما بعد، من محنتها بزعامة مصطفى كمال الملهمة، بعد أن جردت من إمبراطوريتها. واكتشف ملايين العرب، الذين عاشوا قروناً تحت حكم الأتراك، ليس في الجزيرة العربية فحسب، بل في الهلال الخصيب أيضاً، مسرات القومية وأحزانها، ومصاعبها وحرارتها. وورثت الإمبراطورية البريطانية منذ عام ١٩١٨ فصاعداً، تلك السيطرة على الشرقين الأدنى والأوسط والتي مارستها الإمبراطورية العثمانية كل ذلك الوقت الطويل. أضف إلى ذلك اشتبكات الفرنسيين في سوريا، ومغامرات اليونانيين ومصائبهم في آسيا الصغرى، والاصطدام بين الصهيونية والآمال العربية، وإنشاء ابن سعود مملكة جديدة في جزيرة العرب، وظهور عائلة الشريف حسين من الزعامة القبلية في مكة إلى بيتين مالكين في مملكتين اثنتين [الأردنية والعراقية] - كل هذه النتائج

وكثير غيرها تأتّت من رفض تركيا الفتاة، تحت ضغط الألمان، العروض التي قدمت إليها نهاية عام ١٩١٤ .

ومهما كانت الشكوك التي بدأت تظهر أوائل عام ١٩١٥ حول قدرة كتشنر على تنظيم مجهود بريطانيا الحربي وقيادته في الغرب، فقد كان متيقظاً لكل طارئ في الشرق. ولم يمض وقت طويل قبل أن يرسل في طلبي ويعرض عليّ اقتراحاً آخر، وأن يعهد إليّ بمهمة ديبلوماسية أو شبه ديبلوماسية كانت الوزارة تؤيدها، وكان الملك جورج الخامس في الحقيقة موافقاً عليها ومهتماً بها بصورة شخصية. كانت تلك المهمة تتعلق بمصر، حيث كان الوضع السياسي مضطرباً ودقيقاً. وكان كيتشنر نفسه قد استدعي ثانية لتسلم مهام منصبه في وزارة الحربية عندما كان على وشك السفر عائداً إلى وظيفة المندوب البريطاني في القاهرة. كانت مصر جزءاً من أملاك السلطان العثماني اسمياً، وكان الخديوي نائبه فيها. واستمر هذا الوضع اسمياً أيضاً بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢؛ هذا الاحتلال الذي وصف عندئذ بأنه مؤقت، ومع ذلك استمر متحدياً كل منطق، ومتحدياً جميع الوعود والتعهدات. وكانت مصر تبدو، حتى السنوات الأولى من القرن العشرين، كما سبق لي أن ذكرت في فصل سابق، أشبه بمستعمرة بريطانية.

كانت مصر في الحرب العالمية الأولى، كما في الحرب العالمية الثانية، قاعدة حربية ذات أهمية عظمى لبريطانيا وحلفائها. وكان عدد الجنود الانكليز والهنود وجنود دول الدومينيون كبيراً جداً في مطلع سنة ١٩١٥، وكان يتزايد باضطراد. وكانت الإسكندرية قاعدة بحرية عظمى وترسانة كبرى. أما قناة السويس، فقد كانت ممراً مائياً استراتيجياً

حيوياً. وعلى ضفتها من جهة سيناء، بالرغم من أن سيناء كانت جزءاً من مصر نظرياً، كانت هناك وحدات من الجيش التركي، وكان دورها آنئذ دفاعياً صرفاً. ولكن تفكير بريطانيا الحربي لم يهدف إلى أن يعهد إلى مصر بدور هادئ ساكن، بل كان يريد جعلها قاعدة يشن منها كل هجوم على تركيا. كانت ألوف السفن تنقل إلى الاسكندرية وبورسعيد والقنطرة والإسماعيلية، والجنود من بريطانيا ومن استراليا ونيوزيلندا والهند الذين كان عليهم أن يقاتلوا ويقتلوا ببطولة لا تنسى وبلا فائدة في شبه جزيرة جرداء صخرية تحرس الشاطئ الأوربي من مضائق الدردنيل المؤدية إلى القسطنطينية. وكان من الواجب، من وجهة النظر العسكرية، تأمين أكبر قدر من الاستقرار والثبات في وضع مصر السياسي الداخلي إذا أريد لهذه القاعدة الحربية الكبرى أن تبقى في حالة صالحة.

وبدأت البلبلة في القمة. لم يكن هناك أي زعيم سياسي مصري من أي وزن، وكان الخديوي عباس حلمي نفسه غائباً في القسطنطينية- ويا للمفارقة. وإذ لم يعد إلى مصر عندما استُدْعِي فلم يكن مفر للحلفاء من أن يظنوه مناصراً للألمان، ولا مفر لدعاية الحلفاء من أن تصوره على هذه الشاكلة. غير أني خبرت عباس حلمي جيداً إبان السنوات الأخيرة في منفاه الطويل في أوربا، وإني لمقتنع بأنه قد ظلم وحكم عليه حكماً خاطئاً. لقد أحببته حباً حقيقياً وأعجبت بصفاء ذهنه ونبوغه. وقد أنبأني بما أنا مقتنع بأنه كان القصة الحقيقية " لقصوره ". إذ هاجمه رجل، قبيل إعلان تركيا الحرب، بقصد اغتياله فأصابه بجراح في وجهه وفكه. ولم تختف آثار هذا الهجوم طيلة حياته أبداً.

ومن عام ١٩٢٠ حتى وفاته المفاجئة في نهاية الحرب العالمية الثانية، كنت ألقاه كثيراً وتوطدت بيننا عرى الصداقة. كان يملك يختاً جميلاً يدعى " نعمة الله "، وكان هذا اليخت بمثابة بيت له على الريفييرا إبان أشهر الشتاء وأوائل الربيع. وكان من عادته أن يقضي الجزء الأخير من الربيع وفصل الصيف بكامله في باريس وسويسرا. وقد تناولت طعام الغداء معه مراراً على ظهر " نعمة الله "، وكثيراً ما كنت ألقاه في سويسرا، وإني لمقتنع من شيء واحد هو أنه لم يكن قط في حياته معادياً للإنكليز، وأنه كان يكنّ محبة عظيمة لأصدقائه منهم. وطبيعي أن يكره، عندما كان خديوياً، معاملة سلطات الاحتلال البريطاني دونما أي حق قانوني أو سلطة قانونية، بلاده وكأنها مستعمرة بريطانية، وأن تعامله هو بالذات وكأنه مهراجا معظم، وهذا الشعور كان يجعله دائماً يصطدم مع اللورد كرومر، الذي كان في الحقيقة حاكم مصر المطلق. ومع ذلك، فقد كان يقول لي دائماً إن كرومر رجل عظيم يلتزم بكلمته، وبالرغم من سوء علاقاتهما الشخصية بسبب الخلافات السياسية، إلا أنه لم يفقد أبداً احترامه وتقديره للورد كرومر. أما بالنسبة إلى اللورد كيتشنر، فإن الخلافات الشخصية أدت إلى كراهية، ولم يغفر عباس حلمي لكيتشنر خصامه معه. وقال لي مرة إنه ساءه جداً عدم اعتراف كيتشنر قط بجميله عندما ساعده في أن يصبح سردار الجيش المصري في أول الأمر. إذ عندما تقاعد سلف كيتشنر كان هناك مرشحان أو ثلاثة للمنصب الشاغر، ويقول عباس حلمي بأنه هو نفسه أرسل برقية إلى الملكة فيكتوريا بصورة خاصة طالباً تعيين كيتشنر.

وقال لي عباس حلمي إنه لو لم يجرح لكان هرب من القسطنطينية

حتماً، وإنه لم تكن لديه رغبة في البقاء، بل كان يود العودة إلى مصر حالما تتحسن حالته. ولكن السلطات البريطانية لم تكن متحمسة قط لرجوعه ووجوده في مصر. لم يكن عباس حلمي يحمل أي حقد للإنكليز لا كشعب ولا كأفراد، وقد تقبل الوضع ونظر إليه نظرته إلى مباراة رياضية كان هو نفسه الخاسر فيها.

ومع أنه كان مسلماً صالحاً ومؤمناً حقيقياً يؤدي صلواته بانتظام، فقد كان معجباً إعجاباً عظيماً برجال السلك الكهنوتي الكاثوليكي، وكان يتصل بهم في باريس. وفي اعتقادي أن هباته لمؤسساتهم الخيرية كانت على نطاق واسع، وكان يقول لي دائماً إن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية كانت قادرة على أن تسدي إلى اصدقائها في محنتهم أكثر مما تسديه أية أخوية ماسونية. وكان عباس حلمي، من ناحية أخرى، ذا خبرة كبيرة بالأمور المالية، وقد جمع لنفسه ثروة طائلة حتى بعد خسارته للجزء الأعظم من رأسماله الأساسي في مصر. غير أنه كانت له خلة عجيبة. فقد تبين بعد موته أنه كثيراً ما كان يراهن على الجواد الخاسر. ومع أنه كان يشك كثيراً في جميع الصيارفة المحترمين وسماسرة العملة من الدرجة الأولى وجميع سماسرة الأسهم في انكلترا، فقد وقع في حبال الكثيرين من الدجالين التافهين إذ كان ينقدهم مبالغ كبيرة من المال لإنفاقها على مختلف أنواع المشاريع المستحيلة. وإلى جانب ذلك، كان محاطاً بأشخاص مريبين فازوا بثقته بطريقة لا يعلمها إلا الله. وفي اعتقادي أن ورثته لم يجدوا بعد موته أنه كان غنياً شأنه في السابق، وأن قسماً كبيراً من ثروته قد اختفى، وأظن أنني قادر على تفسير ذلك. فقبل الحرب العالمية الأولى وأثناءها، كثيراً ما كان عباس حلمي

يقول لي إنه بالنظر إلى غموض المستقبل والصعوبات التي يمكن أن يواجهها في نقل أمواله أو الإشراف عليها في امريكا أو كندا أو حتى في أمريكا الجنوبية (مع أنه كان يعرف جميع أساليب تأليف شركات الاستملاك في أماكن أمينة من مثل كوبا أو طنجة وتحويل كميات كبيرة من الأسهم والضمانات إليها)، فقد كان يشعر بأنه قد لا يستطيع الاستفادة من أمواله زمن الحرب. كان يخشى إمكان مجيء سنوات من الفاقة والحرج يكون فيها شأنه شأن ميداس، مليئاً بالذهب ولا يجد مع ذلك ما يأكله.

كان غرضه الحقيقي من إطْلاعي على ذلك هو أن أحذو حذوه، ولذلك سألته عن طريقته في معالجة هذا الأمر، وعما إذا كان يحتفظ بقسم من ثروته في الصناديق الحديدية والأقبية. وذكرت طبعاً أن الاحتفاظ بمبالغ كبيرة كهذه بشكل أوراق نقدية لابد من أن يشكل عائقاً كبيراً في زمن الحرب، في حين أن الذهب بالكميات التي يريدها لابد أيضاً من أن يكون ثقيلاً وغير عملي إلا إذا كان بكميات صغيرة نسبياً. ولكنه أجابني بأن أفضل أنواع الحلي الممتازة الخالية من العيب- كالذهب، تحتفظ بقيمتها. وإذا كانت جواهر- صغيرة أو كبيرة- فإنها تجد دائماً من يشتريها، ومن فوائدها أن صاحبها يملك ثروة طائلة تحت تصرفه حيثما يكون. وطبيعي أنني استنتجت من أقواله أنه كان يملك أموالاً طائلة حوّلها إلى حلي وجواهر، وبصورة خاصة لأنه كان يلح علي في أن أقتدي به.

ولقد مات عباس حلمي فجأة عندما أصيب بنوبة قلبية حوالي الساعة الثالثة من صباح أحد الأيام في شقته في جنيف، ولم يعلم الناس

بموته إلا في ساعات النهار الأولى عندما فتحت صناديقه وخزائنه المختلفة. وبطبيعة الحال، أخبرت ولده ووريثه بما سبق أن حدثني به عن المجوهرات، ولكن ما أعجبني وأحزنني في الوقت نفسه أن ابنه قال لي فيما بعد إنهم لم يجدوا إلا مبالغ نقدية صغيرة. ولا شك في أنه كان هناك أحد أمرين: إذا كان يملك حلياً ومجوهرات بالفعل، فلا بد أنه قد باعها في نهاية الحرب العالمية الثانية عندما أدرك أنه لن تكون هناك حرب ثالثة، أو أن تلك المجوهرات قد اختفت في الساعات التي أعقبت وفاته وسبقت الإجراءات الرسمية لفتح أمتعته.

ولنعد إلى أخطائه في التقدير عام ١٩١٤- ١٩١٥: ففي ضباب الحرب لم يكن أحد يتوقع من الحلفاء أن تكون لهم معرفة صحيحة بآراء عباس حلمي ومقاصده الحقيقية، ولا بالطرق التي خابت بها هذه المقاصد. وعلى كل فقد كانت النتيجة في مصر شيئاً يقارب الفوضى، وكان الشك أعمق ما يكون في الرأي العام الإسلامي، وللأسباب التي سبق لي ذكرها كان من الضروري المحافظة على الأمن الداخلي في مصر. وإذن، فقد كانت مهمتي أن أوضح هذا الرأي وأعمل على استقراره. لقد طلب إلي أن أصطحب معي زميلاً لي، ولذلك، لجأت إلى صديق قديم عزيز لي هو السير عباس علي بك، الذي كان عندئذ العضو الهندي في المجلس الدائم والذي كان يشير على وزير الهند في لندن. وهكذا سافرنا إلى القاهرة بأسرع ما استطعنا، وجرى استقبالنا هناك استقبالاً كاد يكون ملوكياً. كنا ضيفين رسميين على القائد العام البريطاني، وانصرفنا إلى مهمتنا فوراً، وكانت مهمة دقيقة شاقة ومتشعبة إلى طبقات كثيرة من المجتمع المصري.

أولاً، كان علينا أن نكسب القصر، أو بالأحرى الشخصيات الرئيسة في العائلة المصرية الحاكمة. كان هنالك السلطان الذي عين في غياب عباس حلمي، وكان هنالك أخوه، الأمير فؤاد، الذي أصبح الملك فؤاد الأول فيما بعد، والذي كانت له ميول ألمانية وإيطالية، وكان هنالك شخصيات عديدة نافذة أخرى، وأهم من هؤلاء جميعاً كان هنالك ابن السلطان، الذي كان متزوجاً من ابنة الخديوي، وكان هنالك العلماء الذين كانوا رؤوساء جامعة الأزهر، كما كان هنالك عامة الشعب المصري- المتعلمون الذين يجلسون في مقاهيهم يطالعون ويناقشون إلى ما لا نهاية، وبشغف، كل عدد من كل صحيفة، والفلاحون الذين كانوا ولا يزالون منذ أقدم العصور المصدر الحقيقي لقوة مصر.

كانت مهمتنا مهمة توضيح ونصح، وكان علينا إقناع أولئك الذين كنا نتحدث إليهم، في المجتمعات الخاصة والعامة على السواء، بأنه كان من مصلحتهم مؤازرة قضية الحلفاء. وكنت أتحدث وأنا واثق من نفسي مستنداً إلى معرفة شخصية حديثة، فذكرت أن الأتراك قد أتيحت لهم كل فرصة للحصول على شروط عادلة، وأن الحلفاء كانوا راغبين في استخدام نفوذهم لصيانة مصالح تركيا في المستقبل، وأهم من كل ذلك أن الحياد كان بوسعه أن يؤمن لتركيا مجال التنفس الذي كانت بحاجة إليه. وفي حين أن اوربا كانت مشغولة بتدمير نفسها، فقد كان بوسع تركيا أن تنعم بالوقت الكافي لإعادة تنظيم جهاز الإدارة المتفكك الواسع في الأقاليم، وللتخفيف من الاستياء المتزايد لدى الوطنيين العرب، ولتنفيذ جميع تلك الإصلاحات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي كان من شأنها تعزيز الامبراطورية وتوحيدها. كل تلك الفوائد أضاعتها

رمية مقامر واحدة. والمقامرون، في النهاية، لا يربحون، ويبيّن التاريخ أن المقامرين السياسيين حظهم في النجاح ضئيل كالمقامرين في الكازينو أو سباق الخيل.

انتهت مهمتنا إلى النتائج المرجوة، فتأمن الاستقرار الداخلي في مصر طوال فترة الحرب العالمية الأولى. وكانت المساعدة التي أسداها هذا الهدوء إلى الحلفاء حتى زحف الجنرال اللنبي عبر فلسطين وسوريا إلى حلب وسفوح الأناضول كبيرة جداً.

ومن مصر أخذت طريقي إلى الهند، بعد أن زرت القوات الهندية المرابطة في قناة السويس، وبعد أن شجعت أفرادها (وكان كثير منهم طبعاً من المسلمين) ورفعت من روحهم المعنوية. وفي الهند، أدركت- من مقدار الثناء والشكر الذي استقبلني به نائب الملك ومَن دونه- أننا قد قمنا بعمل رائع. ومن النتائج الشخصية الحسنة لهذه المهمة في مصر ازدياد محبتي للسير عباس علي بك الذي أصبح وظل منذ ذلك الحين من أقرب أصدقائي إلي طيلة حياتي. وأذكر بالمناسبة، أن ولديه ليسا أقل منه شأناً في مجال الخدمة العامة، فأحدهما يشغل الآن منصب وزير باكستان في موسكو، في حين أن الآخر، بعد أن كان الرئيس السابق لوزارة الخارجية في كراتشي، يشغل الآن منصب المندوب السامي في أوتاوا.

وعدت إلى لندن في وقت لاحق من السنة نفسها، ومرة أخرى لمست نجاح مهمتنا في مصر. فقد شكرني الملك نفسه، ورئيس الوزراء وأعضاء الوزارة الآخرون، وشعرت بالارتياح عندما أدركت أني قمت بخدمة مفيدة حقاً.

وفي نيسان من عام ١٩١٦ منحني الملك شرفاً ذا أهمية شخصية خاصة. ذلك أنه وافق على أن تحيّيني المدفعية بإحدى عشرة طلقة، وعلى منحي رتبة أمير حاكم أول بين أمراء بومباي. لقد جرّدت نهاية الإمبراطورية الهندية، والتبدلات الواسعة السياسية والاجتماعية التي أدت إليها هذه النهاية، أقول لقد جردت هذه كلها تلك البادرة من معناها المعاصر. غير أنه في الظروف والأحوال التي كانت سائدة في عام ١٩١٦، كانت تلك البادرة شرفاً عظيماً وتصرفاً كريماً من جانب الملك. فتحية الأمير الحاكم، وعدد طلقاتها، كانت أمراً مهماً يدل على الأولوية والمقام الرفيع. ولقد سبق أن خصت هذه التحية بشخص واحد لم يكن أميراً إقليمياً. وكان ذلك الشخص هو السير سالارجونج، رئيس وزراء حيدر آباد الذي كان له وحده الفضل في إبقاء الهند الوسطى و " دكن " موالية للبريطانيين عام ١٨٥٧ . وقد علقت صحيفة " التايمس " على هذا الشرف الممنوح لقائد بالقول، " لقد كان من نصيب الآغا خان أن يخدم في مجالات واسعة فاقت كثيراً ما قدمه السير سالارجونج، وأن يبذل أكثر بكثير من مجرد تأثير محلي أو إقليمي."

ولم يكن هناك مفر من أن أواجه وعائلتي الحزن والخسارة نتيجة للحرب، شأن سائر الأسر في طول العالم وعرضه في تلك الأيام القاسية. فقد تعرض ابن عمي، آغا فروخ شاه، للاغتيال بينما كان يؤدي مهمة سياسية كلفته بها لدى القبائل وأتباعي الإسماعيليين في كرمان، بتحريض من العملاء الألمان. أما خسائر الهند في ساحات القتال في الفلاندر وفي ما بين النهرين، فقد كانت تبعث على الآسى. وأنا شخصياً أصبت بمرض مؤلم مستعص. ففي أوائل عام ١٩١٦ بدأت أشعر بضعف

في البصر، ولم يعد نبضي منتظماً، وبدأ جسمي ينحل بسرعة بالرغم من أني لم أكن أتبع نظاماً خاصاً في الأكل وكنت آكل جيداً. وقد شخّص أحد أطباء باريس مرضي بأنه يدعى (غريفس) الذي من أعراضه ضعف البصر وتضخم ضئيل في الغدة الدرقية. وذهبت إلى سويسرا وزرت الدكتور كوتشر الشهير في برن، وكان من أعظم الثقاة المعاصرين بشؤون الغدة الدرقية، لأرى ما إذا كان بوسعي إجراء عملية جراحية، وبعد أن وضعت تحت المراقبة في مصح سويسري بضعة أسابيع، قيل لي إن إجراء العملية لم يكن ممكناً. كنت، بصراحة، أبدو وكأني أنحدر بسرعة، وبقيت في سويسرا ثمانية عشر شهراً أو يزيد دون تحقيق أي تقدم، بل كانت حالتي تزداد سوءاً باستمرار.

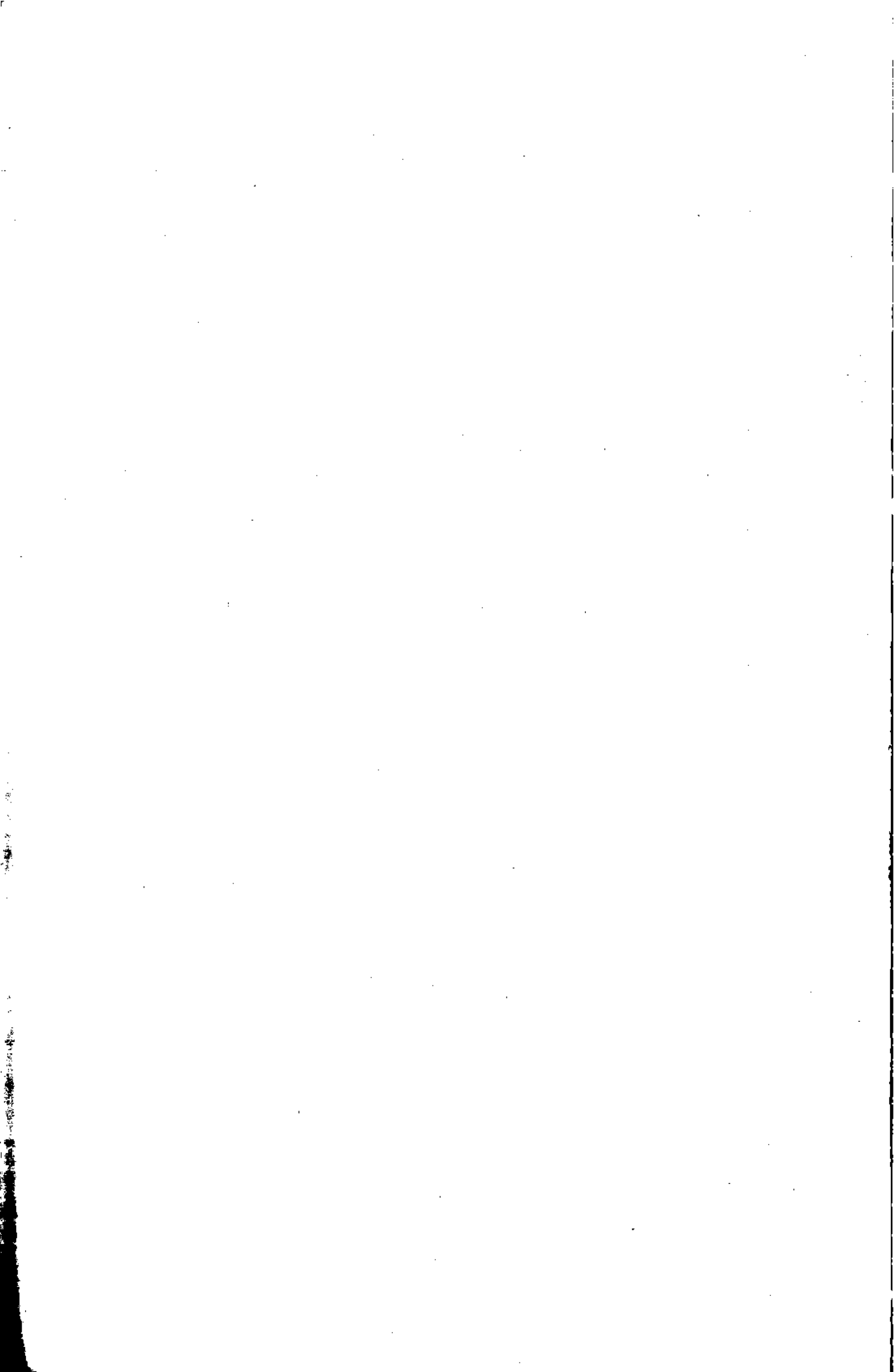
وفجأة أخذت الحكومة البريطانية علماً طارئاً ومقلقاً بما أصبح يعرف فيما بعد، في التاريخ السويسري القضائي، بمسألة قنبلة لوسرن. فالجواسيس الألمان لم يكونوا يعتقدون بأني كنت مريضاً بالفعل، واعتقدوا أن بوسعهم أن يخدموا قضية بلادهم إذا أزاحوني من الطريق نهائياً. وهكذا أعدّوا العدة لإلقاء قنبلة علي؛ ولكي يضمنوا نجاح عمليتهم اتخذوا الترتيبات، بالدقة المشهورة عن الألمان، لدس السم في قهوتي. ولكن القنبلة لم تنفجر، ولم أشرب القهوة. واستمرت الحكومة السويسرية سنوات عديدة بعد ذلك في إجراء تحقيقاتها، ولم تجد الحكومة البريطانية في عام ١٩١٧ أفضل من الطلب إلي مغادرة سويسرا. وهكذا، عدت إلى باريس.

كان الخبر قد صدم أصدقائي الذين استضافوني، بمن فيهم أصدقائي من الجالية الأمريكية الذين سبق لي أن ذكرتهم. قالوا لي(فيما بعد)

إنهم فقدوا الأمل بشفائي. أما أنا فقد تمسكت بالأمل، ولو أنه كان ضئيلاً. لقد بدا لي أن أطباء مشهورين عديدين قد فحصوني في سويسرا وفرنسا، وأن جميع أنواع المعالجة والعقاقير قد جربت علي دون جدوى. ومن ثم فحصني البروفسور بيير ماري وخرج بتشخيص جديد مختلف كل الاختلاف. قال إني لم أكن مصاباً بتضخم الغدة الدرقية إطلاقاً. وبدأ نوعاً جديداً من المعالجة، فلم تمض سنة واحدة حتى بدأت صحتي في التحسن، ولم يبق هناك سوى أثر واحد، ذلك أن عينيّ لم تعودا إلى وضعهما الطبيعي قط.

وعلى كلٍ فقد عنى هذا المرض الطويل إقلاعي حتماً عن كل نشاط عام أكثر من ثلاث سنوات، أي حتى صيف ١٩١٩ .

وكانت فترة طويلة من التوحد والعزلة كتبت في مراحلها الأخيرة كتابي المسمى " الهند في مرحلة الانتقال "، بينّت فيه آرائي بمستقبل الهند وجميع بلدان آسيا الجنوبية الشرقية، وسأعود إلى الحديث عنه في مناسبة مقبلة من هذا الكتاب.



الفصل السابع

مشكلات ما بعد الحرب في الهند وتركيا وشرقي أفريقيا

كان العالم الذي عدت إليه بعد استعادتي لصحتي وشوقي لخوض نشاطاته من جديد قد عرف تبدلات واسعة جذرية في السنوات الثلاث التي قضيتها في العزلة: انهيار الحكم القيصري في روسيا، والأذن بالمرور الذي أعطاه الألمان للينين وزملائه لإطلاق أيديهم في وطنهم، ومعاهدة برست- ليتوفسك، واندحار دول المحور ذلك الاندحار التام على جميع الجبهات في سنة ١٩١٨، وتنازل القيصر وانهيار الإمبراطورية النمسوية- الهنغارية، وظهور الثورات الاشتراكية في بلدان اوربية مختلفة، ونهاية الإمبراطورية العثمانية في الشرقين الأدنى والأوسط. وبدا الرئيس ويلسون في تلك الأشهر شخصية على يديها سيتم خلاص العالم، إذ كان هو صاحب المبدأ القائل بحق تقرير المصير لجميع الشعوب. وكانت الحرب قد أطلقت في كل مكان تيارات عارمة من الشعور السياسي، واجتمع السياسيون من ذوي الميول والعواطف المختلطة المعقدة في باريس ليتبصرّوا في عالم يزخر بالمصاعب والأخطار والفوضى التي كانت توحي باليأس، وكانت شعوب كثيرة تتطلّع إليهم لحلها فوراً حلاً يحقق الأمن والنظام للعالم. كان الخلاص في النهاية من

كابوس الحرب مصحوباً بتفاؤل ساذج وشديد في الوقت نفسه، وكان من شأن السلام أن يؤذن ببداية عهد من الاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي. حتى صديقي اللورد كورزون، وكان عندئذ زعيم مجلس اللوردات، تأثر بالجو السائد. ففي خطاب له ألقاه في مجلس اللوردات في شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٨ أعلن الهدنة وردد بحماسة بيتاً من أبيات شيللي: " إن حقبة العالم الكبرى قد بدأت من جديد. "

ولقد تأثرت الهند بطبيعة الحال بكل ما جرى. وفي عام ١٩١٧، عندما كان النزاع على أشده، كان هنالك شعور عام في بريطانيا، بين الرسميين وغير الرسميين، بأن مساهمة الهند في المجهود الحربي لبريطانيا، وشجاعة جنودها، ووفاء قادتها وشعبها، قد حظيت بأكثر من الاعتراف والتقدير الرسميين. وبناء على توصية نائب الملك ووزير الهند، إدوين مونتاغو، الملحة، نشرت الحكومة في ٢٠ آب ١٩١٧، بياناً عددت فيه أهدافها فيما يختص بالهند.

قال البيان: " إن سياسة حكومة صاحب الجلالة هي إشراك الهنود بصورة متزايدة في كل فرع من الإدارة، وتطوير مؤسسات تتمتع بالحكم الذاتي بصورة تدريجية بغية تحقيق حكم مسؤول في الهند بوصفها جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية البريطانية. "

والحق أن هذا كان إعلاناً خطيراً. فقد كان بمثابة الدليل على ارتباط الحكومة البريطانية وكل حكومة تأتي من بعدها ارتباطاً صريحاً بتحول جذري عما كان قد تطور إلى أن يصبح، خلافاً لمبادئ قانون سنة ١٨٣٣، الأهداف الأساسية والمسلّم بها للحكم البريطاني في الهند. إذ لم ترد في البرامج السابقة للإصلاح الإداري، أي مقترحات كروس-

لانسدون في العقد الأخير من القرن التاسع عشر ومقترحات مورلي- مينتو في أوائل العقد الأول من القرن العشرين، إشارة واحدة إلى نيّة لنقل السلطة الحقيقية والمسؤولية من أيدي البريطانيين إلى أيدي الهنود، وكذلك لم يؤتَ على ذكر الحكم الذاتي في الهند إطلاقاً. أما الآن، فقد صيغ كل ذلك في كلمات كان باستطاعة الجميع أن يقرؤوها. لقد قيل لي إن كلمتيْ " الحكم الذاتي " وردتا في المسّودة الأولى التي حولت إلى الوزارة، ولكن اللورد كورزون- من بين الناس جميعاً- استبدل بهما كلمتي " الحكم المسؤول "، وبذلك جعل من المحتّم أن تتخذ الإصلاحات الدستورية التي استحدثت لتطبيق التصريح شكل الحكم الثنائي (ديارخي) ذلك أن كلمة " مسؤول " تعني ضمناً أن من يتولون هذا الحكم سيكونون مسؤولين أمام شخص معين. فمن كان ياترى ذلك الشخص؟ الحاكم أو نائب الملك، وبالتالي بريطانيا والبرلمان البريطاني، أو النائب الهندي وبالتالي الشعب الهندي؟ ومع أن الثنائية كانت تسوية عملية في بعض الأحيان، فقد كان من شأنها أن تشكل معضلة للوزراء، في المقاطعات والمراكز على حد سواء. كانت تعبّر، من حيث الإدارة العملية اليومية، عن ثنائية المظهر التي كادت تكون شيزوفرينية- عن تلك الهوة بين القصد الأمثل والتطبيق اليومي- التي تميز بها الاتجاه البريطاني نحو الهند منذ ذلك الحين. إن الشيزوفرينية ليست الأساس الصحيح للعلاقات السعيدة، غير أن بوسعنا أن نجد فيها التفسير لذلك النفور الذي انقلب إلى عداوة مريرة لم تؤد إلاّ إلى نهاية الحكم البريطاني في الهند بصورة تامة.

في سنة ١٩١٩ كان ذلك كله متروكاً للمستقبل، أما أنا فقد كنت

مأخوذاً بنظرة أرحب وأجرأ قصدت منها أن أثير اهتمام كل من كان مسؤولاً عن العلاقات الهندية البريطانية، وعلى رأسهم بالطبع إدوين مونتاغو، وزير الخارجية. كان إدوين مونتاغو يهودياً اندمج اندماجاً كلياً في نمط الحياة البريطانية، وكان ذكياً ومحبوباً وواحداً من مجموعة عائلات مونتاغو- صموئيل- إيزاك الإنكليزية- اليهودية التي ساهمت مساهمة بارزة في الحياة البريطانية في نصف القرن المنصرم.

كنت متشوقاً عام ١٩١٩ إلى إنشاء اتحاد في آسية الجنوبية يضم دولة متمتعة بالحكم الذاتي ويمتد من شبه جزيرة الملايو إلى تخوم مصر- اتحاد على أساس الكومونولث وضمن إطار الإمبراطورية البريطانية(لم تكن كلمة كومونولث قد استعملت سنة ١٩١٩ بالطبع). فلقد خيل إليّ- ولا يزال- أن هذه كانت طريقة معقولة وحلاً أفضل لمتاعب العالم من ذلك الحل الذي أخذ به عندئذ. ولو أن الحكومة البريطانية قبلت به ونفذ بعزم، فإني واثق من أن قوة هائلة لابدّ أن تكون قد تطورت في آسيا الجنوبية، ومن أن مؤسسات ديمقراطية سليمة تكون قد انبثقت بيسر وبصورة طبيعية، وأن هذه المؤسسات كانت ستمد بريطانيا وبلاد الدومينيون بمعرفة فعّالة ساعة تكون بحاجة إليها، وبحصن دائم في وجه العدوان.

كانت مقترحاتي هذه، إلى حد ما، تحقيقاً وامتداداً لأفكار وآمال نشأت في ذهني إبان معرفتي اللصيقة بغوكهيل وصحبتي له. ففي خريف عام ١٩١٤، عندما أسرعت بالعودة إلى لندن من أفريقيا للمساهمة في المجهود الحربي، التقيت غوكهيل الذي أطال مكوثه هناك لتتسنى له رؤيتي، مع أنه كان يشكو عندئذ من مرض السكر الذي

يحتّم عليه الابتعاد عن طقس لندن الرطب. ومع أننا كنا مرهقين بأعمال أخرى فقد تقابلنا كثيراً وناقشنا بحرية وصراحة جميع ما كنا نتمناه للهند ونخشى عليها منه، كما سعينا إلى وضع مسودة لمذكرة نوينا أن نوجهها إلى الحكومة على أن تحتوي ما اتفقنا عليه في محادثاتنا.

توفي غوكهيل أوائل عام ١٩١٥ . وقبل وفاته، أتم وثيقته السياسية التي وجهها إليّ راجياً مني إعلانها بعد عامين، إذ كان يأمل أن تنتهي الحرب عندئذ ويكون باستطاعة الهند أن تواجه مهمتها السامية في تقرير مصيرها.

ونشرت وثيقة غوكهيل في الوقت الذي حدده، وأضفت باسمي الخاص مذكرة قلت فيها إن أفريقيا الشرقية يمكن أن تفرد للاستعمار والتطوير الهنديين اعترافاً بخدمات الهند إبان الحرب.

غير أن هذه كانت، ولا تزال، أحلاماً. لقد اتخذ التاريخ مساراً آخر، وكان نظام الإصلاح، كما نشر في قانون حكومة الهند سنة ١٩١٩، مختلفاً جداً، وعلى نطاق أضيق كثيراً، ومقتصراً على الهند وحدها. وكانت النتيجة أنه، مع الأسف، لم يؤد إلى ذلك التطور التدريجي السلمي نحو الحكم المسؤول المرتجى، بل إلى طور الاضطراب البالغ والهياج السياسي العنيف. لقد مات زعماء الهند السياسيون المعتدلون الدستوريون من أمثال السير فيروز شاه مهتا وغوكهيل، وظهر جيل جديد يبحث عن طرق جديدة لتحقيق أهداف أبعد مدى إلى درجة كبيرة- وعلى عجل. فحتى قبل أن يدرس البرلمان مشروع حكومة الهند، كان الوضع فيها قد ازداد سوءاً، وأصدرت لجنة ألفت برئاسة اللورد رولات لدراسة النواحي الإضافية من الهياج السياسي، أصدرت تقريرها الذي

أوصت فيه بإنشاء محاكم خاصة للنظر في أعمال الشغب والفتنة. ولكن التقرير استقبل استقبالاً عدائياً. إن نموذج إيرلندا لم يفقد في الهند لأن المتطرفين في كلا البلدين تسلموا القيادة. أما البرلمان فقد قبل توصيات لجنة رولات، وما إن أصبح المشروع قانوناً حتى أعلن حزب المؤتمر (الهندي) الإضراب العام احتجاجاً عليه. وقد ألححت أكثر من مرة إبان هذه الأشهر العصيبة على ضرورة التعقل والتحسّب، لا من جانب أتباعي وحدهم، بل من جانب الطائفة الإسلامية عموماً. غير أنه بعد أقل من أسبوعين وقع " حادث أمريستار "[1] المريع الذي أخر سنوات كثيرة كل أمل بالمحبة البنّاءة الدائمة بين بريطانيا والهند.

هذا الحادث والذكريات المريرة التي خلّفها سممت العلاقات سنين عديدة. وفي اعتقادي أني لو كنت من الأشخاص الذين يتسرب اليأس إلى نفوسهم لكان يتعين علي أن أيأس وقتئذ. ولكني كنت منهمكاً في السعي إلى أن أحصل من الحكومة البريطانية على نهج واضح مشرّف في موضوع يشمل أسمى المبادئ السياسية إلى درجة كان اليأس معها شرفاً لم يكن لدي الوقت له ولا الرغبة فيه.

ومن آثار الحكم الثنائي أنه كان ينطوي على نقل قدر كبير من السلطة في الأمور الداخلية من المركز إلى الموظفين المسؤولين في المقاطعات. وكانت تأثيرات الحكومة المركزية واضحة في وزارة الهند وضوحها في سيملا أو نيودلهي. ولذلك، طلب إليّ أن أكون عضواً في لجنة في لندن عهد إليها بمهمة إعادة تنظيم وزارة الهند وجعلها لا

---

١ – في ١٣ نيسان ١٩١٩ ، قتل حوالي ٣٧٩ هندياً برصاص الشرطة أثناء تفريق تجمع غير قانوني في جاليان والاباغ في أمريستار .

مركزية. وكانت في الأساس مسألة جلاء بعض الطرق التي بوساطتها كان وزير الهند يحصل على معلوماته ويدافع عن وزارته وعن نفسه لدى أولئك الذين كان مسؤولاً أمامهم في النهاية، وأعني بهم الأعضاء المنتخبين في مجلس العموم البريطاني. كانت مهمة عسيرة اقتضت عملاً شاقاً، غير أنها زودتني بصورة واضحة من الداخل عن سير الآلة الإدارية التي تدار بها دولة حديثة عظمى.

ولقد جاءت هذه المهمة، كما أشرت من قبل، إبان فترة من النشاط السياسي العنيف الذي وجهت جهودي فيه قبل كل شيء إلى محاولة الحيلولة دون تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية بصورة كاملة؛ وإلى تحقيق تسوية سلمية في الشرقين الأدنى والأوسط لا تكون عادلة مقسطة فحسب، بل عملية أيضاً.

لذلك، يتعيّن عليّ أن أصف ببعض التفصيل أساس تلك الدوامة من العمل السياسي والديبلوماسي التي وقعت فيها. كان أحد الأسئلة المهمة التي واجهت الدول المنتصرة في المدة التي تلت الحرب مباشرة: " ماذا سنفعل بالإمبراطورية العثمانية التي كان الحلفاء يحتلون مناطق واسعة منها سنة ١٩١٨ احتلالاً عسكرياً؟ " صحيح أن الأتراك احتفظوا بسيطرتهم على بلادهم، الأناضول، وعاصمتهم التاريخية القديمة، القسطنطينية، غير أن السلطة الحاكمة من طرابلس الغرب في الغرب إلى كردستان في الشرق، ومن شمالي حلب إلى وادي حلفا، في تلك الأراضي الشاسعة التي تقطنها أجناس متعددة لها ثقافات متنوعة ولكنها في معظمها من المسلمين، كانت في يد حاكم عسكري من الحلفاء.

في حمى الحرب، بذلت وعود كثيرة بتوزيع المغانم ساعة النصر- المغانم التي ستقتطع من جسم تركيا المنهزمة. ولكن ما إن حل مطلع عام ١٩١٩ حتى كان عدد قليل من هذه الوعود قابلاً للتحقيق، وكانت كلها تقريباً متناقضة بعضها مع بعض. فرسائل مكماهون، التي وجهها المفوض السامي بالنيابة في مصر عام ١٩١٥ إلى الشريف حسين في مكة، لم يكن بالإمكان التوفيق بينها وبين تصريح(وعد بلفور) الذي صدر عام ١٩١٧ . كما أن هذه الرسائل وذلك التصريح كانا مناقضين أشد المناقضة لاتفاق سايكس- بيكو، الذي اقتسمت بريطانيا وفرنسا بموجبه مناطق هائلة من الإمبراطورية العثمانية، وجعلت منها " مناطق نفوذ " لها. وأكثر التعهدات استحالة كان ذلك التعهد بإعطاء القسطنطينية إلى روسيا(لأن لروسيا مصلحة تاريخية فيما كان في السابق مدينة بيزنطة الإغريقية الرومانية). وكان بالإمكان تجاهل هذا التعهد في الأقل، لأن زعماء البولشفيك كانوا قد توصلوا إلى اتفاقهم الخاص بالصلح مع الألمان في معاهدة برست- ليتوفسك، ولأن الحلفاء الغربيين كانوا في حالة عداء مكشوف مع النظام السوفياتي. أما فيما يتعلق بتركيا، فقد كان الأمل ضئيلاً بالوصول إلى معاهدة صلح متسامحة.

كان جميع الزعماء السياسيين البريطانيين ممن لهم تأثير في محادثات الصلح مناوئين لتركيا بصورة واضحة. فلويد جورج، رئيس الوزراء، كان صديقاً معجباً بفنزيلوس الزعيم اليوناني، وكان يرى بين اليونان وبلده، ويلز، بعضاً من وجه الشبه في التجارب والنظرة التاريخية. ولذلك، كان شديد الميل إلى اليونانيين، وبالرغم من أنه لم

يكن نشيطاً في مناوأته للأتراك إلا أنه لم يكن مبالياً بالمصير الذي كانت الإمبراطورية العثمانية صائرة إليه. أما آرثر بلفور، الذي وجه رسالته إلى اللورد روتشيلد معلناً فيها عزم بريطانيا على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، فقد كان موالياً للصهيونية بصورة مكشوفة نشيطة، كما كان متحيزاً ضد الأتراك إلى أقصى الحدود، تاريخياً وعنصرياً.

وكما كانت تركيا ١٩١٧- ١٩١٨ المهزومة بلداً مختلفاً كل الاختلاف عن الإمبراطورية العثمانية في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، كذلك كانت صهيونية ١٩١٧- ١٩١٨ فصاعداً شيئاً مختلفاً، بالطبع، كل الاختلاف، وكان الصهاينة فريقاً واحداً من بين فرقاء عديدين يتوقون إلى أن يسلخوا من تركيا أقصى ما يستطيعون. كذلك كانت القومية العربية آخذة في الصعود، وكان لها أصدقاء أقوياء كثيرون ودعاة متحمسون في الحكومة البريطانية ومن حولها. فالسير جيلبرت كلايتون، و ت.ي لورنس وكثيرون ممن يدعون " بالضباط السياسيين " الذين خدموا في الشرق الأوسط- كما يتعين علي القول، من معرفتي الخاصة- كانوا يشجعون القومية العربية في كل مناسبة من المناسبات، أحياناً في الجهر وأحياناً في السر، قبل سقوط تركيا بزمن طويل. وكان البريطانيون قد سبق لهم أن أنشأوا إدارة عسكرية في فلسطين. أما الفرنسيون فقد تقدموا بادعائهم الشهير بأن لهم حقاً تاريخياً في حماية الأراضي المقدسة في القدس، في حين أن اليونانيين، وبتشجيع من فريق آخر من الإنكليز الرومانطقيين المولعين بحب الإغريق، كانوا ذوي مزاج توسعي خطر. وفي صميم السلطة الحقيقية في مؤتمر الصلح، لم يكن كليمنصو يكنّ أيما حب للأتراك، بينما اعترف الرئيس ويلسون بصراحة،

في المقابلة الوحيدة التي أجريتها معه، بأنه لم يكن يعرف في الحقيقة عن المشكلة إلا القليل.

وهكذا، لم يكن لتركيا أن تتوقع مساعدة من أحد من المنتصرين باستثناء الهند تقريباً. كان القسم الأعظم من اهتمام المسلمين في الهند بمصير تركيا طبيعياً وتلقائياً، كما كان هناك أنصار مخلصون كثيرون من غير المسلمين اشتركوا في الهياج الذي كانت غايته، إلى جانب الثورة الطبيعية لأية هيئة آسيوية ضد فكرة الاستعمار الأوربي، تقوية القومية الهندية وتعزيزها في نضالها ضد البريطانيين.

ولقد كان السبب في قلق المسلمين عميقاً وتاريخياً. كانت تركيا على جميع نقائضها، الدولة الإسلامية المستقلة الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة في العالم. وكان العهد الإمبراطوري في القسطنطينية دليلاً حياً دائماً على عظمة المنجزات الإسلامية الزمنية. ورأت الطائفة السنية جميعاً في الخلافة أيضاً صلة روحية على جانب عظيم من الأهمية. فلما أخذت الحرب تقترب من نهايتها اشتدّ القلق في الهند على سلامة الأماكن الإسلامية المقدسة ومستقبل الخلافة، وأدرك غاندي، الذي كان قد خلف صديقي العزيز القديم غوكهيل في زعامة حزب المؤتمر وحركته السياسية، بمهارة ما رآه فرصة للإبقاء على الشعور المعادي للبريطانيين وإذكائه في جميع أرجاء الهند. وهكذا كانت عاصفة الهياج التي اجتاحت الهند هوجاء عارمة، وقدم مندوبا الهند في مؤتمر الصلح، مهراجا بيكز واللورد سينها، يؤازرهما إدوين مونتاغو باندفاع وإخلاص، احتجاجاً قوياً ضد مختلف الاقتراحات بتقسيم تركيا وحلّ الخلافة، تلك الاقتراحات التي كانت تعرض وتبحث بحماسٍ خلال مؤتمر الصلح.

وكان قد تقرر تسوية مصير ألمانيا المهزومة أولاً. وتم إنجاز هذه المهمة الشائكة بسرعة بالغة، ووقعت معاهدة فرساي في ٢٨ حزيران من عام ١٩١٩ . واستمرت بعد ذلك المباحثات بشأن الدول المقهورة الأخرى. وبدأت وصديقي سيد أمير علي حملة قوية لوضع القضايا الحقيقية المتعلقة بتركيا أمام الرأي العام البريطاني، لا بل العالمي. وكانت لي مقابلات خاصة مع رجال الدولة المتنفذين، وحررنا معاً رسائل مستفيضة إلى صحيفة "التايمز"، وكنا نفصح عن وجهات نظرنا في كل مناسبة عامة أو خاصة.

وقد أثرنا اهتماماً حثيثاً ببعض الوعود الخاصة التي قطعها رئيس الوزراء، وفي رسالة إلى " التايمز " اقتبسنا الفقرة التالية بالحرف الواحد:

قال لويد جورج: " إننا لانقاتل من أجل أن نحرم تركيا من عاصمتها أو نجردها من أراضيها الغنية الشهيرة في آسيا الصغرى وتراقيا. وفي حين أننا لا نناهض الإبقاء على الإمبراطورية التركية في بلاد الجنس التركي وعاصمتها القسطنطينية، وإذا ما صار الممر الكائن بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر دولياً وحيادياً، فإن جزيرة العرب، وأرمينيا، والعراق، وسوريا، وفلسطين يجب، في رأينا، الاعتراف بوضعها الدولي المستقل. "

وحاولنا أن نوجز نظرة أولئك الذين كنا نعرف أنه من حقنا التكلم نيابة عنهم:

" ماذا يريد المسلمون؟ وعمّ تدافع؟ لا المسلمون ولا نحن نطالب بأي وضع جديد لتركيا. غير أننا نعتبر أن من واجبنا أن نحثّ، حفاظاً على اسم إنكلترا، لا بل على اسم الإمبراطورية البريطانية، على وجوب الوفاء

بالوعد الذي أعطاه رئيسُ الوزراء للعالم، وبصورة خاصة للعالم الإسلامي، وعلى أن السلطان التركي، بوصفه خليفة للطائفة السنية الكبيرة، يجب أن يحتفظ بالملكية المطلقة للقسطنطينية وتراقيا وآسيا الصغرى الممتدة من شمال سورية على طول الشاطئ الإيجي إلى البحر الأسود- وهي منطقة أغلبية سكانها من العنصر التركي. وفي رأينا، أن من الظلم سلخ أي جزء من هذه البقعة عن السيادة التركية لإرضاء مطامع شعب آخر. إن مثل هذه التسوية، بدلاً من أن تجلب السلام لآسيا الغربية، من شأنها أن تزرع بذور حروب دائمة لايمكن أن يتوقع أحد أن تنحصر نتائجها في البلد الذي تنشب فيه. وبالنسبة لعقاب المغامرين الذين جروا شعبهم المهزوم الذي سبق له أن شهد بؤساً عظيماً، إلى حرب عالمية، فقد تلقت تركيا عقاباً كافياً بسلخ بعض أغنى ولاياتها عنها. ولكننا نقر بأن المحافظة على السلطة الروحية للسلطان العثماني في هذه البلدان، محافظين بذلك على مكانته وبالتالي على شعور المسلمين الصلحي، تعني جعل مركز الحكام المسلمين أو حكام تلك البلدان غير محصن. أما فيما يتعلق بتراقيا والقسطنطينية ووطن الجنس التركي، فإن الشعور الإسلامي كان معارضاً بشدة لأي تدخل تحت أي شكل في سلطة السلطان. "

أما في الهند نفسها، فقد كان الهياج يزداد ويتسع، على مر الأشهر ومع اقتراب أوان توقيع المعاهدة مع تركيا، واتخذ صفة عامة شاملة بحيث راح يقلق نائب الملك، اللورد تشلمز فورد، ووزير الهند، إدوين مونتاغو(الذي كنت أعرف جيداً أنه كان إلى جانب تركيا وآسيا). وقد أزعجهما وأقلقهما أكثر ما يكون أن اصلاحات مونتاغو-

تشلمزفورد كانت ستوضع موضع التنفيذ في هذا الجو من الاضطراب والعداء.

وفي مجلس نائب الملك التشريعي، صدرت توصية بإيفادي إلى لندن على رأس وفد إلى رئيس الوزراء، لا يمثل وجهات نظر المسلمين وحدهم بل سكان الهند جميعاً.

أما الأعضاء الآخرون في الوفد فهم: السيد شتاني، رئيس حركة الخلافة، وحسن إمام ألمع محاميي الهند، والدكتور أنصاري، أحد أعضاء حزب المؤتمر البارزين. ولقد استقبلنا لويد جورج غير أننا أدركنا أن مهمتنا كتب لها الفشل، ذلك لأنه في تلك الأثناء كانت المعاهدة التركية، المعروفة في التاريخ بمعاهدة سيفر، في طور الإعداد، دون أن يأخذ معدّوها بعين الاعتبار الوقائع التي قدّر لها، خلال بضع سنين، أن تصوغ الشرق الأدنى من جديد. كان السلطان السيء الحظ تحت المراقبة الشديدة، وكان سجيناً منعزلاً في القسطنطينية لا حول له ولا قوة. وكانت الوفود العربية والتركية واليونانية تروح وتجيء بين البحر الأبيض المتوسط ولندن، وكانت حججها تسمع أحياناً، وكثيراً ماتهمل، لأن معاهدة سيفر كان يجب أن تكون معاهدة مفروضة، لا معاهدة توقع إثر مفاوضات مع أحد. ولقد وُعد اليونان أول الأمر بإعطائهم القسطنطينية، ولكن هذا الوعد ما لبث أن سحب، وأخيراً تقرر أن تراقيا وأدرنة في تركيا الأوربية يجب أن تكونا يونانيتين، وكذلك في آسيا الوسطى. وهكذا، اختصرت تركيا إلى دويلة هزيلة في مرتفعات آسيا الوسطى، مع بقعة على شاطئ البحر الأسود. وفوق هذا، فقد كانت هناك أحاديث عن إنشاء دولة أرمنية مستقلة ذات سيادة في أقصى الشمال الشرقي،

إذا أمكن إقناع الروس بهضمها. ولكن هذه المطالب المتناقضة ما لبثت أن سويّ بينهـا، وفي آب من عـام ١٩٢٠ وضع المندوبون الأتراك تواقيعهم على الوثيقة التي احتوتها جميعاً.

ويختتم ذلك، في أحد معانيه، الطور الأول من حملتي الخاصة من أجل معاملة عادلة لتركيا المهزومة. وقد يبدو من المناسب، قبل تدويني لأحداث الطور الثاني التي اعقبت بسرعة، النظر في أثر القرارات التي اتخذها صانعو القرارات السياسيون سنة ١٩١٩- ١٩٢٠، متجاهلين بعناد النصيحة التي قدمناها إليهم.

كان لمعارضة المسلمين لتفكك الإمبراطورية العثمانية أساس- بغض النظر عن مقدار إساءة فهمه- يتعلق برجل الدولة الحقيقي وفهم واستيعاب الحقائق السياسية للشرق الأوسط. أولاً، شعرنا أن فصل العرب عن الأتراك (الذي سمي في البداية تحريراً من العبودية، مع أن القوميين العرب جميعهم راحوا خلال سنوات قليلة يغنون نغماً مختلفاً) لن يؤدي إلى ظهور أمة عربية واحدة قوية تمتد من مصر إلى فاس ومن الأسكندرية إلى عدن والمحيط الهندي. لقد استشرفنا عدداً من الأمم العربية الصغيرة تبقى سنوات ذات وضعية استعمارية في ظل السيطرة البريطانية والفرنسية. وتوقعنا أن العرب في الحقيقة إنما سيبدلون سادتهم، وبينما كان اولئك السادة مسلمين أتراك، فإنهم سيصبحون الآن مسيحيين، أو(كما حصل في قسم كبير من فلسطين في النهاية) يهوداً. وحتى الآن، وبعد مرور ثلاثين سنة أو أكثر، فإن الدول العربية التي خلفت الامبراطورية العثمانية- ومع أنّ نظام المحميات والانتداب قد ألغي- إنما هي لاشيء سوى تجمع من الممالك والجمهوريات الصغيرة،

لا تستطيع أي واحدة منها الوقوف وحدها في وجه أي معارضة قوية، وغير قادرة، رغماً عن وجود الجامعة العربية، على الاحتفاظ سواء بصورة فردية أم جماعية، بمقاومة حقيقية لنفوذ روسيا السوفياتية أو الديمقراطيات الغربية. فالحياد في أي صراع بين هاتين القوتين هو حلم مستحيل.

فكّر للحظة كيف كانت الأمور ستبدو مختلفة لو أن اتحاداً فيدرالياً ظهر بعد الحرب العالمية الأولى يجمع بين تركيا والدول العربية في الشرق الأوسط ومصر له قوة دفاعية واحدة وسياسة خارجية موحدة. إن إيماننا الإسلامي الغريزي بفكرة استمرارية تركيا كقوة عظمى كان يتضمن حكمة، لأنه كان سيحقق نتائج عملية في أمن واستقرار الشرق الأوسط تفوق بكثير كل ما راحت السياسات العشوائية والمتحولة لسنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية تحققه- انسحاب جزئي للسيادة البريطانية، ومساعدات اقتصادية ومالية وعسكرية جزئية من قبل الولايات المتحدة. انظر إلى الفوضى السياسية والاضطرابات التي أصبحت سمة لمعظم الشرق الأوسط في السنوات الأخيرة، انظر إلى كل الجهود العبثية التي ذهبت سدى في سبيل بناء منظمة دفاعية للشرق الأوسط توازي بشكل من الأشكال منظمة الناتو، وخمّن كيف كان يمكن تجنب كل ذلك بسهولة ويسر.

غير أنه لا فائدة ترتجى من البكاء على اللبن المراق. فالمنتصرون في الحرب العالمية الأولى، بخلاف المنتصرين في الحرب العالمية الثانية، كانوا منتشين بخمرة ظفرهم وشعور انتصارهم، وكانوا يعتقدون أن باستطاعتهم بناء عالم شجاع جديد بالصورة التي تشتهيها قلوبهم،

ولكن التاريخ كان جازماً وقاطعاً عندما كذّب ذلك الاعتقاد. فمعاهدة سيفر، على قسوتها، قد ولدت ميتة، إذ باغتتها الأحداث في الربيع التالي سنة ١٩٢١، وبات من الواضح أنها يجب أن يعاد النظر فيها. لذلك، دعي إلى عقد مؤتمر جديد في لندن، وبناء على طلب نائب الملك تم عرض وجهة النظر الإسلامية في هذا المؤتمر. غير أن جلساته لم تلبث أن أثبتت عقمها، ذلك أن ما تجاهله الجميع، في الشرق والغرب على السواء، كان ظهور جندي ورجل دولة نابغة من بين حطام تركيا، مصطفى كمال أتاتورك، الذي لمّ شعث شعبه وهو في أيام محنته. وإذ منع من الوصول إلى القسطنطينية فقد أقام عاصمة مؤقتة في أنقورة- أنقرة الآن- بعد إعادة بناء الجيش التركي المشرد وتجهيزه. ولما كان قد توصل إلى اتفاق سري مع روسيا، فقد تمكن من تسليح جنوده وكان واثقاً من حماية مؤخرته، وأصبح مستعداً للدفاع عن قضية بلاده، لا حول مائدة نائية، بل في وطنه وفي ساحة المعركة. وقليلون أدركوا في بادئ الأمر هذا التطور الجديد وعظمته.

أما اليونانيون، الذين كانوا أقرب الجميع إلى مسرح الأحداث، والذين كان يجب أن يعرفوا أكثر من الجميع، فقد أعمتهم شهوتهم إلى الظفر العسكري والتوسع الإقليمي، واعترضوا على إنشاء الحكومة التركية المؤقتة في أنقرة، وبدأوا سلسلة من العمليات الحربية الطموحة، والمفجعة كما ثبت فيما بعد، في آسيا الصغرى.

ولكي تزيد الأمور تعقيداً، أخذت الحكومة البريطانية تلح على وجوب إطلاق سراح الأسرى البريطانيين المحتجزين في تركيا. واستطعت في هذا الموضوع على الأقل، عن طريق وساطتي بصورة غير مباشرة،

وعن طريق نداء وجهته إلى السلطات التركية، أن أخفف من حدة الوضع المتفاقم. وأطلق الأتراك سراح الأسرى وانتهت الأزمة عند هذا الحد.

غير أنه ما إن كاد صيف ١٩٢٢ ينصرم حتى كان المستقبل يبدو مظلماً كما لم يبدُ من قبل. فجيوش مصطفى كمال المهلهلة والباسلة مع ذلك، قد صمدت في بلادها الجبلية، وصدت موجة الغزو اليوناني، وكانت الآن تسرع في تقدمها المظفر، فاستولت على أزمير-الميناء اليوناني- الشرقي العظيم على ساحل آسيا الصغرى، وأمام أعين ملاحي سفن الحلفاء الراسية في الميناء، أشعلت النار في جميع مناطقها. كان الجيش اليوناني هو الذي تمزق الآن وتشتت وأصيب بالهزيمة النكراء. أما قوات مصطفى كمال فقد وقفت عند أبواب القسطنطينية وطالبت بحقها في حرية المرور لإعادة احتلال تراقيا وأدرنة.

كان الوضع كله مشوشاً وينذر بالسوء في آن معاً. وكانت هناك قوة مختلطة من جنود الحلفاء بقيادة جنرال بريطاني يدعى السير تشارلز هارنجتون، تسيطر على قلعة تشانك ومداخل القسطنطينية، التي كان الأتراك قد سمّوها الآن استانبول. ولما كان هارنجتون رجلاً حازماً وحذراً في الوقت نفسه، فقد انتظر وصول الأوامر من لندن، لأن أي عمل متهور من جانبه، وحتى أية رصاصة طائشة، كان يمكن أن تؤدي إلى نزاع عام بعد مضي أقل من أربع سنوات على وقف إطلاق النار في نهاية الحرب العالمية الأولى. لكن صفة القائد العسكري في الموقع لم تكن العنصر الوحيد في تلك الأزمة الدقيقة الخطرة. فالحكومة البريطانية كانت وقتئذ ذات مزاج حربي واقعي إلى حد عجيب. وأعقبت تلك الفترة الطويلة من الاضطراب الاقتصادي المترافق بإضراب طويل لعمال مناجم الفحم

وانتشار عظيم للبطالة، مفاوضات شاقة وضعت حداً لأسوأ " المتاعب " في إيرلندا، وزاد طينتها بلة توقيع المعاهدة الإيرلندية. لكن حكومة لويد جورج الائتلافية الثانية التي عادت إلى الحكم بأغلبية هائلة في انتخابات ١٩١٨ كانت قد أخذت مجراها. ولم يغفر الأحرار قط للويد جورج الطريقة التي أخرج بها أسكويث في شهر كانون الأول من عام ١٩١٦، في منتصف الأزمة السياسية إبان الحرب. وكان المحافظون يشكلون أغلبية مؤيديه في البرلمان، لكنهم أصبحوا الآن في قلق وشك متزايدين من مغامرات رئيس الوزراء السياسية المستعصية. فهل كان يظن أنه يرى في أزمة تشانك- كما كانت تدعى وقتئذ- فرصة لإنهاء الشقاق والتفكك بين أنصاره، ولمنع عزلته المتزايدة، ولجمع الشعب والبرلمان وراءه في مجهود عظيم موحدّ؟ هل كانت رمية مغامر أم كانت خطأً عظيماً في التقدير؟

كنت في لندن عندما كانت الأزمة في ذروتها، وبذلت كل جهد للحيلولة دون انتهائها إلى ما كنت أعلم أنه سيكون حرباً طاحنة وظالمة في آن معاً. ولم أكن، هذه المرة، أحارب وحدي في معركة ضد موجة عارمة من الرأي المعاكس، بل كان لي الآن حلفاء وأنصار. وكانت صفحات " التايمز "، شأنها في كثير من فترات حياتي العامة، على أتم استعداد لمقالاتي. كما أن اللورد روذرير، الذي كان قد تسلّم عندئذ الإشراف الشخصي على مجموعة الصحف التي أنشأها أخوه، الفيكونت نورثكليف، كان على رأس أنصاري المتحمسين. أما اللورد بيفربروك، الذي بفضل نشاطه وتأثيره أصبح لويد جورج رئيساً للوزراء عام ١٩١٦، فقد أصبح مقتنعاً الآن بأن لويد جورج كان سائراً في طريق لم

يكن ليؤدي إلا إلى الحرب والمعاناة، غير أن الشيء الذي كان يحظى بالاهتمام الأول لم يكن إسقاط لويد جورج، بل الحيلولة دون نشوب أفظع الحروب وأقلها ضرورة.

كانت الحكومة البريطانية قد أصدرت في أوائل أيلول بياناً حول تشانك تنقصه الفطنة والتبصّر وانتهى بنداء إلى دول الدومنيون لبذل مساعدتها في حال نشوب حرب جديدة مع تركيا. وقد أقلقت اللهجة التي صيغ بها البيان الرأي العام البريطاني الذي لم يكن مستعداً لمواجهة الآلام والتضحيات التي تنطوي عليها حرب ثانية لم يكن الغرض منها إلا دعم ما لم يكن بالإمكان وصفه إلا بالعناد اليوناني. وهكذا علت الاحتجاجات من كل جانب، ولم يكن لدى الفريق المناصر للحكومة سوى ورقة واحدة: كانت القوات التركية عندئذ تكاد تكون على اتصال بالقوات الحليفة- وأكثرها من البريطانيين- المحتلة في المضائق وفي منطقة القسطنطينية. وكان الجنرال هارنجتون من جانبه مصمماً بهدوء على منع كل عمل من شأنه أن يورط قواته الهزيلة ويقحمها في أي شكل من أشكال النزاع مع قوات مصطفى كمال الباسلة، التي سبق لمصطفى أن نظمها بمهارة وحذق. ومن جهة أخرى، تمكنت، نزولاً عند طلب صديقي اللورد دربي[1]، من الاتصال بالقادة الأتراك وذكرت لهم الأخطار العظيمة التي ينطوي عليها أي هجوم على القوات المتحالفة، وأكدت لهم أن وضع قواتهم الحربي لن يتأثر بأية طريقة من الطرق، حتى الوصول إلى تسوية مؤقتة، إذا امتنعوا عن القيام بأي عمل هجومي. وضغطت على أصدقائي الأتراك كي يتبصروا بهذه الاعتبارات، ويسرني

---

١ – أذكر أننا اجتمعنا في نيو ماركت وطلب مني استخدام كل ما كنت أملك من نفوذ وتأثير .

أن أقـول إن العـقـل هو الذي ساد آخر الأمـر. ومن العـوامل المهـمـة التي ساعـدت على ذلك أن فـرنسـا كـانت قـد توصلت إلى تفـاهم سـري مع مصطفى كـمـال وحكومتـه، مما جعل مـسيـو بوانكاريه يسـتـخـدم نـفـوذه للوصـول إلى تسـوية سليـمـة، وهكذا زال الخطر الحقيـقي من نشـوب حرب أخرى.

ويقدم اللورد بيفربروك سرداً مفصلاً للطريقة التي تمت معالجة الأزمة بها، وذلك في كتابه " السياسيون والصحافة ". وكان اللورد بيفربروك دائم النشاط طوال تلك الأزمة بقدر ما كان دائم الحماس. كان قلقاً إلى درجة خطيرة إزاء المجرى الذي كانت الأمور تتخذه، وكثيراً ما بحث هذا الأمر معي. ومما أسعدني أننا كنا على تفاهم تام، وأنني حظيت بمؤازرته في كل المساعي التي بذلتها لمساعدة الأتراك. وكان هو أيضاً قد توصل إلى ذلك الاستنتاج الصحيح العملي القائل بأن " قتال البريطانيين للأتراك اتباعاً للسياسة الباطلة المبنية على مناصرة الاستعمار اليوناني كان خطأ مميتاً يجب تفاديه مهما كان الثمن. " وطلب بيفربروك مؤازرة صديقه وزميله الكندي، بونارلو، الذي كان عندئذ زعيم حزب المحافظين، وهو الحزب الذي شكل دعامة الحكومة في مجلس الحكومة. وكانت كلمات بيفربروك إلى بونارلو صريحة جداً عندما قال له: " هؤلاء الرجال يريدون الحرب. "

هذه الكلمات الأربع قررت مصير حكومة لويد جورج الائتلافية. فقد عقد حزب المحافظين اجتماعاً في نادي كارلتون، المعقل السياسي-الاجتماعي العظيم للحزب. والخطاب الذي أثّر في الاجتماع وجعله يتوصل إلى قراره بحجب التأييد عن لويد جورج لم يلقه بونارلو، الذي

كان عندئذ يعاني مرضاً شديداً، بل نائب مغمور نسبياً يدعى ستانلي بولدوين، خلف بونارلو في رئاسة الوزارة بعد ذلك بأقل من سنة.

وتابع اللورد بيفربروك حملته على سياسة الحكومة الائتلافية المناصرة لليونان والمعادية لتركيا. وفي ١٦ كانون الأول من سنة ١٩٢٢، أي بعد أن علق المجلس جلساته بسبب عطلة عيد الميلاد بيوم واحد، قدّمت " الديلي إكسبريس " عرضاً مفصلاً لأحداث شهر أيلول السابق وقالت إنه خلال عشرة أيام من سقوط إزمير، عندما بدأت هزيمة اليونانيين وأدركت الحكومة اليونانية في أثينا أن وضعها العسكري في آسيا الصغرى كان يدعو إلى اليأس، شجع لويد جورج هذه الحكومة على متابعة القتال. وأضافت الصحيفة تقول إن لويد جورج اتخذ هذه الخطوة بعد أن قام سكرتيره الخاص الأول، السير إدوارد جريج (اللورد ألترينشام حالياً)، بتحريات مع شخص ما، ملحق بالمفوضية اليونانية، قال إن الجيش اليوناني لم يكن بوسعه إطلاقاً أن يمضي في صموده دونما معونة بريطانية فعّالة في العتاد وفي المال. ومضت " الديلي إكسبريس " تقول إنه في اليوم الثاني من شهر أيلول، عندما توجهت حكومة أثينا بندائها إلى لويد جورج طالبة عقد هدنة، اتصل سكرتير خاص آخر له تليفونياً بالمفوضية اليونانية وأعلمها بأن " على حكومتها أن تحذر حذراً كبيراً من أن ترتكب الخطأ الذي ارتكبه الألمان سنة ١٩١٨، وأن لا تعقد هدنة خسيسة في لحظة ذعر."

ولم يعد لويد جورج إلى منصب رئاسة الوزارة بعد ذلك قط. وبالرغم من اختلافنا حول تركيا فإنه ليسرني أن أعتقد أنني وهو، حتى سنة ١٩٤٠، عندما جاء وتناول طعام الغداء معي في " أنتابيس "، قد بقينا صديقين حميمين حتى نهاية حياته.

كانت حياته السياسية الفعلية قصيرة امتدت من عام ١٩٠٥ إلى عام ١٩٢٢ . وإيجازها يتضح في ما يتعلق بشخصيته التي تشبه ماسة قطعت إلى وجوه كثيرة، كل وجه منها يرسل بريقاً أخاذاً، ولكن عددها وتنوعها كانا من الكثرة بحيث أنها كثيراً ما أفسحت المجال للتناقضات. إلا أنه وجد طور واحد في حياته انحلت فيه جميع التناقضات والصراعات وظهر- كما كان فعلاً- منسجماً تماماً؛ وكان ذلك طبعاً خلال السنتين الأولى والثانية من رئاسته الوزارة، أي من عام ١٩١٦- ١٩١٨، وهي فترة ذات مجهود وعظمة متفوقين. فبالرغم من جميع الجهود التي بذلها النقاد للتقليل من شأنه، كان يعتبر في تلك الفترة " الرجل الذي ربح الحرب "، كما كان خليفته ونستون تشرشل في الحرب العالمية الثانية. وفيما عدا ذلك الطور الظافر الوحيد، فإن شخصية لويدجورج ذات الوجوه المتعددة اللامعة والقوية منعته من التأثير في تاريخ عصره إلى الحد الذي كانت مواهبه- مخيّلته، وقدراته العملية، وتفوّقه الفكري- تسمح للمعجبين به(مثلي أنا) أن يأملوا ذلك منه. وبوصفه أحد الأقطاب الأربعة الذين صاغوا معاهدة فرساي، كان لويد جورج مقتنعاً- اقتناعاً شاركته فيه مشاركة تامة- بأنه كان يفضل استخدام السلطات التي منحت للدول المنتصرة على ألمانيا بطريقة مختلفة عن تلك التي استعملها بها خلفاؤه الأقل كفاءة وبعد نظر.

فلويد جورج، من بين جميع الساسة الذين عرفتهم، هو وحده، من غير شك كان قادراً على أن يبعث في جمهورية وايمر الألمانية في أواخر عشرينيات وأوائل ثلاثينيات القرن العشرين ذلك الاحترام الذاتي، وذلك التفهم الخالص للمؤسسات الديمقراطية، اللذين كان من شأنهما أن

ينقذاها وينقذا العالم من أدولف هتلر ومن الحرب العالمية الثانية. لكن، يا للخسارة، كان البركان قد استنزف، ليس بعوامل ضعفه الداخلية ولكن ببراعته. وقد شاطرني هذه النظرات التي عبرت بها هنا عن لويد جورج وألمانيا اللورد دابرنون الذي كان واسع الخبرة والمعرفة بشؤون ألمانيا.

وهكذا، كانت تلك الفترة المليئة بالأحداث والمشاركة الوثيقة في سياسة الشرق الأوسط وديبلوماسيته عموماً، وتركيا خصوصاً، تقترب من نهايتها. لقد انتهى مؤتمر لوزان العقيم الأول، وتلاه ثان كان مثمراً بدرجة أكبر، مؤتمر لعبت فيه ما يسمى بدور المراقب. كانت حكومة بريطانيا المحافظة الجديدة ممثلة باللورد كيرزون، وزير الخارجية؛ كما أرسل الأتراك وفداً قويا مؤلفاً من رجال قادرين. وتقرر القبول بالحقائق، والاعتراف لتركيا الجديدة " بالواقع اليوم "، والسماح لهذه الدولة المنبعثة النشيطة بالسيطرة ليس على وطنها في الأناضول وساحل بحر آسيا الصغرى فحسب، بل وعلى تراقيا وأدرنه واستانبول أيضاً. وتم التوصل إلى اتفاقية وفقاً لهذه الخطوط العامة، وجرى التوقيع على معاهدة لوزان. ونظم اتفاق مونترو اللاحق ترتيبات التعامل بمرور الشحنات الدولية عبر مضائق الدردنيل.

من الممكن اعتبار ذلك هزيمة ديبلوماسية لبريطانيا، ولكن ماذا كانت نتائجه السياسية فعلاً؟ فترة طويلة من التفاهم والانسجام المتنامي بين بريطانيا وتركيا؛ وعلاقات بريطانيا تركيا في الحرب العالمية الثانية كانت، بالرغم من الضغط الشديد الذي وضع عليها، ذات عون عظيم لبريطانيا وحلفائها. فكروا أيضاً فيما يمكن أن يكون قد حدث لو أن تركيا تلقت صفعة جديدة مرة أخرى: لكانت روسيا إذن قد احتلت

استانبول منذ زمن طويل ولكانت سفنها وطائراتها تروح وتجئ بعيداً في البحر الأبيض المتوسط، وعلى طول الساحل إلى الشمال، إن لم تكن في إزمير نفسها. ولو استمر رجال الحكم في الغرب مأخوذين بقوتهم السياسية والعسكرية لتسببوا بتعقيدات لا تحصى وبؤس في منطقة حساسة وهامة؛ لقد منح التاريخ والقدر اللذان اتجها اتجاهاً آخر، آسيا الصغرى سنوات من التنمية الهادئة مكنتها من إعادة تنظيم نفسها في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والروحية. ومن الأمثلة المضادة، الدول العربية في هذا العصر نفسه: انقسام وضعف وعناصر قومية ناشطة في مختلف البلدان دائمة التنازع مع بريطانيا وفرنسا، وأقلية خاضعة متولية زمام الأحكام ومخلصة بالتالي لأسيادها البريطانيين أو الفرنسيين. ذلك كان باختصار تاريخ الشرق الأدنى منذ ظهور أتاتورك حتى نشوب الحرب العالمية الثانية. وفي خلال تلك السنوات المحزنة المليئة بالاضطرابات احتفظت بدوري كشاهد- وفي بعض الأحيان كناقد على صفحات " التايمز "- ومنذ ذلك الحين أقلعت عن أن أكون- كما كنت قبل ذلك زمناً طويلاً- مشاركاً فعلياً.

القضية السياسية الأخرى التي كانت على شيء من التعقيد والأهمية وأنفقت في سبيلها قدراً كبيراً من الوقت والاهتمام في تلك السنوات التي أعقبت الحرب مباشرة هي قضية الهنود في أفريقيا الشرقية، وبصورة خاصة في مستعمرة كينيا التي كانت آخذة بالتطور بسرعة. وكما ذكرت في فصول سابقة، فقد كانت هناك منذ زمن طويل مستوطنات هندية على ساحل أفريقيا الشرقية، وكانت تضم عدداً كبيراً متزايداً من أتباعي الإسماعيليين الذين شكلوا عنصراً نافذاً ساعد على

استقرارها. وفي كينيا، حيث أصبحت العلاقات العنصرية في خمسينيات القرن العشرين قضية سياسية على جانب عظيم من الخطورة، بدت هناك إمارات واضحة، قبل ذلك بثلاثين سنة، على الأخطار التي كانت تنتظرها البلاد. وفي مايسمى " بمرتفعات كينيا البيضاء "، كانت هنالك منطقة آخذة بالنمو السريع يقطنها الأوربيون- وأغلبهم من البريطاينين- على النجود المرتفعة المنحدرة التي تقع بين المنطقة الساحلية ووادي رفت وبحيرات أفريقيا الكبرى، والتي تشكل منطقة معتدلة خصبة صالحة إلى حد كبير للتطوير الزراعي على نطاق واسع. وكان يدير كينيا كلها وزارة المستعمرات البريطانية كمستعمرة من مستعمرات التاج. وشرع المستوطنون البريطانيون، الذين كان زعيمهم غير الرسمي اللورد ديلامير، في طلب المزيد من الحكم الذاتي مؤخراً. كانوا مختلفين عن الجاليات البريطانية العادية في أنهم كانوا مستوطنين، وأنهم كانوا ينوون جعل كينيا- وقد جعلوها فعلاً- وطناً دائماً لهم ينشئون فيه أولادهم، لا أن يعشيوا هناك فترات من الخدمة كما كان يفعل الموظفون والتجار والمزارعون البريطانيون عموماً في الهند والشرق الأقصى وأفريقيا الغربية. ولكن الهنود، الذين كانت أعدادهم تزداد بسرعة، رأوا في هياج المستوطنين من أحل الحكم الذاتي فرضاً لسيادة " بيضاء " عنصرية، كما رأوا فيه حرمانهم وخضوعهم سياسياً واجتماعياً بصورة دائمة. ولذلك، طلبوا بدورهم المساواة السياسية والانتخابية التامة. وتردد المسؤولون في وزارة المستعمرات، ولم يكونوا هم أنفسهم قادرين على اتخاذ القرارات الفعالة التي كانت تتخذ في وايت هول وداوننغ ستريت. فكينيا لم تتمكن في أي وقت من الأوقات من أن تقرر مصيرها

بنفسها. وكانت مشاكلها كلها تخضع للتدخل والتأثير الخارجيين، وفي نهاية المطاف للتقرير الخارجي.

شهدت نهاية الحرب العالمية الأولى في كينيا، كما شهدت في أماكن أخرى، إطلاق مصالح وانفعالات سياسية متضاربة أشد التضارب. كان الناخبون البريطانيون وممثلوهم في مجلس العموم- بالرغم من أن كلمتهم كانت الأخيرة فيما يختص بشؤون كينيا- يجهلون في معظمهم مشاكل كينيا. واتخذت منذ عام ١٩٢٠ سلسلة من القرارات في وزارة المستعمرات بشأن كينيا، وكان يبدو أن كل قرار جديد كان يلغي سابقه. كذلك، لم يساعد على تحسين الأمور وجود عدة حكام لكينيا ووزراء مستعمرات عديدين خلال بضع سنوات؛ وما إن أشرف عام ١٩٢٢ على نهايته وأطل عام ١٩٢٣ حتى كان الوضع في كينيا مضطرباً ملتهباً، وكانت مشاعر المستوطنين البريطانيين من القوة بحيث أنهم أنشأوا منظمة سرية خاصة بهم كانوا ينوون- في حالة اتخاذ الحكومة البريطانية قراراً ضدهم، كما كانوا يعتقدون- أن يستولوا بوساطتها على إدارة البلاد. وهاج الرأي العام الهندي، في كل من كينيا والوطن، غير أن من العدل القول إنه حتى في الفترة التي كان التوتر فيها على أشده، لم يسجل في كينيا أي عمل من أعمال العنف بين الأوربيين والآسيويين. فبالرغم من الهوة السياسية العميقة التي كانت تفصل بينهم حافظوا على صلاتهم الشخصية الطيبة.

كان الوضع بالنسبة لي- ألم أقترح في ملحقي الذي أضفته إلى بيان صديقي غوكهيل السياسي أن تفرد أفريقيا الشرقية للاستعمار الهندي؟- محزناً يدعو إلى الرثاء. لذلك لجأت إلى طريقتي المعتادة في تبيان آرائي

في رسالة بعثت بها إلى صحيفة " التايمز ". كان الخطر المباشر، كما رأيته، أن يعمد بعض من ذوي الرؤوس الفائرة إلى ارتكاب أعمال من شأنها أن تؤثر في عقول الهنود وتصوراتهم ليس في مناطقهم وفي ذلك الوقت فحسب، بل في الهند كلها وفي المستقبل. وقد ألححت بصورة خاصة على أنه إذا قبل المستوطنون فعلاً النظرة القائلة بأن الامبراطورية البريطانية(لم نكن قد طوّرنا الكومونولث ولكننا كنا سائرين إلى ذلك بسرعة) كان يجب أن تكون شركة تعاونية صحيحة بين أناس من جميع الأجناس والمذاهب والعادات، فإن عليهم، في أفريقيا الشرقية أكثر من أي مكان آخر في الإمبراطورية، أن يستخدموا نفوذهم كله وقوتهم بكاملها كيما يسود شعور عام أفضل، وأن يتقبلوا من صميم قلوبهم الحقيقة القائلة بأن مصالحهم ذاتها تحتّم عليهم في المجال الطويل أن تكون الجالية الهندية في كينيا مزدهرة وسعيدة بقدر ما كانت كبيرة.

كانت الحكومة الهندية مدركة تمام الإدراك لأخطار الوضع كله. فاللورد ريدنغ، نائب الملك، واللورد بيل، وزير الخارجية، والسير تاج بهادور سابرو، أحد ممثلي الهند في المؤتمر الإمبراطوري عام ١٩٢٣، ألحوا على ضرورة عقد مؤتمر- أو عدة مؤتمرات إذا اقتضت الضرورة- بين ممثلي الهند وجميع المعنيين بادارة أراضي المستعمرات من مثل كينيا وأوغندا وفيجي، حيث كان يقطن مستوطنون هنود، وذلك لإحقاق حقوق الهنود في تلك المناطق ومسؤولياتهم.

وإذ واجهت الحكومة البريطانية هذا الطلب الملّح القوي، وإذ واجهت أيضاً إمكانية قيام المستوطنين البريطانيين في مستعمرة من مستعمرات التاج بثورة مسلحة، فقد كانت الآن مدركة تمام الإدراك للحاجة الملحة

إلى القيـام بعمل يضع حداً للخلاف. في هذا الجو المتـفجر، طلبت إليّ حكومة الهند أن أرأس وفداً هندياً إلى لجنة برئاسة اللورد زتلاند أوكلت إليها مهمة إيجاد حل للمشكلة الدقيقة الشاقة بأجمعها.

وفي الوقت الذي عيّنا فيه، كان اللورد زتلاند قد أصبح عضواً في حكومة السير بلدوين الأولى، التي لم تعش إلا قليلاً. ولذلك طلب إليّ أن أتولى رئاسة اللجنة. غير إني لما كنت طرفاً في النزاع والناطق الرئيس بلسان وجهة النظر الهندية، فقد شعرت بأني سأكون تعساً إذا أصبحت رئيساً لهذه اللجنة. وعلى هذا، فقد تولى رئاستها النائب هوب سمبسون؛ أما الأعضاء الآخرون فكانوا السير بنجامين روبرتسون، العضو في مجلس نائب الملك التنفيذي الذي كان قد زار كينيا زيارة رسمية سنة ١٩٢٠، وديوان بهادورت. رانجاتشاريار، والسيد ك. سي. روي. وبدأنا عملنا في نيسان وأنهيناه في تموز، وفي شهر آب من تلك السنة، ١٩٢٤، تولت الحكم في بريطانيا الوزارة العمالية الأولى، وعندما قدم تقريرنا إلى مجلس العموم، كان الوزير الذي قدمه، السير ج. و. توماس، هو وزير المستعمرات الجديد.

أصبحنا، جيم توماس وأنا، صديقين سريعاً، وبقينا كذلك حتى نهاية حياته. ولم أعتقد قط، إبان الحدث التعس الذي أسرع بإنهاء حياته السياسية، بأنه كان يتصرف إلا بإخلاص حقيقي. وكان لطبيعته الصريحة والمفتوحة أن تؤدي به إلى وضعية صعبة ومؤلمة حيث كان المخرج الوحيد منها- الاستقالة- عملاً لم يتردد في القيام به. كان جيم توماس رجلاً ذا قلب عظيم ومشاعر جميلة كريمة، فكان دائماً محط إعجابي واحترامي.

وبالرغم من أننا أمضينا أسابيع عديدة من ذلك الصيف في غرف اللجان في وزارة الهند، وفي مناقشات مستفيضة مع وزارة المستعمرات، إلا أن نقاشاتنا لم تلق أية مصادقة أو قرار برلماني يتضمن اقتراحاتنا وتوصياتنا. إلا أن النتائج اتخذت، كما اعتقد، صفة المساومة، وكانت أنصاف حلول. ومع ذلك فلم يكن لدينا لا القوة ولا السلطة للتوصية بغير ذلك.

إحدى الحقائق التي علمتني إياها حياتي العامة وأقنعتني بها، هي أن قيمة المساومة تكمن في أنها يمكن أن توفر جسراً عبر فترة صعبة، حيث يمكن استخدام هذا الجسر فيما بعد لإحداث إجراءات إصلاح شاملة ما كانت لتحدث ورفضت في الأصل.

وبنتيجة الأمر، لم يطرأ أي تعديل في مسألة المساواة الانتخابية والاستيطان غير المقيد في المرتفعات، ذلك أن ديلامير ورفاقه احتفظوا بموقفهم. أما بشأن الهجرة، فقد استطعنا إلغاء أمرٍ كانت الحكومة الكينية قد تبنته وكان من شأنه في النهاية أن يضع حداً للهجرة الهندية إلى إفريقيا الشرقية؛ غير أن وزير الدولة احتفظ بحقه في اتخاذ أي تدبير في أي وقت من الأوقات إذا بدا أن مصالح افريقيا مهددة بفيض المهاجرين من الخارج.

ولقد أعلن السير توماس أن بعض المناطق على الساحل يجب الاحتفاظ بها للمهاجرين المزارعين من الهند، وكان ذلك كسباً لنا إلى حد ما. وفي اعتقادي أننا نستطيع الادعاء بأننا قد خلقنا فعلاً جواً أفضل وتفهماً أوسع لوجهة النظر الهندية، وأن الموافقة على العيش بسلام، تلك الموافقة التي دامت في كينيا سنوات عديدة، وكذلك في أوغندا وتنجنيقا، كانت لعمل لجنتنا وللتوصيات المفصلة التي تقدمنا بها.

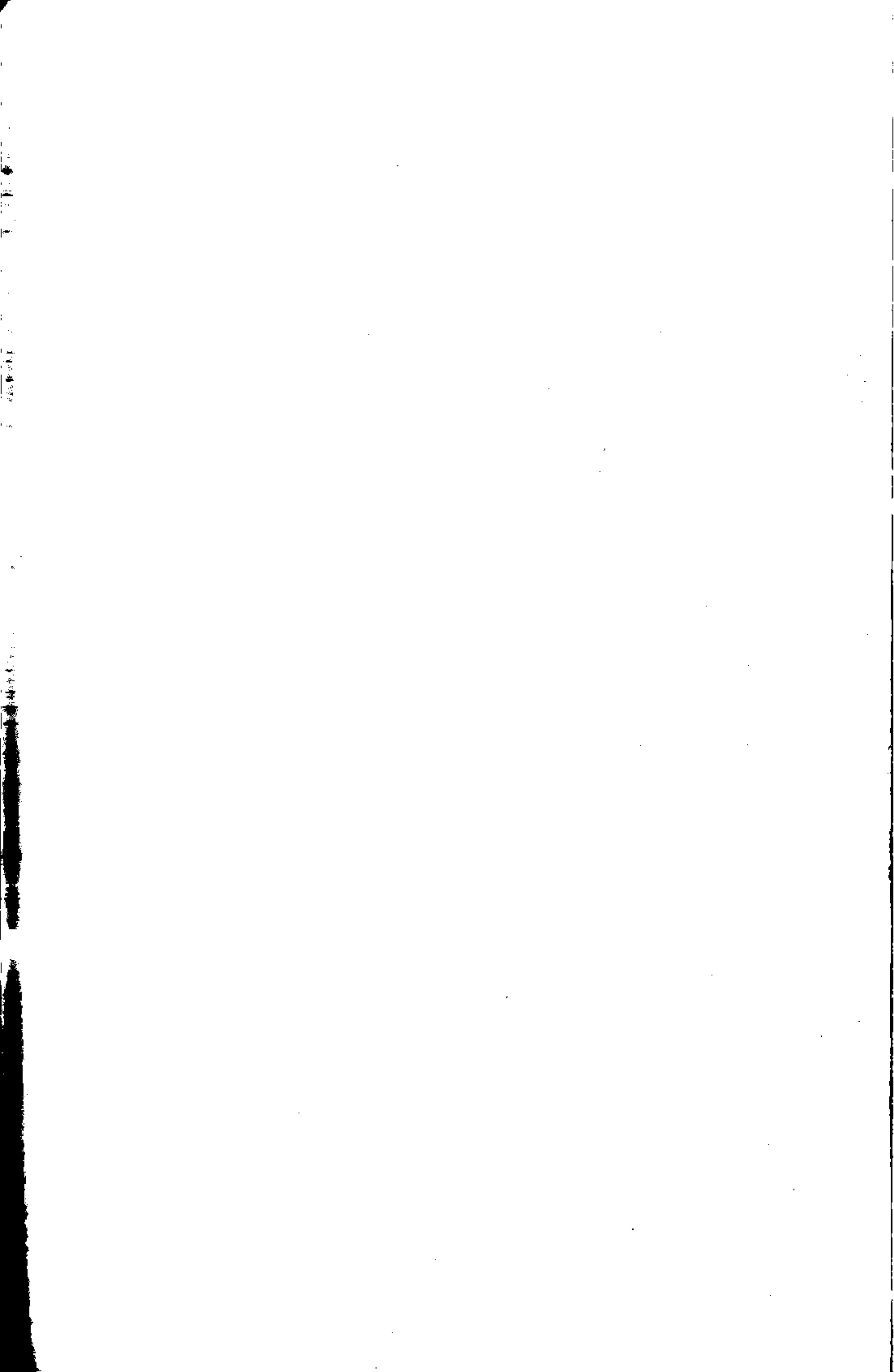
حقيقة واحدة كانت ظاهرة ولا تزال جديرة بالتأكيد بعد مضي ثلاثين عاماً: يجب ألا يسمح لمشكلات أفريقيا الشرقية بأن تصبح مسألة نزاع بين الأحزاب السياسية المتضاربة في بريطانيا. وأنا، من ناحيتي، لا يمكنني إلا الاهتمام بهذه القضية، ذلك أن أتباعي من الهنود يعدون في أفريقيا الشرقية اليوم نحواً من خمسين ألفاً- سبعة عشر الفاً في كينيا، وسبعة وعشرون ألفاً في تنجنيقا، وستة آلاف في أوغندا. ومنذ مدة وجيزة، أي في تموز من عام ١٩٥٣، كتبت في صحيفة " التايمز " مقالاً أدليت فيه بآرائي التي لم تبدلها من حيث المبدأ جميع الأحداث التي وقعت حتى ذلك الحين.

كتبت أقول: " إن الشعب البريطاني، بقدر ما نستطيع أن نرى، هو الأمين على سكان أفريقيا الشرقية بغض النظر عن العرق أو اللون. ولا يمكن ممارسة هذه الأمانة بشكلها الصحيح ما لم يكن هناك تفهم وتفسير ثابتان من قبل الطرفين وبين الحزبين الرئيسين لهذا الواجب، وإعلام الرأي العام لمختلف طبقات المجتمع في بريطانيا العظمى. ولن يكون هناك اتحاد حقيقي في أفريقيا الشرقية بين الأعراق إذا ما كان قسم منهم يعتقد أن الأمناء منقسمون أو أن لهم تفضيلاً معيناً لأحدهم.إن أمانة المستعمرات الأفريقية مسؤولية عظيمة، وإحدى التحديات الكبرى التي وضعها القدر لنجاح أو فشل الجنس البريطاني. "

والزمن وحده هو الذي يكشف كيفية ممارسة المسؤولية. وكخاتمة لروايتي لهذه الأحداث في أفريقيا الشرقية فمن المحبذ، على كل حال، ذكر أن السير إفيلين بارنغ، حاكم كينيا، أصدر بياناً بمناسبة الذكرى الثامنة والستين لوراثتي إمامة الإسماعيليين، كان مليئاً بألطف عبارات المجاملة وأحرّها.

ولقد شهد عام ١٩٢٤ نهاية ناحية من نواحي حياتي العامة، نهاية فترة امتدت إلى خمس سنوات أو ست من النشاط المضني المتنوع. وبعد ذلك، وحتى عام ١٩٢٩ أو نحو ذلك، ولجت فترة وقفتها برمتها تقريباً على حياتي الخاصة والشخصية.

غير أني أعتقد أن علي توضيح أني في الأمور العامة كنت دائماً وبمعنى من المعاني هاوياً لا محترفاً. وقد تنقلت حياتي العامة، كما بينّت، في أدوار متعاقبة محددة بصورة واضحة إلى درجة لابأس بها، ولكن في الواجبات والمسؤوليات التي ورثتها لم تخب لحظة واحدة على الإطلاق، ذلك أن عملي الطبيعي بوصفي إمام الإسماعيليين يتألف من زعامة دستورية وإشراف على مختلف المؤسسات في كل منطقة بذاتها. يضاف إلى ذلك أني على اتصال دائم بألوف الأفراد في الطائفة بخصوص جميع ضروب الأمور التي يطلبون التوجيه فيها، وهي طائفة- كما ذكرت سابقاً- منتشرة في جميع أصقاع الأرض من سور الصين العظيم حتى أفريقيا الجنوبية. هذا هو عملي، ولقد كان وما يزال جزءاً منتظماً من حياتي اليومية منذ قرابة سبعين عاماً- من الطفولة حتى الشيخوخة.



الفصل الثامن

المفهوم الإسلامي ودوري كإمام

إن أصل نزعات الإنسان الدينية توجد فيما ندعوه اليوم بالعلم. فأولئك الذين درسوا علم الأساطير وعلم النفس البدائي يعرفون أن السحر في مختلف أشكاله قد بدأ سلاسل فكرية متباينة في الإنسان البدائي توصل بوساطتها إلى ما بدا له تفسيرات عقلانية للظواهر الطبيعية من حوله. وقد بدا له معقولاً أن هذه الظواهر، هذه الأحداث مثل شروق الشمس وغروبها، وانقضاء الفصول، وتفتح البراعم ونضج الثمر، والريح والمطر، إنما سببتها أو ضبطتها آلهة أو كائنات عظمى. ولقد ربط الإنسان البدائي ما بين الخبرة الدينية البدائية والتعليل العلمي البدائي بالسحر، بالعرافة. وهكذا، فإن خبرات الإنسانية في عالم الشعور والحس، واجتهاد الإنسان في تفسير هذه الخبرات وتنسيقها بلغة عقله قد أدت، في الوقت نفسه، إلى ولادة العلم والدين معاً، وظل الاثنان مرتبطين أحدهما بالآخر طوال عصور ما قبل التاريخ والعصور القديمة، وفي حياة أوائل الإمبراطوريات التي لنا معرفة بها. من الصعب فصل ما أسمح لنفسي بأن أدعوه الدين الأولي عن العلم الأولي، ذلك أنهما قاما برحلتهما كجدولين اثنين، يلتقيان أحياناً ويفترقان أحياناً أخرى، ولكنهما يسيلان جنباً إلى جنب.

ذلك هو أساس الفكر والثقافة اليونانية والرومانية والفلسفة الإيرانية والهندوسية القديمة قبل بدء التاريخ المسيحي. وقد جاء أرسطو بتفسيرات لهذا الاتصال تمتاز بأنها علمية أكثر من التفاسير السابقة له، كما أوجد مقولات ومفاهيم عقلية خالصة استطاعت أن تبدد الرهبة والغموض الدينيين الموجودين حتى لدى أفلاطون.

وبسقوط الإمبراطورية الرومانية، وتفكك النظام المدني العظيم المحكم الذي سنده القانون والإدارة الرومانيان طوال قرون عديدة، اكتنفت العصور المظلمة أوربا. وفي القرن السابع من التاريخ المسيحي، كان هناك تفتح سريع متألق لقدرة الإنسانية ورغبتها في المجازفة والاكتشاف في عالم الروح والعقل، ذلك التفتح بدأ في الجزيرة العربية ويعود منشؤه وقوته الدافعة إلى جدي المعظم، النبي محمد. ونحن نعرفه اليوم باسم الإسلام، الدين الذي امتد نفوذه بسرعة وقوة من الجزيرة العربية إلى أفريقيا الشمالية ومنها إلى إسبانيا.

وقد أثبت ابن رشد، الفيلسوف المسلم العظيم، الفرق الكبير بين نوعين من التجارب الإنسانية القابلة للإدراك: تجربتنا للطبيعة كما نعرفها عن طريق حواسنا، ومنها تأتي قدرتنا على أن نقدّر وأن نحصي (ومع تلك القدرة جميع ما جلبته من أحداث جديدة وتفسيرات جديدة) من ناحية، ومن ناحية أخرى تجربتنا الأكثر مباشرة ورسوخاً لشيء أكثر حقيقة وأقل اعتماداً على الفكر أو على عمليات العقل، ولكنا وُهبناها بصورة مباشرة، وفي اعتقادي أنها التجربة الدينية. وطبيعي أنه لما كان دماغنا شيئاً مادياً وكانت عملياته وجميع نتائج هذه العمليات مادية، فإن هذا الأساس المادي للدماغ يجب أن يعطى، في اللحظة التي نصوغ

فيها الفكر أو التجربة الروحية في كلمات، تمثيلاً مادياً حتى لأسمى التجارب الروحية وأرفعها. ولكن الناس يستطيعون أن يدرسوا نظرياً التجارب المباشرة الموضوعية التي خبرها أولئك الذين ملكوا الاستنارة الروحية دونما تدخل مادي.

يقال إننا نعيش ونتحرك ونتخذ وجودنا في الله. وكثيراً ما نجد هذا المفهوم معبّراً عنه في القرآن، لا بهذه الكلمات طبعاً، بل بكلمات لا تقل عنها جمالاً وإحكاماً. غير أننا عندما ندرك معنى هذا القول، فإننا نكون في طور إعداد أنفسنا لهبة القدرة على الاختيار المباشر. يقول لنا الرومي وحافظ، الشاعران الفارسيان العظيمان، كل بطريقته المختلفة، إن بعض الرجال يولدون وفيهم من الطاقات وإمكانات النمو الروحي بحيث يختبرون مباشرة ذلك الحب المحيط بكل شيء الذي يهبه الاتصال المباشر بالحقيقة للروح البشرية. والحق أن حافظاً قد قال: إن أناساً، مثل يسوع المسيح والمتصوفين المسلمين من أمثال منصور الحلاج وأبي يزيد البسطامي وآخرين غيرهم، كانوا يملكون تلك القوة الروحية للحب الأسمى. وإن أيّاً منا، إذا ما وهبتنا الروح القدس الحاضرة أبداً ذلك الإشراق، يمكن أن تكون القوة التي كانت للمسيح، ولكن لن يكون هذا الحب الأسمى متاحاً بشكل عملي بالنسبة إلى الأكثرية الساحقة من الناس. غير أن باستطاعتنا أن نعوض عن فقدانه من حياتنا بحب دنيوي إنساني لأفراد من الناس، مما يعطينا قدراً من الاستنارة يمكن التحقق به من دون وساطة الروح القدس. وأولئك الذين أسعدهم الحظ بأن يعرفوا ويشعروا بهذا الحب الدنيوي الإنساني يجب أن لا يستجيبوا له إلا بالامتنان والشكر، وأن يعتبروه نعمة وبركة، ومصدراً من مصادر

الفخار. وإني أؤمن ايماناً بأن الاختبار الأسمى يمكن الاستعداد له، إلى درجة معينة، بالولاء المطلق في هذا العالم المادي لإنسان آخر. وهكذا، فمن وجهة النظر الأكثر دنيوية، ودونما إدراك للحياة الأسمى للروح، تجعلنا الروح الدنيا والأكثر أرضية ندرك أن جميع كنوز هذه الحياة، وأن كل ما باستطاعة الشهرة والغنى والصحة أن تحققه وتجلبه ليس شيئاً مذكوراً إلى جانب السعادة التي يخلقها حب إنسان ما لإنسان آخر. هذه النعمة الكبرى يمكننا أن نراها في الحياة العامة كلما تلفتنا من حولنا، بين معارفنا وأصدقائنا.

ولكن كما أن متع الحب الإنساني تفوق كل ما باستطاعة الثروة والقوة أن تحققاه للإنسان، كذلك فإن الحب الروحي الأسمى والاستنارة الروحية، التي هي ثمرة المعرفة السامية للرؤيا المباشرة للحقيقة، التي هي هبة الله وبركته، يفوق كل ما باستطاعة أصدق حب إنساني وأروعه أن يعطي. ومن أجل تلك الهبة يجب أن نصلي دائماً.

وبعد، فأنا مقتنع بأن الإنسان يستطيع، عن طريق الإسلام، عن طريق المَثَلِ الأعلى لله كما يقدمه المسلمون، تحصيل هذه الخبرة المباشرة التي ليس باستطاعة الكلمات توضيحها، ولكنها، في الوقت نفسه، حقائق مطلقة بالنسبة له. إنني لم أبحث في تجارب من هذا الطراز مع أناس من غير المسلمين، ولكن قيل لي إن من البوذيين والبراهما والزرادشتيين والمسيحيين- وقلما سمعت ذلك عن اليهود، وربما باستثناء اسبينوزا- من حصل على هذه الرؤية الصوفية الخفية. وإني لعلى يقين من أن كثيراً من المسلمين، قد مرت بهم لحظات من الإشراق والمعرفة من نوع لا نستطيع إيصاله، لأنه شئ يُعطى وليس شيئاً يُكتسب.

لقد وجدت إلى درجة ما، أن الآية القرآنية التالية، طالما أنها تفهم بمعناها غير المادي البحت، قد منحتني وغيري من المسلمين العون والفهم. غير أنه يتعين علي أن أحذّر من يقرأها بأن لايسمح لنظرته المادية النقدية بإعطاء تفسيرات حرفية لشيء رمزي مجازي. إنني أناشد كل قارئ، سواء أكان مسلماً أم غير مسلم، أن يتقبل روح هذه الآية بكلّيتها:

" الله نُورُ السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دريٌ يوقد من شجرة مباركة زيتونةٍ لاشرقيةٍ ولا غربيةٍ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسَسْهُ نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم. " (النور، آية ٣٥)

من هذا القول الموجز لاعتقاداتي الشخصية أنتقل إلى إعطاء القارئ عرضاً قصيراً للإسلام كما يفهم ويمارس اليوم. إن حالة البشرية الحالية تعطي، بأخطارها وتحدياتها جميعاً بكل تأكيد، فرصة لا لإقامة سلم مادي بين الأمم فحسب، بل ذلك السلم الإلهي الأفضل على الأرض. في هذا المسعى، يستطيع الإسلام أن يلعب دوره القيم البنّاء، وباستطاعة العالم الإسلامي أن يكون عاملاً قوياً موازناً، شرط أن يفهم فهماً حقيقياً، وأن يعترف بقوته الروحية والأخلاقية وتحترم.

لذلك، سأحاول أن أقدم عرضاً موجزاً لأسس الإسلام، وأعني بها تلك العقائد الإسلامية التي يعتنقها السنة والشيعة على السواء، وبعد أن أوضِح، قدر استطاعتي، المعتقد الذي يربطنا جميعاً كمسلمين. وسأقدم عندئذ سرداً موجزاً للمذهب الشيعي والعقائد الخاصة التي

تعتنقها تلك الفرقة من الشيعة التي تعرف بالإسماعيليين، والذين أنا منهم بمنزلة الإمام.

أولاً، يجب أن يكون مفهوماً أنه بالرغم من أن هذه المثل الأساسية مقبولة لدى المسلمين عامة، فإنه ليس هناك، ولم يكن قط، في الإسلام، أي مصدر للسلطة المطلقة. ليس لدينا باباوية عامة لعرضِ عقيدةٍ وسَنِّها، كما لدى الروم الكاثوليك، كما أنه ليس لدينا تسع وثلاثون مادة كتلك التي تنص على الوضع المذهبي لكنيسة إنكلترا. لقد كان للنبي محمد مصدران للسلطة: الأول ديني، وكان أساسياً في حياته، والثاني دنيوي، جعلته الظروف والمصادفات في حياته ينضم إلى السلطة الدينية.

وبمقتضى مدرسة السنة- وهم أكثرية المسلمين- فإن سلطة النبي الدينية انتهت بوفاته، ولم يعين خلفاً لسلطته الدنيوية. وبمقتضى التعاليم السنية، فإن المؤمنين، أصحاب الرسول، انتخبوا أبا بكر خليفة له؛ ولكن أبابكر لم يتول سوى السلطة المدنية، الدنيوية. إذ لم يكن لأحد أن يرث السلطة الدينية، التي كانت تعتمد على الوحي الإلهي المباشر لأن النبي محمداً، والقرآن أيضاً، أعلنا أنه كان قطعاً خاتم الأنبياء. وهكذا يقول أهل السنة إنه كان من المستحيل إنشاء سلطة مشابهة لسلطة البابوية، ولم يبق للمؤمنين إلا أن يفسروا القرآن وسيرة الرسول وأحاديثه، لا لكي يفهموا الإسلام فحسب، بل لتأمين تطوّره عبر القرون. والحق أن القرآن قد جعل هذه المهمة سهلة لحسن الحظ، ذلك أنه يتضمن عدداً من الآيات التي تعلن أن الله يخاطب الإنسان بلغة المجاز والأمثال. وهكذا، يترك القرآن الباب مفتوحاً لجميع أنواع احتمالات

التفسير بحيث لا يستطيع أي مفسّر أن يتهم مفسراً آخر بأنه غير مسلم. ومن التأثيرات المباركة لهذا المبدأ الأساسي من مبادئ الإسلام، والقائل بأن القرآن قابل باستمرار للتفسير المجازي، أن كتابنا المقدس استطاع أن يرشد أفكار المسلمين وينيرها، قرناً بعد قرن، وفقاً لشروط الترابط الحسي والعقلي وتحدياته التي تفرضها التأثيرات الخارجية في العالم. وهو يؤدي أيضاً إلى خير أعظم بين المسلمين، ذلك أنه لما كان من غير الممكن وجود تفكير قطعي دائم، فإن جميع المدارس الفكرية تستطيع أن تتحد في الابتهال إلى الله العلي القدير أن يغفر أي تفسير خاطئ للدين سببه الجهل أو سوء الفهم.

إنني لا أحاول أن أضع أمام قرائي الغربيين العقيدة الإسماعيلية التي أعتنقها، ولا العقيدة الشيعية، ولا تعاليم المدرسة الصوفية الإسلامية لدى رجال مثل جلال الدين الرومي أو أبي يزيد البسطامي، ولا حتى آراء بعض المفسرين من أهل السنة المحدثين الذين يبحثون، شأن بعض المذاهب المسيحية، عن الهداية الحرفية في القرآن، كما يجدها مسيحيو هذه المذاهب في العهدين القديم والجديد، بل المجرى الأساسي المركزي للفكر السني الذي مصدره أفكار المدرسة التي أسسها الغزالي، والذي لا يزال تأثيره وتعاليمه تجري متنقلة من قرن إلى قرن.

غير أننا يجب أن نسأل أنفسنا، أول الأمر، لماذا وهبت الإنسانية هذا المظهر النهائي الكامل للإرادة الإلهية، وما كانت أسبابها؟ إن جميع المدارس الفكرية الإسلامية تعتبر من مبادئها الأساسية أنه طيلة قرون عديدة، وقبل آلاف السنين من ظهور محمد، كان يظهر من آن لآخر رسل تنيرهم العناية الإلهية من بين أمم الأرض التي أصابت تقدماً عقلياً

كافياً لفهم رسالات هؤلاء الرسل. وهكذا، فإن إبراهيم وموسى وعيسى وجميع أنبياء إسرائيل يعترف بهم الإسلام عموماً. ولايقْصر المسلمون في الحق الأنبياء على إسرائيل، فهم على استعداد للإقرار بأنه قد كان في البلدان الأخرى رسل مشابهون ملهمون: غوتاما بوذا، وشري كريشنا، وشري رام في الهند، وسقراط في اليونان، وحكماء الصين، وعقلاء وقديسون آخرون بين شعوب وحضارات ضاعت منا آثارها. وهكذا، فإن روح الإنسان لم تترك قط دون رسول خاص ملهم من الروح التي تدعمه وتشمله والتي هي الكون. وإذن، فأية حاجة كانت للوحي الإلهي إلى محمد؟ إن جواب الإسلام محكم وواضح: بالرغم من قوة التوحيد اليهودي الروحية فقداحتفظ بميزتين اثنتين تجعلانه يختلف اختلافاً جوهرياً عن التوحيد الإسلامي: لقد ظل الله بالرغم عن كل شئ، إلهاً قومياً عنصرياً لبني إسرائيل، وشخصية مستقلة تمام الاستقلال عن مظهره الأسمى: الكون.

وفي بلدان قصيّة مثل الهند والصين، تعكَّرَ صفو الإيمان بإله واحد عن طريق الشرك وعبادة الأوثان، وحتى عن طريق المذهب الحلولي الذي كان من العسير تمييزه عن المذهب الإلحادي، إلى درجة أن هذه الأديان الشعبية لم تكن تشبه إلا قليلاً ذلك الدين الذي انبثق عن الألوهية الصافية الصادقة. أما المسيحية، فقد فقدت قوتها ومعناها في أعين المسلمين لأنها كانت تنظر إلى مؤسسها العظيم المجيد لا بوصفه إنساناً بل بوصفه إلهاً متجسداً في إنسان، إلهاً من لحم ودم. وهكذا، فقد كانت هناك حاجة كلية إلى كلمة وحي إلهية يوحى بها، إلى محمد نفسه، وهو انسان كالآخرين، عن ذات الله وعلاقاته يالكون الذي أبدعه. ومتى

أدرك الإنسان جوهر الوجود فلا يبقى عليه، لمّا كان يعرف القيمة المطلقة لروحه هو نفسه، إلا الواجب الذي يقضي عليه بأن يصنع لنفسه طريقاً مباشراً يقود روحه الفردية باستمرار إلى الروح الكلية ويربطها بها، هذه الروح التي ليس الكون- بمقدار ما ندركه ونحس به برؤيتنا المحدودة- إلا واحداً من مظاهرها السرمدية. وهكذا، فإن مبدأ الإسلام الأساسي لا يمكن تعريفه إلا بأنه الواقعية التوحيدية وليس التوحيد. فكروا، مثلاً، بالقول الذي تبدأ به كل صلاة: " الله أكبر "؛ ماذا يعني هذا؟ الذي لا شك فيه أن الكلمة الثانية من القول تشبّه صفة الله(بالقالب الأم) الذي يحوي كل شيء ويعطي الوجود للسرمدي، للفضاء، للزمن، للكون، لجميع القوى الناشطة، وللساكنة التي يمكن تصورها، للحياة وللروح. لقد وصف الإمام الحسن العقيدة الالهية الإسلامية والكونية وشبهها بالشمس وانعكاسها في حوض من الماء. إن هناك قطعاً، انعكاساً أو صورة للشمس، ولكنه انعكاس تافه ليس فيه من الحقيقة إلا النزر اليسير، فما أقل وأتفه الشبه بين هذه الصورة اللاحسية والكرة العظيمة المتأججة وجلالها المتقد. إن الله هو الشمس؛ أما الكون، كما نعرفه بكامل جسامته، والزمن بقوته، فهما ليسا أكثر من انعكاس المطلق في مرآة الحوض.

إن هناك فرقاً أساسياً بين الفكرتين اليهودية والإسلامية عن الخلق. فالإسلام يقول بأن الخلق ليس عملاً فذاً وفريداً في وقت معين محدود، بل حدث أزلي مستمر، وأن الله يدعم ويحفظ كل وجود، في كل لحظة، بمشيئته وفكره. إن كل شيء خارج مشيئته وفكره ليس شيئاً، حتى الأشياء التي تبدو لنا مطلقة تفصح عن المظاهر نفسها، كالفضاء

والزمن. الله وحده هو الذي يشاء: فالكون موجود وجميع المظاهر شاهد على المشيئة الإلهية. أعتقد أني أوضحت بصورة كافية الفرق بين العقيدة الإسلامية التوحيدية وأفكار الاعتقاد بالله القائمة على العهد القديم من جهة، والأفكار الحلولية والثنائية في الأديان الهندية وفي الديانة الزرداشية من جهة أخرى. أما وقد عرفنا المطلق، وفهمنا الكون على أنه سلسلة لا متناهية من الأحداث أرادها الله، فإننا بحاجة إلى قانون للسلوك نتمكن بوساطته من السمو بأنفسنا نحو المثل الأعلى الذي يطالبنا به الله.

فلندرس إذن واجبات الإنسان كما تفسرها الأغلبية الساحقة، بمقتضى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. أول كل شيء، علاقة الإنسان بالله: لارهبان ولا نساك. لا اعتراف بالخطايا إلا إلى الله مباشرة.

إن الرجل الذي لا يتزوج، والذي يرفض أن يتحمّل مسؤوليات الأبوّة، وإنشاء بيت وتكوين عائلة عن طريق الزواج، يُذمّ ذمّاً شديداً. ليس في الإسلام إنكارات متطرفة ولا قهر للجسد لخلاص النفس، ولا إماتة للشهوات، وأهم من كل ذلك ليس فيه تعذيب لإخضاع الجسد. إن الجسد البشري السليم هو المعبد الذي تتقد فيه الروح القدسية، فهو جدير إذن بالاحترام عن طريق المحافظة على نظافته وصحته. والصلاة ضرورة يومية، فهي اتصال بين الشرارة والشعلة الكونية. أما الصيام المعقول لمدة شهر واحد في كل سنة، شرط ألا يؤذي صحة الإنسان، فهو جزء جوهري من تدريب الجسد، عن طريقه يتعلم الجسد نبذ جميع الرغبات القذرة. أما الزنى والخمر والوشاية وسوء الظن بالجار فيعاقب عليها

بصورة خاصة وصارمة. والناس جميعاً، غنيهم وفقيرهم، يجب أن يساعدوا بعضهم بعضاً مادياً وشخصياً. إن القواعد لتختلف في تفاصيلها، غير أنها جميعاً تؤكد مبدأ المساعدة العامة المتبادلة في الأخوّة الإسلامية. وهذه الأخوّة هي مطلقة تشمل الناس من جميع الألوان، والأجناس: الأسود والأبيض والأصفر والأسمر، فهم جميعاً أبناء آدم ويحملون في ذواتهم شرارة النور الإلهي، وعلى كل امرئ أن يسعى جهده ليتأكد من أن هذه الشرارة لا تطفأ بل يجري تطويرها ورفعها إلى مستوى تلك " الصحبة مع الأعلى"، التي كانت الرؤيا التي عبّر عنها النبي بكلماته الأخيرة على فراش الموت، رؤيا الحالة المباركة التي رآها تنتظره بوضوح. وفي الإسلام يؤمن المؤمنون بالعدالة الإلهية، وهم مقتنعون بأن الحل لمشكلة القضاء والقدر والإرادة الحرة إنما يوجد في التسوية القائلة بأن الله يعلم ما سيفعله الإنسان، ولكن الإنسان حرٌ في أن يفعله أو أن لا يفعله.

والإسلام يشجب الحروب، ويوجب أن يعم السلام العالم. فالإسلام يعني السلام، سلام الله مع الإنسان، وسلام الناس بعضهم مع بعض. كذلك، يحرم الإسلام الربا، ولكنه يشجع التجارة والزراعة الحرتين الشريفتين بجميع أشكالهما، ذلك أنهما يظهران خدمة إلهية، وأن رفاهية البشر تتوقف على استمرار هذه الأعمال المشروعة وتقويتها. ومن الناحية السياسية، فإن شكل الحكم الجمهوري يبدو في نظر الإسلام أكثر الأشكال عدلاً، ذلك أنه في البلاد الإسلامية التي شهدت نمو الملكيات المطلقة ذات التركيز العظيم للسلطة في داخلها ظل انتخاب الملك دائماً معادلة ميتة لم تفعل سوى أنها كرّست شرعية اغتصاب السلطة.

وبعد الموت تأخذ العدالة الإلهية بعين الاعتبار إيمان الإنسان، وصلواته، وأفعاله فيكون الخلود والغبطة الروحية من نصيب الصالحين، وتكون جهنم مصير الكافرين حيث يهلكون آسفين على أنهم لم يعرفوا أن يكونوا أهلاً لرحمة الله.

وتذهب العقيدة الإسلامية إلى أبعد من سائر الأديان العظمى، ذلك أنها تنادي بوجود النفس، ربما كانت ضيئلة ولكنها كائنة مع ذلك في حالة جنينية، في جميع الكائنات، في المادة والحيوانات والأشجار والفضاء نفسه. إن لكل فرد، وكل جزيء، وكل ذرة علاقتها الروحية الخاصة بروح الله العلي القدير. ولكن الإنسان(الذكر والأنثى) أسمى تطوراً من غيره من المخلوقات؛ إنه أكثر تقدماً إلى درجة كبرى من العدد الذي لا يحصى من المخلوقات الأخرى التي نعرفها. ويعترف الإسلام بوجود الملائكة والنفوس العظيمة التي طورت نفسها إلى أسمى مستويات النفس الإنسانية وأرفع منها، والتي هي مركز قوى منتشرة في الكون بأجمعه. كما يعترف الإسلام، دون أن يذهب إلى المدى الذي تذهب إليه المسيحية، بوجود الأرواح الشريرة التي تسعى عن طريق إيحاءاتها السرية إلينا إلى أن تحولنا عن الخير وعن طريق السعادة الأبدية الذي رسمه الله بنفسه للناس جميعاً، عبر إبراهيم ويسوع ومحمد.

وصفت حتى الآن تلك العقائد الإسلامية التي يؤمن بها المسلمون جميعاً من كل مذهب أو فرقة. وآتي الآن إلى تشعب الجداول الفكرية. فالسنيون هم أهل السنة، أو الحديث. إنهم يقولون: " لا إله إلا الله، محمد رسول الله ". وأما الشيعة فيضيفون: " وعلي، صاحب محمد، ولي الله ".

ولقد توفي النبي دون أن يعيّن خليفته من بعده. المدرسة الفكرية

الشيعية تقول بأنه في حين أن الوحي الإلهي قد انقطع بوفاة النبي، إلا أن الحاجة إلى الهداية الإلهية استمرت. ولم يكن بالإمكان ترك هذه للملايين من البشر الزائلين عرضة لنزوات العاطفة والحاجة المادية وأهوائها، يوجهها الجشع أو الفصاحة أو الرغبة المفاجئة في المنفعة المادية. وهذه الأخطاء إنما تجلّت في الفترة التي تلت مباشرة وفاة نبيّه الكريم، ذلك أن محمداً، كما سبق لي أن بيّنت، كانت بيده السلطتان الزمنية والروحية، وكان من شأن الخليفة أن يخلفه في هاتين السلطتين معاً. كان ينبغي أن يكون " أمير المؤمنين " و "إمام المسلمين ".

وقد بدا أن علياً، ابن عم النبي وزوج ابنته الوحيدة الباقية على قيد الحياة، فاطمة، وأول من آمن به، ورفيقه الشجاع في كثير من الحروب، والذي قال فيه النبي إنه سيكون طيلة حياته بالنسبة إليه، كما كان هارون بالنسبة إلى موسى، أخاه وساعده الأيمن الذي سيجري في ذريته دم النبي نفسه، أقول لقد بدا أن علياً كان مقدراً له أن يكون ذلك الخليفة الحقيقي، وهكذا كان يتوقع المسلمون بصورة عامة. فالشيعة، إذن، كانوا ولا يزالون يعتقدون بأن القدرة والهداية والقيادة الإلهية، بعد وفاة النبي، أظهرت نفسها في علي بوصفه الإمام الأول للمسلمين. أما أهل السنة، فيعتبرونه الخليفة الرابع.

وهكذا، فإن الإمام هو خليفة النبي في صفته الدينية. إنه الرجل الذي يجب أن يطاع، والذي يقيم بين أولئك الذين له عليهم حق الطاعة الروحية. ولقد كان أهل السنة ولا يزالون يقولون بأن هذه السلطة زمنية ودنيوية فحسب، وأنها لا تمارس إلا في الناحية السياسية. فأهل السنة، يعتقدون بأنها تخص أي رئيس سياسي للدولة يولّى بصورة مشروعة،

سواء أكان حاكماً أم رئيساً لجمهورية. أما الشيعة فيقولون بأن هذه السلطة عامة وشاملة، وإنها تُعنى أيضاً بالأمور الروحية التي انتقلت بالحق الموروث إلى خلفاء النبي من دمه.

إن أفضل وصف لهذا الذي حدث هو في الحكم الذي نطق به حضرة القاضي آرنولد في محكمة بومباي العليا يوم ١٢ تشرين الثاني ١٨٦٦، في الدعوة العظيمة التي أقيمت على جدي والتي سآتي على ذكرها في مكان لاحق من هذا الكتاب.

" إن نفوذ عائشة، زوجة محمد الشابة المفضلة، والخصم اللدود لفاطمة وعلي، أمّن انتخاب والدها أبي بكر. وتبع أبا بكر في الخلافة عمر، ثم عثمان، ومن بعده علي في سنة ٦٥٥ ميلادية. ولكن علياً لم ينج من معارضين حتى في ذلك الحين، ذلك أن معاوية الأموي نازعه على الخلافة بمساعدة عائشة، وفي عام ٦٦٠ قتل علي بيد أحد الخوارج في جامع الكوفة، وكانت عندئذ المدينة الإسلامية الرئيسة على الضفة اليمنى أو الغربية للفرات- وهي خرائب الآن منذ فترة طويلة وليست بعيدة كثيراً عن خرائب بابل ".

إن الحكم الذي أصدره القاضي آرنولد يقدم شرحاً مؤثراً لتأثير مقتل علي ومقتل ولديه الحسن والحسين حفيدي الرسول الحبيبين بعده بتسع وعشرين سنة، واللذين أعلن عنهما الرسول بأنهما أول شباب أهل الجنة، في حياة المسلمين وتفكيرهم، وللعدواة وسوء التفاهم المفجعين اللذين تطورا من بعد بين أتباع المذهبين الإسلاميين الرئيسين، ولكل الخصام الذي ورثته الأجيال المتعاقبة.

وينقسم الشيعة أنفسهم إلى فروع كثيرة، بعضها يؤمن بأن هذه

الزعامة الروحية، هذه الإمامة التي كانت من حق علي، قد انحدرت منه إلى اسماعيل، في الجيل السادس، والذي منه أنحدر بنسبي وإمامتي. وبعضها يؤمن بأن الإمامة مصدر زيد، حفيد الحسين، حفيد الرسول الذي استشهد في كربلاء. في حين يؤمن آخرون، بمن فيهم أكثرية الشعب الإيراني الساحقة، والشيعة الهنود، بأن الأمامة يتولاها الآن إمام حي هو الثاني عشر منذ علي، والذي لم يمت قط، والذي هو على قيد الحياة وعاش ألفاً وثلاثمائة سنة بيننا لايُرى ولكنه يَرى كل شيء، والذين يقرون بهذا المعتقد يعرفون بالإثني عشرية. وينقسم الإسماعيليون إلى فريقين، ويرجعون إلى الفترة التي كان فيها أسلافي يتولون خلافة مصر الفاطمية. فأما الفريق الأول فيقول بأن جدي نزار هو الخليفة الشرعي للخليفة المصري المستنصر، في حين يقول الفريق الآخر بأن الإمام هو ابنه الآخر، الخليفة المستعلي.

ومنذ ذلك الحين، وقصة الإسماعيليين أسلافي وأتباعهم، تنتقل عبر تعقيدات التاريخ الإسلامي ومده وجزره طوال العديد من القرون. ويقال إن جيبون {المؤرخ الغربي المشهور} قد اعترف بعجزه عن جلاء غوامض السلالة الآسيوية؛ غير أن هناك بهجة لا نهاية لها في دراسة الشخصيات والأحداث التي نسجت عبر العصور، هذه الدراسة التي تربطنا في هذا الزمن الحاضر بجميع هذه الأمجاد والمآسي والألغاز الغابرة. إن معتقد آبائي وأجدادي، الذي كثيراً ما تعرض للاضطهاد والظلم، لم يهدم قط، فهو أحياناً مزدهر شأنه في عهد الخلفاء الفاطميين، وأحياناً غامض لا يحظى إلا بقليل من الفهم.

بعد ضياع الخلافة الفاطمية في مصر، انتقل أجدادي أول ما انتقلوا

إلى مرتفعات سورية ولبنان، ومن هناك ارتحلوا شرقاً إلى جبال إيران حيث أقاموا معقلاً لهم في قلعة آلموت الشامخة من جبال ألْبُرْز، وهي السلسلة التي تفصل سائر إيران والمقاطعات الجنوبية عن بحر قزوين مباشرة. وتتعاون الأسطورة والتاريخ هنا على نسج حكاية(شيخ الجبل) الغريبة، والأسياد العظام الوارثين لطغمة القتلة الذين احتفظوا بآلموت قرابة مئتي عام.

وفي هذه الفترة، اشتهرت العقيدة الإسماعيلية في سورية والعراق والجزيرة العربية نفسها، وفي أواسط آسيا. فلقد كانت سمرقند وبخارى مراكز عظيمة آنئذ للعلوم ومذاهب الفكر الإسلامية. وبعد قليل، أي في القرن الثالث عشر للميلاد، وصلت الدعاية الإسماعيلية الدينية إلى ما يعرف بسينكيانغ وتركستان الصينية. وقد جاء وقت في القرنين الثالث والرابع عشر كانت فيه العقيدة الإسماعيلية المدرسة الفكرية الشيعية الرئيسة والأكثر نفوذاً. غير أنه بانتصار الأسرة الصفوية في إيران- وفي مقاطعتها الشمالية الغربية، أذربيجان، بصورة خاصة- وطّدت الإثنا عشرية سلطتها، واحتفظ من بقي من الإسماعيليين بثباتهم وصمودهم على عقيدتهم، ولا يزال الكثيرون منهم في أنحاء متعددة من آسيا وأفريقيا الشمالية وإيران. إن المراكز التاريخية للمذهب الإسماعيلي منتشرة في الحق في جميع أنحاء العالم الإسلامي. ففي مناطق سوريا الجبلية، مثلاً، نجد الدروز في معقلهم جبل الدروز(العزب). إنهم في الحقيقة إسماعيليون لم يتبعوا أصلاً أفراد عائلتي في هجرتهم من مصر، بل حافظوا على ذكرى جدي الحاكم بأمر الله، الخليفة الفاطمي في مصر، وأقاموا معتقداتهم على أسس شبيهة إلى حد ما بأسس الإسماعيليين

السوريين الذين هم أتباعي في الوقت الحاضر. وهناك " جزر " إسماعيلية مماثلة في جنوبي مصر، وفي اليمن وفي العراق طبعاً. أما مراكز الإسماعيليين في إيران فهي حول(محلات) وغرباً نحو همدان وإلى الجنوب من طهران، كما إن هناك مراكز أخرى في خراسان إلى الشمال وإلى الشرق حول يزد، وحول كرمان وإلى الجنوب على طول شاطئ الخليج العربي من بندر عباس إلى حدود باكستان والسند وإلى بلوخستان، وهناك أيضاً مراكز أخرى في أفغانستان، في كابول نفسها، والعديد منها في روسيا وأواسط آسيا، حول سمرقند وكشغر، وفي كثير من القرى والمستوطنات في سينكيانغ. وفي الهند، اعتنقت بعض القبائل الهندوسية العقيدة الإسماعيلية على أيدي دعاة أرسلهم جدي إسلام شاه وسُمّوا بالخوجا. وحدث مثل هذا التحول في بورما في القرن التاسع عشر.

أما وقد قدمت هذا العرض الموجز لأصل الإسماعيليين وتقلباتهم وتجوالاتهم على مرأى من العالم المعاصر، فقد يكون الآن أوان تقديم سرد مفصل لحياة جدي وأفعاله، جدي الذي أول من عرف بالآغا خان، والذي برز في أضواء " حياة مغامرة رومنطيقية ". كان الزعيم بالوراثة لمدينة كرمان الكبيرة، وصهر الملك الفارسي القوي، فتح علي شاه، وكان يملك إقطاعات واسعة شاسعة بالإضافة إلى إمامة الإسماعيليين التي انتقلت إليه بالوراثة.

وفي عام ١٨٣٨ دخل في نزاع مع الإمبراطور محمد شاه، الذي كان حاكماً عندئذ، لأسباب قدمها القاضي آرنولد كما يلي:

" إن حجي ميرزا أغاسي، الذي كان من قبل مدرساً لمحمد شاه، كان طيلة حكم تلميذه الملك من ١٨٣٤- ١٨٤٨ رئيس وزراء فارس. وكان

هناك فارسي من عائلة وضيعة جداً في خدمة آغا خان، ولكنه تمكن من أن يصبح الرجل المفضل والمقدّم لدى الوزير الذي كانت السلطة كلها متجّمعة في يده. وكانت لهذا الشخص، من خلال راعيه، الجرأة على أن يخطب لولده إحدى كريمات الآغا خان، حفيدة المرحوم شاهنشاه؛ وقد اعتبر الآغا خان هذا، كما يقول المؤرخ الفارسي، إهانة كبرى. ومع أن رئيس الوزراء قد ألّح عليه بالقبول، فقد رفض الطلب بإباء وشمم عظيمين. وإذ جعل الآغا خان من أقوى رجل في الدولة عدوه اللدود، فقد شعر على الأرجح بأن أفضل وسيلة لسلامته أن يقوي نفسه بالسلاح- ولو لم يكن هذا بالمسلك النادر بين إقطاعيي فارس التي كانت تعمها الفوضى. وباتخاذه كرمان مقراً عاماً له، فقد استمر بالقتال، على ما يبدو، منتصراً حيناً منهزماً حيناً آخر، طوال الفترة من ١٨٣٨ إلى ١٨٣٩ وجزءاً من عام ١٨٤٠ . وفي هذه السنة الأخيرة، غلبته كثرة العدد وأجبر على الهرب فنجا بصعوبة، بصحبة بعض الفرسان، عبر صحاري بلوخستان إلى بلاد السند. "

وخلال تجواله إبان السنوات القليلة التالية، تقابل جدي مع قوات بريطانية خرجت من الهند لحرب الحكام المحليين في شمال السند وأفغانستان. وقد جنّد جدي فرقة من الفرسان الخفيفة قاتلت ببسالة هناك. وبنتيجة ذلك، فقد منحته حكومة الهند البريطانية أعطيات جليلة ساعدته في إقامته في الهند فيما بعد.

وفي عام ١٨٤٥ وصل جدي إلى بومباي حيث استقبله - كما قال القاضي آرنولد- جميع السكان في تلك المدينة وجوارها استقبالاً ودياً وقدموا إليه ولاءهم. غير أن جدي قضى عاماً أو عامين بعد سنة ١٨٤٦

سجيناً سياسياً في كلكتا بسبب أن محمد شاه كان قد احتج لدى الحكومة البريطانية في الهند على وجوده في ميناء قريب جداً من فارس مثل بومباي. لكن عهد محمد شاه انتهى عام ١٨٤٨، وعندئذ أقام جدي بسلام في بومباي وأسس هناك مقراً عاماً له أو(دَرْخانه). ولم يكن هذا قراراً شخصياً عاقلاً مفرحاً فحسب، بل لقد كان له تأثير رائع في الحياة الدينية والاجتماعية للعالم الإسماعيلي بأجمعه. لقد بدا وكأن ذلك العبء الثقيل من الاضطهاد والعدوان التعصبي الذي كان عليهم أن يتحملوه تلك السنين الطوال، قد رفع عن كواهلهم. وشرعت الوفود تأتي إلى بومباي من بلدان قصية مثل كاشغر وبخارى وجميع أنحاء إيران وسورية واليمن والشاطئ الأفريقي والأراضي الداخلية التي كانت قليلة السكان وقتئذ.

منذ ذلك الحين لم يطرأ تبدل أساسي أو عنيف على الطريقة الحياتية الإسماعيلية أو على الظروف التي يستطيع أتباعي أن يتبعوا فيها مذهبهم. وفي الوقت الحاضر لا تأتي الوفود، أي وفود من روسيا، ولكن الإسماعيليين في روسيا وآسيا الوسطى ليسوا مضطهدين ويحيون حياتهم الدينية بحرية. إنهم بالطبع لا يستطيعون إرسال أموال الزكاة، التي هي مجرد زكاة رمزية، ولم تكن قط ذلك النوع من الغرامة المالية التي زعمها بضعة أعداء متعصبين ضد الإسماعيلية.

ليس لنا اتصال بسنكيانغ ولا بكشغر ويارقند في الوقت الحاضر، ذلك أن الحدود مغلقة في وجه الإسماعيليين وغيرهم بالحزم نفسه، ولكننا نعرف أنهم أحرار في اتباع دينهم وأنهم إسماعيليون ثابتون، وأنهم يتمتعون بقدر كبير من الثقة بالنفس والشعور بأنهم يؤلفون أهم جالية

إسماعيلية في العالم أجمع. أما ممثلو إيران وبعثاتها فيروحون ويجيئون، وكانوا يأتون من سورية إلى الهند بانتظام غير أن أفراداً من عائلتي يذهبون الآن إلى سورية، أو أن أتباعي من السوريين يأتون لزيارتي في مصر. ومنذ مدة قصيرة ذهبت إلى دمشق حيث توافد عدد عظيم من أتباعي ليقدموا احتراماتهم. ومن جميع هذه البلدان تقريباً ينفق القسم الأعظم من أموال الزكاة على المدارس والمساجد وعلى إدارة مختلف المؤسسات الدينية والاجتماعية، ويسودها قدر كبير من المسؤولية المحلية. فمسائل الزواج والطلاق، مثلاً، هي بكليتها من شأن الممثل المحلي للإمام.

وأحياناً تساعد الجالياتُ الغنية من الإسماعيليين الجاليات التي هي أقل غنى من حيث المؤسسات المماثلة. إني أصدر تعليمات وأوامر عامة، ولكن العمل الإداري اليومي والفعلي لكل جالية بذاتها إنما يقوم به ممثل الإمام والرئيس المحلي. صحيح أن كثيراً من هذه الرئاسات في جميع أنحاء آسيا الوسطى، مثلاً، هي وراثية، ولكن ليس لدينا نظام ثابت عام، فالابن يخلف أباه أحياناً، وأحياناً يخلفه حفيده، ويعرف الرئيس أحياناً بالوزير، أو(الكامْدار) وهو لقب تحوّل بالاستعمال إلى (كامريا)، وهو أحياناً رئيس إداري. وفي سورية يعرف ممثلو الإمام بالأمراء[1]، وفي بعض أنحاء آسيا الوسطى، مثل الهونزا، يستعملون كلمة الأمير في عاميتها فيقولون" مير".

إن رئاسة الجالية الدينية المنتشرة في جزء كبير من العالم، من مدينة الكاب(جنوب إفريقيا) إلى كشغر(في آسيا الوسطى) ومن سورية إلى

---

١ – لا يوجد في سورية ممثل للإمام اليوم ، ذلك أنه تم إنشاء مجلس يتولى إدارة الشؤون الدينية والاجتماعية للأتباع .

سنغافورة(في الشرق الأقصى) لا يمكن أن يُنهض بها بمقتضى أي نظام ثابت جاف. فالظروف الأخلاقية، والوسائل المادية، والمطامح الوطنية، والأسس التاريخية العميقة الاختلاف يجب أن لا تغيب عن البال، كما يجب إحداث التعديلات المعقولة اللازمة.

هنالك، إذن، تفاوت كبير ومرونة كبيرة في الإدارة. ففي المستعمرات البريطانية والبرتغالية والفرنسية في أفريقيا الشرقية، وفي أوغندا، وفي آسيا الشرقية البرتغالية وناتال ومستعمرة الكاب، يوجد نظام مجالس إدارية على جانب عظيم من الرقي والتطور. فالإداريون التعليميون، ووكلاء الأملاك، والمجالس التنفيذية والقضائية تؤدي كلها مقداراً عظيماً من العمل الإداري اليومي، وتقوم بإدارة مالية واسعة أيضاً بناء على أوامري العامة. وفي الهند وباكستان، هناك جهاز إداري مماثل ولكنه ذو شكل أقل إمكاناً وتطوراً. أما في بورما والملايو فالتنظيم يشبه شبهاً كبيراً تنظيم الإسماعيليين في إفريقيا. وأما سورية وإيران ومقاطعة باكستان على الحدود الشمالية الغربية فهي كلها بلاد لها فرديتها الظاهرة بقوة، وأسسها وتقاليدها التاريخية، وكان لهذه التغييرات التاريخية عبر القرون، وإمكان الوصول أو عدمه إلى كثير من الجاليات الأكثر انعزالاً، وتطور الاتصالات بين أسرتي وأتباعي، كان لها جميعاً تأثيرها.

إن زعامة الإسماعيليين في آسيا الوسطى هي وراثية في أيدي بعض العائلات، وتحدرت في خط مستمر عبر القرون. وهذا ينطبق على أتباعي في أفغانستان وروسيا وتركستان الصينية، حيث ما زالت بعض

العائلات، منذ اعتناقها الإسلام، هي التي تتولى الإدارة وتمثيل الإمام. وتنتقل الزعامة عن طريق القرابة من جيل إلى آخر، فأحياناً يكون الرئيس الوراثي، وأحياناً أخرى- كما هي الحال في الهونزا- يكون الملك، هو نفسه إسماعيلي، هو الذي يدير شؤون الأخوّة الدينية.

وتتأثر المراسلات التي احتفظ بها مع جميع الجاليات الواسعة الانتشار بالظروف المحلية. ففي بغداد لي ممثلون خصوصيون يعالجون الأمور العربية، وفي إيران لي ممثلون خصوصيون في كل مقاطعة يعنون بالأمور الإسماعيلية، وهم على العموم أفراد من عائلات أعطيت بشكل وراثي، القادة الإسماعيليين المحليين طيلة المدة التي كان لهؤلاء القوم صلة بأسرتي بصورة موصولة طيلة ألف من السنين.

لقد ظلت الإسماعيلية على قيد الحياة لأنها كانت ولا تزال عقيدة مرنة. فالواقع أنه لم يكن هناك أية قواعد ثابتة قاطعة، وحتى مجموعة الأنظمة التي تعرف بالقوانين المقدسة هي توجيهات تتعلق بالطريقة والأسلوب وليست أوامر مفصلة عن النتائج المتوخاة. وللإسماعيليين في بعض البلدان مثل الهند وإفريقيا، نظام مجالس يعهد بموجبه إلى أعضائها المحليين بجميع المسؤوليات الإدارية الداخلية، على أن ينقلوا إليّ ما يكونون قد فعلوه. وكما قلت سابقاً، فإن الزعامة في سورية وآسيا الوسطى وإيران موكولة إلى زعماء ورؤساء وراثيين هم ممثلو الإمام الذين يرعون مختلف الجماعات أو الجاليات.

ويتدفق عليّ من جميع أنحاء العالم الإسماعيلي، التي يمكن الاتصال بها سياسياً بصورة منتظمة، سيل من المراسلات والتقارير. إن

قراءة هذه المراسلات والتقارير والإجابة عنها، وتقديمي الحلول للمشاكل المعينة التي تعرض علي، وقيامي بمهامي بوصفي الإمام بالوراثة لهذه الجماعات الدينية المنتشرة في جميع أصقاع الأرض، هي التي تتألف منها حياتي العملية، وهكذا كانت منذ أن كنت صبياً.

والحق، أن قسماً من أعمال المجالس الإسماعيلية وممثلي الإمام هو في أيامنا هذه اجتماعي خالص، وهو يُعنى بالأمور التعاقدية، مثل الزواج والطلاق. وربما كان يتعيّن علي في هذا الموضوع أن أقول إنه ليس في أي مكان في العالم يقيم فيه الإسماعيليون اليوم أي اضطهاد لهم أو تدخل في معتقداتهم وعاداتهم إلا حيث تكون قوانين البلاد العامة مخالفة لقوانين المؤسسات، كتعدد الزوجات. ولكن من الملاحظ بصورة عامة أنه ليس بين الإسماعيليين من يستطيع أن يتخذ زوجة ثانية أو يطلق زوجته الأولى لثورة خاطر أو نزوة خيال أو- كما يتوهم البعض في الغرب خطأ- لحجة تافهة ملتوية. إن هناك عادةً، حسب طريقتنا في التفكير، بعض الأسباب القوية لكل من هذه التصرفات. فإنجاب الأطفال حاجة ورغبة طبيعية جداً في كل زيجة من الزيجات؛ فإذا حدث أنّ الحمل لم يحصل بعد سنين مديدة من الحياة الزوجية، فإن الزوجة نفسها كثيراً ما تتوق إلى رؤية بيتها وقدأضاءه وجود الأطفال بكل ما يجلبونه معهم من المرح والأمل والسعادة. وفي حالات أخرى قد يكون هناك اختلاف عميق في الخلق بين الزوج وزوجته بحيث يرى أن الطلاق هو أفضل الحلول لسعادة الفريقين معاً. غير أن على المجالس المختلفة - أو ممثلي الإمام(إذا لم يكن هناك مجالس)- في كل حالة من الحالتين سواء في

حالة اتخاذ زوجة ثانية أو في حالة منح الطلاق واجباً محتماً يقضي بصيانة مصالح الزوجة. فإذا اتخذت زوجة ثانية، كان على المجلس أو الممثلين التأكد من حصول الزوجة الأولى على التأمين المالي الكامل، ومن أن الأمر يسوّى على الصعيد المالي بكرم وبصورة مناسبة.

ومن المهم أن يدرك غير المسلمين أن نظرة الإسلام إلى مؤسسة الزواج- وإلى كل ما يتصل بها من طلاق وتعدد في الزوجات وغير ذلك- هي مسألة تعاقد ليس غير، مسألة رضا ومسؤوليات معينة يتقبلها الطرفان بصورة متبادلة. إن مفهوم الزاوج المتصل بمفهوم الجسد السري ليس مفهوم الإسلام؛ فليس للزواج، إلا بشكل غير مباشر، أهمية دينية، كما أنه ليس هناك احتفال ديني يكتنف الزواج بالخشوع والروية اللذين يكتنفان الزواج في الأديان الأخرى، كالمسيحية والبوذية. إنه يشبه تماماً الزواج المدني في مكتب مسجل العقود أو أمام القاضي - في الغرب-. غير أن بالإمكان، طبعاً، الدعاء والصلاة- الدعاء بالرفاهية والسعادة والصحة الحسنة، ولكنه ليس بالإمكان أن يكون هناك طقوس دينية تتعدى ما ذكرنا، مما يعود في الواقع إلى الاختيار الشخصي. فليس في الإسلام، إذن، أو عند الإسماعيليين، إلا ذلك النوع من الزواج الذي يتم بناء على الرضا المتبادل، والتفاهم المتبادل. وكما أشرت سابقاً فإن كثيراً من عمل المجالس الإسماعيلية وممثلي الإمام في جميع الجاليات الإسماعيلية هو أن تتأكد من أن الزيجات قد جرى تسجيلها تسجيلاً صحيحاً، وأن الطلاق، مع أنه ليس إثماً، لا ينفذ إلا عندما لا يتسبب في الإضرار بمصالح أي من الفريقين، وبحيث يضمن للنساء أكبر

قـدر ممكن من الحـمـايـة، وأهم من كل ذلك بحـيـث يضـمـن الإنفـاق عـلى الصغار.

لقد شـهدت السنوات السبـعـون الماضـيـة تقـدمـاً ثابتـاً مطرداً حـقـقـه الإسماعيليون حيثما حلوا. وفي أيام الإمبراطورية العثمانية، وتحت حكم السلطان عبد الحمـيد، عـانى الإسماعـيليون درجة قصوى مـن الاضطهاد. وإذ كانوا يـشكلون أقليـة، فـقـد لاقـوا، شأن أقليـات مـتـعـددة أخرى في الإمبراطوريـة، الضيق والمصاعب، وزجّ بكثيـر من زعـمائهم في السجـون في السنوات الأخيـرة من حكمه الاستبدادي. غير أن فتـرة الاضطهاد هذه انتـهت بقيـام ثورة تركـيـا الفـتـاة. والآن، بالرغم من جـمـيع التنقـلات والتبدلات السياسية الواسعة التي تعرض لها العالم، فإني أعتقد أن من الممكن الادعاء بصورة خاليـة من الغلو بأن حالة الإسـماعيليـين في العالم أجمع حالة مرضية؛ فجالياتهم، حيثما قطنوا، تشكل في المجتمع عنصراً سعيداً، محترماً لنفسه، مجداً ومتقيداً بالقانون.

ما هي سياستي تجاه أتباعي؟ إن ديننا هو ديننا، فأنت إمّا أن تؤمن به أو لا تؤمن. باستـطاعـتك أن تتـرك ديناً مـا ، ولكنـك لا تسـتـطيع، إذا لم تتقبل عقائده، أن تبقى ضمنه وأن تدعي " إصلاحه ". باستطاعتك أن تتخلى عن هذه العقائد، ولكنك لا تسـتطيع أن تحاول تبديلها وأن تقسم، مع ذلـك، على أنك تـنتـمي إلى المذهب الذي يقـول بهـا. إن كـثـيـراً من الناس تركـوا العـقـيـدة الإسـماعـيلـيـة، تمامـاً، كـمـا اعـتنقـهـا غـيـرهـم عـبـر العـصـور. هناك نـحو من عـشـرين شـخصـاً من أصـل مـلايين عـديدة- وهم طائفة صـغـيـرة في كـراتـشي وفي الهند- ادعـوا بأنهم كـانـوا إسـمـاعـيليين

ولكنهم دعوا أنفسهم مصلحين، غير أن الإسماعيليين الحقيقيين نبذوهم حالاً. إن العقيدة الإسماعيلية لا تتبدل، فقد ظلت هي نفسها ويجب أن تظل هي نفسها دوماً تغيير أو تبديل. إن أولئك الذين لم يؤمنوا بها قد تركوها محقين، ونحن لا نحمل لهم أي حقد أو ضغينة، بل نحترمهم لصراحتهم وإخلاصهم.

وماذا حول الإرشاد السياسي؟ لقد كان من عادة أسلافي، هذه العادة التي حافظت عليها محافظة تامة، أن ينصحوا الإسماعيليين دائماً بأن يكونوا رعايا مخلصين متفانين في الدولة التي هم مواطنون فيها، مهما كان دستورها ملكياً أم جمهورياً. فلا أجدادي ولا أنا شخصياً حاولت مرة أن أضغط على أتباعي كي يسيروا في هذه الطريق أو تلك، ولكنني قلت لهم بأن السلطة الشرعية في أي بلد يعيشون فيه يجب أن تحظى بولائهم التام المطلق. كذلك، فلو أن أية حكومة راجعتني وطلبت مشورتي لرعاياها، فإن هذه المشورة هي دائماً كما كانت مشورة أبي وجدي- أن من واجبهم أن يكونوا مخلصين وأن يتقيّدوا بالقانون، وأن عليهم إذا كانت لهم شكاوى سياسية أن يراجعوا حكوماتهم الشرعية، بإخلاص وولاء. لقد كانت جميع تعاليمي وتوجيهاتي لأتباعي تحقيقاً لهذا المبدأ: أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

أما على صعيد الإصلاح الاجتماعي، فقد حاولت أن أمارس نفوذي وسلطتي بتعقل وتقدمية، ولقد توخيت دائماً أن أشجع تحرير المرأة وتثقيفها. وفي أيام جدي وأبي، كان الإسماعيليون متقدمين على أتباع أي مذهب إسلامي آخر أشواطاً عديدة في مضمار إلغاء الحجاب الصارم

حتى في البلدان المتطرفة في التحفظ. أما أنا فقد ألغيت الحجاب بالكلية، فأنت لا تجد مطلقاً أية امرأة إسماعيلية تستعمل الحجاب. وفي كل مكان، شجعت على إنشاء المدارس للبنات، حتى في المناطق التي تكون فيها هذه المدارس مجهولة بالكلية. وباستطاعتي القول بكل فخر، إن أتباعي الإسماعيليين هم، في مضمار الرفاهية الاجتماعية، متقدمون أشواطاً على أفراد أي مذهب إسلامي آخر. وليس من شك في أن من الممكن أن تجد أفراداً حققوا تقدماً مماثلاً، ولكني مقتنع بأن ظروفنا الاجتماعية كمجموع- تعليم الفتيان والفتيات معاً، والزواج والعادات المنزلية، والإشراف على الطلاق، وإعالة الأولاد في حالة الطلاق الخ .... - متقدمة أشواطاً كبيرة. لقد كنا أول من استحدث القبالة، ودربنا الممرضات على أعمال الولادة قبل أية جالية إسلامية في الشرق الأوسط بزمن طويل. وتمكنت، بمساعدة من جمعية الليدي دو فرين للممرضات في الهند ومؤازرتها، وفي الوقت الذي كانت فيه الظروف العادية في هذه الأمور غير صحيحة إلى درجة هائلة تمكنت من تقديم نظرة حديثة إلى الولادة، مع قابلات مدربات، لا في بورما والهند وحدهما، بل وفي إفريقيا وسورية والعراق(كلما سمحت الظروف العامة).

وفي أفريقيا، حيث استطعت أن أقدم مساعدة فعلية ومشورة أيضاً، وضعنا مالية الأفراد ومختلف الجاليات على أساس متين للغاية. ولقد أنشأنا شركة للتأمين ازدادت قيمة أسهمها زيادة عظمى، وكذلك أنشأنا ما دعوناه بشركة توظيف الأموال، وهي في الواقع جمعية تقبض الأموال ثم تقرضها بفائدة بسيطة للتجار الإسماعيليين ولمن يودون أن يبتاعوا أو يشيدوا بيوتاً خاصة بهم.

لقد كتب الكثير من السخف حول ثروتي الشخصية. إن في الولايات المتحدة الأميركية مئات من الناس تفوق ثروتهم ثروتي، والكلام نفسه ينطبق على أوربا. ولعل القليلين من الناس، بالنظر إلى مدى الضرائب المفروضة، حتى في الولايات المتحدة، يمارسون إشرافاً على دخل كدخلي. ولكن هذا الإشراف يرافقه- كقانون غير مكتوب- حفظ مختلف المؤسسات الاجتماعية والدينية الخاصة بأتباعي الإسماعيليين، وفي النهاية لا يبقى منه لأفراد عائلتي ولي شخصياً- هذا إذا بقي شيء- سوى الجزء اليسير.

عندما أقرأ سنوياً عن ملايين الجنيهات، التي يفترض أني أملكها، فإني لا أعرف سوى أني إذا ملكت هذا القدر الهائل من المال كنت خليقاً بأن أخجل من نفسي. إن في ملاحظة أندروا كار نيجي قدراً كبيراً من الحقيقة: إن الرجل الذي يموت غنياً يموت محروماً. ويتعين عليّ أن أضيف إلى هذا؛ والرجل الذي يعيش غنياً، يعيش محروماً وأنا أعني بقولي " يعيش غنياً "، الرجل الذي يعيش وينفق على لهوه ومتعته بمعدل وعلى نطاق من العيش يفوق ذلك النطاق المألوف عند من نسميهم اليوم بطبقة الدخل العليا في البلد الذي هو مواطن فيه. أنا لست شيوعياً، ولا أومن أن مستوى عالياً من الحياة الخصوصية إثم وإساءة للمجتمع. أنا لا أشعر بأي خجل لاقتنائي ثلاث سيارات أو أربع، ففي الهند، حيث يأتي ويذهب من الخارج كثير من الناس، لدي دائماً عدد أكبر من السيارات أضعها تحت تصرفهم.

كذلك لا أجد عاراً في كوني صاحب إسطبل كبير لجياد السباق

أنوي أن أتحدث عنه قليلاً في الفصل التالي. لقد كان لعائلتي. كما سبق أن أشرت، علاقة طويلة شريفة بالفروسية بجميع أشكالها. ولو إنني عمدت إلى تحويل الإسطبل إلى بيت تجاري فلست أشك في أني كنت أجني أرباحاً طائلة في أي يوم من أيام الأسبوع. ولكن، لا جدي ولا أبي، ولا أنا نفسي، نظرنا إلى السباق كأمر يجلب الربح، ولكن كنوع من الرياضة التي يمكن أن تصبح، عن طريق الاهتمام التام والإدارة الواعية، مصدراً دائماً للمتعة لا لأنفسنا فحسب بوصفنا مالكي الجياد، بل للألوف- وللملايين في الواقع- الذين يتتبعون ألواننا في حلبة السباق، واعتبرنا إسطبلات تدريبنا مصادر ثروة للبلاد التي أنشأناها فيها وذات فائدة عملية من وجهة نظر حفظ نسل الخيل وتحسينه.

وهناك تهمة التبذير التي ألصقت بعائلتنا في الفترة التي كان يعيش فيها نحو من ألفي شخص ويطعمون على نفقتنا. ولكن هؤلاء الألفين لم يكونوا إلا من ذرية أولئك الذين هاجروا من إيران مع جدي، وتخلوا عن بيوتهم وأراضيهم وكنا، نحن زعماء الإسماعيلية، مسؤولين عن رفاهيتهم وإعالتهم. لقد عالجت هذه المسألة بأسرع ما استطعت، وبأكبر قدر من العناية، بحيث أن ذريتهم تنعم اليوم بسعادة أكبر بما لا يقاس، وتعتمد على نفسها أكثر مما كانت عليه في السابق بما لا يقاس، وليس في ضميري ما يؤنبني على الطريقة التي عالجتها بها.

كان من شأني أن أكون رجلاً شقياً إلى أعمق حدود الشقاء لو أنني امتلكت عشر الثروة الخيالية التي يقول الناس إنها تحت تصرفي، ذلك أني عندئذ كان لابد أن أشعر طيلة حياتي بأني أحمل ثقلاً ميتاً- لا

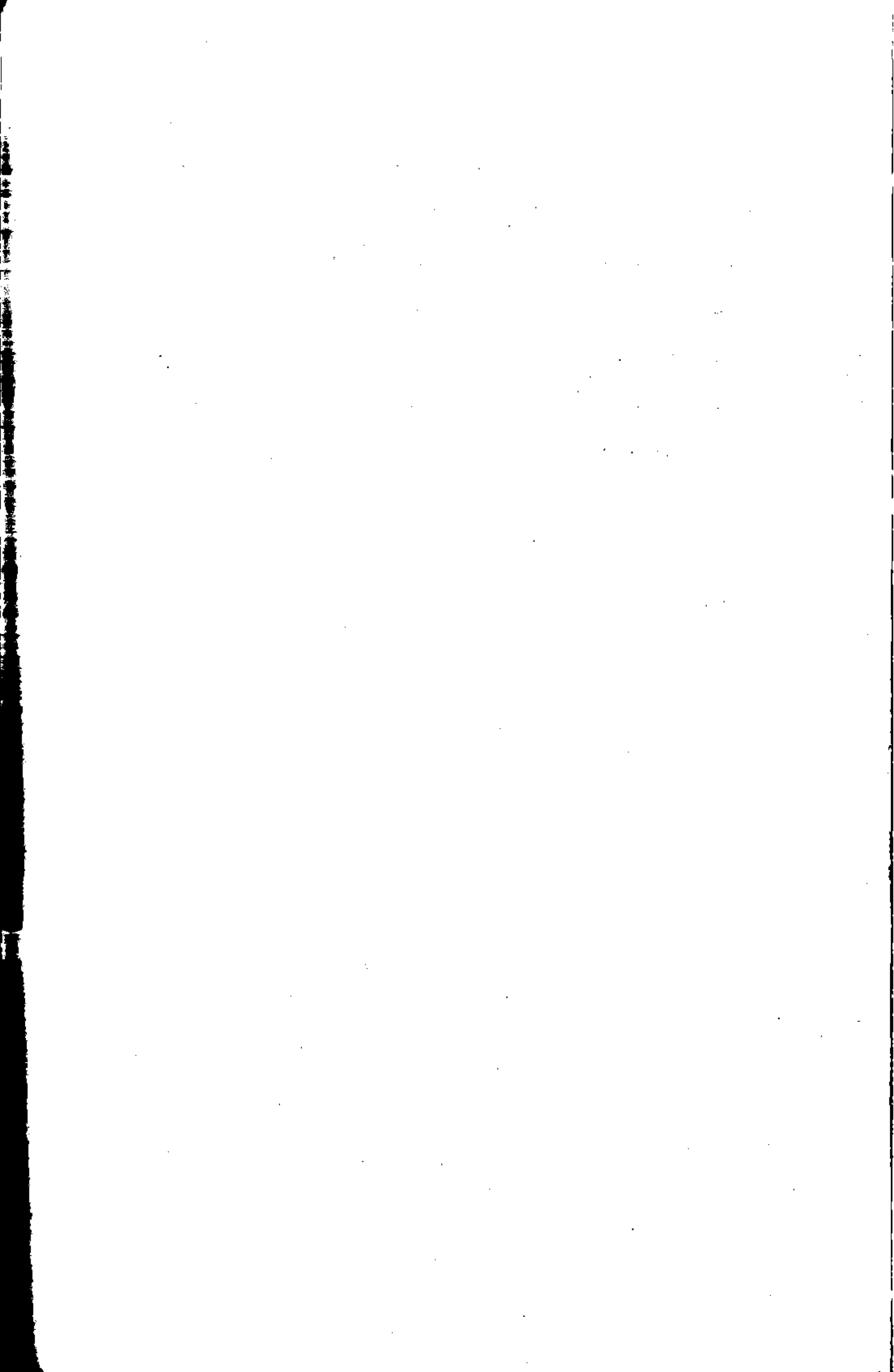
فـائدة ترتجى منه سواء لعـائلتي أو لأصـدقـائي أو لأتبـاعـي. فـالثـروة والمنافع المادية التي تجلبها هذه الثروة تؤذي، إذا ما تجاوزت حداً معيناً، بأكثر مما تنفع المجتمعات والأفراد على حد سواء.

وفيما يتعلق بطريقة حياتهم، فقد حاولت أن أنوّع النصيحة التي أسديها لأتباعي حسب البلد أو الدولة التي يعيشون فيها. وإنني لمقتنع بأن العيش هو كما يجب أن يعيشوا في مجتمع متعدد الأجناس، وأن نوع الحياة الاجتماعية ومؤسساتها التي تعطيهم أعظم الفرص لتنمية شخصياتهم، والتي هي، من الوجهة العملية، أكثرها فائدة، هي النوع الذي يجب عليهم اتباعه.

وقد نصحت الذين يعيشون في بورما باتباع طريقة بورما في الحياة لا أية طريقة أخرى. أما في البلدان الإسلامية، مثل سورية والعراق ومصر وإيران، فليس هناك طبعاً أية صعوبة إطلاقاً. ولقد اتبعت عائلتي في حياتها البيتية والاجتماعية الأسلوب الإيراني- الإسلامي، ولم يتطلب هذا الأسلوب أيما تعديل جذري حيثما عشت، حتى إن السيدات الأوروبيات اللواتي تزوجتهن الواحدة تلو الأخرى قد اكتسبن بسهولة وسرور مظهراً ونمطاً حياتيين إيرانيين- إسلاميين.

وأما في أفريقيا، فقد واجه أتباعي مشكلة حادة. لقد وصلوا إلى أفريقيا حاملين معهم عاداتهم الآسيوية، ونمطاً آسيوياً في الحياة، ولكنهم لقوا مجتمعاً في طور النمو يمكن أن يوصف بأنه أوربي- أفريقي. ولو أنهم احتفظوا بمظهرهم الآسيوي من حيث اللغة والعادات واللباس إذن لأشكل الأمر بالنسبة إليهم ولاتهموا بالابتذال في أفريقيا

المستقبل. أما في باكستان وبْهارات الحديثة، فإن من المرجح أن يتبع الإسماعيليون في المستقبل نمطين ثقافيين مختلفين. ففي غرب الباكستان هم يتكلمون على الأرجح اللغة الأوربية، أو ما كانت تدعى باللغة الهندستانية، وتصاغ عاداتهم الاجتماعية بناء على ذلك. وأما في شرق باكستان، فإن اللباس واللغة البنغاليين سيلعبان دوراً رئيساً في حياة الإسماعيليين. وفي بْهارات يتكلمون الكجراتية والمارثية على الأرجح. ومع ذلك فأنا واثق بأنهم ما داموا محافظين على دينهم، فإن أخوّة الإسلام ستوحد جميع الشعوب ذات المظاهر الاجتماعية وأساليب السلوك المختلفة، وستُبقي على تماسكهم الروحي.



الفصل التاسع

عملي في سباق الخيل

كان اهتمامي بالخيول و بأنسالها وتدريبها وسباقاتها قد رافقني طيلة حياتي، وشكّل بالطبع جزءاً من التقليد الذي ورثته والبيئة التي ترعرعت فيها. ولربما كان للفن الفارسي الذي عرض في مختلف معارض لندن وفي أمكنة أخرى، أثره في مساندة الرأي العام الغربي على إدراك الدور الهام والكبير الذي لعبته الرياضة في حياة الطبقة الحاكمة الإيرانية التي أتحدر منها. ولم يكن الطراد بأشكاله المختلفة هو مجرد لهو أو تسلية؛ بل عملاً استغرق منهم حياتهم كلها؛ فكانت كلاب صيدهم، وصقورهم، وخيولهم الأجمل والأسرع والأفضل مما يمكن توليده أو الحصول عليه. وكان جدي في صباه، عندما كان الصهر المفضل في بلاط الملك فتح علي شاه القوي، منشغلاً كلية بكل الرياضات التي تقام في الهواء الطلق، وبالهوايات المعروفة عند معاصريه من أفراد طبقة المجتمع الراقي. وبعد المحن التي ألمت به، وتوقفه عن التجوال واستقراره في بومباي، استأنف بطريقة طبيعية أسلوب حياته الذي لم يختلف كثيراً عما عرفه في ريعان شبابه. وكان ذلك، كما حاولت إظهاره من بداية هذا الكتاب، هو المناخ الذي أمضيت فيه طفولتي وصباي، وهو الذي ترسخ أول ما ترسخ في وعيي وتجربتي المبكرة.

عندما توفي والدي ترك وراءه مؤسسة رياضية ضخمة ومؤثرة- صقوراً وكلابَ صيد وما بين ثمانين إلى تسعين من خيول السباق. وقد قامت والدتي بتقليص قسم كبير من هذه المؤسسة، إلا أنها احتفظت بعشرين أو ثلاثين من رؤوس الخيل، وطيلة فترة طفولتي شاركت هذه الخيول بالسباقات العامة في جميع أنحاء غرب الهند باسمي وتحت رايات ألواني. وسبق لي أن قدمت عرضاً موجزاً لبعض النجاحات التي حققناها- أنا وابن عمي آغا شمس الدين، شريكي في السباقات- خلال تلك السنوات.

إحدى النتائج لهذه الشهرة البارزة في ميدان سباق الخيل الهندي هي أنني، بحلول سنوات صباي الأخيرة، حققت صحبة وصداقة عدد من الشخصيات الهامة والمؤثرة في دوائر السباقات، ومن هؤلاء كان الشقيقان اللورد وليام واللورد ماركوس برزفورد. وكانا الولدين الأصغرين لمركيز ووترفورد؛ وكان اللورد وليام على نحو خاص شخصية قوية وأصيلة بحد ذاتها، وكان سكرتيراً عسكرياً لثلاثة نواب ملك في الهند على التوالي، اللورد راين، واللورد دوفرين، واللورد لانسداون. وقد منحته الفترة الطويلة التي شغل فيها هذا المنصب الرئيس، والتي حاز خلالها ثقة كل رئيس من رؤسائه وحافظ عليها، منحته نفوذاً ثابتاً وسلطة على شؤون ذات مدى واسع متنوع- عسكرياً، واجتماعيا، وسياسياً، وديبلوماسياً- ووضعته في علاقة مع شخصيات أجنبية وملوك زاروا الهند، ومع أمراء الأسرة الحاكمة طبعاً. لقد كان فارساً لا يهاب، قيل عنه إنه قد كسر كل عظم من عظام جسمه أثناء سقوطه وهو يصطاد أو يلعب البولو أو في سباق الحواجز. وإبان هذه الأربعة عشر

عاماً من عمله سكرتيراً عسكرياً، أصبح واحداً من أبرز مالكي خيول السباق في الهند، منفرداً بنفسه ومشاركاً مع أميرين اثنين: مهراجا دربهانغا، الإقطاعي ذي الثراء الفاحش، ومهراجا باتيالا، الأمير البارز من أمراء السيخ. وكان يقال دائماً إن المراهنين كانوا يعيشون في خوف ورعب من اللورد وليام، لأنه كان بارعاً في فن المراهنة الصعب. لقد كان صديقاً لعائلتي ولي أنا شخصياً منذ صغري، وكنا نراه كثيراً كلما جاء إلى بومباي.

وعندما ذهبت إلى إنكلترا أول مرة سنة ١٨٩٨ اكتشفت- وكنت شاباً يافعاً بحيث تولتني الدهشة بسبب اكتشافي- أن قدراً عظيماً من نسبي الوراثي ومن اهتماماتي الشخصية بتربية الخيول وأنسالها وبميادين السباق كان معروفاً عني، ليس في دوائر السباق فحسب، بل وفي وزارة الهند، والبلاط وفي الحاشية الشخصية لأمير ويلز. إما اللورد وليام برزفورد أو شقيقه اللورد ماركوس- ولم أستطع البتة معرفة من منهما فعل ذلك- كان من قام باتخاذ خطوة تسجيل ألواني كمالك في إنكلترا. وكلاهما كان يعرف أن ألوان سباقات عائلتي في الهند كانت الأخضر والأحمر؛ وهما ألوان العلم الإسماعيلي أيضاً، وعندما كان أجدادي ملوكاً زمنيين- في كل من مصر وإيران- كان الأخضر والأحمر هما ألوان راياتهم. واكتشفت بعد تلكم السنوات أن ألواني المسجلة في إنكلترا كانت الأخضر ولون الشوكولا؛ واستفسرت من السادة (وذرباي)، الذين أخبروني أن الأخضر والأحمر لم يكونا متوفرين عندما حدث التسجيل؛ ولكنهم لم يتمكنوا من القول بخصوص ما إذا كان اللورد وليام أو اللورد ماركوس- أو أن أحداً ما غيرها- هو من اختار

لوني الأخضر والشوكولا. وتمكن ولدي الأكبر، بعد ذلك بسنوات عديدة، من الحصول على مزيج من الأخضر والأحمر؛ وكنت، بحلول ذلك الوقت، قادراً بلا شك على تغيير الألوان، لكن ألواني أصبحت محظوظة ومعروفة بحيث لم يعد من الحكمة، ولا من ناحية سياسية ولا عملية، تبديلها. أما في فرنسا وأوربا عموماً، إذا جاز لي القول، فإن ألوان سباقاتي هي، وكانت كذلك دائماً، الأخضر والأحمر.

لقد أصبحت على الفور عضواً فخرياً في نادي غراند ستاند في إبسوم. وأتذكر جيداً أن أول سباق جدّي لي كان في لقاء الربيع في إبسوم سنة ١٨٩٨، عندما رأيت الحصان راي رونالد العظيم يفوز بجائزتيْ المدينة والضاحية. إنني فخور بالاعتقاد بأنني قد أخبرت أصدقائي بأن هذا الحصان كان أصيلاً ومن المؤكد أنه سيترك بصمته في تاريخ أنسال الخيل الأصيلة- وكنت فخوراً على نحو خاص لأن هذا الفوز بحد ذاته لم يكن أقل، إذا ما أخذنا وزنه وعمره في الحسبان، من شيء رائع جداً. وحدث أني ذهبت لمشاهدة سباق الدربي، بعد ذلك بأسابيع قليلة، واخترت جواداً مغموراً يسمى " جدة " متوقعاً له الفوز. ومع أن حظه في ذلك كان قليلاً إلا أنه، ولدهشة الجميع، كان هو الحصان الفائز بجائزة الدربي. وعندما رآني أمير ويلز في المقصورة ناداني ضاحكاً وقال إن حصاناً يدعى(جدة) لابد وأنه ملكي بكل تأكيد.

وفي أسكوت، كنت قد حصلت على " علامة البيت الملكي" لأكثر من خمسين سنة؛ فأول من منحني تلك " العلامة"، كانت الملكة فيكتوريا، ثم أعيد منحها لي من قبل الملك إدوارد السابع، والملك جورج الخامس، والملك جورج السادس، والملكة إليزابيث الثانية على التوالي.

منذ البداية، لم يكن اهتمامي بالسباقات مؤقتاً أو لمجرد التسلية. فمنذ عام ١٨٩٨ وفيما بعد ذلك، ذهبت إلى اجتماعات السباقات في إنكلترا أو في القارة الأوربية وتتبعت أشكال الخيول بعناية فائقة. وكذلك لم أتغيب، قدر استطاعتي، عن أي اجتماع في الهند، سواء في بومباي، أم في بونا، أم في كلكتا.

وفي فرنسا، تعرفت سنة ١٩٠٥ على السيد و. ك فندربلت، الذي كان من أشهر الملاك في ذلك البلد. وبالرغم من أنه كان يكبرني كثيراً، إلا أنه اهتم كثيراً في إطْلاعي على كل أسرار إدارة إسطبلات سباقاته الضخمة. كما عرفني على مدربه، وليام ديوك، الذي أعطاه تعليمات صارمة بأن يسمح لي بزيارة إسطبلاته وأن أجرب خيوله متى شئت.

وكلما كنت في باريس، كان وليام ديوك يرسل إليّ، عندما يكون لديه تمرين أو تجربة هامة لحصان، ويطلب مني الحضور، وكثيراً ما كنت أذهب مبكراً إلى اسطبلاته وأشاهد تلك التجارب. وخلال هذه السنوات الست عشرة، منذ ١٨٩٨ وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى، كنت أراقب السباقات الأوربية، وتربية الخيول وتدريبها، لكنني لم أتخذ أي خطوة فعالة من جهتي؛ وقد أثارت مخليتي مجموعةٌ من الخيول وتركت فيّ انطباعات حية لا تمحى. كان هناك بالطبع العديد من الخيول الأخرى من ذات المستوى والجودة والنجاح، لكن ذكراها وذكرى أعمالها لم تستقر في ذاكرتي كما فعلت الأولى. ويمكنني القول دون تردد إن أسبق ما سبق من الخيول التي أثّرت في مخيلتي في إنكلترا كانا اثنين: تيترارك وسبيرمنت. ورأيت مهوراً من مثل سيبتر وبرتي بوللي، وأحصنة من مثل أردباتريك وصنستار في إنكلترا، وسردانبيل في فرنسا. لكن

سيبتر وبرتي بوللي كانا مهرين من أجمل ما عرفت، من حيث النوعية والطباع، وكان يمكن مقارنتهما بالحصانين اللذين أسميت. كلاهما كانت لديه السرعة والقوة وصحة الريح والعضو بمقياس مساوٍ لأي حصان. وكانا من الجودة بحيث اشتركا في السباقات حتى بلغا الخامسة من العمر، وتركت أنسالهما أثرها في استنسال الخيول في إنكلترا. غير أن نسل الذكر الأصيل عموماً يتفوق كثيراً، بلا شك، على نسل الأنثى. ولم تترك أي من هذه الأفراس أثراً مستديماً لقوتها كالذي استقيته من سبيرمنت وتيتراش في إنكلترا، ومن الحصان الفرنسي الرائع، بريستيج.

لست متأكداً ما إذا كان بريستيج أكثر خيول السباق التي رأيتها في حياتي تأثيراً. وكان السيد فاندربيلت يملك حصاناً آخر يدعى مينتينون كان كبريستيج، وكثيراً ما جرى تدريبهما على الجري معاً. كان مينتينون حصاناً جيداً وفاز بجائزة الدربي الفرنسية، لكن في حالات الجري الشاق كان يقصر عن بريستيج بما لا يقل عن عشرين طولاً. وقد أخبرني ويليام ديوك، الذي أشرف على تدريب الحصانين، مرة بعد أخرى، أنه لا يمكن جمع الحصانين معاً في السباق بأي وزن إضافي- ولا حتى بثلاثة أحجار. لكن من سوء الطالع أن بريستيج لم يشارك في أي سباق، ولو شارك لكان حقق الفوز عدواً لا جرياً سريعاً. فهو لم يهزم إطلاقاً ولم يخرج من جري، لأنه ما من أحد أدرك القوة الاحتياطية التي كان يمكن له استخدامها فيما لو دعي إلى ذلك. وكانت القصة ذاتها في جريه التدريبي الصباحي. وكان الجوكيون الذين يركبونه يخبرون ديوك أنهم كانوا يخافون حقيقة دفع بريستيج للجري، ولا حتى بهمزه قليلاً، خشية أن يجري ويشرد بهم.

كان حقاً حصاناً جميلاً خلوقاً، ولم أفهم، حتى هذا اليوم، لماذا قام السيد فاندربيلت ببيعه رخيصاً واحتفظ بفحول أقل تأثيراً بكثير. صحيح أن بريستيج لم ينجب أبداً أفراساً جيدة، لكنه يبقى أباً لسرد نابل.

وعندما كان سرد نابل في أوج قوته ومجده، وكان قد فاز لتوه بجائزة باريس الكبرى ودربي فرنسا، اندلعت الحرب العالمية الأولى. وكنت آنئذ، وكما دوّنت سابقاً، في أفريقيا. وعندما عدت إلى أوربا وجدت أن سباق الخيل قد تعطل في كل جوانبه، فأنا نفسي كنت منشغلاً ومنغمساً بشدة في خضم الأحداث والأفعال التي وصفتها. ولم أذهب إلى أي ميدان سباق ولم أتابع أياً منها بأي شكل من الأشكال حتى سنة ١٩١٩، عندما أقيم أول سباق دربي في فترة ما بعد الحرب في إبْسوم. ومنذ ذلك الوقت وحتى ١٩٢١ عدت إلى ممارسة عادتي بالذهاب إلى أي لقاء مهم للسباق، كلما كنت موجوداً في إنكلترا، أو فرنسا، أو بلجيكا، أو إيطاليا، أو الهند، أو مصر. وكنت قد اتخذت قراري منذ فترة طويلة- منذ تسعينيات القرن التاسع عشر- لامتلاك بضعة من رؤوس الخيل في أوربا، لكن وفاة ابن عمي العزيز، آغا شمس الدين، الذي كنت أنوي مشاركته في افتتاح هذا الإسطبل في أوربا سنة ١٩١٠، وضعت حداً لآمالي كلها ولأية أفكار تتعلق بهذا الأمر.

وفي أحد أيام ربيع ١٩٢١، وفي حفل عشاء في منزل السيدة إدوين مونتيغ، وجدت نفسي أجلس إلى جانب السيدة إسكويث، وهي زوجة أحد أولاد رئيس الوزراء السابق، وشقيقة للسيدة جورج لامبتون. وقد تحدثنا في شؤون الخيل وحثتني بأقصى همتها للقيام بتربية الخيل والسباقات في إنكلترا.

قـالـت: " لماذا لا تبـعث إلى شـقـيق زوجي، جـورج، وتطلب منه أن يشتري لك بضعة مهور وحوالي*؟ "

وعندما عدت إلى غرفتي في فندق ريتز، جلست وكتبت ملحوظة إلى جورج لامبتون طلبت فيها منه المجيء إلي. وأثمرت محادثتنا؛ إذ عـرّفني إلى ريتـشـارد داوسـون، الرجل الرياضي الايرلندي المعـروف، واقترح عليه أن يتولى أمور التدريب لي، في حين وافق هو نفسه على شراء بضعة حوالي لي. وعندما عدت إلى باريس، بعثت في طلب وليام ديوك، الذي كان راعيه، السيد فاندربيلت، قد توفي، وأصبح بذلك حراً للعمل لصالح شخص ما آخر. وباشر عمله في شراء الحوالي وتدريبها لي في فرنسا؛ أما في إنكلترا فكان السيد لامبتون هو من يشتري لي الخيل والسيد داوسون يقوم بالتدريب. ثم بدأت أنا نفسي بدراسة أنسال الحوالي التي كان يؤتى بها للبيع في دوفيل ودونكاستر. وانتقيت من بين حوالي دونكاستر على وجه الخصوص واحدة أصبحت إحدى الأفراس التي أسست عليها أنسال خيلي، والتي سميتها تيريسينا. والتقطت حولياً آخر في الوقت نفسه من الأب المولد ذاته؛ تراسيري. فأبرقت إلى لامبتون وكتبت رسالة بالبريد السريع إلى داوسون أحثهما على شراء هذا المهر. ولم يكن هذا المهر سوى بيبرس، الفائز بجائزة الدربي لعام ١٩٢٣. ولكنه لم يعجب لامبتون الذي وجده صغيراً في حجمه ومن النوع العادي. وهذا برهان على أنه يجب أن لا يغرنا شكل الحولي وحجمه، طالما أن أرجله سليمة وليس ضخم الجثة ولا قزماً. وفضلاً عن العامل المهم الأساسي المتعلق بنسل الحوالي، فقد كانت لدي قاعدة أحكم

* - الحوالي هي الخيل التي أكملت سنة من عمرها

بها على الحولي، هل سيكون طويلاً جداً وثقيل الوزن أم إنه لن يتعدى كونه مهراً صغيراً؟ هل تبدو أرجله قوية بما يكفي لاجتياز اختبار الأرجل والعدو وما شابه ذلك من أمور التدريب؟

الجمهور العام يظهر اهتماماً بالسباقات، وله أفضلياته، وما يحبه، وما لا يحبه، لكن أناساً قليلين يفهمون حقيقة الأسس التي يقوم عليها فن تدريب حصان السباق. وهذا الأمر يشبه تماماً تدريب الملاكم. فالملاكم، والمصارع، ورافع الأثقال يقوم بإعداد كامل جسمه وعضلاته ومقدرته على تحمل التمارين، عن طريق تمرين العضلات المتنوعة والحركات التي يمارسها يومياً وفق برنامج معد إعداداً جيداً، يقوم باستحضار ذلك كله وذروة استعداداته التامة من أجل مباراته الحاسمة.

وبالطبع لا مجال مع الحصان لأن يترك وحده يقوم بكل التمارين الانضباطية المعدة علمياً والتي يمكن للإنسان الرياضي القيام بها وحده. فهناك طريقة واحدة لتقوية عضلات الحصان- والطاقة العصبية التي يجب أن تتولى الاهتمام بتلك العضلات- وهي المسير والركض، والقفز بدرجة معينة، إذا ما كان ذلك ضرورياً. والمدرب العظيم هو من يعرف كيف يلائم نموذج هذه التمارين بحيث تحصل خيوله وهي في ذروة قوتها الفيزيولوجية، نشيطة ومستعدة وطاقتها العصبية في ذروتها، تحصل على ذلك في اليوم الذي هو أكثر أيام مهنتها أهمية، تماماً كما أن المكافح من أجل الجائزة والذي يفوز بها هو الذي يكون في قمة هيئته عندما يخطو إلى داخل الحلبة في ماديسون سكوير غاردن.

وذكرياتي عن ثلاثين سنة من السباقات الأوربية، من ١٩٢٢، عندما شوهدت ألواني لأول مرة في حلبات إنكلترا وفرنسا، إلى ١٩٥٢ لا تحصى في تنوعها بكل ما يتعلق بكلا الرجال والخيول.

هناك الكثير من الرياضيين العظام يغدون ويروحون عبر شاشة ذاكرتي- رجال انكليز، وأميركان، وفرنسيون، بكل ما يتمتعون به من خصائص فردية، ونظرتهم وأمزجتهم. وإني أستذكر على الفور ،على سبيل المثال، السيد جوزيف وايدنر من فيلادلفيا، وأحد أقرب أصدقائي، من بين الأميركيين. كانت لديه آراء قوية بخصوص توليد الخيول، ولاسيما بخصوص موضوع أهمية الأم المولدة مقابل الأب المولد في تأصيل النوع. قلت له مرة بما أنه كان مقتنعاً بأن الأمومي أكثر أهمية من الأبوي، فإنه، إذا ما طبق نظرياته هذه على البشر، سيجد أن العائلة تتدهور بسرعة ما لم يقدم شبابها على الزواج من فتيات من ويدنر. فهل كانت دعابتي لطيفة؟ على كل حال، كان لطيفاً بحيث ضحك منها.

وكان صديقي المرحوم اللورد ويفرتري شخصاً آخر ممن علقوا أهمية قليلة على الأب المولد وأهمية أكبر على الأم المولدة. بل وذهب اللورد ويفرتري أبعد قليلاً من أي شخص آخر عرفته بالاعتقاد بأنه إذا ما كانت أفراسك جيدة فإنها تولد نسلاً جيداً بغض النظر عن نوع الخيل الآباء التي يلقحونها. أما رأيي الشخصي فهو أنه عليك أن تحاول تأمين الأفضل والأنسب لاستنسال الخيل عبر كل من الأب والأم، بانتقاء ومعاينة أنواعها حتى تصل إلى أقرب درجة من الكمال. ويعتمد النجاح على إذا ما كان المهر يأخذ من أمه ومعظم أسلافه لأمه أو يأخذ من أبيه ومعظم أسلافه لأبيه. وهكذا، فلن تستطيع مع حصانين شقيقين القول إنهما سيملكان خصائص متشابهة أو مختلفة ما لم يكونا توأمين. فمن الممكن لأحدهما أن يظهر صفات الأب المولد ويكون حصاناً عظيماً جداً؛ ويمكن لآخر إظهار صفات الأم ويكون حصاناً ضعيفاً. ومن الممكن، من

جهة أخرى، أن يمتلك كلاهما أو أحدهما صفات الأسلاف الأمومية للأب أو الأم، ويكون فاشلاً. وهكذا، وبعد قدر كبير من الدراسة والتفكير المتمعن وتقديم الخبرة، توصلت إلى الاستنتاج بأنه ما زال عليّ ترك الأمور للحظ، لأن من المستحيل القول مقدماً بأن حصاناً ما يمتلك أنقى دم في العالم، سيكون جيداً، ومن الممكن أن يكون شقيقه أو شقيقته، بغض النظر عن ذلك، قد برهن على أنه كذلك.

وكنت قد نصحت السيد لامبتون بأن يشتري بعض الأفراس الممتازة، فانتقى لي بعضاً من أجملها كالفرس ممتاز محل وغيرها، إضافة إلى اثنين من الأمهار الجيدة. غير أن نجاحي الفوري يعود، بقناعتي، إلى حقيقة أنني استخدمت أعظم مدربي العصر، اللذيْن توليا الاهتمام بخيولي وهما وليام ديوك وريتشارد داوسون.

لاشك أنه يوجد اليوم مدربون من أصحاب الكفاءة والمقدرة مثل ريتشارد داوسون، لكن لا أعتقد أن هناك من هو في شجاعته المتفوقة- إذا أغفلنا ذكر مدام تيسيو الإيطالية. وميزة داوسون العظيمة هي استعداده للمجازفة بكل شيء من أجل جعل حصانه في أفضل حالاته، بعضلات تصل إلى حد الكمال، استعداداً لأعظم حدث في حياته. وما أسمعه اليوم عن أن الطرائق الشائعة في التدريب في إنكلترا وعند معظم المدربين، هي أنها أكثر طراوة. والمدربون اليوم يجنبون خيولهم الكثير مما كان يفعله داوسون وديوك أو ربما فرانك بطرز، أعظم المدربين على الإطلاق.

هناك الكثير من التدليل اليوم والكثير أيضاً من القطن- الصوف. وبما أن جميع المدربين تقريباً ينتمون اليوم إلى الآراء السائدة والشائعة

فليس هناك ما يهم كثيراً، ولكني أعتقد أنه إذا ما جرت مقابلة أي واحد منهم بأحد الرجال القساة من الماضي أو بمدام تيسيو، فإنه سيظهر في صورة سيئة. والسبب في ذلك بلا شك هو أنه في الأيام الغابرة، كانت أعداد كثيرة من الخيول تتعرض للكسور أثناء عملية التدريب. وأخبرت أن جيلبن، أحد أعظم مدربي الفترة الماضية، قد تسبب بكسر الحصان الذي كان يدربه قبل أيام قليلة من سباق الدربي، وكان يتوقع له الفوز فيه. ولم يظهر على جيلبن أي انزعاج؛ بل وإنه لم يعتذر لصاحب الحصان، وقال، وكان محقاً في ذلك، إنه لو أعفى الحصان من الجري في المضمار الذي تعرض فيه للكسر، لما كان له أن يفوز بجائزة الدربي، وإنه كان من واجبه اتخاذ كل ما من شأنه تحقيق الفوز بدلاً من ضمان الفشل بتحضيرات سيئة أو غير كافية.

ومنذ عام ١٩٣١ وفيما بعد ذلك، كنت محظوظاً جداً باستخدام صديقي، السيد فرانك بطرز كمدرب لخيولي التي كنت وعائلتي نكّن لها أعظم التقدير. لقد كان السيد بطرز، الأكثر بشاشة من البشر الذي تأمل مقابلته، وذو الطبيعة النقية والصافية كالماس لكنه ليس في قساوته، كان واحداً من أعظم وأنجح المدربين في العالم. فقد بدأ مهنته في النمسا وهنغاريا وارتفع فوراً ليتربع على قمة مهنته. وارتحل إلى إيطاليا وتربع هناك أيضاً على قمة هذه المهنة. وتولى فيما بعد الإشراف على إسطبل اللورد ديربي وحقق هناك نجاحاً كبيراً وأصبح رائداً في مجال التدريب. وعندما ترك اللورد ديربي وانضم إلي، تحولت الموازين إلى جانبي وأصبحت متصدراً في مجال استنسال الخيل وملكيتها. وقد درّب لي عدة أحصنة رائعة مثل بهرام ومحمود وطهران وفردوسي، إلى جانب

الكثير من المهور ذات السنتين من العمر. وحقق أيضاً نجاحاً حتى في تدريبه للخيول العادية حيث كان قادراً على الحصول على أفضل ما عند الحصان من قدرات وميزات.

كان بطرز وديوك متشابهين من بعض النواحي، وبشكل خاص في أن كلاً منهما لم يعلق أهمية كبيرة على المظاهر الخارجية للحوالي التي كانت تأتي إليهما، كما كان يفعل معظم المدربين الآخرين. واعتاد ديوك الخروج عن دربه والذهاب إلى الناس الذين يختارون الحوالي بناء على شكلها وبنيتها ومظهرها، حيث كان ممن يعتقدون بأن الواحد من الحوالي شبيه بالآخر إذا ما تلقى تدريباً جيداً وكان يتمتع بصفات طبيعية وصحة وطاقة عصبية مناسبة- والأهم من ذلك كله- أنه ذو مقدرة على الراحة والنوم. وعندما كان يشتري الحوالي لي فإنه لم يكن يعنى بالتدقيق فيها مطلقاً، بل وأشك أنه كان يعيرها ثانية من تفكيره. وإذا ما أخفق في إتمام صفقة شراء أحد الحوالي، فإنه لم يكن ليشعر بالخيبة قط وإنما يضحك ويقول: ربما التالي أفضل من الحالي. وبدا الأمر بالنسبة له كمن يضع الأرقام في قبعة ثم يخرجها- إضافة إلى ثقة مطلقة طبعاً بطرائقه الخاصة في التدريب. فكان اعتقاده محصوراً في ذاته لا في الحوالي. وقد استخدم في إدامة صحة الحصان وطاقاته العصبية الفيتامينات والطرائق الطبيعية الأخرى قبل شيوعها بفترة طويلة، وكان ديوك رجلاً له عدد من الأعداء الذين كان مصدر عداوتهم له هو الغيرة. أما أولئك الذين خسرت حواليُّهم الغالية الثمن أمام حواليِّ الرخيصة التي اختارها ديوك، فكانوا مستعدين للتكهن بأن ديوك كان يستخدم المنشطات. وهذا كلام بعيد عن الحقيقة كثيراً. كان يضحك ويخبرني أن منشطاته

هي الطعام من درجة أولى، ومقدار كبير من أعشاب البرسيم الطرية، وفيتامينات والكثير من الهواء النقي في حجرات الإسطبلات وعمل شاق كثير لكل حصان.

أما فرانك بطرز فلم يكن يحتاج أبداً، من ناحية أخرى، لاستخدام السباق كوسيلة لتحضير خيله. فإذا ما كانت خيوله ذات العامين من العمر قادرة على الفوز، فإنها كانت تفوز من أول مرة تخرج فيها إلى السباق. فبهرام العظيم، على سبيل المثال، شارك بسباق واحد له قبل الدربي، وفاز به كما فاز بالدربي فيما بعد.

وكثيراً ما كان يوجه إليّ السؤال: ما أعتبره أعظم حصان ربيته، حتى ظهور توليّر على المسرح، كنت سأجيب بلا تردد إنه الحصان بهرام. لكن توليّر أظهر مقدرة معينة في فعل ما هو مناسب فحسب، مما يجعل من الصعب تقدير حدود إمكانياته بالمقارنة مع بهرام. ربما كان بهرام أكثر الخيل التي رأيتها إظهاراً للسيطرة، حيث بدا وتصرف منذ بداياته كبطل، أما جري بهرام فكان أشبه بكلب الصيد الرمادي. كنت في طفولتي أشاهد الثعلب الطائر يجري ورأسه في خط مستقيم مع جسمه، تماماً كما هي الحال مع توليّر، أو ربما أخفض قليلاً. ومن ناحية عملية، كانت الخيول تجري ورقابها في مستوى أعلى قليلاً من أجسامها، وبعضها كان يجري برؤوس مرفوعة. أما توليّر والثعلب الطائر فكانا مستثنيين من هذه القاعدة بشكل لم تسبق لي رؤيته. لكن اللورد روز بري الحالي كان قد أخبرني، وهو الشخصية الإنكليزية البارزة في ميدان السباقات- وما أعظم الأسف لأنه لم يشارك في إدارتها- أن الحصان إكلبس، الجد الأكبر لجميع الخيول الأصيلة في العالم، اعتاد الركض

ورأسه ينخفض إلى أسفل وكأنه كان يشم الأرض. وكان توليّر يركض كرصاصة وبخط مستقيم كالسهم. لكن علينا مواجهة الحقيقة القائلة بأن توليّر- خلافاً لبهرام- كان حصان سبق عظيماً لفترة قصيرة. فبينما كان بهرام الفائز بجائزة الدربي لأطول فترة في الأزمنة الحديثة، كان توليّر كذلك لأقصر فترة. ولا مجال لتجاهل القول القديم: " الجيد الكبير أفضل من الجيد القليل. "

غير إني لست متأكداً إذا ما كان هناك جانب آخر لهذا السؤال. ولقد أخبرني قضاة حكيمون كثر- من مثل فرانك بطرز والمرحوم كابتن غرير- أن مربي الخيل الإنكليز بالغوا في مسألة الحجم والعظم، وإننا بحاجة لمدى جري أقل لفحل من أجل تركيز الحيوية التي غالباً ما نجدها في رجال وحيوانات من حجم صغير. وأعتقد أن هناك الكثير من الصحة في هذا الرأي، ولذلك فإنني سعيد بالاعتقاد بأن توليّر سيبقى في إيرلندا يؤثر في الأجيال الجديدة ويقلل من أهمية المبالغة في التأكيد على الحجم والعظم. وكان للكثيرين منا أمل في أن الحصان منّا- وهو حصان صغير الحجم وفائز بجائزة الدربي- سيساعد في استبعاد أثر الحجم. لكن منّا فشل، مع الأسف، بالمقارنة مع غيره. أما هايبريون العظيم فكان بالطبع حصاناً صغيراً، وواحداً من أعظم فحول كل العصور. لكننا بحاجة إلى أكثر من هايبريون واحد إذا ما أردنا التغطية على الميل الحاضر والتضحية بالحيوية والطاقة العصبية لصالح العضلة والعظم.

وعندما أنظر بهذه الطريقة إلى ذكرياتي الماضية بخصوص ملكية الخيول وتربيتها وسباقها، فإنني لا أقترح تقديم رواية مفصّلة عن نجاحاتي وجوائزي ومبيعاتي للخيول الأصيلة وغير ذلك. لأن من يرغبون

في مثل هذه التفاصيل فإنهم يجدونها في كتاب " دليل إلى التورف " لمؤلفه راف. وتمتد ذكرياتي بعيداً في الماضي إلى أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر، إلى جيل من الخيالة [مفردها خيّال وهو ما يعرف بالإنكليزية بالجوكي jockey]، والمالكين، والمدربين أيام زمان، وطرائق الركوب التي نسيت تماماً إلا في الرسومات والصور القديمة. كان هناك، على سبيل المثال، أول دوق لويستمنستر، الذي كان رقيقاً ولطيفاً في مظهره، إلا أنه انطوى على حدة شديدة في الطباع. فعندما أعلن كلادستون، وهو الذي كان منحه الدوقية قبل ذلك بزمن طويل، أنه يؤيد الحكم الذاتي لايرلندا، سارع بفجاجة إلى رمي صورة غلادستون خارج منزله أمام الجمهور. كان صغير الحجم نحيلاً- كما أخبرت- ومع ذلك كان يركب أفضل خيوله أثناء محاكمته. وكان له ولع شديد بالخياطة والأناقة: فكان يرتدي دائماً، ومهما كانت المناسبة، قميصاً أزرق وقبة زرقاء وربطة عنق زرقاء سواء مع معطف الصباح أو السترة الطويلة.

وفي أحد الأيام، دخل دوق ويستمنستر إلى إسطبلاته، فهاجمته فرس تدعى فامباير. فأمر على الفور بقتلها. فتوسلوا إليه بإعفائها ووافق في نهاية الأمر. وبعد سنتين أو ثلاث ولدت له مهرين، "الوطواط" و " الثعلب الطائر. "

وكان هناك أيضاً دوق بورتلاند، الذي أصبحت على معرفة وثيقة به في وقت متأخر، وهو الذي عدد لي نقاط التشابه بين حصانه الشهير بالقديس سيمون وحصاني بهرام، وذلك في أعقاب دربي عام ١٩٣٥ .

وهناك أيضاً السير ج. ب مابل، والد زوجة صديقي البارون إيكارد شتاين، والشقيقان روبن وأرثر ساسون وجميعهم كانوا من المغرمين

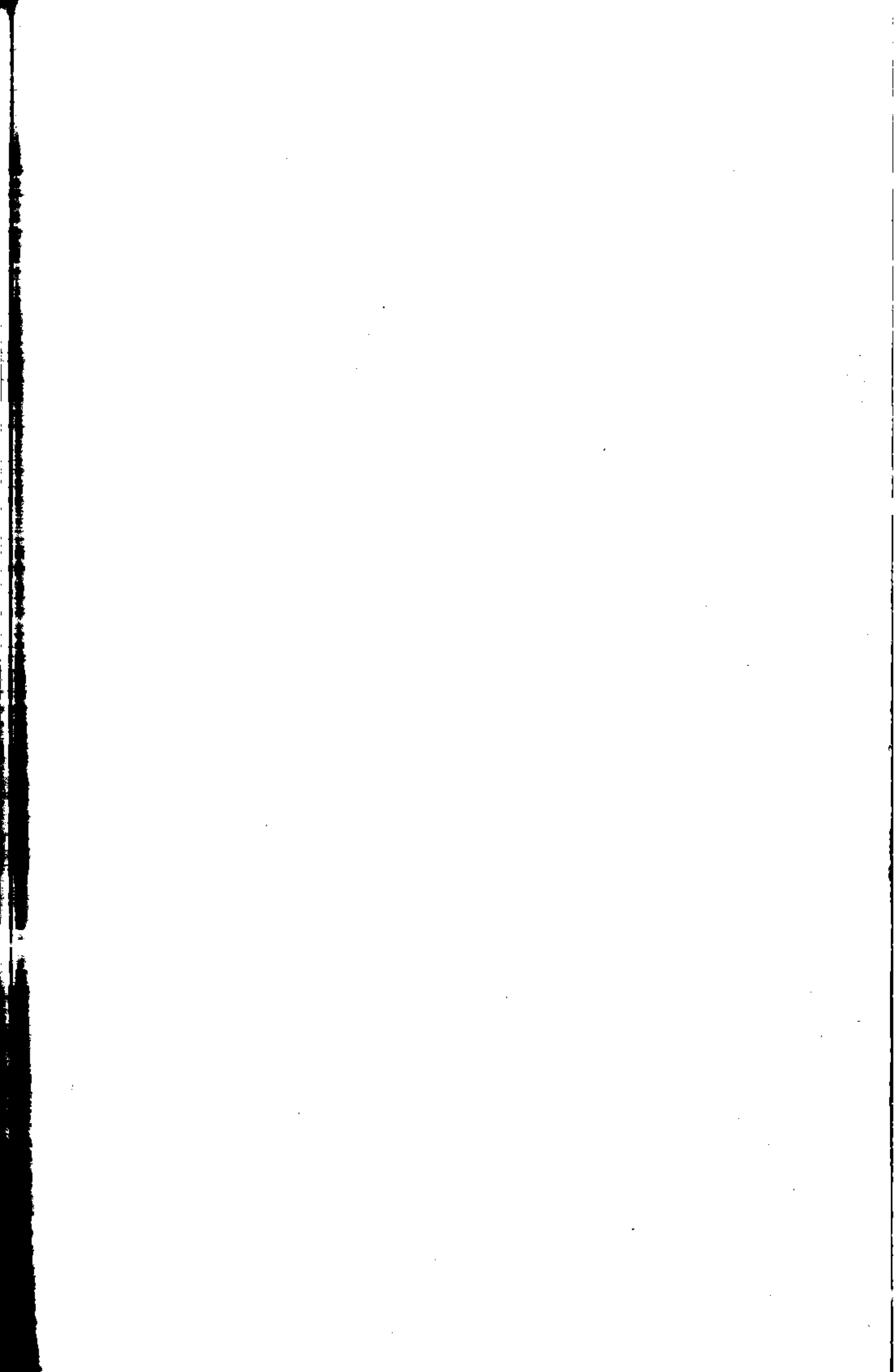
بالخيول وسباقاتها. أما الحدث العظيم في مجال السباقات القادم من أمريكا في أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر فكان، طبعاً، الثورة في ركوب الخيل. وكان اللورد وليام بيرزفورد قد أتى بتودسلون وسرجه الأميركي. واستهجن جميع المالكين الكبار من مثل دوق ويستمنستر ودوق بورتلاند، ذلك في بداية الأمر. لكن سلون قلب جميع الموازين. فقد فاز بالسباقات هو ومقلدوه الأميركان، الواحد تلو الآخر في إنكلترا وفرنسا. وكان على الأبطال من الطراز القديم، إذا ما كانوا عاجزين أو معاندين في التحرك مع الزمن والتغير، التخلي عن مهنتهم والتقاعد. ولم يمض وقت قليل على ذلك حتى جاءت وافدة منشطة أخرى من وراء الأطلسي أيضاً. وتسببت هذه بالقلق للجميع، واستغرقت سنوات عديدة حتى تم منعها نهائياً في إنكلترا وفرنسا وصار مستعملوها يعاقبون بصراحة. أما السرج الأميركي فكان، على كل حال، مسألة مختلفة تماماً. ويمكن القول إن أحداً لم يفكر، منذ تلك الفترة وفيما بعدها، بالعودة إلى استخدام مقعد الخيالة بمقدمته المنتصبة في السباقات. وكان ذلك في حد ذاته ثورة كبرى تعادل اكتشاف البارود في الحروب. ومما لا شك فيه أن هذا الأمر صحيح وحقق نتائج أثرت كثيراً في تحسين ما كان يجري في الماضي، لكن السرج القديم، من ناحية جمالية، بأبهته بالنسبة للراكب وللحصان يعتبر خسارة كبرى.

كثيراً ما تم توجيه السؤال إلي بخصوص مقارنة أفضل خيول اليوم بأفضل خيول أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. فهل ما هو الأفضل يتفوق كثيراً على أسلافه؟ ليس لدي أنا شخصياً أي تردد بالقول إن الكثير من التقدم قد تحقق في السنوات الخمسين

الماضية. ولم لا؟ ولو لم يكن الأمر كذلك، لكان السباق- بكل ما يتضمنه من طرائق معقدة لا تحصى من الاستنسال والتربية والانتقاء- قد فقد معناه وأصبح مضيعة للوقت. فغرض الانتقاء والاختيار الكلي في لقاح الخيول يسعى باستمرار إلى تحسين النسل بجعل الانتقاء الصناعي يساعد في عملية الانتقاء الطبيعي. ولدينا نحن مربي خيل السباق اعتقاد ثابت بأن الجمع بين هذين الأمرين يستطيع، إذا ما طبق بطريقة علمية واعية، إنتاج تطوير مستمر وثابت في الصفات والخصائص العرقية للخيل. وهناك اختبار زمني ليس لسجل الإنجازات فحسب، ولكن لمعدل السباقات على مدى أسابيع طويلة للمقارنة بين ١٩١٤، على سبيل المثال، واليوم. وهكذا، فإن إحصائيات الاختبارات تثبت، بلا شك، أن خيل اليوم تركض بشكل أسرع من خيل تلك الأيام. لقد ازداد معدل السرعة بصورة أكبر ما هو متوقع.

يخبروننا أن خيل الزمن الماضي تستطيع المحافظة على جري يفوق بمعدل مرتين أو ثلاث زمن الجري اليوم. وقد أنتجت الخدمات البيطرية في الهند جنساً مميزاً خاصاً بهم يعتقد أن الحصان الهندي العادي منها- الذي يسمى بكاتي- يتفوق على الحصان المنتقى بعناية لأنه يستطيع أن يسترسل في جريه بخطى ثابتة لأميال وأميال دون توقف. ولكن ماذا يفيد ذلك؟ لقد دربنا من أجل السرعة، ومن المؤكد أن الجواب على ما يقوله أولئك هو أن الخيل الإنكليزية الأصيلة لم تُعدّ للمحافظة على ستة أو تسعة أميال من الجري، أو لتسترسل في سيرها طوال النهار؛ إنها تستطيع أن تعدو بأقصى سرعة لبضعة أشواط ثم تستلقي وتغفو- ولندع خيول الكاتي تتهادى بعيداً- وتكون بهذا العدو المحدود قد

حققت كل ما هو مطلوب من الحصان دون الحاجة إلى إرهاقه. ومهما كانت مسافة الجري- طويلة أم قصيرة- فإن الحصان الأصيل سوف يهزم الآخر لأنه يتمتع بحيوية إضافية تقدم له الجهد اللازم. إن حصان السباق يعد لغرض محدد بشكل عالي الدقة، وإنه يحقق ذلك الغرض بشكل جيد. وتظهر الحقائق المطلقة المحتوية جميع نظريات الانتقاء والتربية- بالنسبة إليّ دون تعارض- أنه كان هناك تطور مستمر ثابت في نوعية خيول السباق الإنكليزية وعملية تربيتها واستنسالها.



الفصل العاشر

باتجاه وضعية الدومنيون - مؤتمرات الطاولة المستديرة

طيلة سنوات، ابتداء من عام ١٩٢٤ فصاعداً، لم أسهم في الحياة العامة إلا قليلاً. وفي الهند، نمت قوة الشعور الوطني باطراد خلال هذه السنين، وقويت زعامة المهاتما غاندي الشخصية وسلطته في حزب المؤتمر، ولم يكن من الزعماء من يقاربه في منزلته سوى النهرويْن، الأب والابن، وفالابهاي باتل. كانت هناك فترات من النزاع الحاد والقمع المفجع، وكانت هناك فترات من الهدوء والسكون النسبيين، وكان الشعور بين المسلمين بأن عليهم أن يحدودا مصيرهم بأنفسهم يتعاظم باطراد. وخلف اللورد ريدنغ تشلمز فورد كما جاء من بعد اللورد ريدنغ اللورد إيروين (اللورد هاليفاكس حالياً) الذي كان يحمل اسم إدوارد وود، والذي كان وزيراً في حكومة السيد بولدوين الأولى، ورجلاً مخلصاً ومتديناً أعمق التدين. وكان وَعْدُ بريطانيا بمنح الهند الحكم الذاتي بصورة تدريجية وعلى مراحل لا يزال القرار الأهم في العلاقات الهندية البريطانية. غير أن الهياج أخذ يزداد عندما بدت الحكومات المتعاقبة مترددة وكارهة لاتخاذ الخطوات الأولى نحو البر بهذا الوعد وتطبيقه.

ولم أكن في هذه الأحداث والاتجاهات إلاّ مراقباً مهتماً. ذلك أني

انهمكت في حياة خاصة مليئة بالأحداث والنشاطات. كنت أذهب إلى الهند كل عام، وكانت زوجتي تقطن في جنوب فرنسا. أما ولدي علي، فقد كان يعيش في إنكلترا مع أستاذه السيد وادينغتون(مدير كلية مايو في أجمير سابقاً) بعد أن تغلب على حالته الصحية الدقيقة إبان طفولته. وفي شتاء ١٩٢٣- ١٩٢٤ صحبتني زوجتي وولدي إلى الهند. وكان اهتمامي بسباقات الخيل في هذه الفترة عظيماً جداً. أما زوجتي، فقد كانت تتابع اشتراكي في سباقات الخيل في فرنسا لا في إنكلترا.

وفي عام ١٩٢٦ مرضت زوجتي ولم يبارحها مرضها طيلة ذلك العام. وقدّم الأطباء مختلف التشخصيات التي تراوحت بين عسر الهضم و " الأعصاب ". وفي القسم الأخير من السنة، أصبحت تعاني آلاماً مبرحة، مما جعل الأطباء يولون حالتها بعض الاهتمام، واقترحوا إجراء عملية استئصال الزائدة الدودية. وأجريت العملية في شهر كانون الأول، وعندئذ اكتشف الأطباء أنها لم تكن تشكو من الزائدة الدودية، وخيّل إليهم أنها بدأت تتقدم بصورة مطردة نحو الشفاء. غير أني كنت أقود سيارتي في منطقة " البوا "، وعندما عدت إلى المستشفى أنبأني القيّمون عليه بأنها توفيت في غيابي، وأن السبب في ذلك هو أن جلطة دموية قد أفلتت وسارت حتى قلبها فقضت عليها. وكانت عندئذ في السابعة والثلاثين من عمرها.

ومر أكثر من عام واحد . وفي أوائل عام ١٩٢٨ عرضت الزواج على الآنسة أندريه كارون من شامبري، أكس لي بان. كان قد مضى على معرفتي بالآنسة كارون اثنتا عشرة سنة، أي عندما كانت في الحقيقة فتاة صغيرة. كانت في الثلاثين من عمرها عندما عرضت عليها

الزواج، وترددت طويلاً قبل أن تقبلني زوجاً لها. ولم نتزوج إلا بعد مضي نحو من عامين، أي في كانون الأول من عام ١٩٢٩ . وقد سرت عندئذ أسطورة سخيفة، ابتدعتها ونشرتها الصحف- تقول إني التقيتها تعمل وراء عداد في محل لبيع الشوكولاعندما قصدت إليه لابتياع بعض الحلوى. والحقيقة أن كل كلمة من هذه الكلمات لم تستند إلى أي أساس من الصحة. بل إن ما حدث فعلاً هو ما يلي: عندما وصل نبأ اعتزامنا الزواج إلى الصحف، كان كل ما علمته هو أني كنت مزمعاً الزواج من فتاة تدعى كارون من تشامبري. وعندما ذهب المخبرون إلى تشامبري للبحث عن الآنسة كارون التقوا واحدة بهذا الاسم، وكانت تبيع المسكرات في محل لبيع الحلوى.

وقالوا: " تلك هي الفتاة. " وسارعوا إلى الاتصال بصحفهم يعلمونها أنهم قد اكتشفوا الآنسة كارون التي كان الآغا خان مزمعاً الزواج بها.

والحق أن الفتاة التي كانت تبيع المسكرات لم تجتمع بي إطلاقا، ولم تكن تعرفني. أما آنستي فقد كانت شخصاً يختلف تمام الاختلاف، ذلك أنها كانت تمتلك وأختها محلاً لخياطة أثواب السيدات في باريس، ولم تكن لها أية علاقة بالحلويات. ولكن الأسطورة انتشرت بسرعة، ولم تستطع الحقيقة اللحاق بها قط.

كانت حياتنا الزوجية سعيدة طيلة سنين عديدة أنجبنا خلالها ولداً واحداً أسميناه صدر الدين(ولدي الثاني)، وكان ميلاده في ١٧ كانون الثاني، ١٩٣٣ . كانت زوجتي ترافقني حيثما ذهبت، وفي إنكلترا استقبلها صاحبا الجلالة في عام ١٩٣٠ ووجها إليها الدعوة لحضور

الغداء في آسكوت. كانت تشاطرني حياتي الاجتماعية كلها بنشاط، وظلت كذلك سنين عديدة.

في غضون ذلك، جذبتني الحياة السياسية والعامة كرة أخرى. كان اللورد إيروين، نائب الملك، قد بيّن للهنود في بيان خطير، الهدف الذي يجب أن يضعوه أمام أعينهم من وجهة نظر الإنكليز، ولكنه لم يذكر على وجه التحديد الخطوات أو الطريق إلى ذلك الهدف.

قال اللورد ايروين: " بالنظر إلى الشكوك التي عُبِّر عنها في كل من بريطانيا العظمى والهند حول تفسير مقاصد الحكومة البريطانية في اشتراع قانون سنة ١٩١٩، فإنني مخّول بأن أذكر بوضوح أن هذا التفسير، في رأي الحكومة البريطانية، وارد في تصريح ١٩١٧ القائل بأن النتيجة الطبيعية لتقدم الهند الدستوري هي بلوغ وضع الدومنيون. "

ولقد قدّر لهاتين الكلمتين، " وضع الدومنيون" ، أن تركّزا وتربطا المطامح والآمال الهندية طيلة عقد من السنين أو أكثر، وأن تسوقاها في حمية ديناميكية نحو الاستقلال؛ وفي النهاية لم تنبثق دولة واحدة مستقلة ذات سيادة، بل دولتان- إسلامية وهندوسية- وهذه الأخيرة إنما قطعت بصورة تكاد تكون فورية حتى الصلة المعنوية ورفضت أن تدعى بلداً من بلاد الدومنيون، بل أعلنت نفسها (إذ كانت تملك الحق الدستوري والقدرة على أن تفعل ذلك) جمهورية ضمن الكومونولث.

غير أن كل هذا كان يتحتم السعي من أجله في عام ١٩٢٨- ١٩٢٩ . لقد اجتمع حزب المؤتمر في كلكتا وأعد مشروعه الخاص للحكم الذاتي ووضع الدومنيون؛ ولكن كانت تشوبه تلك الثغرة المميتة التي كانت تشوب جميع مشاريع حزب المؤتمر حتى النهاية- وأعني بخس(بل

تجاهل) مطالب المسلمين في أن يعتبروا أمة ضمن أمة. لذلك تنبه الرأي العام الإسلامي، وكانت لجنة ملكية(تلك الأداة البريطانية الكلاسيكية في معالجة المشاكل السياسية الخطيرة الدستورية أو السياسية في الوطن أو الخارج) تطوف أرجاء الهند وتجمع الشواهد بكميات كبيرة وبدقة متناهية. كان رئيسها السير جون سيمون، المحامي- السياسي العظيم، وكان عندئذ في أوج شهرته. وكان من بين أعضائها الرجل الصلب العنيد، كليمنت أتلي، الذي كان لخبرته ومعرفته بالهند أثر عميق ودائم. وكان نائب الملك قد أعلن أن مؤتمراً يجب أن يعقد، بعد أن تصدر لجنة سيمون تقريرها، بين الحكومة وممثلي الهند البريطانية وممثلي الولايات الهندية لمحاولة الوصول إلى اتفاق على الطريقة التي بوساطتها يجب تأمين التقدم الدستوري.

لذلك، فقد تقرر عقد مؤتمر إسلامي عام في دلهي في نهاية عام ١٩٢٨، يصوغ وجهات النظر الإسلامية حول الطريقة التي يجب أن يتم فيها تطوير الاستقلال الهندي. ولقد طلب إليّ أن أرأس هذا المؤتمر، وإنني لمقتنع من أنه قد كان الأهم في سلسلة المؤتمرات الطويلة التي دلت على الطريق إلى استقلال الهند النهائي التام. كان مؤتمراً تمثلت فيه مختلف ظلال الرأي العام الإسلامي، وبوسعي أن أدعي بأني كنت علة قراراته السياسية الخطيرة الدائمة. فبعد مناقشات طويلة كاملة وصريحة تمكنا من أن نتبنى بالإجماع سلسلة من المبادئ التي وضعناها في منشور، والتي كانت كما يلي:

" بالنظر لاتساع الهند وتعدد أجناسها، فإن شكل الحكم الوحيد الذي يلائم الأحوال الهندية هو النظام الفدرالي الذي يمنح الولايات التي

يتألف منها الحكم الذاتي التام والسلطات الباقية. إن حق المسلمين في انتخاب ممثليهم في مختلف المجالس التشريعية الهندية هو اليوم قانون البلاد، ولا يمكن للمسلمين أن يجردوا من هذا الحق دون موافقتهم. في المناطق التي يشكل فيها المسلمون أقلية، يجب أن يكون لهم تمثيلهم الذي لا يقل بأية حال عن الحق الممنوح لهم في ظل القانون القائم. ومن المهم أن يكون للمسلمين حصتهم العادلة في الوزارات المركزية والإقليمية. "

واتفقنا على أن نقبل تطبيق هذه المبادئ على الأقليات الهندوسية في السند والأقاليم الأخرى التي تسكنها أغلبية إسلامية، ولكننا ألحنا إلى أن نسبة عادلة من المسلمين يجب أن تعين في المصالح الحكومية. ولقد طالبت أنا نفسي بحماية الثقافة واللغات والمؤسسات الخيرية الإسلامية، وكذلك الدين وقانون الأحوال الشخصية الإسلاميين- هذه القضايا التي كافحت من أجلها وبأقصى استطاعتي عدداً طويلاً من السنين.

كانت هذه المبادئ التي أقررناها هي الأضواء التي يتعين علينا أن نسترشد بها في كل اجتماعاتنا بالممثلين والمفاوضين البريطانيين أو الهندوس، وبحكومة الهند أو بحزب المؤتمر، في كل مناقشة لمشاريع الإصلاح ومشاريع إدارة البلاد الجديدة. لقد كان لنا الآن قانوننا، ولم نكن ننوي أن نحيد عنه قط.

وكان الإجماع الذي تجلى في هذا المؤتمر مهماً بصورة خاصة، ذلك أنه كان بداية عودة السيد محمد علي جناح إلى الاتفاق مع إخوانه المسلمين. كان السيد جناح قد حضر اجتماع حزب المؤتمر في كلكتا قبل

ذلك بقليل، واستنتج أنه لم يكن يرجو شخصياً أي مستقبل في حزب المؤتمر أو في أي معسكر يسيطر عليه الهندوس، وهكذا كسبناه إلى جانبنا آخر الأمر.

فإذا ما كان بالإمكان تشبيه التطور السياسي والدستوري في الهند بمباراة صعبة وطويلة في الشطرنج(والمشابهة هنا غير دقيقة، من جهة ما، لأنه لابد من وجود ثلاثة لاعبين على الأقل في هذه اللعبة)، يمكن القول إذن إن الرقعة قد أعدت الآن للعبة مصيرية على نحو خاص، والأحجار في مواضعها، وإن هناك هدوءاً ملحوظاً بينما يفكر كل واحد من اللاعبين بالنقلة التالية. وشرعت لجنة سيمون في إعداد تقريرها، وجرت انتخابات عامة في بريطانية أسفرت عن استقالة السيد بولدوين وتشكيل رمزي مكدونلد حكومته العمالية الثانية. غير أنه بالرغم من أن حزب العمال كان الحزب الأقوى عددياً، فإنه لم يكن يملك أكثرية مطلقة في مجلس العموم. وكان يعتمد، شأنه منذ خمس سنوات، على تأييد الأحرار.

ولقد تبدلت الصورة العالمية بسرعة مذهلة إبان عام ١٩٢٩، وازدادت البطالة في كل بلد أوربي إلى درجة حملت رجالاً يائسين، في ألمانيا وغيرها، على البحث عن علاجات يائسة. وانبلج فجر قصير في العقد الثالث من القرن، غير أنه ما لبث أن اختفى ووجدنا أنفسنا على شفا ما وصفه ونستون تشرشل " بالعقد الرابع المخيف. "

ولقد أمضيت الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٩٢٩ في مصر وقمت بدراسة آثارها. وكان دليلي وأستاذي البروفسور نيوبري الذي رافقني في زيارة لجميع الأبنية الأثرية في وادي النيل وصولاً إلى معبد أبي سنبل في الصعيد الأعلى، ومن ثم العودة.

وكان المفوض السامي البريطاني في مصر، اللورد لويد، الذي سبقت لي معرفته جيداً في الهند عندما كان حاكماً ناجحاً لبومباي. وإذ كان جورج لويد استعمارياً من مدرسة كرومر وكيرزون، فإنه قد اصطدم سريعاً بحكومته في الوطن واستقال من المنصب الذي شعر أنه فقد فيه ثقتها. كان رجلاً موهوباً، وقد مات وهو شاب، وكان ذلك من حسن حظه لأنه، وهو ذلك المتعصب لعظمة الإمبراطورية البريطانية ودوامها، كان لابد أن يتألم إذ يرى زوال العلم البريطاني عن الهند وانقسامها إلى جمهوريتي بْهارات وباكستان.

لقد استقبلني اللورد لويد بحفاوة وإكرام بالغين، ولكني لم استطع إلا أن أشعر بعدم شعبيته من جميع أقسام الطبقة الحاكمة المصرية. فالملك فؤاد، الذي سبقت لي معرفته طوال ثلاثين سنة، والذي كنت على اتصال به بصورة خاصة عندما أرسلتني الحكومة البريطانية في مهمتي إلى مصر في الحرب العالمية الأولى، قد اهتم اهتماماً خاصاً بأن يدعوني إلى زيارته. وقد استقبلني الملك فؤاد في مقابلة خاصة لم يحضرها سوانا ودامت وقتاً طويلاً تحدثنا فيه حديثاً صريحاً، ولو كان محزناً. كان الملك مريضاً، مع أن أحداً لم يدرك خطورة مرضه. لقد بكى إذ ذكرني كيف كان هو نفسه يُهْمَل ويُخيّب، وكيف كان المفوض السامي البريطاني يرفض رفضاً قاطعاً أن يسمح بأن يكون له أي صوت فعلي في حكم بلاده.

قال الملك فؤاد الأول: " لقد حوّل كرومر عباس حلمي إلى دمية. أما لويد فإنه آخذ في أن يحولني إلى جثة. "وفي نادي محمد علي، حيث كان زعماء مصر يجتمعون ويتحدثون ويلعبون الورق ويستعرضون جميع

مشاريعهم وخططهم السياسية والتجارية التي لا حصر لها ولا حد، سمعت من صديق بعد آخر القصة نفسها: كان الفيلد مارشال اللورد اللنبي، الذي لم يكونوا يشكّون في عدله، قد بذل وعوداً جعلتهم يتوقعون استقلالاً متزايداً، ولكنهم وجدوا الآن أن الخيوط التي احتفظ بها اللنبي للمفوض السامي قد حولّها لويد إلى سلاسل من حديد- وهذه العبارة ليست لي وإنما سمعتها بحذافيرها من أكثر من وزير مصري واحد.

لماذا أظهر اللورد لويد، الذي كان في الهند متسامحاً وكان يتصرف حسب نص الدستور الذي كان يحكم بموجبه وحسب روحه، وجهاً مختلفاً إلى هذه الدرجة في مصر؟ لماذا تصّرف في الحقيقة لا كمفوض سامٍ بل كنائب ملك ذي سلطات مطلقة؟ ألا يمكن أن يكون الجواب أنه عندما كان في الهند حاكماً لبومباي، كان دستور مونتاغو- تشلمز فورد، الذي طبق مبادئه بتسامح وسخاء، يحصر الحكم الداخلي في بعض وجوه النشاط الإداري بصورة واضحة محددة، وأنه ضمن هذه الحدود الواضحة المحددة لم تكن هناك حاجة ولا عذر للويد في التدخل؟ أما في مصر فإن الصلة كلها كانت مائعة غير محددة، ولم تكن هناك خطوط واضحة تقسم وتحدد مناطق السلطة الخاصة بالملك ووزرائه من جهة، والمفوض السامي البريطاني من جهة أخرى.

لقد اعتبر المصريون أن الملك ومستشاريه كانوا وحدهم أسيادهم، لا في الأمور المتعلقة بإدارة بلادهم فحسب، بل في العلاقات الخارجية أيضاً، وأن وظيفة المفوض السامي كانت مجرد مراقبة مصالح بريطانيا العظمى والتأكد من أن مصر لا تتخذ أيّ إجراء ولا تشترك في أي عمل دبلوماسي معادٍ أو مؤذٍ لبريطانيا. أما جورج لويد، من ناحية أخرى،

فـإنه لـم يكن يرى أيما تحـديد واضـح لسلطاته أو سلطات الملك ووزرائه، وكان يدرك أنه إذا لم يفتح عينيه ولم يقبض على ناصية الأمور بيد من حديد فإن الزمام خليق عندئذ بأن يفلت من يديه.

أصـدرت لجنة سيـمـون تقريرها في صيف ١٩٣٠، وكـان تحليلهـا لتاريخ الهند السيـاسي تحت الحكم البريطاني ولوضعـها الحاضـر رائعـاً بقـدر مـا كـان واضحـاً جليـاً. غـيـر أنه خـيّب آمـال زعـمـاء حزب المؤتمر فـأفصـحوا عن استيائهم منه وسخطهم عليه. وكـان اللورد إيروين، نائب الملك، يقـضـي إجـازتـه في إنكلتـرا في الجـزء الأول من عـام ١٩٣٠ . وعندما عـاد إلى الهند، أعلن أن حكومـة جلالتـه مزمعـة على أن تعـقد مـؤتمراً حول طاولة مسـتـديرة في لندن لبـحث مـستـقبـل البلاد وإصـلاح دسـتـورها. ولـقد جـاء الإعـلان في وقت اشتـد فـيـه التـوتر، عندمـا كـانت حركة العصيـان المدني التي أعلنها غـاندي في أوجها، وكـان من شأن هذا الإعـلان أن يزيل التـوتر مـؤقتـاً. وهكذا اسـتطاع نائب الملك أن يسـتـقبـل، في جو سياسي أكثـر هدوءاً مما بدا ممكناً قبل ذلك ببضعة أسابيع، وفداً[1] لبحث تاريخ مـؤتمر الطاولة المستـديرة والأشخاص الذيـن سيشـتـركون فـيـه، وكذلك مسـألة العفـو عن المخالفين السيـاسيـين الذين سجـنوا لاشتـراكـهم في حـركـة العـصـيـان المدنـي. غـيـر أن الاتفـاق لـم يتم في هذا الاجـتـمـاع التمهيدي، فقد انسحب المهاتما غاندي منه ورفض أن يعطي أي تعهد بأن يحضـر حـزب المؤتمر مـؤتمر الطاولـة المسـتـديرة، وفي جلسـة عـقـدها المؤتمر الوطني في لاهور اتخذ قراراً باللجوء من جديد إلى العصيان المدني.

---

١ - كـان الوفد مؤلفاً من المهاتما غاندي ، والسـيـر تاج باهادور سابرو ، والبـانديت مـوتيلال نهرو ، والسيد محمد علي جناح ، والسيد باتال الذي كان عندئذ رئيس الجمعية الهندية الوطنية .

واحتفظ نائب الملك بموقفه الحكيم الودي. فإذا كان حزب المؤتمر لم يتعاون معه في البداية على أي حال، في محاولة الوصول إلى مخرج من أزمة الهند السياسية، فإن المحاولة لابد مع ذلك أن تجري، ولابّد من دعوة أكبر عدد ممكن من زعماء الفكر والشعور السياسي الهندي- من خارج صفوف حزب المؤتمر. إن السيد نهرو، في كتابه عن سيرة حياته الذي نشر في عام ١٩٣٦، عندما لم تكن قضية الاستقلال الهندي برمتها قد حلّت بعد، قد أبدى بعض الملاحظات الحاذقة على المؤهلات الشخصية التي كان يتمتع بها أعضاء الوفود إلى المؤتمر، وسيظهر التاريخ أن أولئك الرجال والنساء من ذوي النظرات والأسس المختلفة قد اجتمعوا وكلهم شوق إلى إيجاد طريق سلمي مشرف إلى الاستقلال والحكم الذاتي اللذين أعلن بصراحة تامة أنهما هما هدف الحكم البريطاني في الهند.

كان الوفد البريطاني مؤلفاً من رئيس الوزراء السيد رمزي مكدونالد، ووزير المالية اللورد سانكي، ووزير الهند السيد ودجوود بن (اللورد ستانسجيت يومئذ)، وممثل حزب المحافظين المعارض، السير صموئيل هور(اللورد تامبلوود يومئذ) الذي قدر له، في سنوات كانت فاصلة في مصير الهند، أن يصبح وزير الهند، واللورد ريدنغ من زعماء حزب الأحرار ونائب الملك السابق. أما وفد الهند البريطانية، الذي عُيّنتُ عضواً فيه، فقد كان يضم ممثلين مسلمين وهندوساً ومجوساً يمثلون مختلف الآراء السياسية، ومندوبين آخرين يمثلون جاليات متعددة صغرى. وكان من بين الممثلين المسلمين السيد محمد علي جناح، والسير محمد شافعي، والسير ظفر الله خان، ومولانا محمد علي، ومندوبتان

اثنتان: البيجوم شاه نواز والسيدة سوباروبان. ومن بين الممثلين الهندوس كان السير تاج باهادور سابرو، والرايت اونورابل سرينيفا ساساستري، والسير رامازوامي آيار، والسير تشيمانلال سيتالفاد، والسيد م. ر. جاياكار، والديوان باهادور راما موداليار. أما من بين الممثلين المجوس فكان السير فيروز سيثنا، والسير كوازجي جيهانكير، والسير هـ. ب. مودي، والسيد امبكدار(الذي ولد منبوذاً)، ممثلاً للطبقات المنبوذة، والسير هنري جيدي، ممثلاً للجالية الإنكليزية الهندية. أما الأمراء الحاكمون فقد مثلهم رجال أفذاذ من ذوي الأسماء اللامعة في مجال الفروسية الهندية، من مثل مهراجات بيكانار، وباتيالا، وبهوبال، وكشمير، وريوا، وجامناكار، وعلى رأسهم مهراجا بارودا، جيكوار. وكان يصحب كل مهراجا ديوانه- رئيس وزرائه- من مثل رجل الدولة الممتاز السير أكبر حيدري، والسير ميرزا إسماعيل وغيرهما من الرجال البارزين.

واجتمعنا في لندن في خريف عام ١٩٣٠، وكان لي الشرف بأن أنتخب رئيساً للوفد الإسلامي. ولقد اتخذنا فندق ريتز مقراً لنا حيث كان من عادتي منذ وقت طويل أن أقيم كلما جئت إلى لندن. ولا حاجة بي إلى القول إنه كان شرفاً عظيماً لي أن يقع الاختيار علي كي أرس هيئة مؤلفة من أمثال هؤلاء الرجال البارزين من وزن السير محمد علي جناح الذي قدر له من بعد أن يكون مبدع باكستان ومؤسسها، أو السير محمد ظفر الله خان الذي بقي سنوات طويلة ممثلاً للهند في مؤتمرات دولية كثيرة وأول وزير لخارجية باكستان، أو صديقي القديم السير محمد شافعي أحد مؤسسي العصبة الإسلامية.

وبدأ المؤتمر في جلسة افتتاحية رسمية في مجلس اللوردات برئاسة صاحب الجلالة الملك جورج الخامس. وقد أغدق علي زملائي شرفاً آخر عندما انتخبوني رئيساً للقسم البريطاني- الهندي من المؤتمر، أي من بين جميع الممثلين الهنود باستثناء الأمراء الحاكمين الذين جاؤوا، طبعاً، ممثلين عن أنفسهم وبوصفهم حكاماً لولاياتهم المختلفة.

ولقد توجه الملك، الذي لم يكن قد مضى وقت طويل على شفائه من مرضه الخطير، في خطابه بنداء حار مؤثر إلى كل منا للتبصّر في خطورة المهمة التي كنا سنشرع بها. وقال: " سأتابع مجرى أعمالكم بأعظم قدر من الاهتمام والعطف، باهتمام وثقة أكبر. إن الظروف المادية التي تحيط بحياة رعاياي في الهند تؤثر فيّ أبلغ الأثر، وستكون دائماً حاضرة في مخيلتي وأفكاري في إبان مداولاتكم القادمة. كذلك لن تغيب عن بالي المطاليب العادلة للأكثريات والأقليات، للرجال والنساء، لسكان المدن وحارثي الأرض، للمالكين والمستأجرين، للأقوياء والضعفاء، للأغنياء والفقراء، للأجناس والطوائف والمذاهب التي يتألف منها الكيان السياسي. إن اهتمامي بتلك الأشياء لعميق، ولا يمكن أن أشك في أن الأساس الصحيح للحكم الذاتي هو في صهر هذه المطاليب المتفاوتة في موجبات مشتركة، وفي إدراكها وتحقيقها كذلك، وأملي أن حكومة الهند القائمة على أساسها ستعبّر في المستقبل عن مطامحها النبيلة. " وتلت خطبة الملك خطب عديدة مؤثرة أخرى، ثم انتقل المؤتمر إلى قصر سان جيمس حيث انصرف إلى مهمته المعقدة المتشابكة. لقد حققنا تناغماً سطحياً، غير أن هذا التناغم كان يخفي تحته صدوعاً عميقة في المشاعر

والنظرات لم يكن بدّ من الشعور بها منذ البداية. ولكي نفهم هذا فإن من الضروري أن أعرض باختصار الوضع السياسي وحالة العلاقات الهندية البريطانية كما كانت عليه في خريف عام ١٩٣٠ . لقد قدم تقرير لجنة سيمون مشروعاً أنكر المسؤولية المركزية وأجل كذلك فكرة تكوين اتحاد هندي إلى مستقبل بعيد غير محدد. والحق أن هذا لم يكن ليرضي أحداً، ذلك أنه لم يقدم تسوية عملية بل تخلصاً من نزاع سياسي موجود. إذ بينما كانت حملة الحركة الهندوسية بأسرها إلى الحكم الذاتي متركزة في الفكرة القائلة بوجوب إنشاء حكومة مركزية وتأسيس ديمقراطية ثورية، كان الرأي العام يتبلور باطراد حول توزيع السلطات من المركز إلى حكومات إقليمية مستقلة ذاتياً. وأخيراً فإن أحداً لم يكن حتى ذلك الحين قد أخرج مفهوم اتحاد هندي كامل تكون الولايات شريكة فيه، وإذن فإن أياً من الفرقاء الكبار لم يحمل معه إلى المؤتمر أي مشروع محدد واضح- بل مطاليب متناقضة متنافرة، مما جعل الحكومة البريطانية، طبعاً، تتيه في خضم سلسلة من المطاليب والمطاليب المعاكسة التي لم يكن بالامكان التوفيق بينها.

وكانت المهمة الأساسية الأولى، في رأيي، إيجاد طريقة ما لسد الثلمة بين فئتي الوفد البريطاني الهندي الإسلامية والهندوسية. وكان يخيّل إليّ أنه لم يكن باستطاعتنا أن نقدم إلى الممثلين البريطانيين مقترحاتنا المشتركة لتطوير الهند دستورياً إلاّ إذا تمكنا من سد الثلمة.

وكان من أبرز أولئك الذين وقفوا جهودهم باندفاع وحماس على تحقيق الغايات نفسها أو ما يقرب منها صديقي صاحب السمو نواب

بهوبال- وكان مسلماً ورعاً ورجلاً يتمتع بطاقة دافعة وقوة إرادة حديدية، كما كان قوي البنية ورياضياً ممتازاً ولاعب بولو من الدرجة الأولى. وكان كذلك وطنياً هندياً مقتنعاً تّواقاً إلى أن تخلع الهند نيرها نصف الاستعماري وتتخلص من تبعيتها للغير. لقد وافقني موافقة تامة على أننا، نحن الذين في الهند البريطانية، إذا لم نجد طرقاً ووسائل لتسوية الاختلافات في آرائنا، فلن يكون باستطاعتنا أن نواجه حكومة صاحب الجلالة بمطاليب محددة واضحة. ومنذ اللحظة الأولى التي اجتمعنا فيها في منزل " نواب " كنت مقتنعاً أعمق الاقتناع بأن هذا كان يفوق في أهميته كل شيء، وأنه هو الذي جعلني بطل تفاهم هندوسي- إسلامي حول ما يجب أن تكون عليه الهند المستقلة في رأينا- دولة متحدة من ناحية، ومن ناحية أخرى دولة مثل كندا تكون السلطة الرئيسة فيها في يد حكومة مركزية.

وكخطوة تمهيدية للوصول إلى اتفاق مع زملائنا الهندوس، كان علينا أن نؤمن الاتفاق داخل وفدنا الإسلامي. وفي بادئ الأمر كان عدد من مندوبينا المسلمين، وبصورة خاصة السيد محمد علي جناح- شأنهم قبل المؤتمر بزمن طويل- يشكون في فكرة الاتحاد، وكنت أنا أعرف جيداً أن أفكاره لم تكن بعيدة أو تافهة، ذلك أن توحيد ديمقراطية نامية بعدد من الولايات التي كان الحكم الشخصي فيها موطداً وتقليدياً لا يمكن، كما خيّل عندئذ، نقله إلى أيد أخرى، كان بدعة خطرة ومعقدة أيضاً، فضلاً عن أنه كان هناك خطر آخر يتلخص في أنه لما كان الأمراء الحاكمون في أغلبيتهم من الهندوس، فقد ينشأ انتقاص خطير لنفوذ

الطائفة الإسلامية السياسي ضمن الاتحاد بصورة عامة. غير أني كنت مقتنعاً، مع ذلك، بأنه مهما كانت الأخطار والمصاعب المؤقتة التي ينطوي عليها مشروع الاتحاد، فقد كان يشكل أفضل الحلول لمشاكل الهند السياسية وأكثرها قبولاً، وإنه كان يتيح فرصة قد لا تسنح مرة أخرى، وإذا تطلب إجراء تسوية لتحقيقه فإن ذلك يكون ثمناً بخساً بالنسبة إلى منافعه الواضحة العديدة.

ويسرني أن اعتقد أننا عندما اتخذنا داخل الوفد الإسلامي قرارنا الذي أيّدنا فيه الاتحاد كان السيد محمد علي جناح، الذي كان الخصم الألد لهذا المشروع، زميلاً مخلصاً ومساعداً لا يلين طيلة المناقشات والمفاوضات التي تلت.

ولما كان الأمراء الحاكمون قد أدلوا بموافقتهم على إقامة نوع من الحكم الاتحادي، فلم يبق أمامنا الآن إلا أن نكسب موافقة الممثلين الهندوس. وهكذا، سعيت إلى إقناعهم بأنهم إذا وافقوا على مبدأ إنشاء هند اتحادية لا متحدة، فإنهم- ونحن أيضاً- لابد من أن نحقق للبلاد بأسرها تقدماً سياسياً فورياً وعلى نطاق واسع. أما الضمانات التي طلبناها فقد كانت تتألف من دستور اتحادي حقيقي، وتفاهم على أن الأكثريتين الإسلاميتين في البنجاب والبنغال لن تتحولا عن طريق " التلاعب بالدستور إلى أقليتين، وفصل السند عن بومباي وجعلها مقاطعة مستقلة، وإحداث نظام تام من الحكم الدستوري في مقاطعة الحدود الشمالية الشرقية، والتأكيد على الاحتفاظ بنسبة معينة من المناصب في الجيش والإدارة المدنية للمسلمين. وأفهمتهم أيضاً أنهم إذا

أعطونا تأكيدات من هذا النوع فإننا نعدهم بدورنا أن نقف معهم جبهة واحدة في وجه الإنكليز. ولقد ذهبت أيضاً إلى أبعد من ذلك وعرضت- بمثابة امتياز خاص- أن توّحد قيادة الجيش تحت أمرة هندي يقع الاختيار عليه وتلتزم الطائفة الإسلامية بتنفيذ أوامره. ولقد أشار السير تشيما نلال سيتالفاد في مذكراته إلى هذه الجهود التي بذلتها، وما تزال شهادته قائمة على أنه إذا كان مؤتمر الطاولة المستديرة لم يحقق كل ما كان ينتظر منه أن يحققه، وأنه إذا كان وضع الدومنيون لم يستحدث في النهاية، بل قدّر للهند أن تقسم إلى قسمين، فإن بعض بدايات هذه الأحداث الخطيرة على الأقل يعود السبب فيها إلى رفض الوفود الهندوسية قبول عرضي. وإني واثق من أن سابرو وساستري كانا يرغبان من صميم فؤاديهما قبول مقترحاتنا، ولكنهما كانا يخشيان زملاءهما الهندوس ويخافان، قبل كل شيء، نفوذ المهاساسابها.

ويتعين عليّ أن أسجل هنا رسمياً اقتناعي التام بأنه لو قبلت وجهات نظرنا عندئذ لاتخذ التاريخ مجرى يختلف تماماً، واذن لكان الآن في حيز الوجود ومنذ وقت طويل حكومة اتحادية هندية، المسلمون والهندوس فيها شركاء في إدارة البلاد يعملون جنباً إلى جنب لما فيه خير الهند بأسرها.

وسوف تتاح لي الفرصة في فصل تال للتحدث عن صلابة الرأي الهندوسي الذي رفض بعد ذلك بزمن طويل الدستور الذي عرضته اللجنة الوزارية البريطانية، ذلك الدستور الذي كان من شأنه أن يكون بداية مؤتمر الطاولة المستديرة لو أن الممثلين الهندوس، عندما اجتمعنا بهم في

بيت نواب بهوبال، قبلوا عرضي الذي تقدمت به إليهم باسم المسلمين وبإخلاص كامل.

ولقد أدى هذا الرفض إلى أن يكون مؤتمر الطاولة المستديرة الأول غير ذي أهمية لأن الأساس الذي كان يجب أن تقوم عليه مناقشاته ومداولاته كان غامضاً سريع العطب بدلاً من أن يكون متيناً ثابتاً. وكان يبدو أن هناك خطوة واحدة إلى الأمام، ولكن الزمن وسلسلة كبيرة من الأحداث قد جعلاها ثانوية عابرة، وكانت تلك الخطوة إعلان الأمراء قبولهم فكرة الاتحاد. ورحب الممثلون البريطانيون في المؤتمر بهذا الإعلان واعتبروه خطوة مهمة بنّاءة إلى الأمام ومساعدة فعلية حقيقية في مهمة نقل السلطة من برلمان المملكة المتحدة إلى ما يسمى برلمان الهند الاتحادية.

ومما زاد في أثر هذا القبول وأهميته أن اللورد ريدنغ، زعيم حزب الأحرار في مجلس اللوردات ونائب الملك في الهند سابقاً، قد أيّده ووافق عليه. أما رئيس الوزراء، السيد رمزي مكدونالد، فقد رأى فيه خلاص المؤتمر ونجاحه.

كان وضع السيد مكدونالد طيلة المؤتمر معقداً ودقيقاً، ولو أنه كان نسيج وحده، ذلك أنه كان الوضع الذي تعيّن عليه أن يواجهه مرات عديدة في حياته السياسية. ولقد واجهه في أوج قوته بثقة في النفس وبلباقة وحذق، غير أنه كان من العسير إغفال الحقيقة القائلة بأنه بالرغم من كل مهارته الديبلوماسية لم يكن يختلف عن ذلك الحوذي الذي تجر عربته ثمانية من الجياد الرشيقة ويدرك مع ذلك أن أي زوج من هذه

الجياد يمكن أن ينطلق على هواه ويجر العربة في اتجاه مخالف تماماً للاتجاه الذي يقصده هو ويبتغيه.

كان يتعين على السيد مكدونالد أن يكون- وقد كان فعلاً- رئيساً للمندوبين الهنود. فقد رأس اجتماعاتنا ووجه مناقشاتنا بمهارته وحكمته وعدم تحيّزه الخيّر، فضلاً عن أنه كان قائدنا وفيلسوفنا ورفيقنا في الورطة الشائكة من الأصول الديمقراطية والنظريات الدستورية التي كنا في أول خبرتنا بها. أما بالنسبة إلى حزبه، فقد تعيّن عليه أن يظهر بمظهر القائد في الحملة الطويلة على الاستعمار البالي والمصالح المكتسبة المانعة، وبمظهر المحرر والمبدع لحرية الهند واستقلالها كما كان يرغب مخلصاً أن يكون بالفعل. وفي هذا الدور، كان السيد مكدونالد مدركاً أن نظرته إلى مشاكل الهند كانت نظرة تقدمية إلى أقصى الحدود، وأنه هو وحزبه كانا تواقين إلى أن يقطعا بسرعة الطريق كلها إلى وضع الدومنيون، مع تحفظات وتحديدات معدودة. ولكن حزب المحافظين المعارض كان يراقب بغيرة مصالح بريطانيا الإمبراطورية، وكانت عناصر اليمين في الحزب تملك في البرلمان وخارجه حصوناً قوية فعّالة تستطيع أن تهدده، ولربما تقيله، إذا اجترأ على إغفال وجهات نظرها بأكثر مما ينبغي.

في مثل هذه الظروف، لم يكن هناك مندوحة من إيجاد جو من الأمل والتفاؤل للحفاظ على هذا الإنجاز الملموس الوحيد الذي حققه المؤتمر. ولقد شعرنا بأن شيئاً ما، فوق السيادة الإقليمية وأكثر منها قد تحقق وتأمن. وهكذا انصرف المحافظون الذين كانوا بيننا، من أمثال

السير تاج بهادور سابرو، بحمية واندفاع إلى تفاصيل ما اعتقدوا عندئذ بأن من شأنه أن يؤدي إلى تقدم جدي دائم في طريق الحكم الذاتي في الهند. ويتعيّن علي أن أقول إني كنت في صميم فؤادي أظن أن عملنا قد لا يؤدي إلى نتائج حقيقية دائمة بسبب نسيان الوقائع الحقيقة التي كانت تسود الهند عام ١٩٣٠ .

لقد نُسي أنه كانت هناك، أولاً وقبل كل شيء وفي جميع الأوقات، فروق أساسية بين الشعبين الهندوسي والمسلم اللذين يقطنان الهند، وأن هذه الفروق كانت ظاهرة أكثر بين مسلمي جزئي الهند الشرقي والشمال الغربي والأكثرية الهندية في سائر الأجزاء.

لقد نُسي أن النخبة- بالرغم من أنها كانت تشكل عشرة بالمئة من مجموع سكان الهند، وكانت تعد مابين أربعين مليوناً وخمسين، والتي لم يكن بالإمكان تجاهلها واعتبارها مجرد " أقلية صغيرة ضئيلة" كانت ترغب في أن يغادر الإنكليز الهند، نهائياً وإلى الأبد؛ ذلك كان الهدف الذي سعت إليه وجاهدت في سبيل تحقيقه، وقد تحقق فعلاً في عام ١٩٤٧ . إن دستوراً محكماً على الورق، بجميع تفاصيله ودقائقه واحتياطاته الحذرة، وموازنته للقوى من طريق المعادلات النظرية المجردة، كان يبدو في نظر هذه النخبة هراء ماكراً شريراً ومجموعة من الحيل والأحابيل المنهكة التي بوساطتها يستطيع البريطانيون أن يستردوا باليمين ما يعطونه باليسار.

لقد نُسي أن الأمراء، بكل غناهم وقدرتهم الشخصية ومكانتهم وولائهم المخلص للصلة البريطانية، كانت لهم في الحقيقة قوة ضئيلة

ونفوذ قليل. إنهم لم يكونوا بالطبع أولئك الأشرار الذين كانت تصورهم الدعاية المعادية. غير أن سلطتهم الحقيقية وقدرتهم على التسلط على الرأي العام بنفوذهم قد تقوضتا عبر السنين الطويلة التي أدرك رعاياهم- والشعب الهندي عموماً- إبانها أنهم كانوا عاجزين عن أن يعتنقوا نظرة خاصة بهم وأن يتخذوا قراراً مستقلاً، إذا تعارضت تلك النظرة وتباين ذلك القرار مع سياسة المعتمدين البريطانيين الذين كانت بأيديهم السلطة كلها.

وهكذا، فإن تأييدهم التدريجي للدستور الاتحادي- مع أنه خدع الطبقة الحاكمة البريطانية- قد اتضح أنه لم يكن ليؤثر إلا قليلاً وأنه كان خيالاً مجرداً من أية قوة حقيقية. وما إن انعقد مؤتمر الطاولة المستديرة في خريف ١٩٣١ حتى كانت الحالة العالمية قد تبدلت تبدلاً واسعاً، وتبدل معها كذلك واقع العلاقات الهندية- البريطانية. وكانت الأزمة الاقتصادية الخانقة قد حلت بأوروبا والمملكة المتحدة، كما أن انهيار بنك " آنشتالت" النمساوي للتسليف كان قد أدى إلى تقييد عام وسريع للقروض وإلى نكسة هائلة في التجارة العالمية. وفي بريطانيا ارتفع عدد العاطلين من العمال إلى مجموع مخيف بلغ حدود الثلاثة ملايين، ونشأت أزمة سياسية كبرى جراء نشر تقرير أيار، الذي كان عبارة عن استعراض رسمي لحالة البلاد الاقتصادية والمالية يتضمن عدداً من التوصيات باتخاذ إجراءات اقتصادية رفضتها بالكلية أكثرية زملاء رمزي مكدونالد في الوزارة. وفي شهر أيلول قطع الملك إجازته السنوية في بالمورال وعاد إلى لندن حيث استدعى مختلف زعماء الأحزاب

السياسية للاجتماع به، وبعد ذلك تألفت حكومة وطنية كانت مهمتها معالجة الأزمة. كان السيد رمزي مكدونالد رئيس هذه الوزارة، وكان يؤازره المحافظون والأحرار من أمثال السيد بولدوين، والسير أوستن تشامبرلين، والسير جون سيمون، والسير هربرت صموئيل. وفي الانتخابات العامة التي تلت تأليف هذه الوزارة بسرعة أعيد مؤيدوها ومعظمهم من المحافظين والأحرار الوطنيين، إلى الحكم بأكثرية مذهلة، وانخفض عدد النواب العماليين في مجلس العموم انخفاضاً هائلاً بحيث لم يبق في المجلس كله تقريباً سوى الوزيرين السابقين السيدان لانزبوري وأتلي.

لم تستطع هذه التبدلات إلا أن تؤثر في مؤتمر الطاولة المستديرة الثاني. غير أن الأحداث التي كانت تشغل بريطانيا والحكومة البريطانية، على خطورتها، لم تستدع تأجيل هذا المؤتمر. وفي تلك الأثناء، كان صبر نائب الملك، اللورد ايروين، مع قدرته الهائلة على الإقناع، هو الذي ساد في النهاية، ووافق المهاتما غاندي على المجيء إلى لندن. لقد ذهب بصفته الشخصية، غير أن الجميع كانوا يشعرون بأن كلمته، حتى ولو لم يحضر بوصفه زعيم حزب المؤتمر وممثله الرسمي، كانت هي الفصل وهي القرار الذي تتبّناه أكثرية الهندوس الساحقة.

أما من ناحيتنا نحن المسلمين، فقد رجونا أن يقدّر المهاتما غاندي أن تأليف جبهة مشتركة من الهندوس والمسلمين كان في حد ذاته خطوة كبرى إلى الأمام، وأن يدرك الجميع أيضاً أنه يتيح فرصة لا تضاهى لكي تستخلص من مؤتمر الطاولة المستديرة دستوراً يمكّننا من نقل

السلطة من الأيدي البريطانية إلى الأيدي الهندية، ويُمكّن الهند من أن تنعم بوضع الدولة العالمية. وبالرغم من أن المهاتما غاندي لم يكن بوسعه في عام ١٩٣٠ أن يتنبأ أو يأمل بأي شيء من مثل الحل النهائي الذي تم عام ١٩٤٧ ، فالذي لا شك فيه أنه لابد أن يكون قد رجا- كما رجا معظمنا نحن الوافدين من الشرق إلى المؤتمر- أن تنتقل السلطة الحقيقية، حتى ولو ظلت الهندو " وايت هول " متصلتين إحداهما بالأخرى بخيط حريري واحد أو خيطين.

لقد وصل المهاتما غاندي إلى لندن في تشرين الثاني من عام ١٩٣١ ، بوصفه الممثل الوحيد لحزب المؤتمر، وكانت تصحبه الشاعرة الهندية المعروفة السيدة ساروجيني نايدو. وقد عقد اجتماعنا الأول بوصفنا مندوبين إلى مؤتمر الطاولة المستديرة في منتصف الليل في غرفتي الخاصة في فندق ريتز. ولذلك، فقد تكون هذه اللحظة مؤاتية لكي أتوقف قليلاً وألخص بعض انطباعاتي وذكرياتي عن شخصية جديرة بكل اعتبار.

لقد عرفت المهاتما غاندي واتصلت به بطريقة أو بأخرى طيلة خمس وأربعين سنة. وسمعت به، أول ما سمعت، حوالي سنة ١٨٩٩ أو ١٩٠٠ عندما كنا معاً مهتمين بوضع الهنود في أفريقيا الجنوبية ومستقبلهم، وكانت تلك مشكلة شائكة استدعت اهتمامنا سنين عديدة. في ذلك الوقت كانت فلسفته في بداية تكوّنها، ولم يكن اتخذ القرار الخطير الشخصي في حياته، ذلك القرار الذي يتلخص في انفصاله وتحوله عن التقدم المادي الحديث. واستمر اتصالنا مرة بعد مرة طيلة السنوات العشر أو الاثنتي عشرة التالية، وكان ذلك في العادة حول وجه من وجوه

المشكلة في أفريقيا الجنوبية. وقد صدف أن كنا في لندن في الوقت نفسه بعد قليل من نشوب الحرب العالمية الأولى، وكما سبق أن فعل في حرب إفريقيا الجنوبية، فقد عرض مساعدته على الحكومة البريطانية في حقل المؤازرة الطبية الميدانية. وكان عندئذ قد قطع شوطاً كبيراً في طريقه العقلي والروحي الخاص، وكنت مدركاً أنه كان قد قرر أن خلاص الهند ومواطنيه كان يمكّن من اطّراح ما يسمى بالمدنية المعاصرة والصناعية المادية. لقد قدمت سرداً لاتصالاتنا يوم ثورة الخلافة عام ١٩٢٠-١٩٢١، ومن بعد ذلك أصبح غاندي، طيلة حياته، علماً بارزاً من أعلام التاريخ العالمي. وأعتقد بأن لدى المهاتما غاندي في كل من نظرته الفلسفية وعمله السياسي بعض التناقضات العميقة؛ وهي تناقضات جاهد طوال حياته، من غير نجاح تام، للتوفيق بينها. أما المؤثرات الروحية الأساسية والمكوّنة في حياته فكانت المسيح وكما تكشف في العهد الجديد، وتولستوي وثورو وبعض دعاة مختلف أشكال الصوفية الهندوسية، ومع ذلك، لم يكن، في المفهوم العادي المقبول، متصوفاً محضاً؛ فلم يكن لديه كبير صبر ولا تعاطف مع حياة التأمل المجردة للصوفي، التي تشكل انسحاباً تاماً من هذا العالم، كما لم يتعاطف مع الرهبان، سواء أكانوا بوذيين أم مسيحيين - الذين قبلوا سلطة نظام مغلق. إنني مقتنع، إذا ما جاز لي القول، أن فلسفة غاندي لم تقل بإنكار هذا العالم ولكن بإصلاحه عن طريق حب إنساني تعاوني متبادل باعتباره الشرارة الدينامية في ذلك الإصلاح. إلا أن ذلك اشتمل، بالنسبة له، على درجة معينة من الاطراح. ويتمثل ذلك في منتجات

الثـورة الصناعـيـة والتكنولـوجـيـة لزمـاننا والتي كـانت ذات طبـيـعـة متناقضة. كان غـاندي يؤمن بأن جميع الناس يجب أن ينعموا بالفوائد الكاملة التي تتيحها السيطرة على الطبيعة، تلك السيطرة التي وضعها العلم بتصرف الإنسان. ومع ذلك، فقد كان يشعر بأنه إذا قبل بعض الأفراد هذه الفوائد، فعندئذ تحرم الأكثرية الساحقة منها وتصبح نسبياً وكلياً أسوأ مما كانت عليه في السابق.

هذا التناقض العميق الجذور كان ظاهرة واضحة طيلة حياته، في علاقاته مع أقرب أصدقائه وأحبهم إليه، وفي تعاليمه وأفعاله.

أذكر أنني تحدثت إليه مرة حديثاً طويلاً في بونا بعد أن مرض مرضاً خطيراً وأجريت له عملية جراحية. كان في فراشه في مستشفى ساسون عندما ذهبت لأزوره. وفي إبان الحديث، أغدق المهاتما غاندي المديح على المستشفى وأبدى إعجابه بالجراح البريطاني الذي أجرى له العملية وبالممرضات أيضاً، لكنه لم يستطع إلا أن يشعر بأنه مادام عدم إمكان إعطاء مثل هذا المستوى من المعاملة والاهتمام لكل واحد من ملايين الهنود، فإن من الإثم والخطأ أن يكون في متناوله هو في بونا. غير أنه، شأن كل فرد آخر، أدرك أن من الإجرام إلغاء مستشفى ساسون- بكل ما كان يمثله ويرمز إليه- وأن منافعه يجب أن يفيد منها البعض إذا لم يكن بوسع الكل أن يفيدوا منها، ولكن من هو هذا البعض؟ ومع ذلك، فقد شعر أن فلسفته قد اختصرت بعلامة استفهام صارت هي الأخرى احتجاجاً من نوع آخر.

لقد واجه في سريره في مستشفى بونا ذاك استحالة تأقلم تام.

وحقيقة عدم التأقلم التام القاسية هذه، في هذا العالم كما هو، هي ما جعلته يبدو في بعض اللحظات أنه " مع " التقدم المادي، وفي أخرى " ضده " . وهذا ما أوحى لبعض النقاد بالشك سواء في إخلاصه للمثل المسيحية التولستوية أو في فعالية أنشطته في عالم السياسة والاقتصاد العمليين. وقد يكون الأمر أكثر عدالة وخيراً إذا ما أدركنا أن المهاتما غاندي لم يكن وحيداً في تناقضات حياته الباطنة والظاهرة وصراعاتهما. أليست مثل هذه التناقضات هي الأساس الفعلي للحياة لنا جميعاً، بكل جوانبها الروحية والمادية، وإذا ما سعينا لنكون ذوي فائدة أو خدمة لأنفسنا ولإخوتنا من الناس الآخرين فهل نستطيع فعل شيء آخر سوى أن نحيا، بأفضل ما نستطيع، في ضوء هذه التناقضات؟

كان آخر حديث لنا سنة ١٩٤٥- ١٩٤٦، بشكل ما، تأملاً مصغّراً في مجمل حياة المهاتما غاندي الروحية والفكرية. وقد أوضحت ظروفهُ وإطارهُ، بقوة كافية، الحقيقةَ البسيطة القائلة بأننا لا نستطيع، في عالمنا كما هو، التخلص من هذه التناقضات أبداً. لقد تحدثت مع غاندي في أمور السياسة؛ لكن بما أنني لم أعد مشاركاً نشطاً في السياسة الهندية، فقد تحولت لصحبة صديقي القديم، نواب بهوبال. كان بهوبال، الذي كان رئيساً لمجلس الأمراء الحاكمين القائم حتى ذلك الحين، عاملاً متطوعاً في صفوف المسلمين في ذلك الوقت، فهو لم يقبل باعتقاد قوي بأن ما يريده المسلمون هو تقسيم شبه القارة وليس شيئاً آخر. ومن جهتي فإنني لا أزال أحتفظ ببعض الأمل بأن من الممكن تجنب البتر الكامل، إذا ما كان

بعض خطوط الدستور المقترح من قبل الوزارة البريطانية مقبولا. وإنني أرى الآن أنني كنت مخطئاً، إذ أن البتر هو العلاج الوحيد. وقد تحدثت أنا ومهاتما غاندي حول هذه الأمور؛ كما تحدثنا حول جنوب إفريقيا؛ ثم غيّرت الموضوع وسألته: " ما رأيك بالماركسية- بماركس نفسه وإنجلز ولينين وستالين؟. "

وكان جوابه مميزاً بقدر ما كان لبقاً قال: " سأكون شيوعياً مئة بالمئة أنا نفسي،- إذا ما كانت المرحلة الأخيرة عند ماركس هي الأولى، وإذا ما تم وضع مثاليات لينين الاقتصادية موضع التطبيق الفوري. "

" إذا ما "- هنا يكمن التناقض. إذا ما كانت الدولة " ستتلاشى "، ليس في الطور الأخير من الثورة، كما قررها ماركس، ولكن في طورها الأول؛ وإذا ما كان بالإمكان وضع شعار لينين، " من كل حسب طاقته ولكل حسب حاجته"، موضع التطبيق، عندئذ ستبدأ ألفية ماركس بالفعل. وقد عارضه بالجدلية الستالينية التقليدية: العالم، كما هو اليوم، يحتوي دولاً رأسمالية- إمبريالية، تستغل قدراتها الإنتاجية ليس من أجل السلم والاستعمال، ولكن كوسائل نهائية لحرب إمبريالية عدوانية؛ في مثل هذا العالم، يجب على الدولة الشيوعية أن تنظم للدفاع عن نفسها، فكيف يمكن أن يوجد مجتمع حر " تلاشت " فيه الدولة دون الطور التمهيدي الأساسي المتمثل في الانتصار العالمي للاشتراكية المنظمة؟

" حسناً، " قال غاندي، " لنر دولة واحدة تفعل ذلك. لنر دولة واحدة تتخلى عن مؤسسة الدولة، وعن شرطتها وقواتها المسلحة، ممنوعاتها

وفروضها. لنر دولة واحدة تتلاشى بالفعل. إن السعادة التي ستسود ستكون عظيمة وملزمة بحيث أن دولاً أخرى ستترك مجتمعاتها الإمبريالية- الرأسمالية ودولها تتلاشى. "

لم يكن بإمكان مهاتما غاندي تجنب التناقض الكامن في أساس حياة تلك الحقبة. لقد كان علينا باستمرار القبول بالخيار الأفضل الثاني، إن لم يكن الأسوأ ما دمنا غير قادرين على تحقيق المثال. وقد أدرك غاندي ذلك بغض النظر عن أمله بأنه يمكن للبشر الوصول إلى طور ماركس النهائي- وهو هدف سنصل إليه، إذا ما كان ذلك ممكناً، عبر طريق آخر غير الطريق المختصرة المباشرة عبر أجزاء منتقاة من حياة المسيح ومحمد وبوذا.

أما السيدة نايدو، رفيقة غاندي في مؤتمر منتصف الليل معي في فندق ريتز في تلك الليلة من خريف ١٩٣١، فلم تكن شخصيتها أقل إثارة للإعجاب. فقد كانت من أبرز النساء اللواتي التقيتهن، بل وكانت بطريقة ما في مثل شأن الآنسة نايتنجيل نفسها، وأصبحت حيدر آباد موطناً لها بعد زواجها. وكانت شاعرة، مع أن ميولها الأصلية ونشأتها كانت نشأة ديمقراطية إلى حد بعيد. ولقد تأثرت حساسيتها وخيالها الرومانسي بأصالة وغرابة وشخصية نظام حيدر آباد- والد صاحب السمو العالي الحالي- رجل لطيف وشخصية حساسة ذات مشاعر مهذبة، ومع ذلك فقد كان موهوباً بوضوح كبير في الرؤية وحكم مستقل وقلب كريم وكبير. وكانت له هو الآخر تطلعات شعرية، حيث يمكن اعتبار بعض أعماله باللغة الأوردية شعراً محترماً. وقد غنت السيدة

نايدو مدائحه؛ لكنها كانت هي نفسها شاعرة حقيقية كتبت بقوة ولطف عن الحب والحياة، وعن عالم الروح والعاطفة. وفي جمعها ما بين القوة واللطف، وهو ما كان من طبعها، لم يبق هناك مكان للحقد والبغض أو سوء الظن. كانت وطنية متحمسة ومصممة على أنه يتوجب على البريطانيين مغادرة الهند وأن يبقى مصير الهند في أيدي أبنائها، ومع ذلك فإن إعجابها بالحضارة الغربية والعلم الغربي- وفوق كل شيء بالأدب الإنكليزي- كان عميقاً بلا حدود. وقد برهنت على فخرها المتحرر من التحامل عند وفاة روديارد كيبلنغ. كانت نظرة كيبلنغ الإمبريالية الصرفة، ومحدوديتها الضيقة والمتعصبة تجاه قدرة الهنود السياسية وإمكانياتهم- بغض النظر عن اعترافه بصفاتهم وذكائهم- مغايرة تماماً ومتضادة مع نظرة السيدة نايدو. ومع ذلك أسرعت السيدة نايدو عند وفاته إلى نشر تصريح عبرت فيه عن احترامها وتعزيتها الكريمة إضافة إلى إعجابها بعبقريته- إلى الشاعر والروائي وأعظم الرواة- معبرة بذلك وبوضوح كامل بأن اعتراف الفنان بالفنان شيء منفصل عن مشاعر الاختلاف العرقي والسياسي والفلسفي ولا يتأثر بها.

ذلك، إذن، كان الثنائي الذي جاء إلى غرفتي في فندق ريتز في منتصف الليل. وقد وقفنا لحظة أمام المصورين وانصرفنا إلى محادثتنا. وافتتحت الحديث بقولي إنه إذا أظهر المهاتمجي أنه أب حقيقي لمسلمي الهند فإنهم يستجيبون بأن يؤازروه، إلى أقصى طاقتهم، في صراعه من أجل استقلال الهند.

وأجابني المهاتمجي بقوله: " لا أستطيع في الحقيقة أن أقول إن لدي أية مشاعر من الحب الأبوي للمسلمين، ولكن إذا وضعت الأمر على

أساس من الحاجة السياسية، فإنني مستعد لأن أبحثه بروح تعاونية. إنني لا أستطيع الانخراط في أي نوع من أنواع العاطفة. "

والحق أن هذا كان حمّاماً بارداً منذ البداية؛ وأن تأثيره القارس قد تخلل بقية حديثنا. لقد شعرت بأن المهاتجمي لم يستجب للدليل الذي قدمته فوراً وبصورة طبيعية على ما كان يربط الطائفتين من صلة عاطفية وقرابة.

ولقد ذكرّته بهذا الحديث من بعد عام ١٩٤٠، فقال إنه يذكر الحادث تماماً، وأضاف إلى ذلك قوله: " يؤسفني جداً أن تكون قد أسأت فهم جوابي. أنا لم أعن أنني لم أكن أعي أي صلة عاطفية، وأني لم أكن أتمنى رفاهية المسلمين، بل إن كل ما عنيت، أني كنت واعياً للأخوة الدموية الكاملة، أجل، وليس التفوق الذي يتضمنه لفظ الأبوّة. "

وأنا، من جهتي، لم أقصد من كلمة " أب " إلا أن أظهر الاحترام لسنّه، ولم أقصد قط أن ألمح إلى أي تفوق على الإطلاق.

ولقد كان لسوء التفاهم هذا أكثر من تأثير عابر، ذلك أنه ترك في نفسي انطباعاً لم يستمر تلك الليلة فحسب، بل طيلة مؤتمر الطاولة المستديرة؛ انطباعاً مؤدّاه أن محاولاتنا للوصول إلى اتفاق إسلامي-هندوسي كانت محض سياسية، وأنها كانت مجردة من الروابط العاطفية الناشئة عن مواطنية طويلة وعن إعجاب متبادل بثقافتينا وحضارتنا. وهكذا لم يكن بالإمكان وجود نية سليمة في أي اتفاق يمكن أن نتوصل إليه. لقد عدنا مرة أخرى إلى السياسة الباردة الجافة الخالية من أي حرارة ملهمة وتفهم عاطفي يغمر محادثاتنا ويعززها.

لم يذهب بنا الحديث التمهيدي إلى مدى بعيد. وأجرينا من بعده سلسلة من المحادثات- عند منتصف الليل عادة في جناحي في فندق ريتز- وكنت أنا نفسي أترأس هذه الجلسات بوصفي المضيف، بينما كان السيد جناح والسير محمد شافعي يفاوضان في جهة، والمهاتما غاندي في الجهة الأخرى. إن قصة هذه المناقشات طويلة، ولم تكن، مع الأسف، مثمرة على نحو خاص.

كانت أحاديث غير رسمية لم تسجل في أي محضر رسمي. كنت أتكلم قليلاً وأترك المناقشة للسيد جناح والسير محمد شافعي ولمندوبين آخرين كانوا يشتركون من آن إلى آخر، وكان أبرزهم السير ظفر الله خان والسيد شوكت علي والمرحوم شأفت علي خان.

كان السياق يعود دائماً إلى بعض نقاط الاختلاف الأساسية: هل كانت الهند أمة واحدة أو أمتين؟ هل كان المسلمون مجرد أقلية دينية، أم أن المسلمين في المناطق التي كانوا يشكلون فيها أكثرية يجب أن تكون لهم حقوقهم السياسية الخاصة بهم وعليهم مسؤوليات سياسية خاصة؟ كان موقف حزب المؤتمر كما بدا لنا نظرياً غير واقعي، ذلك أنه تمسك بعناد بنظريته القائلة بأمة واحدة، تلك النظرية التي كنا نعرف أنها لا يمكن أن تجد ما يؤيدها تاريخياً. أما نحن فقد قلنا بأنه، قبل الحكم البريطاني، لم تكن مقاطعات الهند المختلفة بلاداً واحدة على الإطلاق، وأن ذلك الحكم قد أوجد وحدة مصطنعة وقتية زائلة، وأنه عندما ينتهي الحكم البريطاني لا يكون بالإمكان الحفاظ على تلك الوحدة، وأن شعبي الهند المختلفين، بفروقهما الدينية والعنصرية العميقة لا يستطيعان أن

يتقاسما الفراش إلى الأبد، بل إن كلاً منهما لابد من أن يستيقظ ويسير في طريقه المستقل الخاص.

وهكذا تبين أننا مهما اقتربنا من الاتفاق على التفاصيل فإن هذا الاختلاف على المبدأ لم يكن بالإمكان تسويته.

لقد سعى المهاتما إلى أن يفرض شرطاً أساسياً خلاصته أن على المسلمين، قبل أن يطلبوا ضمانات لأنفسهم، أن يتقبلوا تفسير حزب المؤتمر للحكم الذاتي، وأن يجعلوا منه هدفهم. ولكن السيد محمد علي جناح ردّ على ذلك بأنه إذا كان المهاتما لم يفرض هذا الشرط على الهندوس الآخرين في مختلف الوفود المشتركة في مؤتمر الطاولة المستديرة، فلماذا إذن يفرضه على المسلمين؟ ونشأت ههنا عقبة كأداء أخرى.

أما شروطنا نحن فلم تتبدل طيلة مباحثاتنا: سلطات قليلة جداً في المركز، إلا فيما يختص بشؤون الدفاع والعلاقات الخارجية، ونقل السلطات الأخرى جميعها وبصورة خاصة إلى تلك المقاطعات التي تقطنها أكثريات إسلامية- البنجاب والبنغال والسند وبلوجستان والحدود الشمالية الغربية- وإنما اتخذنا موقفاً صلباً من هذه الشروط لأن أكثرية المسلمين الذين كانوا يعيشون في البنغال والبنجاب أصروا عليها إصراراً كلياً.

ولقد أدرك المهاتما غاندي إدراكاً تاماً أهمية اكتسابنا إلى معسكره. ومن يدري؟ لعله وجد طريقة لقبول وجهة نظرنا. ولكن البانديت مالافيا والمهاسابها الهندوسي ضغطا كثيراً علينا، وبسطا

حججاً تقوم على مبادئ سياسية مجردة لم تكن، كما أثبت تقسيم عام ١٩٤٧، تمتّ بأية صلة إلى واقع الحال في الهند.

وأخذت المماحكة تشتد من يوم إلى آخر، وأصبحت المناقشات مجردة أكثر فأكثر. إن الدولة لا تستطيع أن تتنازل عن سلطات غير محددة لمقاطعاتها؛ لم يكن هناك طريقة دستورية لوضع حد للتدابير التي بوساطتها يمكن تحويل أكثرية إلى أقلية- إلى غير ذلك من القضايا الأكاديمية التي لا تمت إلى حقائق الحياة الهندية وصورها بأية صلة.

وانصافاً للحقيقة يتعيّن علي أن أذكر إصلاحاً عملياً واحداً انبثق فعلاً عن جميع محادثاتنا وساهم في النهاية بقسط في تسوية عام ١٩٤٧، هذا الإصلاح هو فصل السند عن بومباي وجعلها مقاطعة لها حاكم وإدارة خاصة بها. إن الجمع بين السند وبومباي كان خطأ تاريخياً استمر ثلاثين سنة في الأقل، ووجوده إنما يفسّر كثيراً ما يسمى بتأخر السند وتخلفها، والمنافسة والحسد اللذين ظهرا بين بومباي، المدينة القديمة التي كانت تحكم، وكراتشي، المدينة الأصغر التي كانت محكومة.

في مقاطعة بومباي، كان بود موظفي الإدارة المدنية الهندية الذين بلغوا أعلى المناصب لو أنهم قضوا سنين في المقاطعتين الماراثية والكوجاراتية، فالسند كانت تختلف عن سائر أقسام المقاطعة في الجنس واللغة والدين، وفي الشكل الطبيعي للأرض. وكانت الخدمة فيها تتطلب نظرة وعقلية وتدريباً من نوع آخر. كما أن السند كانت مهملة في شؤون المواصلات والطرق والتطوير الداخلي، بسبب تركز الإدارة في مكان قصي جداً عنها، لم تكن تتدخل به إلا عن طريق البحر أو عبر أراضي الولايات الأميرية.

وهكذا تم تأليف لجنة مهمتها دراسة مسألة انفصال السند بأكملها، ولم يناقش المندبون المسلمون في هذه اللجنة- وكنت واحداً منهم- الموضوع على أسس طائفية، بل ألحوا على وجوب فصل السند بغية تحقيق العدالة لسكانها، وعلى أسس إدارية وعملية. وباستثناء عضو أو عضوين كانا يمثلان بومباي ويقاومان الانفصال، فإن سائر المندوبين الهندوس أيدونا فكان نصيب اقتراحنا الفوز.

وكان رئيس هذه اللجنة بالذات المرحوم إيرل راسل، الأخ الأكبر للإيرل الحالي، المعروف باسم برتراند راسل. كان شخصية حية محبوبة صبرت وتغلبت على المصاعب والتعقيدات الاجتماعية التي خلفتها له حياته الزوجية العاصفة في شبابه. كان حفيداً للإيرل الأول- اللورد جون راسل، رئيس وزراء الملكة فيكتوريا من الحزب الراديكالي. وإذ كان قد نشأ في صميم طبقة الراديكاليين في إنكلترا فقد كان هو نفسه لا طبقياً إلى أقصى الحدود، وكانت له ذاكرة مدهشة تختزن الكثير من الأحداث والذكريات مع قدرة عظمى على روايتها.

ولقد توفي في جنوب فرنسا بعد انتهاء المؤتمر بوقت قصير، وعندما جاءني نبأ وفاته صعقت لأني كنت أتطلع إلى أن تستمر صداقتنا وتخصب بقية حياتنا.

وكانت إحدى زوجاته السابقات، إليزابيث، تعيش قرب منزلي في أنتبس في ذلك الوقت، وعرفت برقتها وشخصيتها الجذابة وعشقها للحدائق والعناية الشديدة بها. وقامت بتصميم مكان إقامتها قرب نادي موجينز وملعب التنس هناك، وأشرفت على زراعة أشجار الحديقة

وأزهارها، وكثيراً ما كنت أستشيرها أنا وزوجتي الأميرة أندريه بأمور تتعلق بحديقتنا.

وبالعودة إلى مؤتمرات الطاولة المستديرة، فإن جلساتها الطويلة العديدة لم تحقق في النهاية إلا القليل. وعاد المهاتما إلى الهند، وكانت حصيلة عملنا مجموعات كبيرة من الإحصاءات والتواريخ وعدداً كبيراً من الخطب وقليلاً من التفهم الإيجابي. وانتهى المؤتمر الثاني وتفرقت جميع الوفود، بينما انتظرنا نحن ما كان في الحقيقة مؤتمر الطاولة المستديرة الثالث- الذي كان يعرف باللجنة المنتخبة المشتركة التي عينها البرلمان برئاسة الماركيز أوف لينليثغو- كيما ينجز إعداد الدستور الاتحادي الهندي.

وفي الوقت نفسه استمرت حياتي العادية خارج حلبة السياسة بهدوء وتخللتها أحداث كثيرة. ولقد كانت زوجتي، الأميرة أندريه، طيلة جلسات المؤتمرين المضنية، ذات فائدة وعون لي لا يقدران. ذلك أن هذين المؤتمرين كانا يتطلبان الكثير من الاستقبالات والحفلات والمآدب، وكانت زوجتي في هذه جميعاً شريكتي الكاملة. وفي شهر كانون الثاني سنة١٩٣٣ ولد ابني الثاني، صدر الدين، في مستشفى أمريكي في نويي، في ضاحية باريس. وفي نهاية تلك السنة قامت الأميرة أندريه بزيارتها الأولى إلى الهند بصحبتي، وتركنا ولدنا في جنوبي فرنسا. وقد زرنا جميع أرجاء الهند، ورأينا معظم الأماكن التاريخية الشهيرة الجميلة، ومكثنا عدة أيام مع مهراجا بيكانر الشيخ، كما نزلنا ضيفين على حاكم كلكتا، السير جون اندرسون(اللورد ويزلي يومئذ)، وذهبنا

من ثم إلى الجبال حيث قضينا بعض الوقت غادرناها بعدها إلى بورما وعدنا إلى " كان " في شهر نيسان من عام ١٩٣٤ . واغتبطنا عندما وجدنا صدر الدين قد كبر وأصبح قوياً معافى.

عندئذ، وجدت نفسي مرة أخرى في صميم المعترك السياسي. فقد عقد مؤتمر الطاولة المستديرة الهندي الثالث، ووجدت أن الجانب البريطاني قد طرأ عليه بعض التبديل نتيجة تأليف حكومة مكدونالد- بولدوين الوطنية. كان السيد رمزي مكدونالد ما يزال رئيس الوزراء ولكنه كان الآن يعتمد في مجلس العموم على تأييد الأكثرية المحافظة التي كان رئيسها السيد بولدوين. ولقد أدى ذلك إلى انقطاع السيد مكدونالد عن الاهتمام المباشر الوثيق بمداولاتنا حول الهند. صحيح أنه كان يستشار في جميع الأمور المهمة بلا شك، غير أن المرء لم يكن يستطيع أن يشعر بأن القرارات الفعالة إنما كان يصوغها ويتخذها الرجل المسؤول عن وزارة الهند التي كان على رأسها، بالطبع، السير صموئيل هور، رجل الدولة الذكي الحساس الواسع الإدراك، والذي كان مدركاً تمام الإدراك- في ما يختص بالهند- أن زمن الاستعمار قد انتهى.

واجتمعت اللجنة المشتركة في لندن في ربيع عام ١٩٣٤، وتسلّم رئيسها، اللورد لينليثغو، منصب نائب الملك في الهند فيما بعد. كان تأليف اللجنة متنوعاً بقدر ما كان قوياً، وكان في الوفد البريطاني أكثرية محافظة من غير شك، كما أن المعرفة والخبرة بشؤون الهند لدى الأعضاء كانت تختلف من حيث المقدار والنوع. وفي بادئ الأمر، لم يرتبط اللورد دربي والسير اوستن تشامبرلين وأمثالهما من الزعماء الناقدين بأي رأي،

في حين أنه كان هناك آخرون عارضوا بصراحة اعتماد فكرة الاتحاد حلاً لمشاكل الهند. أما الوفد الهندي فقد كان حسناً على العموم. صحيح أن المهاتما غاندي لم يحضر الاجتماعات، غير أنه كان هناك عناصر كثيرة تمثل القومية الهندية المتقدمة أخذت من خارج صفوف المؤتمر. وإذا ما عدت الآن إلى ما حدث في هذه اللجنة، فإني أعتقد أني آسف لغياب السيد محمد علي جناح كما آسف لغياب المهاتما غاندي. وفي اعتقادي أنه كان من سوء حظنا إلى حد كبير أننا نحن المسلمين لم نصرّ على وجود السيد جناح معنا، فلو أنه كان عضواً في الوفد، إذاً لكان ساهم في ما أعتبره أثمن نتيجة لمؤتمرات الطاولة المستديرة هذه.

كانت هذه هي المذكرة المشتركة التي وضعت، للمرة الأولى في تاريخ العلاقات الهندية- البريطانية، أمام الحكومة البريطانية طلباً موحداً باسم جميع الطوائف، والتي شملت تقريباً كل قضية سياسية مهمة ناشئة. لقد بسطت هذه المذكرة ما كان من شانه أن يكون في الواقع خطوة كبرى إلى الأمام- الخطوة قبل الأخيرة لبلوغ وضع الدومنيون. فعن طريقها توخينا تأمين الاستمرار في نقل المسؤولية، ووقعها جميع المندوبين الهنود غير الرسميين، كما صاغها سكرتير الوفد الرسمي بالاشتراك معي شخصياً. لقد طلبنا في هذه المذكرة نقل جميع السلطات تقريباً إلى أيدي الهنود باستثناء بعض السلطات التي تركناها للحكومة البريطانية. ولو أن الهند منحت دستوراً على هذه الأسس، إذن لكانت الحالات الدقيقة التي نشأت فيما بعد- إعلان الهند الحرب عام ١٩٣٩، والمشاكل التي واجهت لجنة كريبس عام ١٩٤٢، وانتقال السلطة نهائياً وكلياً- أيسر إلى حد

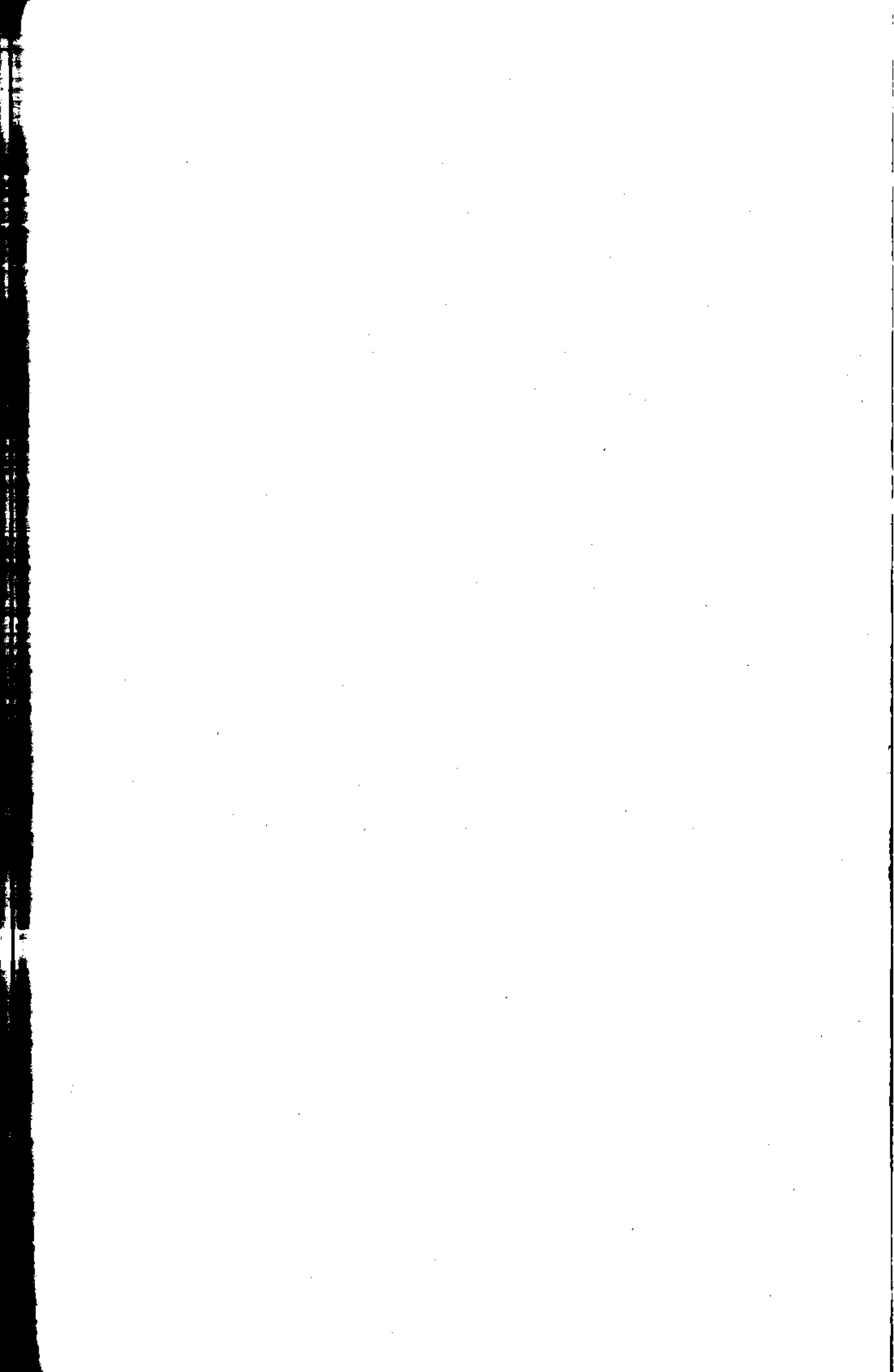
بعيد. ولو أن هذا الدستور قبل وعمل به إذن لكان من اليسير نسبياً في ما بعد تشذيب هذه السلطات التي كانت في مسودتنا المرحلة الأخيرة من مراحل التحول الدستوري: أما شهادتي التي أدليت بها أمام اللجنة المشتركة فقد جاء فيها:

" أنني أقبل عبارة الحكم المسؤول، ولو أني أفضل كمثل أعلى، الحكم الذاتي إما على أساس النظام الاتحادي الإميركي، أو على الأسس السويسرية، ولكن وقائع الحال يجب أن تدرك.... إن الحكم المسؤول يجب أن يكون طريقتنا إلى تطوير نظام ما في المستقبل أكثر ملاءمة لمجموعة من الولايات الكبرى التي ستكوّنها الهند، وفي اعتقادي أن الطريق سوف يوجد في شيء مماثل للنظام الاتحادي الأميركي. "

وبالرغم من جميع حسنات مذكرتنا المشتركة، فقد أنكرها حزب المؤتمر، ولذلك شعرت الحكومة البريطانية بأنها كانت مضطرة لرفضها هي أيضاً، وأحدثت بدلاً منها الدستور الذي أشار إليه قانون حكومة الهند لعام ١٩٣٥؛ ذلك الدستور الذي ترك ثغرات كثيرة للتدخل البريطاني، بل للتقرير الفعلي، في أمور كان كل هندي وطني يعتقد أن من حق الهند وحدها أن تقرر بشأنها- مثال ذلك اشتراك الهند في الحرب العالمية الثانية. وأعظم عيوب هذا الدستور هو أنه لم يقدم أي أساس للبناء، والذي لا شك فيه أن السير ستافورد كريبس، في إبان لجنته سنة ١٩٢٤، واللورد الكسندر اوف هيلزبورو واللورد باثيك لورنس في أثناء لجنتهما التالية قد توقفوا عند هذه الحقيقية الكريهة. وكذلك لم يقدم هذا القانون أي دافع لأي جهد لسد الثغرة بين الهندوس

والمسلمين، كما أن فراغه قد تجلى أيام اختباره في أعوام ١٩٤٢، ١٩٤٦-١٩٤٧، فضلاً عن أن تحفظاته وافتقاره إلى الوضوح حول المعنى الحقيقي للاستقلال الهندي قد جعل من المستحيل تحقيق هند متحدة، ومن أجل ذلك كله لم يكن بد من طرحه جانباً، ومن بذل الجهد لبناء الاستقلال الهندي من العدم. واتضح عندئذ بعنف أن الوحدة الهندية كانت مستحيلة إلا إذا أقيمت على أسس فدرالية أو كونفدرالية واسعة إلى أبعد الحدود.

ولقد اقترحت اللجنة الوزارية الثانية فعلاً دستوراً كان بوسعه أن يبقي على وحدة الهند، ولكن ثمنه كان تسليم جميع السلطات النهائية إلى الولايات الكونفدرالية الثلاث في الهند الفدرالية. ذلك هو الدستور الذي كان بوسع مذكرتنا المشتركة لسنة ١٩٣٤ أن تعبّد له الطريق بصورة طبيعية ثابتة، ولكن موقف حزب المؤتمر من هذا الجهد الأخير كان فاتراً، فطرح هو الآخر وأهمل. وفي النهاية، كان الحل الوحيد هو الذي حدث عندما فصل ذانك التوأمان- الهند الإسلامية والهند الهندوسية- اللذان عاشا معاً على تلك الصورة من القلق والانزعاج، بعملية جراحية سريعة شاملة.



الفصل الحادي عشر
عملي من أجل عصبة الأمم

انتهت صلتي بالسياسة الهندية بتقديم المذكرة المشتركة وبانتهاء أعمال اللجنة المنتخبة المشتركة عام ١٩٣٤ . غير أني سريعاً ما وجدت نفسي أسير في طريق جديدة من طرق الشؤون العامة، وأقوم بنشاطات جديدة ظلت موضع اهتمامي الرئيس في الحياة من أوائل العقد الرابع من القرن العشرين حتى نشوب الحرب العالمية الثانية.

وكان تطور هذه النشاطات ونشأتها نتيجة اتصالي الوثيق بالسير صموئيل هور في وزارة الهند. ففي الفترات التي كانت تقع بين محادثاتنا الرسمية حول المشاكل الهندية كنا نجد أنفسنا، أنا وهو، نتعمق في بحث الشؤون العالمية، في العقد الرابع. لقد انهار فجأة ذلك التفاؤل الذي عمّ الكثيرين في ثلاثينيات القرن العشرين، وحل محله قلق متزايد. ومما يرثى له الآن أن أذكر بعض الأوهام التي شاعت في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى مباشرةً. فقد سمعت أناساً يفترض فيهم الذكاء والفطنة، أناساً كان من عادتهم أن يتنقلوا في أوساط كانت تعتبر حسنة الإطلاع، يقولون، مثلاً، بأن الحرب لم "تفقر العالم بل أغنته، وأن ثمنها الظاهر قد عُوِّضَ عن طريق نظام أفضل

لمراقبة الأسعار والتعديل الاقتصادي" . ولم يدرك أحد إلا عندما وقعت الأزمة أن ثمن الحرب قد آن أن يُدفع. وعندما أدرك الناس ذلك تبين بصورة واضحة أن العالم كان يندفع نحو كارثة جديدة.

عندئذٍ، وكما هي الحال الآن، لم يكن مفر من مواجهة مسألة ألمانيا والألمان. فنحن جميعاً ندرك اليوم أن عقدة مشاكل أوربا ومصاعبها هي في ألمانيا. والحق أن ليس هناك أمل بسلام عالمي حقيقي دائم من دون حل نهائي لمشكلة ألمانيا، وهذا الحل يمكن الوصول إليه إما عن طريق تفاهم صريح مخلص بين روسيا من جهة، والدول الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى، أو عن طريق توطيد ألمانيا متحالفة ومتحدة مع أوربا الغربية. هكذا كانت تبدو لنا مشكلة ألمانيا في ثلاثينيات القرن العشرين؛ وكان من المستحيل فصل أسئلة من مثل: إلى أين يسير العالم الغربي؟ وإلى أين مصيره؟ وهل العالم صائر إلى حرب أم سلام؟ عن السؤال: ماذا سيحل بألمانيا؟

إن ثمانين مليوناً من البشر اللامعين المجدين المثقفين، المحصورين في بقعة صغيرة من الأرض نسبياً بين الراين والفستولا، وبحر الشمال وجبال الألب، ولهم " مستعمرات " من بني جنسهم خارج حدود الرايخ؛ في السوديت والنمسا وفي رومانيا وأقسام من روسيا، ينشدون الوحدة ومع ذلك يدركون أن لهم تاريخاً طويلاً من النزاع الديني والعائلي، إن ثمانين مليوناً من البشر كهؤلاء كانوا يشكلون علامة استفهام دائمة ضخمة في صميم أوربا. ولكن ألمانيا لم تكن الوحيدة من نوعها، فقد كانت هناك إيطاليا الفاشية بمطامح موسوليني الاستعمارية، وموقفه من الحبشة وألبانيا، وتسميته البحر الأبيض المتوسط " بحرنا ".

كان موسوليني، بالرغم من جميع جرائمه وحماقاته التي دفع ثمنها بسقوطه وموته، رجلاً ذا فردية نابغة بطرق مختلفة. فقد تحقق في إيطاليا ما بين الحربين إحياء سياسي يشبه في بعض وجوهه إحياء وزلي الديني في إنكلترا في القرن الثامن عشر. لكن لم يشمل هذا الإحياء كل جزء من أجزاء شعبه، شأن مذهب " الميثودولوجية " من قبله. إلا أن كثيراً من انفعالاته تخللت المجتمع الإيطالي بأجمعه- خارج صفوف الحزب الفاشي نفسه أيضاً. مثلاً، كان هناك التوق إلى مكان تحت الشمس، والشعور بأنه إذا كانت دول من مثل إنكلترا واسبانيا والبرتغال قد بنت دولاً كبيرة تابعة لها فيما وراء البحار- فإن إيطاليا، خليفة روما ووريثتها، وقد حرّم عليها التوسع في أوربا خارج حدودها، من حقها وواجبها أن تحيي رسالة روما الامبرطورية عبر البحار.

وإذن فقد كان هناك تركيز حماسي حول الحبشة- أولاً لمحو عار "عَدْوة "، وثانياً، وهذا هو الأهم، لإنشاء مستعمرة أوربية كبيرة في تلك المرتفعات الاستوائية(الشبيهة من حيث المناخ بكثير من بلدان أميركا الجنوبية) يمكن لسكانها يوماً أن يمتزجوا دموياً بتلك الأرستقراطية الأمهرية- كما امتزج الأسبان من قبل بالإنكا- جاعلين من أولئك الذين يعتبرونهم أحط عنصرياً عبيداً ومماليك.

وبعيداً في الشرق الأقصى، كانت اليابان منهمكة في ما عرف من بعد بحادث الصين، وبدت الحاجة إلى سياسة قائمة على التوسع "الاستعماري " ضرورة لا مفرّ منها في نظر زعمائها، وكانت متورطة في حرب منشوريا. مثل هذه الموضوعات، الحية الملحة البشعة، كانت محور أحاديثي مع هور بين الفينة والأخرى كلما خطر لنا التحول عن حديث التطور السياسي والدستوري في الهند.

لقد أخذ هور يدرك بصورة تدريجية أن الحكومة الهندية منذ اللحظة التي بدأت الهند تلعب فيها دورا- مهما كان محدوداً- في السياسة العالمية، أخذت تهملني وتتجاهلني عمداً. ولم يكن من العسير تحليل السبب في هذه السياسة الجديدة في نيودلهي وسيملا. فالطبقة الحاكمة في الإدارة الهندية المدنية، تلك البيروقراطية المتشابكة التي كانت تحكم الهند، لم تكن ترغب ولا تطيق أن تقدّر رجلاً ذا وضع مستقل وآراء مستقلة شأني أنا، رجلاً ذا معرفة أصيلة بكثير من هذه المشاكل. كانت هذه الطبقة تدرك أنني لو منحت أيما صفة ديبلوماسية رسمية أستطيع معها أن أصبح في وضع يمكنني من أن أتلقى تعليمات نائب الملك، إذن لما ترددت في أن أفصح لنائب الملك عن آرائي وأن انتقد عند الضرورة السياسة الرسمية، وأنني إذا تعرضت للاستبداد والتحكم بصورة غير معقولة، لما ترددت في الاستقالة وفي الإدلاء بجميع الأسباب التي حملتني على الاستقالة إلى كل من نائب الملك ووزير الدولة. وإذا مثلت الهند في مؤتمر دولي فلن أكون أبداً ببغاء أردد ما تلقنني إياه السلطة. وإذن فقد اعتبرت السلطة أنني سأكون عبئاً أكثر مما سأكون مفيداً.

ولقد كان من الطبيعي أن تبرر الطبقة الحاكمة نفوذها وخوفها مني، فقالت إنني كنت مالكاً لجياد السباق، وإنني كنت هاوياً للأدب والفنون، وكنت قد أنشأت جامعة أليكار بوصفها مؤسسة طائفية، ولو كانت ثقافية، وإنني كنت إمام الإسماعيليين فإن ولائي لابد أن يكون لأتباعي أولاً، فإن الحكومة لم يكن باستطاعتها أن تغامر باستخدامي. ويمكنني القول إن ملفات الأمانة كانت مثقلة بالدقائق والمذكرات عني، وإنها كلها كانت تتلخص في كلمة واحدة: " لا ". لقد تمكن السير صموئيل

هور من إدراك ذلك كله، وعلم أنه قد كان نتيجة للتحيز والتحامل ليس غير.

وعندما كانت الترتيبات تتخذ لمؤتمر نزع السلاح، وكان الوفد الهندي إلى عصبة الأمم في طور التعيين، اهتم السير صموئيل هور بالموضوع اهتماماً كلياً، ولفت أنظار نائب الملك إلى أنني كنت أهلاً لأن يستفاد مني إلى درجة أكبر، ألح على وجوب إعطائي فرصة لخدمة الهند في المجال الدولي. وكان بعضهم قد استعمل لي عبارة " سفير بلا سفارة"، وألحّ وزير الدولة على أنه قد آن لي أن أعطى صفة رسمية.

وفي نظري أنني قد باشرت عملي بذهنية حسنة الاطلاع على القضايا الرئيسة. ذلك أن معرفتي الأساسية بالتاريخ السياسي والاجتماعي لأوربا والشرق كانت معرفة دقيقة، فقد كنت مواظباً على مطالعة الصحف وتلك المجلات السياسية والأسبوعية التي تقدّم، وبصورة خاصة في بريطانيا وفرنسا، تعليقات علمية قيمة على جميع القضايا والاتجاهات الرئيسة في عصرنا هذا، كما عشت سنين عديدة حياة ناشطة في المجال الوطني والدولي.

ليسمح لي القارئ بأن أذكره بالجّو الدولي الذي كان سائداً في ربيع عام ١٩٣٢، وببعض الاتجاهات والعوامل الدولية المهمة. كان الاتحاد السوفياتي يسعى إلى أن يوطد على الأقل مظهراً سطحياً من مظاهر القوة. ونحن نعرف الآن أن الوضع الداخلي في روسيا، بعد الجهود المريعة المهلكة التي بذلت إبان مشروع السنوات الخمس الأولى، قد كان خطيراً، وأن ستالين، الذي كان قد أصبح صاحب الكلمة الأولى في مصير بلاده، قد رغب الآن في تخفيف حدة التوتر الدولي. وكان ليتفينوف، وزير

خارجية ستالين، يعرف إنكلترا معرفة جيدة، وله زوجة إنكليزية كانت تدرك شخصياً حكمة السياسة البريطانية العملية والإمكانيات التي توفرها، لو عولجت معالجة صحيحة، والتي تؤمن لروسيا مكانها اللائق بين الأمم.

وكان ليتفينوف تواقاً إلى أن يحقق الاعتبار لبلاده، وأن يصوّرها للعالم بصورة المرأة الشريفة إلى أبعد حدود الشرف. أما المرأة نفسها فقد وقفت مترددةِ إلى حد ما عند عتبة الباب- لأسباب اتضحت في ما بعد. ومهما يكن، فإن العلاقات الاجتماعية مع ليتفينوف وسائر أعضاء وفده قد كانت ممكنة على الأقل. وقد اتخذت المبادرة، على مسؤوليتي، فكسرت الجليد(وأعتقد أن هذا قد أدهش زملائي الإنكليز الذين كانوا قد اعتادوا على التردد من جانب أعضاء الوفد الهندي السابقين)، وأقمت حفلة عشاء خاصة على شرف ليتفينوف. كان اغتباطه واضحاً، ذلك أن تلك الحفلة قد وضعت الأساس لصداقة استمرت طيلة بقاء ليتفينوف في جنيف، وامتدت بحيث شملت ديبلوماسيين آخرين من الروس الذين لم يقصروا أبداً في دعوتي إلى حفلاتهم الاجتماعية.

والحق أن ليتفينوف قد بدأ يظهر في دور الديبلوماسي البارع وحقق نجاحاً اجتماعياً حقيقياً. أما صديقي القديم، البارون موريس دي روتشيلد، الذي كان يملك قصراً جميلاً غير بعيد من جنيف، فقد انصرف إلى إقامة حفلات غداء صغيرة، وكان يدعو إليها ليتفنيوف وزملاءه إلى جانب كبار المندوبين البريطانيين والفرنسيين وممثلي دول أخرى.

وكانت الولايات المتحدة قد خذلت الرئيس ويلسون ورفضت الانضمام إلى عصبة الأمم، كما كانت قد أعلنت إيثارها للعزلة، غير أنه

ما إن حل عام ١٩٣٢ حتى كانت نتائج الأزمة بادية المعالم في جميع القارة الإميركية الشمالية، وحتى أخذت انعزالية هاردنغ- كوليدج تقترب من نهايتها. وكانت وزارة الخارجية قد بدأت تدرك بصورة متزايدة أن أميركا لم يكن باستطاعتها أن تغسل يديها من سائر العالم، فتقرر أن مؤتمر نزع السلاح كان وسيلة ملائمة لسبر غور الحالة الدولية في جنيف. وكانت ألمانيا فايمار- بخلاف الاتحاد السوفيتي- عضواً محترماً الآن في الأخوة الدولية على قدم المساواة، ولو سطحياً، مع بريطانيا وفرنسا.

في عام ١٩٣٢ كان نزع السلاح الموضوع الأهم، وكانت تُعلق عليه أهمية كبرى. كان التفاؤل لا يزال سائداً، وكان الرأي العام يدعو إلى جمع مندوبي الدول حول مائدة ما حيث يتفقون مبدئياً على نزع السلاح، وحيث يتفقون كذلك على التفاصيل، وعلى إذابة المدافع والبنادق، وتخريب السفن الحربية، وتحديد استعمال الطائرات وتسليحها، وعندئذ يسود السلام ويستقر من غير شك، ومع ذلك، فتحت هذا التفاؤل، كان هناك تيارات من الشك والخوف. هل كان المستقبل براقاً كما كان الكثيرون يحاولون أن يعتقدوا؟ هل كانت ألمانيا فايمر كما كانت تبدو فعلاً؟ هل ذهبت كل الجهود التي بذلت لكسب ألمانيا إلى جانب الديموقراطيات هباء منثوراً؟ هل تمخض الجبل فلم يلد سوى فأر تافه ضئيل؟

كانت كلمة جديدة قد دخلت القاموس السياسي: النازية، التي قيل لنا إنها كانت تعني الاشتراكية الوطنية. كانت تبدو نسخة مشوشة ألمانية عن فاشية إيطاليا، وكانت قد تسلطت على عقول الألوف من الشبان الألمان، وكانت تقترن باسم رجل يدعى أدولف هتلر.

لم يكن المستشار العسكري للوفد الألماني في جنيف في هذا الوقت سوى الجنرال- الفيلدمارشال من بعد- فون بلومبرغ، وكان مندوب هتلر في حفلات تتويج الملك جورج السادس، وغضب عليه آخر الأمر في ظروف غامضة بسبب زواجه كما زعموا وقتئذ. لقد توطدت الصداقة بيني وبين هذا الجندي البروسي، ومنه سمعت الشيء الكثير عن الرجال الذين كانوا يحاولون عندئذ أن يتولوا دفة الحكم في ألمانيا- الأقزام، كما كان يسميهم.

وإذن فقد كان ذلك هو البحر المضطرب الذي بدأت أخوض فيه الآن. لقد حققت الأمانة في نيودلهي تمنيات وزير الدولة، وعينتني عضواً في الوفد الهندي إلى مؤتمر نزع السلاح، ومساعداً اسمياً للسير صموئيل هور، على أن أتولى رئاسة الوفد حالما يغادر هو المؤتمر. كذلك عينت رئيس المندوبين الهنود في اجتماعات العصبة عام ١٩٣٢ . وهكذا بدأت ناحية جديدة من نواحي حياتي العامة دامت حتى زحفت جيوش هتلر على بولونيا وتضعضع بعنف ذلك السلام العالمي الذي بذلت عصبة الأمم جهودها المضنية في سبيل الإبقاء عليه.

كان التفاؤل الذي ساد جنيف عام ١٩٣٢ تفاؤلاً لم أستطع أن أشاطره على الوجه الأتمّ. كنت أشعر بحاجة إلى بذل المزيد من الجهد لتحقيق آمالنا، وسعيت، بأقصى طاقتي، إلى بسط آرائي واعتقاداتي في هذا المسرح الجديد الذي دعيت إليه، فألقيت خطاباً مطولاً في الجلسة الرابعة عشرة للعصبة قلت فيه:

" لقد وجدنا أن التسلح لا يزال منتشراً وأن الشعور بالقلق وعدم الاطمئنان لا يزال ملحاً. وليس باستطاعة أحد أن يؤكد أن الحرب في

سبيل الحرب قد ربحت. فمن الناحية المعنوية علينا أن نجنّد أنفسنا للقضاء على تأثيرات الخوف والشك والبغضاء، كما أن علينا، من الناحية المادية، أن نقلل إلى الحد الأدنى ذلك الجهد غير المثمر الذي نقفه على الاستعدادات الحربية. في الهند القصيّة، كما في أوربا، خلّفت آثاراً مريعة مريرة، وإن أكثر من مليون نسمة من مواطنيّ دعوا إلى حمل السلاح وقتل منهم أكثر من خمسين ألفاً. إن مقدار التسلح في الهند لا يسمح باستعمال الأسلحة في سبيل العدوان، وإن مقدار قواتها يجب أن يقاس بالنسبة إلى اتساع رقعتها وتنوع حالاتها.

إن الناس كثيراً ما ينسون أن مساحة الهند هي أكثر من نصف مساحة أوربا، وإن عدد سكانها يبلغ تقريباً خمس سكان العالم كله. إن هناك صرخة تنبعث من صميم المواطنين المحبين للسلام في كل بلد، تدعو إلى تخفيف الأعباء العسكرية عن كواهلهم، وإلى خفض العبء المالي الذي تفرضه هذه الأعباء، وإلى تأمين السكان المدنيين من كل فظائع الحروب، وأهم من ذلك إلى تأمينهم ضد فكرة الحرب ذاتها. "

لقد ذهبت كلماتنا، نحن الذين كنا نتكلم في تلك السنين ونحضّ على اجتناب حرب عالمية ثانية، أدراج الرياح. ولكن هذا لا يعني أن هذا الجهد لم يكن يستحق أن يبذل، وأننا لم نكن على حق في بذله. إن ذلك المكان الرحب الذي ضم عصبة الأمم في جنيف لا يستعمل الآن في سبيل الغاية التي بني من أجلها، ولكن منظمة الأمم المتحدة التي نشأت من الدمار والمأساة التي حاولنا تفاديها، تثبت- بمتابعتها عملنا في عهد جديد وبأساليب جديدة- أننا لم نكن نعمل على غير طائل.

لقد استنفد عملي في عصبة الأمم، وفي مؤتمر نزع السلاح، كل

وقتي واهتمامي بقية العقد الرابع من القرن. كنت أمضي أشهراً بكاملها في جنيف، وكنت أجد نفسي في خضم من الأحداث- زجر اليابان وتعنيفها لعصبة الأمم، وخروج ألمانيا الدراماتيكي منها، ومن ثم عدوان موسوليني المباشر في الحبشة. وكنت في أوائل هذه المدة قد وطدت صداقتي مع السيد آرثر هندرسن، رئيس مؤتمر نزع السلاح.

كان هندرسن واحداً من أعظم السياسيين الذين أبرزتهم الحركة العمالية في بريطانيا. وكان وزيراً ناجحاً ومحبوباً في وزارة رمزي مكدونالد العمالية الثانية، غير أنه لم يجد نفسه قادراً على تأييد زعيمه في ذلك التبدل الدراماتيكي السريع الذي نتج عن تشكيل الحكومة الوطنية، ولذلك احتفظ بولائه للحركة العمالية في بريطانيا، ولكن النتيجة المباشرة لقراره كانت حرمانه من سلطته ومنصبه. ولقد كان الشعور العام بأن العالم، وبريطانيا كذلك، لابد أن يصابا برزءٍ كبير إذا حرما من معرفته وخبرته في المجالات الدولية التي كان قد جلّى فيها، ولذلك عين رئيساً دائماً لمؤتمر نزع السلاح واستمر في أداء واجبات منصبه بشجاعة وامتياز حتى وفاته. ولقد نمت معرفة أحدنا بالآخر إلى صداقة مخلصة متبادلة حميمة.

كانت تحققاته بارزة بقدر ما كانت شخصيته محبوبة، وكمعظم الزعماء العماليين في جيله كان ابناً باراً للشعب والذي شق طريقه من طبقة متواضعة إلى أسمى المناصب في العالم. كان متواضعاً مستقيماً ذكياً وهادئاً. لقد قال زعيم عمالي من جيل أصغر،وأعني به مستر مورغان فيليبس، إن أصول الحركة العمالية البريطانية إنما توجد في " النظامية " لا في " الماركسية "؛ وهذا القول كان ينطبق دون شك على

آرثر هندرسون، ذلك أنه بقي طول حياته "نظامياً" متفانياً في نظاميته. أما زوجته فقد كانت رفيقه الأمين في طريقه الطويل المرهق. كانت امرأة على جانب عظيم من الجمال وكرم الشخصية، والحكمة والصدق.

وكثيراً ما كان يحل هندرسون ضيفاً عليّ في منزلي في (آنتيب)، وكان برنهارد بارون، المليونير ورجل الإحسان، يذهب بسيارته إلى مونت كارلو ليقضي ساعة أو ساعتين في الكازينو، وكان هندرسون يُسَرُّ بمرافقته، ولكنه كان ينتظر البارون في السيارة حتى يخرج من الكازينو. كان هندرسون حازماً بقدر ما كان طيباً وجريئاً. وقد أخذنا في أن يعتمد أحدنا على مشورة الآخر وتأييده في تلك الأيام العسيرة التي أمضيناها في جنيف.

كانت سنة ١٩٣٥ سنة لا تُنسى. فقد كانت السنة التي تم فيها هجوم موسوليني على الحبشة، وكانت السنة التي ظهر فيها قانون حكومة الهند إلى حيز الوجود- ذلك القانون الذي كان التشريع الهندي المهم الأخير الذي وافق عليه برلمان المملكة المتحدة قبل نهاية الحكم البريطاني في الهند. كانت سنة اليوبيل الفضي لصديقي الملك جورج الخامس، عندما شاطرت الشعب البريطاني مشاعر الود والإخلاص التي حيّى بها الملك والملكة ماري. وبالنسبة لي كانت سنة بهرام، لأنه في صيف تلك السنة فاز ذلك الحصان الرائع بجائزة الألفي جنيه، الديربي، وجائزة القديس ليجر- التاج المثلث للتورف، كما كان يسميها الصحافيون الرياضيون- فكان أول حصان يحقق ذلك منذ أيام روك ساند قبل ذلك بـ ٣٢سنة.

كنت قادراً على الحضور في إبسوم عندما فاز بالديربي- وكان

فريدي فوكس هو الحوذي- وتوليت قيادته بالطبع بعد الفوز. وقد تشرفت أعظم شرف بكوني ضيفاً على صاحبي الجلالة في العشاء الاحتفالي في قصر بكنغهام. وقد أمرت الملكة بنفسها بأن تزين المائدة بألوان سباقاتي، الأخضر والشوكولا.

لكني لم أكن في أحسن أحوالي فيما يتعلق بمحيطي عندما فاز بهرام بجائزة القديس ليجر. إذ كنت عندئذٍ قد عدت إلى عملي في جنيف. لكنني أستطيع أن أزعم لنفسي سجلاً مميزاً: فمن المؤكد أنني كنت الوحيد من أعضاء جمعية عصبة الأمم الذي يستدعى خارج القاعة ليخبروني بفوز حصاني بجائزة القديس ليجر.

ولكن المشهد السياسي الدولي في ذلك الحين كان مظلماً وكان الأفق متلبداً بالغيوم، وكانت أضواء السلام والأمل التي انبعثت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى قد أخذت تتلاشى واحداً بعد الآخر. وقبل أسبوع واحد بالضبط من الهجوم الذي شنه موسوليني على الحبشة ألقيت خطبة في الجمعية العامة لعصبة الأمم. كنت مقتنعاً بأن أوان الكلمات الناعمة قد فات، ولذلك تكلمت باسمي وباسم بلادي بأكبر قدر ممكن من الصراحة :

"إن مما يزعج الهند ويقلقها هو افتقار عصبة الأمم إلى تعميم نشاطها بحيث يشمل العالم أجمع، ووقفها أعظم قدر من طاقتها على الأمور التي تهم أوربا أكثر ما يكون. إن الهند قلقة لهذا الفشل يتلو الفشل، ولمؤتمر نزع السلاح الذي اقتضى كل هذا الوقت الطويل دون أن يؤدي إلى أية نتيجة مثمرة، ولأن الدول آخذة في إعادة تسليحها على النطاق الأوسع.

إن انتقاد الهند للعصبة موجه إلى تقصيراتها لا إلى مثلها العليا.
إن العالم على مفترق الطرق، فلتكن الحكمة دليلها إلى اختيار الطريق."

وباقتراب عام ١٩٣٥ من نهايته قصدت إلى بومباي للاحتفال بيوبيلي الذهبي بوصفي إمام الإسماعيليين بالوراثة. لقد انقضى نصف قرن منذ اعتليت، أنا الصبي الصغير، القصير النظر، والمحاط بالكبار من الملتحين، " الغادي "(سدة الإمامة). وكانت ذروة الاحتفال ذلك الطقس القديم الذي يقضي بوزني بالذهب. وقبل ذلك كان هنالك حفلة خاصة بالنساء في بيت الجماعة جلست خلالها أمي الحبيبة إلى يميني وزوجتي إلى يساري. وكانت حفلة الوزن بالذات فخمة ومثيرة للعواطف أثارت مشاعر قوية من المحبة المتبادلة بيني وبين أتباعي.

غير أن أفراحنا ما لبثت أن توقفت عندما تلقينا النبأ المحزن بوفاة صديقي القديم، الملك- الإمبراطور، جورج الخامس، الذي توفي في ساندر ينجهام في شهر كانون الثاني من عام ١٩٣٦ . لقد فكرت بصداقتنا التي دامت سنين طويلة، وفي الاختبارات والتجارب التي مرت بها هذه الصداقة في الحرب والسلم، وبلطفه وعطفه الدائمين عليّ في جميع الأمور الصغيرة والكبيرة. والحق أن آخر كلمة تلقيتها منه كانت عبارة عن رسالة حارة هنأني فيها بيوبيلي. وهكذا أوقفنا جميع الاحتفالات احتراماً لذكراه، وقرأت على أتباعي بياناً مقتضباً نعيته فيه إليهم قائلاً:

" لقد تأثرت أبلغ الأثر عندما سمعت بوفاة الملك- الإمبراطور، وقررت وقف جميع النشاطات المتعلقة بيوبيلي الذهبي، باستثناء الدينية منها. إننا الآن في حداد تام، وسأرتدي أنا الألبسة السوداء، أما أتباعي

فسيرتدون ملابس الحداد الوطنية. إن الإمبراطور- الملك لم يكن حاكماً عظيماً فحسب، بل كان رجلاً عظيماً بالمعنى الحقيقي للكلمة. لقد كان جلالته كريماً معي شخصياً، وإني لواثق من أن الملك - الإمبراطور الجديد سيكون، بالنظر إلى معرفته بالعالم والإمبراطورية بأجمعها، خير خلف للملكة فيكتوريا، والملك إدوارد، والملك جورج."

ومع أنه في خلال أشهر معدودات تبدلت الأحداث تبدلاً محزناً، فإني لست آسفاً لحظة واحدة على تلك الجملة الأخيرة، كما إني لا أسحبها. لقد سبق لي أن عرفت منذ زمن طويل الرجل الممتاز المحبوب الذي خلف أباه على العرش في ذلك اليوم من أيام كانون الثاني من عام ١٩٣٦، يغمره إخلاص الإمبراطورية وتمنياتها الطيبة بحكم طويل ناجح.

لقيته لأول مرة في يورك هاوس، قصر سانت جميس في عام ١٨٩٨، وكان طفلاً في الرابعة من عمره. وكان ذلك عندما جاءت أمه، دوقة أوف يورك عندئذ، بصبيين مرتديين ثياب البحارة لمصافحتي في قاعة الاستقبال- دافيد وباري، كما كانا يعرفان عندئذ ضمن العائلة. وقد كانت لشخصية الصبي الأكبر الحية تأثيرها في مخيلتي، وكانت نظرته تنم عن ذكاء ولطف ووضوح في التعبير. إني لا أزال أحتفظ بصورة للصبيين كما كانا عندئذ، وعليها اسم كل منهما مكتوباً بخط أمهما.

وفي السنوات التي تلت لقيته مراراً عديدة، في مراحل متتابعة من تلك الحياة الطويلة المتفانية في الخدمة العامة التي كانت ذورتها اعتلاءه العرش وتسنمه واجباته التي سبق له أن أعد نفسه لها إعداداً ممتازاً مضنياً. إنني أذكر ذلك الشاب الخجول النحيل الذي كان يقطن في

باريس كيما يتعلم اللغة الفرنسية في أواخر العقد الثاني من عمره يتساءل(هو الذي أصبح من بعد باريسياً مخلصاً) " ماذا رأى جدي في باريس ".

أذكر سنواته الأولى عندما كان برنس أوف ويلز، وأذكر ذلك الجندي الشاب الذي سعى بكل طريقة إلى التملص من أمر كيتشنر الجاف بأن وريث العرش يجب ألا يسمح له بالاقتراب من الخطوط الأمامية.

وأذكر أيضاً في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى " سفير أوربا " الذي كان يجوب، دونما انقطاع، الكومونولث والإمبراطورية والعالم أجمع في خدمة بلاده وشعبه. في أوائل العقد الثالث من هذا القرن(العشرين) اجتمعت به أكثر من مرة، وكان متعباً مكدوداً، في أثناء زيارته إلى الهند. وفي إبان مأدبة رسمية في قصر سانت جايمس أقيمت على شرف ولي عهد اليابان- الإمبراطور الحالي- جلست إلى جانب أمير ويلز، وأذكر قوله لي عندئذ إنه إذا رفض طلب اليابان تجديد معاهدة التحالف الإنكليزية- اليابانية- لأن هذا كان السبب الحقيقي لزيارة ولي العهد- فإن اليابانيين لن يغفروا لنا ذلك أبداً. إن صوته لم يكن يملك تلك القوة التي يملكها صوت أبيه وصوت جده من قبله. بل إن لهجته كانت دائماً هادئة بالنسبة إليهما، ولكنه كان يتكلم دائماً باقتناعهما وإيمانهما بأهمية ما يتحدث عنه.

كان من الأمور المعتادة في العقد الثالث أن يقال إن أمير ويلز ينمّي الصداقات في أي مكان وجد فيه. هذا القول لم يكن مجرد ثناء رسمي، بل كان قولاً بسيطاً فيه كل الحقيقة. فلماذا كان ذلك؟ ماذا كان مصدر جاذبيته الهائلة التي لا تقاوم؟ تلك الجاذبية التي فازت بإعجاب

الجماهير عامة إلى درجة لا تقل عن فوزها بإعجاب القلة القوية؟ إن مندوب صحيفة التايمز، الذي رافقه في إحدى رحلاته الكثيرة، قد وجد تفسيراً لذلك. قال الصحفي إن أمير ويلز كان فناناً، وهنا يكمن سرّ مزاجه وجبلته، سر مأساته وسر نجاحه، فلقد ولد فناناً. لقد فاز بمحبة الملايين فوزاً لا يستطيعه إلا كبار الفنانين، لا بأساليب دراماتيكية أو سحرية، بل بقبول كل ما يعطيه الآخرون ثم بإعطائهم إياه وبذله مجدداً من أجلهم. ذلك هو السبب الذي من أجله كانت جميع زياراته الرسمية، التي تفرض لقاء الجماهير مرات متعددة، ستستنزف كثيراً من قوته. فعندما كان يعود من مسافة طويلة يقطعها بين الجماهير المحبيّة، كان للإجهاد الذي يشعر به أسباب أعمق بكثير من الأسباب الجسمانية. كان دائماً في توافق روحي وعقلي وعصبي عميق مع أولئك الذين يحيطون بسيارته وهي تتحرك ببطء.

في أوائل ربيع عام ١٩٣٦ تمت مقابلتي الأولى عقب اعتلائه العرش. كان على علم تام بنشاطاتي التي كنت قد قمت بها مؤخراً، وبتلك التي كنت أقوم بها وقتئذ. كان يعلم أنني طيلة السنوات القليلة التي كنت فيها رئيس مندوبي الهند في مؤتمر نزع السلاح وفي جلسات متعاقبة لعصبة الأمم. كنت قلقاً جداً للأحوال العالمية التي كانت تهدد العالم بخطر متزايد، وأنني كنت أنوء- شأن الكثيرين ممن كانوا إلى أي حد على مسرح الأحداث في تلك السنوات- بإحساس قاتم بالمصير الذي كنا نسعى إلى تجنبه، وأنني كنت مدركاً للسرطان في صميم السياسة الدولية، وبخاصة السياسة الأوربية، وأنني كنت قلقاً للامبالاة الأميركية، ولوجود ما كنا نسميه وقتئذ خطة روسيا لنسف المدنية

الرأسمالية بحرب لا يشترك فيها الاتحاد السوفياتي ولكنه يظهر في نهايتها في ثياب الحكم القوي.

ولقد ظن اللوردات وموظفو وزارة الهند الذين صحبوني في تلك المقابلة إنها ستدوم وقتاً قصيراً، غير أنهم لزموا أماكنهم في غرفة الانتظار، بينما اجتزت أنا بين يدي الملك أعظم اختبارٍ جدّيٍ عرفته في حياتي، ذلك إن الملك لم يترك شيئاً إلا وسألني عنه سؤال العارف المطلع. وعندما خرجت بعد ساعة أو يزيد لم أكن ممتلئاً إعجاباً بمعرفته الواسعة واطلاعه العميق على جميع الأوراق الرسمية والتقارير الوزارية التي كانت ترد إليه فحسب، بل بجدّية نظرته ونفاذ بصيرته.

واجتمعت خلال عام ١٩٣٦ بالملك مرات عديدة، في حفلات الكوكتيل الخاصة وفي حفلات الغداء في منزل صديق أو اثنين من أصدقائه المقربين. وفي الاجتماعات الكبرى، وسط أناس من ذوي الألسن الطلقة، دهشت جداً لافتقار الملك إلى طلاقة اللسان، ولجدّيته وتركيز فكره في واجباته. وبعد مقابلتي الأولى، وفي كل مرة كنت ألقاه فيها في هذه المناسبات الخاصة غير الرسمية إبان هذه الأشهر، كانت تصحبه دائماً السيدة واليس سمبسون، دوقة وندسور حالياً. ولقد وجدتها ذكية فطنة بقدر ما كانت جميلة، واسعة الاطلاع إلى درجة تبعث على الإعجاب، تفتقر هي إلى طلاقة اللسان أيضاً، ومحاولة أبداً وبصورة جادّة أن تعدّل مظهرها بحيث يتفق مع مظهر الملك. وفي منزلين اثنين لقيتهما عند الغداء. وفي كل مناسبة من هاتين المناسبتين كان الشخص الوحيد الآخر، إلى جانب مضيفنا ومضيفتنا، صديقي القديم فيليب كير، ماركيز لوثيان (الذي أصبح سفير صاحب الجلالة في

واشنطن فيما بعد وتوفي عام ١٩٤٠) الذي كان هو نفسه باحثاً مجتهداً عن الاستنارة الروحية. لذلك، فإن أحاديثنا لم يكن بالإمكان أن تكون أكثر جدية واهتماماً.

وطبيعي أن الملك والسيدة سمبسون لم يذكرا أمامي قط شؤونهما الشخصية. غير أن المرء كان يسمع، حيثما وجد في تلك السنة، الهمسات والشائعات عن علاقة الاثنين بعضهما ببعض.

وسبق لي أن ذكرت حديثاً مؤلماً جرى لي مع الملكة ماري عند عودتي إلى لندن من جنيف. وفي شهر تموز من تلك السنة، كما أعتقد، أنبأني صديق مقرب إلى الملكة ماري بأنها كانت تبكي كل يوم بكاءً مراً عندما كانت تفكر بتلك الكارثة الخفية التي كانت على وشك أن تلم بولدها الذي كانت تحبه من أعماق قلبها.

في هذه الفترة العصيبة بالذات قال اللورد ويغرام، عندما كنا نتناول طعام الغداء بمفردنا، شيئاً أدهشني إلى حد بالغ. قال اللورد ويغرام: " باستطاعة الملك إدوارد الثامن أن يكون أعظم ملك في تاريخ بلادنا، ذلك أن سحره ومكانته الشخصية تمكنانه من اكتساب قلوب الشعب، بقطع النظر عن طبقاتهم. "

وما هو مهم في الأمر هو أن اللورد ويغرام كان يصدر حكمه عن خبرة عميقة طويلة. كان فيما مضى سكرتيراً خاصاً للملك جورج الخامس، خلفاً للورد ستامفورد هام، وكان كذلك مشيراً ونصوحاً هادئاً حكيماً مخلصاً وصديقاً. غير أنه قبل أن يصبح من رجال البلاط كان ضابطاً في الجيش الهندي، ثم من رجال اللورد كيرزون عندما كان نائب الملك. كانت نظرته الرصينة إلى الأمور على جانب عظيم من الأهمية في

عيني، ومع ذلك فقد رأيت أنه، عندما كان يتكلم، كان يحاول السيطرة على انفعالات مؤلمة قلقة.

وفي الخريف عدت إلى جنيف، وتحدث الملك معي مرة بالهاتف، ومرة أخرى أدركت الحزن العميق وتشابك المأساة في حياته وحياة بلاده، تلك المأساة التي كانت ذورتها القاتمة السوداء قريبة جداً. إذ لم يكن هناك بد من اتخاذ القرار النهائي بسرعة وبصورة لا يمكن الرجوع عنها.

ولقد مرت سنوات بدلت حتماً من نظرتنا إلى تلك الأحداث الكئيبة التي وقعت في الأسابيع الأولى من شهر كانون الأول سنة ١٩٣٦ . فبعد تنازل الملك إدوار الثامن، خلفه على العرش شقيقه الملك جورج السادس. ونحن كلنا ندرك اليوم بغبطة وسرور مقدار خدمته الراسخة الخيِّرة لبلاده ولقضية الحرية الإنسانية في السنة السادسة عشرة من حكمه، ولخلفه الطيب الهادئ الشبيه كثيراً بخلق أبيه من قبله.

لقد نعم جورج السادس- كما دفع أخوه الأكبر إلى القول في أهم حديث عام ألقاه في حياته- بزواج سعيد إلى أقصى حدود السعادة، فزوجته- الملكة إليزابيث والملكة الأم حالياً- كانت مندفعة في مجال الخدمة العامة شأن زوجها، وكانت دائماً إلى جانبه كيما تعاونه وتؤازره خلال سنوات عصيبة عديدة كانت تلوح فيها أخطار الحرب العالمية الثانية وتفوح رائحتها، وامتدت إلى فترة ما بعد الحرب التي شهدت تبدلاً اقتصادياً واجتماعياً واسعاً.

في تلك الآونة أصبحت ملكة شابه جذابة تحكم بصفتها رئيسة للكومونولث. وقد جاءت إلى الحكم بمواصفات عقلية وروحية من أرفع ما يكون، وكان واضحاً أنها كسبت الولاء المطلق والحب العميق لشعوبها

في مختلف أرجاء العالم. وقد عاشت يدعمها حب زوجها وبيتها الثابتين، شأن والدها من قبلها، فكانت نموذجاً لحياة عائلة سعيدة. وطوالع سعدها انطلقت تبشر بعهد إليزابيثي طويل ورائع في تاريخ بريطانيا الطويل المليء بالأحداث. وهكذا تجاوزت مؤسسة التاج في بريطانيا والكومونولث أقسى اختبار لها، وليس هناك ما يؤسف له في هذا المجال.

ومع ذلك، فإن قصة حب إدوارد، دوق وندسور، ودوقته - إذا ما اعتبرت حدثاً إنسانيا بحد ذاته، وبعيداً عن جميع النتائج الدستورية والسياسية - تعتبر من أعظم قصص الحب في جميع الأزمان. وإذا ما وضعت إلى جانب القصص الفارسية والعربية الجميلة والمأساوية الخالدة، وفي موازاة قصص أنطوني وكليوباترا وروميو وجولييت فهل ستكون إلا أكثرها إثارة للمشاعر؟

عندما كنت أناقش آرائي الدينية اقتبست قولاً للشاعر حافظ بخصوص أن أولئك الذين لا ينالون نعمة وبركة الروح القدسية للحصول على اتحاد مباشر مع الحضرة الإلهية التي نعيش فيها ونتحرك ونحقق كينونتنا، ربما قد يحصلون على سعادة صافية مباركة إذا ما وصلوا إلى ذروة الحب والصحبة الإنسانيتين- شيء ليس قليلاً ولا سهلاً، ولكنه يتوج ارتباطاً يدوم الحياة يخلص فيه الإنسان ويقدم كل ما يملك ويعرف ويشعر في سبيل حب وخدمة الآخر.

ومن المؤكد أن جلالة الملك السابق ادوارد الثامن، الذي فقد وضحى بالكثير، قد نال درجة أقل، إن لم تكن القصوى، من الاستنارة والبركة لحب مستديم وكبير.

لدي تعليق شخصي واحد أضيفه إلى هذه القصة المحزنة والمثيرة للمشاعر. ففي خريف عام ١٩٣٧ وجدت نفسي في برلين، في الوقت ذاته الذي كان فيه دوق ودوقة وندسور فيها أيضاً. ولقد زرتهما وكان لنا حديث طويل وحميم. وقد تأثرت عظيم التأثر بشفافية وصدق وإخلاص المشاعر التي تحدث بها الدوق عن أخيه مشيراً إليه دائماً بكلمة الملك. وفي وقت لاحق من تلك السنة، عندما كنت في لندن، كان لي لقاء مع الملك جورج السادس، وكان سبب دعوتي للمقابلة هو تقديم تقرير إلى جلالة الملك حول المقابلة التي أجريتها مع هتلر. وقبل أن أغادر القصر، سألني الملك: " هل رأيت أخي؟ " فأخبرته عندئذ جوهر الحديث مع دوق وندسور، وأكدت الحرارة والإخلاص اللذين يكنهما الدوق. وبدا واضحاً أن الملك قد تأثر عميق التأثر بأماني أخيه وقبوله بالواقع الجديد.

ولأعد الآن إلى حديث العصبة. كان السؤال في جنيف سنة بعد أخرى: هل نستطيع المحافظة على السلام، أم أنه لابد من أن تنشب الحرب مرة أخرى؟ ولكي نفهم تأزّم الأمور، ولكي نفهم كيف كان كل منا، كأفراد وممثلين لبلادنا، يسعى جاهداً لكي يعثر على الجواب، أرى من الضروري أن أبحث كثيراً في الأساس السياسي والتاريخي. إن اجتماع ميونيخ قد أُعتبر وأُنتقد على أساس أنه كان عملاً لا طائل تحته من أعمال التهدئة، وقد وجه أقذع النقد إلى نفيل تشمبرلين - رئيس الوزراء البريطاني، الذي يقترن اسمه دائماً بميونيخ، والذي اعتقد أن ميونيخ كانت أعظم انتصاراته ثم وجد أنها كانت أعظم مآسيه - ومع ذلك، فمن هم في الحقيقة " المجرمون " الذين لاحقتهم الدعاية المغرضة وأمعنت فيهم قدحاً وقذفاً؟ ما هي الأسباب الحقيقية، لا " الملامة " السطحية، لميونيخ؟

علينا أولاً أن نعود إلى تاريخ العلاقات بين ألمانيا وسائر أوربا. علينا أن ننظر من جديد إلى ذلك التأكيد التعس الباطل الظالم الذي أعطي في نهاية الحرب العالمية الأولى، والذي صيغ صياغة واضحة صريحة في معاهدة فرساي، ذلك التأكيد على أن ألمانيا، وألمانيا وحدها، هي التي أجرمت بإشعال نيران الحرب. ولكن جريمة الحرب لا تقع على عاتق ألمانيا وحدها، ذلك أن روسيا كانت شريكتها في نصف المسؤولية تقريباً. كان إيزفولسكي يقول، بوصفه سفير القيصر في باريس لي، ولكل رجل استطاع أن يسمعه: " هذه حربي" . وما قولك بذلك التبجح الأبله الذي كان يتفوه به سازونوف، ذلك الرجل الضعيف الأحمق الذي لم يجفل، بالرغم من جميع التحذيرات التي وجهها إليه رجال قديرون من أمثال ويت وروسن، من حرب قدر لها أن تدمر بلاده، وإمبراطوره وطبقته؟.

ومع ذلك ففي نهاية الحرب كان الملايين من الناس في الدول المنتصرة ,وقد أعمتهم دعايتهم بالذات، يعتقدون أن ألمانيا الإمبراطورية هي التي كانت مسؤولة عن الحرب، ومن ثم، قبل أن يجف مداد التواقيع التي ذيّلت بها معاهدة فرساي، طرأ تطور مهم في التفكير السياسي، فقد اكتشف مفكرو اليسار في بريطانيا أن ضمائرهم لم تكن مرتاحة للظلم التي أوقعته معاهدة فرساي، وللاعتراف الذي كتب فيها، فوق التواقيع التي أكره مندوبو ألمانيا على وضعها، بأن ألمانيا وحدها كانت مسؤولة عن جميع الفظائع والأهوال والمآسي التي سببتها الحرب العالمية الأولى. وظل هؤلاء صريحين في نقد تسوية عام ١٩١٩حتى مجيء هتلر إلى الحكم.

ولكن الشكوك في حكمة معاهدة فرساي وفضيلتها لم تكن وقفاً على اليسار، ذلك أن كثيرين من مفكري اليمين السياسيين ذوي الضمائر الحية قد خالجتهم ريبٌ وهواجس حول تبرير الاحتفاظ بحالة راهنة أساسها الزور والبهتان. كذلك أصبح دستور عصبة الأمم، الذي كان يشكل جزءاً من معاهدة فرساي، موضع الشك. فعصبة الأمم، بموجب دستورها، كانت لها القوة على تقويم كل اعوجاج، ولكن معرفة الأساليب التي كانت تعمل بها عصبة الأمم أوضحت أن دستورها كان في الواقع من المرونة والالتوائية بحيث كان من المستحيل على العصبة أن تقومّ أي اعوجاج مهما كان صارخاً.

مثل هذه النقائص لم يكن بالإمكان إخفاؤها طويلاً. فالنزاع الدموي بين بوليفيا وباراغواي قد وقع في مكان قصي جداً، وغير مهم من الوجهة الاستراتيجية في ذلك الحين. ولكن المصاعب التي نشأت عنه كانت حقيقية وخطيرة شعر بها كل من كان له نصيب في الوصول إلى حل عادل لهذه المشكلة.

ونشأ من ثم النزاع الصيني الياباني. فاليابانيون كانوا، بعد انتهاء حملتهم الظافرة على روسيا القيصرية في أوائل القرن العشرين، قد وطدوا مركزاً قوياً خاصاً بهم في منشوريا، من بورت آرثر حتى أسوار بكين نفسها تقريباً. وكانت الصين في إبان ذلك لا تزال تحتفظ بسيادتها ولكن البلاد كانت تُستثمر من قبل اليابانيين وكأنها إحدى المحميات اليابانية. وبالرغم من أن الثورات الداخلية قد مزقت الصين، فإن هذه الصلة كانت تزداد مرارة وتوتراً كلما ازدادت مطامح اليابانيين ومطامعهم وضوحاً. لقد مر وقتٌ طويل تعودنا فيه أن نتحدث بأدب عن

"الخلافات" بين الصين واليابان، ولكن هذه الخلافات كانت في الحقيقة حرباً سعينا في جنيف لإنهائها بكل طاقتنا.

فمن وجهة نظر العصبة لم يكن مجال لرد دعوى الصين إطلاقاً. فاليابان لم تكن تملك أي حق في الصين، باستثناء الامتيازات المختلفة- الموانيء، وخطوط السكك الحديد، والمستودعات التجارية والقواعد- التي كانت أخذتها من الصين أو ربحتها من روسيا، التي كانت قد أخذتها من الصين بدورها بملء إرادتها. أما مزاعمها ومطالبهما الإقليمية، سواءً أكانت ظاهرة أم مستترة، فلم يكن لها أي تبرير قانوني.

ولكن عندما زجرت العصبة اليابان وسعت إلى التدخل ثارت ثائرة اليابانيين. ألم يكونوا يفعلون في القرن العشرين ما فعلته تماماً بلدان أخرى من مثل إيطاليا وفرنسا عندما شيدتا إمبراطوريتهما قبل ذلك بقرن أو قرنين؟

إنهم لا يستطيعون وليسوا مستعدين أن يقبلوا أي إدّعاء بأن عالماً جديداً قد برز إلى حيز الوجود- بموجب دستور عصبة الأمم- وأنه قد نشأ مع هذا العالم الجديد أخلاقيات دولية جديدة تلزم جميع الدول بعدم إحداث أي تبدل سياسي إلا عن طريق آليات العصبة المحكمة المعقدة.

لقد كان دخول الجمل في سم الخياط أسهل من حصول اليابان على اعتراف العصبة بمركزها الفعلي في البر الأصلي من آسيا الشمالية. وعندما عرض النزاع الصيني الياباني على العصبة أخذت المبادرة واتصلت بالسير جون سيمون، وكان عندئذٍ وزير الخارجية البريطانية، وقلت له إني أشعر أن من واجبي، بوصفي ممثلاً للهند -وبوصفي آسيوياً- أن أفعل كل ما في استطاعتي لتحقيق تفاهم مباشر عن طريق

المحادثات بين الصين واليابان. وكان اللورد سيمون قد تعرّض لهجمات قاسية من مختلف الأوساط، ولكنه كان يملك، ومايزال، عقلية رجل الدولة، لا عقلية البيروقراطي. ولقد رأى فوراً أنه بالرغم من أن مثل هذه البداية من جانب مندوب هندي، في وقت لم يكن للهند فيه حكومة ذاتية، قد تبدو غير عادية إذا صاحبها تأييد بريطاني علني، فإن قيمة الوساطة الآسيوية في نزاع آسيوي صرف قد تكون كبيرة جداً. لذلك خُوِّلتُ أن أرى ما كان باستطاعتي أن أفعل ، وأجريت محادثات مع المندوبين الصينيين واليابانيين، وجمعت -في مناسبة أخيرة- رئيسي الوفدين الصيني والياباني بغية إحلال التفاهم فيما بينهما ، وفي الواقع أُخذت لنا صورَ نحن الثلاثة معاً.

غير أن الأمر كان يتطلب أكثر من أخذ الصور الفوتوغرافية، ولم تلبث المفاوضات أن انقطعت وتجددت أعمال العنف في آسيا على نطاق واسع. لقد انقلب " حادث الصين " إلى حروب شاملة في شانغهاي والصين الوسطى، ونصّب اليابانيون إمبراطوراً دمية في منشوريا وريثاً من سلالة مانشو الإمبراطورية القديمة. وفي أواسط الصين استمر النزاع دونما انقطاع بين اليابانيين وقوات الجنرال تشيانج كاي شك حتى امتداد الحرب العالمية الثانية إلى الشرق الأقصى عندما قامت اليابان بهجومها على بيرل هاربر عام ١٩٤١ .

ومن الشخصيات التي عرفتها في جنيف ذلك الرجل الذي كان في بداية حياته السياسية، أنطوني إيدن. لقد ساعد على شدّ روابط المودة وعلى التفاهم السريع بيننا أن المادة التي فاز بها في الحرب العالمية الأولى مباشرة، كانت مادة اللغات الشرقية. لقد درس الفارسية، وكان

يعرف صديقي القديم الدكتور براون المستشرق الثقة في الفارسية، والذي كان أستاذاً للغة العربية. هذه الصداقة المشتركة، والشعور المشترك تجاه الآداب والفلسفة الإسلامية، كانت كلها روابط خاصة، وحدّت فيما بيننا بأكثر من الروابط العادية والاجتماعية التي تجمع في العادة بين ممثل للحكومة البريطانية وممثل الهند في اجتماع لعصبة الأمم. ولم يكن من العسير عليّ، وقد راقبت حياة العديدين من السياسيين البارزين، أن أتنبأ بالمستقبل الباهر الذي كان ينتظر السيد إيدن.

وكانت الأزمة الخطيرة التالية التي واجهت عصبة الأمم هجوم إيطاليا على الحبشة عام ١٩٣٥ . لقد كانت أكثر خطراً حتى من النزاع الصيني الياباني، ذلك أنه مهما كانت أفعال اليابان عدوانية فقد كان لها عوامل تفسيرية جعلت من المستحيل على أيّ من الدول الكبرى، كما سبق لي أن أشرت، اعتبار القضية واضحة تمام الوضوح. إن الامتيازات المختلفة كلها، ومورارباتها القانونية والحدود المشتركة(بعد احتلال اليابان لكوريا) على طول نهر يالو، كانت في حد ذاتها مناسبات لمنازعات كان يمكن أن تتخذ ذرائع للأعمال العسكرية. صحيح أن الوضع كله لم يكن بالإمكان الدفاع عنه، غير أنه كان وراءه قرون من العرف تؤيده وتسبغ عليه مظهراً سطحياً من الاحترام.

ولكن إيطاليا، من ناحية أخرى، لم تكن تملك أياً من هذه الفرص أو الوسائل لتبرر مطامعها العدوانية الاستعمارية في الحبشة. كانت قضيتها الوحيدة حاجتها إلى مجال حيوي لسكانها المتزايدين أبداً، إذا كان لهم أن يبقوا إيطاليين. كانت إمكانيات ليبيا للاستعمار والاستثمار

على نطاق واسع ضئيلة جداً لأن المناطق الخصبة في هذه الرقعة الطويلة على البحر الأبيض المتوسط كانت محدودة جداً بقدر ما كانت الصحارى واسعة. ولذلك، بدا سكان إيطاليا وكأنهم يواجهون واحداً من أمرين: إما الهجرة عبر الأطلسي إلى أميركا الشمالية أو الجنوبية أو إلى الأراضي المتوسطية المجاورة من مثل مصر ومراكش وتونس والجزائر، وبذلك تخسرهم إيطاليا كمواطنين إيطاليين، وإما أن يبقوا في إيطاليا ملايين أكثر مما في وسع أرضهم المحدودة أن تحتمل، وعلى مستوى من المعيشة أدنى بكثير من مستوى أيّ من جيرانهم الأوربيين وغير جدير بالأمة التي خلفت الإمبرطورية الرومانية.

ولم يُخْفِ موسوليني نواياه فقد ألقى خطباً مثيرة في القرى والمدن الإيطالية بأجمعها، وأثارت فصاحته الحمية والاندفاع والتأييد لدى الألوف المؤلفة من الشعب الإيطالي. وعلى الصعيد الديبلوماسي قدم أكثر من إنذار واحد، ولكن هذه الإنذارات صيغت بقالب غامض كان كافياً لأن يمكنه من أن يفسر السكوت الذي استقبلتها به كل من بريطانيا وفرنسا بأنه موافقة منهما إن لم يكن تشجيعاً مباشراً له. ومهما كان الأساس الغامض لأفكار الدوتشي فإن أحداً لم يكن يستطيع أن يتجاهل صراحة استعداداته الصارخة طوال صيف ١٩٣٥ لغزو دولة الحبشة المستقلة الحرة ذات السيادة غزواً عسكرياً وضمها بحجة سخيفة جداً. وجد الأحباش أنهم كانوا مضطرين إلى اختيار أحد أمرين: إما قبول الإنذار من موسوليني أو، في حال رفضه، خوض حرب يائسة لا يمكن أن تنتهي إلا بهزيمة عسكرية تامة، وبالتالي الاستسلام.

وهكذا وجدت العصبة نفسها في وضع عسير يائس، ولم يكن بد من نشوء ذلك الاختلاف العميق في الرأي في فرنسا وبريطانيا، بل في أجزاء كبيرة من العالم، ذلك الاختلاف الذي دام وأدى إلى نتائج مؤسفة حتى الحرب العالمية الثانية بعد ذلك بسنوات أربع. غير أنه لم يكن هناك مجال للاختلاف في الرأي في دولتين اثنتين: روسيا السوفياتية وألمانيا النازية. أما السياسة الروسية فقد كانت بسيطة واحدة، ذلك أن ليتفينوف كان قد أعلن من قبل المبدأ الروسي القائل بأن " السلم لا يتجزأ ". ومهما كان ضعف السياسة الشيوعية وعيوبها فقد كان هناك دائماً أمامها واجهة من الوحدة المنطقية بين المبدأ والفعل. وأما النازيون فقد رأوا، طبعاً، فرصة ثمينة للقضاء على ما تبقى من الوحدة بين الدول التي انتصرت على ألمانيا في الحرب العالمية الأولى وسعت إلى أن تجعل انتصارها دائماً عن طريق الضمانات التي أدخلتها في معاهدة فرساي. كانت من المهارة بحيث لم تعلن عن اكتفائها ورضاها بأعلى مما ينبغي، ولذلك فإن الرأي العام في كل من بريطانيا وفرنسا لم ينتبه إلى الأخطار الخفية التي كان ينطوي عليها موقف ألمانيا بأكثر مما انتبه إلى الأخطار الخفية في تعبيرات روسيا عن الفضيلة المفجوعة.

وفي بريطانيا بدا الاضطراب والقلق بأسوأ مظاهرهما. كانت هناك " الواقعية"- التي أثبت بطلانَها التاريخُ البحري في الحرب العالمية الثانية- التي تمسك بها الاستعماريون القدماء من أمثال اللورد لويد، وكان عندئذ رئيس عصبة الأسطول، الذي قال إن الأسطول الملكي قد ضعف إلى حد كبير بعد سنوات طويلة من عدم التسلح والتضييق

الاقتصادي بحيث لم يكن باستطاعته المجازفة في نزاع مكشوف يستلزمه القيام بعمل صارم مشروع ضد العدوان الإيطالي. وإذن فقد كان الاستعماريون يعارضون كل سياسة حازمة.

وكانت هناك مدرسة أخرى تقول بأن السبيل لمضايقة إيطاليا هو " دفعها بين ذراعي ألمانيا ". وكان هناك آخرون أيضاً رأوا سلماً سياسياً حقيقياً للنجاة في ما أصبح يعرف من بعد بترتيبات هور- لافال.

وفي جنيف كان هناك استياء عميق شامل وشعور بالمذلة جراء النجاح اليسير الذي رافق هذه السياسة العدوانية الوقحة. ولقد رأيت صديقي السيد إيدن وقلت له: " إذا كنتم تريدون للسياسة الدولية أن تكون ذات أساس من العدل، وإذا كنتم تريدون أن تكون العصبة ما يفترض أن تكون في الحقيقة، وإذا كنتم تريدون إعطاءها فرصة لكي تنمو إلى جمعية دولية حقيقية تقرر هي بنفسها ما هو صواب وما هو خطأ، فإن أمامكم إذن قضية بارزة يجب عليكم معالجتها. وليس هنا من عذر مقبول من أي نوع كان. ليس في الحبشة أقلية إيطالية محرومة من استقلالها ولا من حقوقها المدنية والاقتصادية. ههنا قضية عدوان مفضوح ليس ما يسوّغه على الإطلاق. والعلاج إنما هو في أيدينا. كل ما نحتاج إليه هو أن نغلق قناة السويس. وإذا أردنا تطبيق العقوبات فلتشمل كذلك النفط، وبذلك نجعل منها حقيقة تعض بأنيابها، ولكني ما أزال أعتقد أن الحل الأفضل بسيط: قرار إجماعي تتخذه العصبة بإقفال القناة. "

ولكننا بدلاً من ذلك وجدنا أنفسنا نوافق على مقررات بتطبيق

العقوبات التي اعتبرتها أنا سخيفة غير مجدية. ومع أننا كنا على يقين من عدم جدواها فقد كان علينا أن نصوت بالموافقة عليها، ذلك أننا إن نفعلْ ظهرنا عندئذ وكأننا نتجاوز عن عدوان إيطاليا. ولكن العقوبة الوحيدة التي كان بوسعها أن تحقق نتيجة ما- عقوبة الحرمان من النفط- قد عارضتها العصبة. وكان باستطاعتي أن أتنبأ بأنه لم يكن هنالك مفر، منذ تلك اللحظة فصاعداً، من مجيء يوم لابد فيه، من أن نذهب نحن الذين كنا قد وقفنا آمالاً عظيمة على العصبة، إلى الجمعية ونطلب، والتعاسة ملء قلوبنا، رفع العقوبات. كذلك رأيت- ولست أتردد في الاعتراف بذلك- أنه حالما تأتي لحظتنا للخضوع لغزو إيطاليا للحبشة يكون من الأفضل لنا إلى حد بعيد أن نبلع كبرياءنا وغضبنا وأن نفعل ذلك عن طيب خاطر.

هنا إذن كانت ناحية مهمة من تطور سياسة التهدئة وممارستها، وهنا نشأت حالة كانت تهدئة المعتدي واسترضاؤه فيها خطأ من الناحية الأخلاقية. ولكن ما إن تتبع الدول الكبرى سياسة التهدئة في هذه القضية- التي لم تكن عادلة والتي لم يكن لها ما يبررها إطلاقاً- فإن النتيجة الحتمية هي أننا، عاجلاً أو آجلاً، سنجد أنفسنا مضطرين إلى هضم جريمة أخرى من التهدئة والتسكين، سواء فيما يتعلق بقضية اليابان في الصين، حيث كانت هناك ثغرات تاريخية وشرعية، أو في قضية من نوع من العدوان الألماني تستخدم فيه ذرائع الأقليات المضطهدة والاستفتاءات المطالبة بالعودة إلى الوحدة، وواجهة مزخرفة من القانونية والأخلاقية.

ولكن هل كانت مزخرفة بكليتها؟ هذا هو الشك الخطير الذي عقّد العلاقات مع ألمانيا سواء من حيث الدول كل بمفردها أو من عصبة الأمم بمجموعها، حالما وقعت معاهدة فرساي. لقد ذكرت في ما تقدم من هذا الفصل النتائج الحتمية للاتجاه والنظرة إلى ألمانيا في الأوساط النافذة بين الدول المنتصرة، وبخاصة في بريطانيا وإلى حد أقل في الولايات المتحدة وفي إيطاليا.

والآن فإنني أكنّ على العموم إعجاباً لبريطانيا وللشعب البريطاني، ولكني أحتفظ بأشد إعجابي وتقديري لميزة خاصة يتمتع بها الشعب البريطاني وأعني بها وجود ضمير بالغ الحساسية لدى جزء كبير وذي نفوذ في العادة من الشعب يمنعه من أن يتقبل كمسؤولية وطنية أي عمل ظالم أو سياسة عنيفة جائرة مهما بدت نافعة ومفيدة لرفاهية البلاد. لا شك أنه قد كان في التاريخ البريطاني أطوار من القسوة والعنف والغزو، ولكن هل هنالك أي جنس صحيح سليم كامل الرجولة لم يمرّ بمثل هذه الأطوار في حياته الوطنية الطويلة؟ من الأمور الجوهرية في الخلق البريطاني والطريقة الحياتية البريطانية أن صوت الضمير هذا يجب أن يسمع دائماً. قد يكون هادئاً في البداية ومقتصراً على عدد قليل، ولكن الأكثرية تقتنع به في النهاية. إن قانون تنازع البقاء، بتأكيده على أن البقاء هو دائماً للأصلح، يجب أن يحسّن في النظرة البريطانية بغريزة أسمى وأنبل- كما قال العالم الفيكتوري العظيم، البروفسور هاكسلي، في خطاب شهير له قبيل وفاته.

في إبان العقد الثالث من القرن العشرين كان لويد جورج هو الرجل

الذي نادى بهذه الشكوك والوساوس فيما يختص بألمانيا أكثر ما يكون وبأكبر قدر من القوة. وفي الصحافة اكتسبت الحملة قوة وتأثيراً عبر السنين وتركزت بصورة خاصة على الطريقة التي حرمت بها ألمانيا من مستعمراتها، وألقى ج. ل. غازفن وغيره دفوعاً بليغة من أجل إعادة مستعمرة أو أكثر من المستعمرات التي فقدتها ألمانيا.

وهكذا نرى أن الفكر البريطاني كان منفتحاً أبداً للإمكانات العملية، والفضيلة المجردة التي كانت تنطوي عليها هذه الخطوة.

وإذا كان في بريطانيا مثل هذه الشكوك المخلصة في حكمة الإبقاء على الأمر الواقع الذي فرضته معاهدة فرساي، فقد كان رأي ألمانيا في معاهدة فرساي منذ البداية أنها فرضت فرضاً، وأنها يجب التخلص منها بكل وسيلة يمتلكها الشعب الألماني. كان الألمان يعتقدون أنهم ليسوا وحدهم الذين سببوا الحرب، وأنهم في الحقيقة لم يمنوا بالهزيمة.

وإذن حالما عادت ألمانيا إلى جمعية الأمم المتحدة- قبل ظهور هتلر بزمن طويل- كان من الواجب أن يكون اتجاهها وموقفها من جميع المسائل الكبرى نذيراً كافياً. حتى شروط معاهدة لوكارنو لم تكن صريحة إلا من حيث استنكار الحرب كوسيلة لحل الخلافات في الغرب، أما مطالب ألمانيا من بولونيا فقد تركت قصداً دونما تحديد.

وبعد مضي وقت قصير على توقيع معاهدة لوكارنو كان اللورد دابرنون، سفير بريطانيا في برلين، الذي كان هو وزوجته الجميلة من أصدقائي المقربين، يقيم في مونت كارلو عندما جاء سترسمان إلى هناك. وقد طلب إلي اللورد دابرنون أن التقي سترسمان على مائدة الغداء في

فندق متروبول التي لم يحضرها، إلى جانبنا نحن الثلاثة، سوى سكرتير سترسمان. وكان من رأي سترسمان أن الفترة التي تلت الحرب قد شهدت توطيد بعض المبادئ العامة: حرية جميع الشعوب الأوربية في أن تتحد إذا هي شاءت، وحق تقرير المصير " للمستعمرات " والأقليات العنصرية المنفصلة عن أوطانها الأم. وقال سترسمان إن هذه المبادئ مطبقة على يوغسلافيا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا، ثم قال إن معاهدة لوكارنو تتضمن وجوب تطبيقها على ألمانيا بالطرق السلمية. كانت معاهدة لوكارنو قد أزالت الحيف الذي سببه ضم ألمانيا للإلزاس واللورين في عام ١٨٧١، ومنذ ذلك الحين لم يعد لألمانيا أية مطالب أخرى في غرب أوروبا. لم يقدم سترسمان أي تهديدات، وكانت أقواله كلها مبنية على أساس من العدل والإنصاف.

ولقد كان فشل مؤتمر نزع السلاح فرصة استغلها الألمان، ووجدوا عذراً لإعادة تسلحهم في القول بأن معاهدة فرساي قد قُصِد بها أن تكون خطوة نحو نزع سلاح عام تدريجي بين الدول، وأن الحلفاء قد نكثوا بالتعهدات التي كانوا قد أعطوها، ومنذ عام ١٩٣٣ فصاعداً، كان كل ما فعله هتلر أنه هتف عالياً بما كان أسلافه الديمقراطيون غير الثوريين قد تحدثوا به من قبل، لا بهمسات حبية، بل بلهجات عادية. لم يكن هناك شيء جديد خاص في ماهية طلباته، ولكن الشيء الجديد إنما كان الطريقة العدوانية العتيقة التي تقدم بها بهذه الطلبات. كانت طلباته غامضة وغير محددة كما كانت طلباتهم من قبل، ولكنه هو أيضاً أكد على بعض الأقوال المعينة، وكان آخر شيء أراده، كما قال، حرباً أخرى.

إنه لم يكن يريد إراقة الدم الألماني مرة أخرى. فالشعب الألماني لم يكن قد نسي بعض الدماء التي نزفت منه في الحرب العالمية الأولى. وقال أيضاً إن طلباته كانت متواضعة ومعقولة. وكما سبق لي القول فقد ذهبت أنا نفسي في خريف عام ١٩٣٧ إلى برلين حيث قابلته هناك، لا بناءً على اقتراح وزارة الخارجية البريطانية بل بمعرفتها التامة بما كنت أفعل.

في ذلك الوقت كانت لديه لائحة مفصلة بمطاليبه: أن يسمح له باتحاد نمساوي ألماني، إذا أظهر الاستفتاء أن أكثرية الشعب النمساوي تحبذ مثل هذا الاتحاد، وأن تكون العلاقات بين التشيكيين والجالية الناطقة بالألمانية في السوديت مماثلة للعلاقات بين بريطانيا العظمى ودولة إيرلندا الحرة، وأنه يجب أن يكون لألمانيا الحق في إمبراطورية من المستعمرات إن لم يكن في الأراضي السابقة نفسها، ففيما يعادلها في أماكن أخرى. وكان يقول بأن ألمانيا كان لها مطلب أدبي في تانجنيقا لأن الجنود الأفارقة قد حاربوا ببسالة إلى جانب الألمان ولذلك فإنهم لاشك قد ألفوا الحكم الألماني، ولكنه لم يهدد بالحرب من أجل هذه القضية.

وبعد ستة اشهر تبدلت الأوضاع كلها تبدلاً عظيماً. كان النازيون قد زحفوا على النمسا، واستقبل هتلر استقبالاً رائعاً في بلدته لينز وفي فينيا أيضاً. وفي أوائل صيف عام ١٩٣٨ نشأت أزمة كبرى، ذلك أن أوربا امتلأت بالشائعات عن تجنيد ألماني على نطاق واسع على طول الجبهة التشيكوسلوفاكية، وأمضى السياسيون والموظفون في السفارات

ووزارات الخارجية نهاية أسبوع من العمل المقلق. غير أن الأزمة مرت ولكنها دلت بوضوح على خطورة المرض الذي كانت تشتكي منه أوربا. كان السيد إيدن قد استقال من وزارة الخارجية وخلفه اللورد هاليفاكس، نائب الملك السابق. غير أن رئيس الوزراء، السيد نفيل تشمبرلين، كان يراقب الشؤون الخارجية بعين يقظة، وسعى بقوة وإخلاص إلى وسيلة عملية لتفادي كوسلوفاكية، و الأخطار التي تحيق بأوربا. لقد سعى، بإيجاد حلول معينة لمشاكل معينة، إلى أن يبني من جديد، وإذا اقتضت الضرورة حجراً فوق حجر، هيكلاً جديداً للسلام.

وكانت مظالم ألمان السوديت إحدى هذه المشاكل المعينة، ولقد زار انكلترا ذلك الصيف كونراد هنلاين، الزعيم النازي والناطق في السوديت، وعرض قضيته على السياسيين البريطانيين. وبناء على طلب السيد تشمبرلين، وبموافقة حكومة براغ، رأس اللورد رانسيمان، من أعضاء حزب الأحرار البارزين والوزير السابق الذي اشتهر بتاريخ طويل حافل بالنجاح كمفاوض على الجبهتين السياسية والاقتصادية معاً، رأس بعثة صغيرة إلى تشيكوسلوفاكيا للتحقيق في قضية الألمان السوديتيين بأكملها، وللتوصية بحل إذا اقتضت الضرورة.

وكان يسري عندئذ في إنكلترا تيار قوي يحبذ تسوية جذرية سلمية عادلة ودائمة لمطاليب ألمانيا. ومن بين هؤلاء الذين كانت لهم أوثق الصلة بالجهد الذي بذل للوصول إلى مثل هذه التسوية كان أحد أصدقائي الحميمين القدامى، وبالمناسبة أقول إن اثنين من سفراء بريطانيا البارزين في برلين كانا وما يزالان من أصدقائي المقربين.

لقد سبقت مني الإشارة إلى اللورد دابرنون الذي عرفته جيداً منذ أوائل العقد الأول من القرن العشرين. وكان السفير البريطاني الآن السير نفيل هندرسون. لقد التقى أحدنا الآخر، ومنذ ذلك الحين ارتبطنا برباط من الصداقة الحميمة الدائمة، عندما كان، نسبياً، موظفاً صغيراً في السفارة البريطانية في سانت بطرسبورغ عام ١٩١٢ . وفي باريس كنا معاً عضوين في ناد صغير أكثريته من الأميركيين المهتمين بالشؤون الأدبية والفنية والرياضية والثقافية. من ثم انتقلت صلتنا إلى مصر، وبعد ربع قرن من لقائنا الأول وصل إلى ذروة حياته الديبلوماسية، وعهد إليه بمسؤولية خطيرة فريدة من نوعها- كما أفصح في كتابه عن سيرته الخاصة- وقد اجتمعنا مرات عديدة بعد أن ذهب إلى برلين، وأكد لي أن الشعور في كارلسباد وماريانباد كان إلى جانب الألمان، كما رأى هو بنفسه عند الزيارة التي قام بها إلى هناك. كان مقتنعاً بأن استفتاء لابد من أن يظهر أن الأكثرية كانت تحبذ الاتحاد مع ألمانيا.

وكانت جميع المشورات التي تلقتها الوزارة البريطانية من هذا الطراز، وأيدت أكثرية حزب المحافظين الوزارة، كما أيدتها المدنية. وفي الصحف جاء التأييد القوي النافذ لإجراءات تسوية عادلة مقْسطة للمطاليب الألمانية- ولمطاليب الشعب في السوديت نفسها، من صحيفة التايمز. هذه الصحيفة الكبرى، في التاريخ الذي نشرته عن نفسها مؤخراً، قد أظهرت بصدق مدهش الدور الذي لعبته في أزمة ميونيخ كلها.

وبخلاف الاعتقاد الذي شاع في بريطانيا والخارج، لم تكن الحكومة البريطانية هي التي أوعزت لصحيفة التايمز باتخاذ الموقف الذي وقفته.

إذ أن جيوفري دوسن، رئيس التحرير، وروبن بارنغتون- وورد، مساعده وخليفته- وقد توفي كلاهما الآن- قد توصلا، بعد إعمال الفكر بصورة مستقلة تمام الاستقلال، إلى الاستنتاج القائل بأنه لم يكن من حسن السياسة فحسب، بل من العدل أيضاً، الوصول إلى تسوية مع ألمانيا، ولو كان ذلك على حساب منحها امتيازات بعيدة وتمنيا أن تحول هذه التسوية دون نشوب حرب.

ولقد حصل مؤخراً تحوّل عجيب عند أولئك الذين دافعوا عن ميونيخ. كانت الحجة الشائعة(كما بيّن مراسل الديلي تلغراف في صيف عام ١٩٥٣) أن ميونيخ قد كان لها ما يبررها، لا على الأساس الأخلاقي، بل على الأساس الحربي، وأنها كانت ضرورة فرضها ضعف بريطانيا في البر والبحر، وفي الجو قبل كل شيء. وهذا في اعتقادي يلخص رأي المدرسة القائلة بأن ميونيخ لم تكن إلا لكسب الوقت.

ولكن هذا ليس إلا قولاً صيغ بحيث يوافق نمط الأحداث التي تلت، ولم يكن الحجة التي استخدمت في ذلك الحين، ذلك أن قضية ميونيخ، كما سمعتها تذكر على ألسنة أعضاء الحكومة وسائر أبطال التسوية، وعلى لساني بكل إخلاص، قد طرحت بشكل مسألة أدبية وتتلخص في ما يلي: " هل تكون بريطانيا على حق إذا اشتركت في الحرب لمنع ألمان تشيكوسلوفاكيا من إعلان اختيارهم عن طريق الاستفتاء، وبالتالي لإجبارهم على البقاء تحت الحكم التشيكي. "

وإذا ما عدت بنظري إلى المسألة كلها الآن فإني أعتقد أني كنت باطنياً إلى جانب فكرة فصل الألمان عن التشيكيين في المناطق التي

كانوا يشكلون فيها أكثرية، وأنني كنت في ذلك متأثراً بصلتي الشخصية بالقضية الإسلامية- الهندوسية في الهند وتفهمي لها، تلك القضية التي كانت تمت بصلة شبه تامة إلى القضية الألمانية- التشيكية، وقد لعب كونراد هافلاين في ذلك الحين(ولو أن التاريخ قد غمره بالكلية من بعد) الدور الحاسم الذي لعبه جناح في القضية الباكستانية- الهندية.

ومهما كان الأساس الباطني لتفكيري الواعي عندئذ، فإني لم أكن أشك بموقفي قط. وبناء على طلب من جيوفري دوسن كتبت لصحيفة التايمس مقالاً أثنيت فيه على الاتفاق الذي عاد به السيد تشمبرلين- وليذكر أنه استقبل عندئذ استقبال الظافرين، من زيارته الأخيرة إلى ألمانيا. وإذن فإني أقف أمام التاريخ مؤيداً قوياً لاتفاق ميونيخ. والآن، بعد كل هذه السنين الطوال، بعد كل تلك الأحداث العنيفة التي وقعت منذ ذلك الحين، أقول دونما تردد إنني أشكر الله على أننا لم ندخل الحرب في عام ١٩٣٨ .

فبقطع النظر عن كل ما له علاقة بالاستعداد للحرب أو عدمه أقول: لو أن بريطانيا العظمى أعلنت الحرب في عام ١٩٣٨، إذن لبقي الشك في التبرير الأدبي للقرار إلى الأبد، ولأدى الشك إلى نشر الريبة الأدبية في قيادة الحرب وإنهائها، ولبدت بريطانيا في منظار التاريخ أنها أعلنت الحرب لا من أجل قضية واضحة مشرفة ومحتمة بل من أجل المحافظة على الحالة الراهنة ولمنع إجراء استفتاء من طريقه تسعى أكثرية عنصرية إقليمية إلى الاتحاد مع إخوتها في الدم واللغة والثقافة.

إن بعض النسيان يلف كثيراً من دقائق تلك الفترة، فمن نصوص اتفاق ميونيخ المهمة التي كثيراً ما تنسى وجوب إجراء استفتاء في المناطق المشكوك فيها من تشيكوسلوفاكيا حيث كان العنصران ممتزجين أحدهما بالآخر. وفي خضم الأحداث التالية نُسي هذا البند المهم، ولم يجر الاستفتاء إطلاقاً. ولعل من الممكن القول بأن نتائجه كان يمكن أن تكون من قبيل تحصيل الحاصل على أي حال.

ولكن فترة السلام التي أعقبت اتفاق ميونيخ كانت قصيرة جداً، ذلك أن هتلر كان حتى ذلك الحين- مهما كانت الطرق التي لجأ إليها لبلوغ أهدافه- يبني مطالبه على مبدأ تقرير المصير كما ورد في معاهدات الصلح وفي دستور عصبة الأمم. غير أنه في عام ١٩٣٩ رفع قناع الوقار عن وجهه، ودخلت قواته القسم المتبقي من تشيكوسلوفاكيا، وأطلق على البلاد وصف " محمية " الرايخ، وأرسل البارون فون نيورات إلى براغ بوصفه حامياً ليحكم بلاداً كانت قد ضمت وأخضعت بصورة كلية.

أدى هذا الفعل إلى هدم كل الأساس الأدبي لقضية ألمانيا أمام التاريخ بضربة واحدة، ووحّد الكثيرين ممن كانوا في عام ١٩٣٧- ١٩٣٨ يعتنقون آراء مختلفة. لم يبق الآن أي شك، ولم يبق أي تساؤل. لقد اتضح تماماً لكل ذي عينين- حتى لأولئك الذين كانوا قبل عام واحد أشد أنصار ميونيخ- أن حرب هتلر عام ١٩٣٩ كانت عملاً عدوانياً مقصوداً. ولكنها لم تكن حرب هتلر فحسب، بل إن الحقيقة الرهيبة هي أنها كانت حرب الشعب الألماني. إن تحديد اللوم هذه المرة صحيح. ذلك

أن أكثرية الشعب الألماني الساحقة كانت مع هتلر في محاولته إما لفرض " نظامه الجديد " الذي كان من شأنه أن يدوم ألفاً من السنين أو لهدم المدنية الأوربية كلها معه.

صحيح أنه قد كانت هناك محاولات لاغتيال هتلر، ولكن المحاولة الوحيدة التي ذهبت إلى أبعد من الهمس الغامض كانت محاولة انقلاب ٢٠ تموز الذي أعده جماعة من كبار الضباط، والذي كاد أن يتكلل بالنجاح. حتى هذا المجهود- بالرغم من الوطنية الخالصة والشجاعة التي كان يتحلى بها الذين اشتركوا فيه- لم ينفذ إلا عندما تحققت هزيمة النازي. إن أحداً لم يرفع إصبعه لا في عام ١٩٣٩، ولا في عام ١٩٤٠ ولا في عام ١٩٤١، عندما اكتسح المحور العالم. كانوا بحاجة إلى اقتراب الهزيمة الكاملة، ولو أن شعوراً خالصاً ملحاً بالمسؤولية قد حركهم إذن لكانوا تآمروا لا من أجل تفادي نتائج الحرب في عام ١٩٤٤- ١٩٤٥، بل لمنع اندلاع نيران الحرب في عام ١٩٣٩ .

قد يقول قائل: " إن انقلاباً يقوم به قلة من الجنود لم يكن من شأنه أن يفيد كثيراً، والشعب الألماني كان لابد من أن يدخل الحرب على أي حال." فإذا كان الأمر كذلك- إذا أعطي الشعب الألماني كل ما كان يطلب واختار عمداً الحرب بدلاً من السلم، والغزو والعدوان بدلاً من الرفاهية والازدهار المشتركين، فإن ذلك يكون بمثابة حكم تام على ألمانيا، وأكبر مبرر لكل عقاب ينزل بها- قطع صلتها بالشرق، وسلخ أراضيها، وتدمير مدنها.

وقد يقول آخر: " وما قولك بدانزيغ؟ تلك كانت مدينة ألمانية-

فلماذا لم يطبق مبدأ الاستفتاء هناك؟ " والجواب هو أن ألمانيا لم ترد ولم تطلب قط إجراء استفتاء شريف عندما أثارت قضية دانزيغ أو أياً من مطالبها الأخرى من بولونيا. وعندما تقدم ريبنتروب، وزير خارجية هتلر، ببيانه الرسمي بهذه المطاليب، كيف فعل ذلك؟ بدلاً من أن يقوم بأي من تلك الخطوات العادية التي تمهد لها المفاوضات في العادة، استدعى صديقي نفيل هندرسون ليشهد مسرحية مفجعة بقدر ما كانت باطلة عقيمة، ذلك أنه تلا، بسرعة وخشونة، وباللغة الألمانية، إنذاره على السفير بالطريقة العصبية الطائشة التي يحاول بها المجرم أن يدبر وجوده في غير مكان الجريمة. فقد استدار فجأة، وغادر الحجرة دون أن يناول هندرسون الوثيقة ليقرأها.

كان مزاج ألمانيا في عام ١٩٣٩ مزاج جنون مجرم وكبرياء مقامر. والزعم الآن بأن هذه الحرب كانت حرب هتلر، حرب النازيين، حرب الجنرالات، حرب القلة، إنما هو تهرب من الحقيقة. تلك كانت حرب الشعب الألماني التي يجب أن تعتبر أكثريته الساحقة مسؤولة عنها، وبصورة خاصة الطبقات الحاكمة.

فهل من مغزى أدبي؟ هل من تفسير؟ لقد توصلت إلى أن أكوّن الفكرة التالية عن الألمان: إنهم بالرغم من صفاتهم العظيمة، وقدرتهم وطاقتهم على العمل الجاد، وانضباطهم وذكائهم وحبهم للعلم، فإنهم مصابون بضعف رومانطيقي في خلقهم لا يقنع أبداً بمجرد النجاح. ولعل الحرب العالمية الثانية قد نشبت لأن الدول الأخرى نسيت كل شيء عن واغنر.

بعد عام ١٨٧٠ كان بسمارك يقول ويكرر: " لقد اكتفينا ". وذلك، بالتأكيد، ما كان يجب أن يقوله، من الناحية العملية، الزعماء الألمان والشعب الألماني بعد عام ١٩٣٨ . وعلى هذا الأساس العملي اعتقد نفيل تشمبرلين أنه قد ابتاع السلام في زماننا. ولكنه بعد أقل من سنة واحدة، سُمع يقول بصوت حزين: " إنها الأشياء الشريرة التي نحاربها. " لماذا؟ ألم تكن تلك العقدة الواغنرية، الراغبة في الموت، هي التي دفعت عنصراً يدعي المدنية إلى أفظع حرب عدوانية شنت في التاريخ؟ على الأقل لم يكن في وسع أي من الحلفاء أن يشعر الآن بأي وخز في الضمير، أو بأي شك في أننا كنا على حق في قتالنا. لقد كانت هذه حرباً عادلة.

يسرني أن اعتقد الآن أن السنوات التي قضيتها في العمل في جنيف لم تذهب دونما تقدير. ففي عام ١٩٣٧ انتخبت بالإجماع رئيساً لعصبة الأمم، وعندما انتهت دورة تلك السنة طلب مني أن استمر في الرئاسة سنة أخرى حتى قبيل افتتاح دورة ١٩٣٩ . ولقد كان هذا شرفاً نادراً ومسؤولية، ذلك أنه كان من واجبي أن أدعو إلى عقد دورة خاصة، وأن أرأسها، إذا دعت الحاجة.

كان عملي في هذا الحقل الدولي، وبصورة خاصة ذروته في السنة التي قضيتها رئيساً للعصبة، قد سرّ أمي وأثلج صدرها. وعندما ذهبت أول الأمر إلى جنيف كانت فوق الثمانين من عمرها، وكانت تتابع عملي هناك باهتمام بالغ. وفي كل سنة ذهبت فيها إلى الهند كنا نتحدث معاً بصراحة كلية عن ذلك كما كنا، طيلة حياتي، نتشاطر ميولنا وأفراحنا

وأتراحنا. لقد احتفظت بصحتها وقتاً طويلاً، وبقواها العقلية، وباهتمامها الزائد بالحياة وجميع شؤونها، سواء أكانت عامة أم سياسية، عائلية أو منزلية.

وعندما انتهت دورة العصبة لسنة ١٩٣٧ عدت إلى منزلي في جنوب فرنسا. ولم يكن هناك أي سبب يحملني على الاعتقاد بأن صحة أمي- كانت عندئذ قد بلغت الثامنة والثمانين- كانت تسبب أي قلق جدّي، ذلك أنها كانت تحتفظ بطريقتها الهادئة السعيدة في الحياة.

كانت قد رأت ولديّ؛ علياً وصدر الدين، وكان هذا الأخير، عندما كان صبياً صغيراً، مصدراً لانشراحها وغبطتها، عندما جاءت إلى أوربا وفي إبان صيف قضاه هو وأمه معها في لبنان. كان يحمل أيضاً اسم أخي الأكبر، الذي مات في طفولته، مما أثلج صدر أمي بصورة خاصة. إنها لم تر ابنيْ حفيدها علي، كريم وأمين، ولكنها كانت تعرف كل شيء عنهما، وكانت هي التي اختارت لهما اسميهما، ودعت الأصغر منهما باسم أخيها الذي توفي في شبابه في العقد التاسع من القرن التاسع عشر.

لقد حضرت، كما سبق مني القول، يوبيلي الأول، وكان مما أسعدها بصورة خاصة برقية التهنئة التي أرسلها اللورد ويغرام باسم الملك جورج الخامس، تماماً قبل أن يردنا نبأ وفاة الملك. لقد كانت أمي غيورة، متحمسة، محبة، تقية، متيقظة لكل حادث جديد، وفي سنواتها الأخيرة كانت شخصاً يشع بفيض من السعادة والطيبة غمر كل من كانوا يعرفونها.

في نهاية عام ١٩٣٧ تلقيت برقية من الهند تقول بأنها كانت تعاني من مرض شديد تطلّب عودتي سريعاً لرؤيتها. وفي الحال طرت إلى الهند بأسرع طائرة من طائرات تلك الأيام، فوصلت بومباي بعد ثلاثة أيام ونصف.

كانت في بيتنا في " مالابارهيل "، وأنذرني طبيبها- وكان متحدراً من أحد أتباع جدي الإيرانيين الأولين، وأصبح عضواً في المصلحة الطبية الهندية- بأنه كان علي أن أتوقع تبدلاً كبيراً فيها. غير أني دهشت عندما وجدت أن صحتها بدت لي ممتازة، ولكن خرفها العقلي كاد يكون كاملاً إلا للحظات عابرة. وقضيت معظم أوقاتي معها، وكنت أشعر بغبطة عظيمة عندما كانت تعرفني أتم المعرفة، وتتحدث إلي.

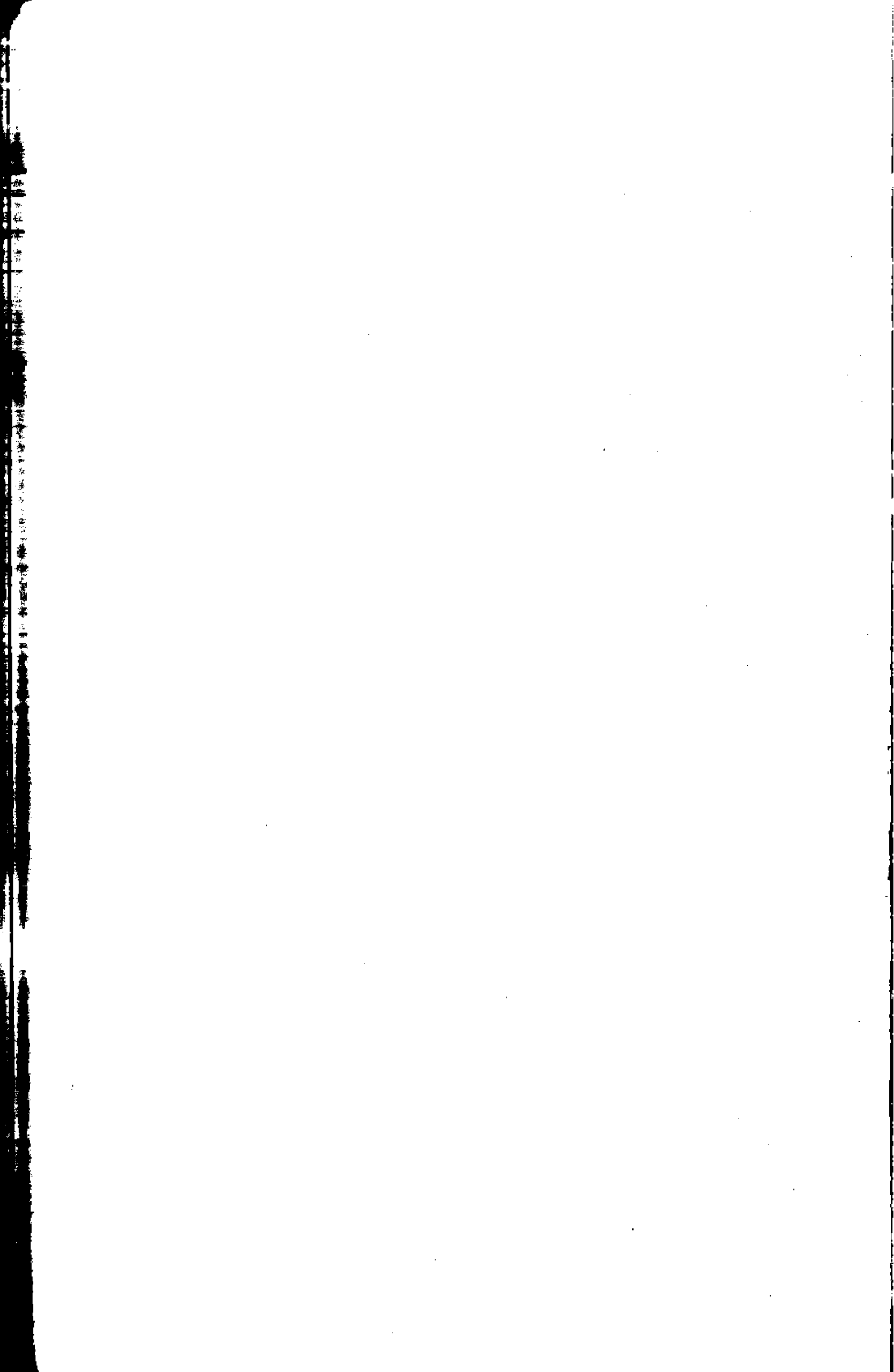
لقد كانت لأمي طيلة حياتها رغبة مخلصة واحدة: إنها، عندما يحين أجلها، يجب أن تموت وتدفن في أرض إسلامية، وكانت تقصد بذلك بلاداً تحكمها حكومة مسلمة حرة مستقلة ذات سيادة. وبهذه الرغبة يرافقها حنين واحد: أن ترقد عندما تموت إلى جانب أبي، الذي أحبته أعمق الحب وأعظمه، والذي كان حزنها عليه منذ اللحظة التي توفي فيها منذ أكثر من خمسين سنة عميقاً جداً ومؤثراً جداً كحزن الملكة فيكتوريا على زوجها الأمير ألبرت.

فاتخذت، بأسرع ما يمكن، الاستعدادات لنقل أمي إلى العراق، حيث كانت تحكم البلاد حكومة إسلامية مستقلة، وحيث كان جثمان والدي يرقد في النجف بالقرب من كربلاء. طبعاً كانت هناك مصاعب وعقبات واضحة تعترض سبيل رحلتها إلى هناك. فالأطباء مانعوا في

سفرها بطريق الجو، ولو أني أيقنت دائماً أن أمي، بالرغم من الوقفات المختلفة التي كان من شأن رحلة اليومين إلى بغداد أن تتطلبها، كان باستطاعتها أن تتحملها بأكثر مما تتحمل الرحلة بالبحر. ومهما يكن فقد سافرت بالبحر إلى البصرة ومنها بالقطار إلى بغداد.

أما أنا فقد كنت في القاهرة في تلك الأثناء، وأخذت الطائرة عائداً إلى بغداد، فوجدت أمي في بيت ابن عم لي، آغا مصطفى خان. وبعد دقائق من وصولي إلى فراشها فتحت عينيها، وعرفتني، وعندئذ، بالطريقة التي يدعو بها جميع المسلمين الصالحين، الذين يبتغون أن يحذوا حذو النبي وينعموا برحلة آمنة هادئة من وسط هذه الحياة، تحققت بالأمن والسعادة والتحقت بالرفيق الأعلى الذي يتوق إليه الناس جميعاً.

وبمقتضى التقاليد الإسماعيلية لم أرافق جثمانها إلى مقره الأخير، ولكن بعضاً من أبناء عمومتي وعماتي أرقدوها بحنان إلى جانب أبي. وهكذا تحقق رجاؤها بالالتقاء به مرة أخرى.



الفصل الثاني عشر

سنوات الحرب وتقسيم الهند

شكلّ انفجار الحرب العالمية الثانية بالنسبة لي تبديداً لآمال وطموحات حياة كاملة. فقد أصبح قصر عصبة الأمم العظيم، الذي افتتحته في جنيف، مهجوراً ومغلقاً. وأصبح للفراغ والصمت اللذيْن يلفانه مغزى عظيم. وعلى كل حال، فقد كنت في سويسرا في أواخر الصيف وأوائل الخريف من عام ١٩٣٩ عندما اكتسحت جيوش هتلر بولونيا، وعندما أعلنت كل من بريطانيا وفرنسا الحرب، للمرة الثانية في جيل واحد، على ألمانيا المعتدية المتعطشة للغزو.

وبالرغم من أن الحكومة السويسرية اضطرت، بعد نشوب الحرب عندما كنت مقيماً في سويسرا بصورة دائمة، إلى أن تطلب مني الامتناع عن القيام بأي نوع من النشاط السياسي في ظل الأحوال الدقيقة السائدة وقتئذٍ، فإن هذا الشرط لم يكن نافذاً في شهر أيلول من عام ١٩٣٩ . لذلك استطعت أن أصدر مناشير لأتباعي طلبت فيها إليهم تقديم المؤازرة والعون لقضية الحلفاء. غير أنه لم تكن هناك أية فرصة لأي نشاط ديبلوماسي أو سياسي أقوم به كما فعلت في الحرب العالمية الأولى.

لم تكن أية دولة إسلامية كبرى مشتركة في الحرب، كما كانت الإمبراطورية العثمانية في الحرب الأولى. لم يكن هناك خليفة، ولم يكن هناك جهاد معلن. وباختصار، لم تكن واجباتي ومسؤولياتي أكثر أو أقل من واجبات ومسؤوليات أي مواطن عادي.

كنت في ذلك الوقت أملك جياداً كثيرة، غير أنه لما كانت سباقات الخيل قد توقفت طبعاً في البلدان المتحاربة، وكان ينتظر أن تظل متوقفة وقتاً ليس باليسير بعد انتهاء الحرب، ولما كانت إيطاليا في عام ١٩٣٩ دولة غير مشتركة في الحرب، فقد خطر لي أنه قد يكون باستطاعتي أن أعقد صفقة للحكومة الإيطالية، حتى إذا حققت ربحاً- كما كنت أرجو- زودتني هذه الصفقة بمبلغ كبير من المال أوظّفه في قروض حرب الحلفاء. وهكذا ذهبت مع زوجتي إلى فلورنسا، وعرضت أن أبيع كل جيادي إلى الحكومة الإيطالية. ووجدت أن عرضي قد لقي تأييداً كبيراً من شخصيات بارزة، وبصورة خاصة أولئك الذين يريدون أن تبقى إيطاليا خارج الحرب. لقد حبذه شيانو نفسه، ولكن المقامات العليا تدخلت في الأمر، عندما كانت الصفقة على وشك الانتهاء، وأصدر موسوليني أمره بعدم إتمامها.

لقد دلني ذلك بصورة واضحة على نوايا موسوليني، ذلك أني بالإضافة إلى المبلغ الكبير الذي طلبت، فرضت شرطين اثنين: أن يدفع المال فوراً، ولكن تسليم الجياد في إيطاليا لا يتم إلا بعد توقف الحرب.

وقبل أن أتقدم بعرضي هذا إلى الحكومة الإيطالية كنت قد عرضت جيادي على الإسطبل الوطني البريطاني. في تلك الأيام، كما يتوجب عليّ أن أذكر، لم يكن لولدي علي أية حصة في ملكية إسطبلاتي، ولذلك كنت حراً في أن أفعل ما أشاء دون استشارة أي شخص آخر.

ولكن شروط عرضي هذا كانت مختلفة جداً عن شروطي التي عرضتها فيما بعد على الحكومة الإيطالية. فلم أطلب، لقاء إسطبلي كله، بما فيه " بهرام " و " محمود " وكل الجياد التي كنت امتلكها، سوى عشر القيمة الحقيقية، وأقل من خمس الثمن الذي كنت على وشك الحصول عليه من الحكومة الإيطالية.

غير أن وزارة الزراعة، لأسباب تعرفها هي، رفضت عرضي الذي كان فريداً من نوعه كما أعتقد، والذي كان يمكن أن يحقق أعظم الفائدة للزراعة التي هي من أهم صناعات بريطانيا الحيوية في السلم والحرب. إنني لم أفهم هذا القرار حتى اليوم، وهم لم يزعجوا أنفسهم حتى برؤية هذه الجياد.

وفي شتاء عام ١٩٣٩- ١٩٤٠ ذهبت إلى الهند حيث قضيت بضعة أشهر مكثت خلالها في دلهي ورأيت نائب الملك، اللورد لينليثفو، وشرحت له فشل مفاوضاتي مع الحكومة الإيطالية. وفي شهر نيسان ذهبت مع زوجتي وولدي الصغير إلى منزلي في أنتيب في جنوب فرنسا، كما كان من عادتي أن أفعل منذ سنين، ففاجأتني أحداث شهري أيار وحزيران كما فاجأت كثيرين غيري.

في إبان السنوات التي قضيتها في جنيف تعرفت إلى كثير من السياسيين الفرنسيين، وكانت ثقتهم بقوة الجيش الفرنسي كبيرة لا تتزعزع بحيث أنني لما انهارت المقاومة الفرنسية على طول الجبهة تقريباً من الراين إلى القنال، واكتسحت الفرق النازية المدرعة فرنسا جنوباً وغرباً، كدت أصعق لهول المفاجأة.

وعندما أعلنت إيطاليا الحرب على الحلفاء، ولجأت الحكومة

الفرنسية إلى بوردو بعد أن أعلنت باريس مدينة مفتوحة، رأيت أننا كنا في خطر الوقوع في الشرك في بلاد منيت بهزيمة كاملة، ولذا أسرعت وزوجتي وولدي بالخروج من آخر باب ظل مفتوحاً في فرنسا، إلى سويسرا. أما ولدي الأكبر، علي، فقد كان مع القوات الفرنسية في سوريا في ذلك الوقت، في حين كانت زوجته مع ولديها الصغيرين في القاهرة.

كانت سويسرا المحايدة مأمناً لنا، ولكنها ظلت سنوات مأمناً متوحداً معزولاً. لقد حرم عليّ أن أقوم بأي نشاط سياسي، وانقطع اتصالي بمعظم العالم الخارجي. وشهدت هذه السنوات بداية سلسلة مرضي الخطير، ولقد نعمت بكثير من العطف والمساعدة من القنصل البريطاني العام في جنيف، السيد هنري ليفنجستون، ومن زميله في زيوريخ، وذلك في أوقات كانت عسيرة بالنسبة إلينا جميعاً.

أما أصل مرضي فيعود إلى عدة سنين ماضية. منذ حوالي عام ١٩٣٥ بدأت أشكو بعض الأعراض الداخلية المزعجة، ولكن الأطباء المختلفين الذين استشرتهم لم ينظروا أية نظرة جدّية خاصة. وفي سويسرا عام ١٩٤٠ استشرت عدداً من الجراحين البارزين، وأجريت لي فحوص عديدة. كان الأطباء يزدادون خوفاً وقلقاً، ذلك أنه كان هناك أكثر من إشارة واحدة إلى أن الورم الذي كان أصل البلاء قد يكون من النوع الخبيث. وكان الورم في مكان جعلهم يعتبرون أن إجراء عملية جراحية ينطوي على خطر، فالنزيف الدموي كان يحدث كل يوم تقريباً. وهكذا أخذت أفقد قواي بصورة مطردة، ولم أتمكن من الذهاب إلى باريس إلا بعد الحرب حيث أجرى لي الجراح الفرنسي الشهير، البروفسور دوجوردا

دالين، عملية جراحية، وعندما أزال الورم اكتشف أنه لم يكن من النوع الخبيث. لكن ذلك لم يضع حداً لمتاعبي، وسيكون أمامي مجال للتحدث عن أدوار مرضي مرة أخرى فيما بعد.

وفي الوقت نفسه، إبان إقامتي الجبرية في سويسرا، طرأ تبدل مهم عميق في حياتي الخاصة. لقد أشرت من قبل إلى الفروق بين النظرتين المسيحية والإسلامية إلى الزواج، وإلى سوء التفاهم الذي ينشأ بسبب هذه الفروق. فكما أن أولئك الذين يترعرعون في ظل التقليد المسيحي يجدون من العسير عليهم أن يفهموا الأساس العلمي والتعاقدي للفكرة الإسلامية في الزواج، كذلك فإن من العسير على المسلمين أن يفهموا قوانين الغرب التي تجبر على استمرار الزيجة الشقية وتؤكد على خطيئة الزنا المصطنعة، إذا ما أقدم الشريكان على إنهاء شراكة أصبحت لا تطاق بينهما كيما يتمكنا من الشروع في حياة جديدة.

لقد اختلفت في حياتي الزوجية مع زوجتي الثالثة، الأميرة أندريه، ولو أن حبنا واحترامنا وصداقتنا الحقيقية لم تتضعضع على الإطلاق. في هذه الظروف، وبرضانا المتبادل، طلق أحدنا الآخر في محكمة مدنية في جنيف عام ١٩٤٤ .

وبعد ثلاثة عشر شهراً تزوجت من زوجتي الحالية التي لقيتها للمرة الأولى في القاهرة، والتي سبق لي أن عرفتها منذ سنين عديدة. وليس بوسعي إلا أن أقول إنه إذا كان الزواج السعيد هو ذلك الذي يسوده التفاهم والإلفة الكاملان على الصعيد الروحي والعقلي والعاطفي، فإن زواجنا هو واحد من هذه الزيجات السعيدة.

وبوصفي مسلماً صالحاً فإني لم أطلب من أية مسيحية أن تبدل

دينها لكي تتزوج مني، لأن الاعتقاد الإسلامي هو أن المسيحيات، وبمقتضى بعض المذاهب- الزرادشتيات والموحدات من الهندوسيات المجددات- يمكنهن أن يتزوجن من مسلمين وأن يبقين على دينهن، وهكذا فمن دون أية محاولة من جانبي للتأثير عليها كانت زوجتي قد اعتنقت الإسلام في إبان إقامتها في القاهرة، ولعل دوافع عديدة لعبت دورها في ذلك. وإذن فقد تزوجنا في وقت كنت فيه بأمس الحاجة إلى مؤازرة زوجتي وتفهمها. لقد كانت وما زالت مساعدي القوي الكريم، وبصورة خاصة طيلة مرضي في السنوات الأخيرة.

ولم أبذل في سنوات الحرب أي نشاط سياسي مهم، إلا ذلك النشاط الذي اختص بدخول الحلفاء إلى إيران سنة ١٩٤١، وكان لهم هدف مزدوج: فتح خط من المواصلات مع الاتحاد السوفياتي أقل انكشافاً من ذلك الطريق الذي كانت تأخذه القوافل القطبية إلى مورفسك وأرتشانجيل، ومنع استخدام إيران كقاعدة لدسائس المحور وجواسيسه ضد الحلفاء في الشرق الأوسط. هذا العمل، على ضرورته الاستراتيجية التي لم يكن شك فيها وقتئذ، حتّمت تنازل ذلك الملك العظيم، رضا شاه، وأدت إلى فترة طويلة من القلق والاضطراب وتوتر العلاقات بين إيران والغرب لم تنته إلا في حوداث شهر آب من عام ١٩٥٣.

قد يكون من المناسب الآن أن أقدم صورة موجزة لرضا شاه، الذي كنت أعرفه جيداً، قبل أن أصف الخطوات التي حاولت بها أن أخفف من وطأة فعل الحلفاء في بلاده.

كان رضا شاه، بالرغم من أنه كان قد تلقى ثقافته وتدريبه

العسكري على أيدي ضباط روس، من سلالة إيرانية خالصة، من شمالي البلاد، من منطقة لم يمزج أبناؤها دمهم بدم قبائل الجنوب، ولا بدم القبائل التركية التي كانت تقيم في تركيا في عصر الهجرات الكبرى. ويدل اسم العائلة الذي اتخذه، بهلوي، على أنه كان يدرك إدراكاً تاماً أن أصله إيراني آري صرف.

وأنا نفسي، كما سبق لي أن ذكرت,وثيق القرابة من جانب عائلتي بأسرة قاجار السابقة التي كانت تركية في بادئ الأمر ثم امتزجت دموياً، عبر الأجيال، بأولئك الإيرانيين الذين تزوجت منهم تلك الأسرة.

كان رضا شاه بهلوي رجلاً ذا مقام عظيم. وكان قوياً أخلاقياً بقدر ما كان قوياً جسدياً. وإذا كان فارساً عن طريق التدريب فقد ارتفع بسرعة- شأن نادر شاه من قبله- بفضل قدرته وقوة خلقه وفطنته البالغة. وأصبح آخر الأمر وزيراً للحربية في عهد أحمد شاه، آخر إمبراطور من أسرة قاجار. وبتشجيع من أحمد شاه أصبح رئيساً للوزراء والحاكم المطلق في إيران كلها. كان يطمح إلى أن يجعل من إيران بلداً مستقلاً تمام الاستقلال حراً من أي سلطان يفرض عليه من الخارج وحراً من الضغط الروسي والبريطاني المستمر ومن تصادم مصالح هذين البلدين. ومن كل ما أعرفه عنه اقتنعت منذ مدة طويلة أنه لم تكن لديه أية رغبة في الاستيلاء على العرش لو أن أحمد شاه كان قد أظهر ولو اهتماماً عادياً ببلاده وبواجباته كملك عليها.

وقصة أحمد شاه هذا قصة محزنة ومألوفة في آن واحد. كان شابا في غاية الفطنة والذكاء، وكان رفيع الثقافة، يملك معرفة واسعة بالثقافتين الشرقية والغربية، وإطلاعاً عظيماً على النظريات التاريخية

والسياسية والاقتصادية. ولكن مواهبه كان يتأكلها تشاؤم عميق شامل. فهو لم يكن يؤمن بأن باستطاعته، عن طريق الجهد والحصانة والتطبيق- وهي صفات كان يملكها جميعاً- أن يوطد أركان عرشه، وينشر الرخاء والازدهار في بلاده. ومن الأدلة على لامبالاته الغريبة بدوافع الحياة الطبيعية أنه، بالرغم من وجود أولاد له، سمح لأخيه أن يبقى ولياً لعهده ووريثاً لعرشه. لقد كنت أعرفه جيداً، كقريب وصديق، وكانت تربطنا أواصر متينة من الود، فضلاً عن أننا كنا نجتمع أحياناً كثيرة. غير أنه كان واضحاً أنه لم يكن يبالي بتاجه، أو بالأحرى أنه كان يفتقر إلى إيمان بقدرته على تحقيق أي شيء بنّاء أو فعل أي شيء لتحسين الأحوال في بلاده. فقد كان همه منصباً على إعالة أولاده وأمه وشقيقه إلى حد ما. وقد وظف أمواله بطريقة بارعة في الولايات المتحدة، وكوّن لنفسه ثروة خاصة به. وبقدر ما كان بارعاً في إدارة شؤونه الخاصة كان فاتراً في أداء واجباته كشاه لإيران.

ولقد جاءت نهايته قبل أوانها، ذلك أنه كان بديناً جداً فقرر أن يخفف من وزنه، ولكنه تطرّف في الأمر وأنزل وزنه إلى النصف مما آذى صحته بطريقة لا يمكن إصلاحها فمات وهو بعد في شبابه في المشفى الأميركي في باريس. ولكنه كان قد فقد عرشه قبل أن يموت، فقد جرى الإلحاح عليه مراراً وتكراراً بضرورة العودة إلى إيران، ولكنه تجاهل جميع الدعوات التي وجهتها إليه حكومته، وتجاهل أيضاً مشورة أصدقاء مثلي ورفض رفضاً تاماً استئناف واجباته. في مثل هذه الظروف كان لرضا شاه بهلوي، من الوجهتين الدستورية والتاريخية، ما يبرر استيلاءه على العرش وتحمل الواجبات التي تخلى عنها الرجل الذي

أؤتمن عليـهـا. ولذا كنت واحـداً من أوائل الذيـن أرسلوا إليــه ولاءهم ودعواتهم أن يأخذ الله بيده ويجعل عهده عهد ازدهار وإقبال.

كان رضا شاه حاكماً مقتدراً، ووطنياً يتألم أشد الألم لكون بلاده أكثر أمم العالم المستقلة ذات السيادة تأخراً. كان مصلحاً ذكياً بارعاً شجاعاً. لقد شرع أولاً في تحرير الإسلام، كما كان يمارس في إيران، من كثير من الخرافات، ومن كثير من الأفكار والعادات الشبيهة بالوثنية التي كانت تنتشر في إيران- خلافاً لتعاليم ديننا الحقيقية- على أيدي رجال الدين، الذين تمكنوا بهذه الطريقة من الإبقاء على جهل الشعب، ومن المحافظة على مصالحهم، وعلى قوتهم في أوجها. وكانت أسرة قاجار، كي تحافظ على وضعها، قد تحالفت مع هذه الطبقة الدينية المتعصبة، وشرعت في إبعاد شبيبة إيران عن الذهاب إلى أوربا وأمريكا للتزود ثقافياً وفنياً بكل ما أحدثته الثورة الصناعية والعلمية. أما رضا بهلوي فقد تخلص من ذلك كله وفتح أبواب بلاده لدراسة العلوم الحديثة، وأرسل عدداً كبيراً من الطلاب الإيرانيين إلى جامعات أوربا وأمريكا، كما شجع تعليم المرأة وتحريرها وأنهى عادة الحجاب الرهيبة، وسعى إلى رعاية الصناعات الوطنية، وبخاصة صناعة السجاد التي أعادها إلى مستوى عال رفيع. والحق أنه كان بالنسبة لإيران كما كان كمال أتاتورك بالنسبة إلى تركيا، ولكن التأخر الطويل المتعمد الذي كان من عمل أسرة قاجار وحلفائها، قد جعل مهمته أعسر من مهمة أتارتورك إلى حد بعيد.

كان يكره كثيراً أية محاولة للتدخل في شؤون بلاده من جانب أية دولة أجنبية. والذي لا شك فيه أنه في معاملاته مع كل من بريطانيا وروسيا قد حظي بمساعدة عوامل عديدة: إن الحرب العالمية الأولى كانت

قد أضعفتهما معاً، وإن مطامع بريطانيا وسياساتها الاستعمارية والتوسعية كانت قد تضاءلت إلى حد التلاشي تقريباً، وإن روسيا - وقد أنهكت في توطيد النظام الجديد، في مشروع السنوات الخمس وأعمال التعمير الواسعة المتصلة به - لم تكن ترغب، في ذلك الحين، أن تستأنف سياسة التوسع القيصرية في غربي آسية.

وإذن، عندما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية سعى رضا شاه إلى أن يبقي إيران خارج حلبة النزاع حتى النهاية، مثلما فعل حكام البلدان الأخرى المنهمكون في مشاكلهم الداخلية. ولكن الناس تقدّر فتسخر بهم الأقدار.

فحتى الوقت الذي قامت فيه ألمانيا بهجومها على روسيا في صيف عام ١٩٤١، لم يكن الحياد مستحيلاً على إيران. أما بعد ذلك فقد أصبح وضعها عرضة للهجوم بصورة متزايدة تبعاً لازدياد أهميتها الاستراتيجية. وحتى قبل نشوب الحرب في الشرق الأقصى واشتراك أميركا اشتراكاً كاملاً في النزاع، كانت مساعدة الولايات المتحدة للحلفاء تزداد نمواً وحجماً. وأتاح نظام الإعارة والتأجير فيضاً من المؤن الحيوية الحربية وغيرها، تلك المؤن التي اتفق على تحويل جزء منها إلى روسيا بأسرع وقت ممكن.

ولكن الوصول إلى روسيا كان مستحيلاً عن أي طريق في أوربا. كان الألمان يخُطرون في كل طريق بري وبحري، فأرسلت عدداً من القوافل البحرية عن طريق القطب راح ضحيتها عدد هائل من البريطانيين والأميركيين، وتسلم الروس كل ما أُعطوه بسخاء وكرم وتضحية، دونما كلمة شكر واحدة. لذلك صمم رؤساء أركان الحرب على فتح طريق أقل خطراً وكلفة، عبر إيران.

ولكن الشاه الغيور جداً على استقلال بلاده، والتأثر بمدى انتصارات الألمان، لم يتعاون مع الحلفاء بإعطائهم التسهيلات التي طلبوها منه، فقد كان ذلك في نظره يعني خروج إيران عن حيادها.

وكان الحلفاء في تلك الفترة الدقيقة من الحرب مستعجلين، وكان باستطاعتهم، وقد فعلوا ذلك، أن يظهروا قوة عسكرية كافية للقضاء على أية مقاومة إيرانية فعلية لمطاليبهم. لقد أرسلوا قوة صغيرة من الهند ودخلت هذه القوة إيران، وكنت أنا وقتئذ بعيداً في سويسرا، وأدركت حالاً الخطر العظيم الذي عرّض رضا شاه مركزه له. وطلبت، عن طريق قنصل صاحب الجلالة العام في جنيف، إذناً من وزارة الخارجية للاتصال بالشاه هاتفياً. كان لدي بعض الأمل بأن يستمع إلى نصيحتي، بالنظر إلى أن علاقاتنا كانت ودية دائماً لا وقت اعتلائه العرش فحسب، بل باستمرار بعد ذلك. وفي برقية طويلة توسلت إليه أن يدرك أن عرشه كان في خطر، وأنه إذا أصرّ على موقفه غير المتعاون فإنه سيضطر إلى التنازل عن العرش ويجبر إيران على دخول الحرب كدولة تابعة بدلاً من أن تدخلها كدولة حليفة مكرّمة. ولست أعرف الآن ما إذا كانت برقيتي قد وصلته بالسرعة الكافية لإعطائه مجالاً للتفكير، ذلك أنه قد تعين علي أن انتظر إذن وزارة الخارجية بإرسالها. لقد تعاقبت الأحداث بسرعة في هذه الأزمة، وأعتقد أن برقيتي قد وصلت إليه متأخرة على الأرجح، بعد أن لم يكن هناك مفّر من تنازله، غير أن هناك بعض العزاء في أن القسم الثاني من برقيتي- كما أنبأني فيما بعد الرجل الذي كان عندئذ وزير بلاطه وذا سلطة عظمى- الذي سألته فيه أن يدخل الحرب إلى جانب الحلفاء، قد كان له فعلاً بعض الأثر. فبتنازل الشاه أصبح

باستطاعة الشعب الإيراني نفسه أن يتكلم، وأنقذت الأسرة واعتلى العرش ابن رضا شاه. أما رضا شاه فأرسل إلى المنفى، أولاً إلى موتيريوس ومن ثم إلى جوها نسبورغ، حيث مات سريعاً بعد ذلك، كسير القلب من غير شك.

وانقضى عامان اثنان. وكانت المواصلات بين سويسرا والعالم الخارجي مقيدة إلى أبعد الحدود منذ وقت طويل. أما أنا فقد تمكنت من أن أرسل برقيات قليلة بفضل السفير وفي مناسبات كبرى. كانت البرقيات الخاصة تستغرق أسبوعين أو أكثر، وكثيراً ما كانت تفقد ولا يجري تسلمها قط.

وفي أوائل عام ١٩٤٥ انتهت عزلتي الطويلة عندما انتقلت مع زوجتي إلى مرسيليا حيث مكثنا بعض الوقت ضيفين على الجيش الأميركي وقائده الجنرال جون راتايو.و من مرسيليا أخذنا طريقنا في طائرة عسكرية بريطانية إلى القاهرة.

وبالرغم من أن المقر العام البريطاني لجميع حملات الشرق الأوسط منذ عام ١٩٤٠فصاعداً كان في القاهرة، وبالرغم من أنه قد كانت هناك حشود كبيرة من جنود الحلفاء في المدينة وفيما حولها، فإن القاهرة لم تتأثر بالحرب إلا نادراً. لقد ظلت حياتها الاجتماعية كما كانت من قبل، وفي السفارة البريطانية كان هناك اللورد كيلرن، السير مايلز لامبسون سابقاً، الرجل الذي كان مسؤولاً بالدرجة الأولى عن معاهدة عام ١٩٣٦ البريطانية المصرية، وكانت العلاقات المصرية البريطانية في طور من المد السطحي الذي يخفي تحته توتراً متزايداً.

كان لي في البلاط المصري وفي الأوساط السياسية أصدقاء

ومعارف لا حصر لهم، وكان من بينهم أفراد الأسرة المالكة. وفي رأيي أن ثلاثة يستحقون أكثر من كلمة عابرة: الملك فاروق، الذي اجتمعت إليه الآن للمرة الأولى في شبابه، ورئيس وزرائه النحاس باشا، وولي العهد الأمير محمد علي.

لقد مضى على صداقتي للأمير محمد علي خمس وخمسون سنة. فعندما ذهبت إلى لندن لأول مرة عام ١٨٩٨ نزلنا معاً في فندق واحد: أوتيل آلبيمارل القديم في بيكاديللي. وكان ضيفاً على العشاء على مائدة الملكة فيكتوريا في قلعة وندسور إما قبل أن أحظى بالشرف نفسه أو بعده بقليل. ولقد جمعتنا مصادفة سارة، بعد ذلك بخمس وخمسين سنة، في عام تتويج الملكة اليزابيث الثانية، عندما دعتنا الملكة إلى حفلة شاي، وطول هذه المدة بقيت والأمير محمد علي صديقين حميمين.

إن الأمير محمد علي ذو شخصية مدهشة متعددة الجوانب. وإذ كان الأخ الأصغر للخديوي فقد كان له نفوذ هادئ وإنما قوي جداً، من وراء الستار، في الحياة والسياسة المصرية. إنه لم يتزوج قط، لأنه كان يرى (كما كان يقال دائماً) أن صحته لم تكن تسمح له بإنشاء أسرة. ومع ذلك فإن طاقته وحيويته عظيمتان شأن حساسيته الروحية وقوته العقلية.

لقد كان طيلة حياته ولا يزال مسلماً صالحاً. ذلك أنه أدى فريضة الحج إلى مكة مرات عديدة، ويملك معرفة واسعة بالثقافة الإسلامية، ومنذ مدة ليست بالطويلة ألّف سلسلة من الكراريس عن الإسلام ومعناه ورسالته الروحية للإنسانية وطلب مني أن أوزع نسخاً كثيرة منها في أوربا. وهو يتكلم إلى جانب العربية، عدة لغات أخرى مثل التركية والإنكليزية والفرنسية والألمانية ولغة أو لغتين أخريين، فضلاً عن أن

إلمامه بدقائق التاريخ المصري، سواء في عصر المماليك أو في عهد جده الأعلى محمد علي، هو حقاً غير عادي. أما أصدقاؤه فكثيرون لا بين مواطنيه وإخوانه في الدين فحسب بل بين جاليات مصر المتعددة وأقلياتها- البريطانية والفرنسية واليونانية والقبطية.

لقد كان طيلة حياته معجباً ببريطانيا ومؤيداً قوياً للصداقة البريطانية المصرية، وعندما قُضي على الملكية وقام العهد الجديد في مصر غادرها طائعاً مختاراً، متمنياً لمصر وشعبها رفاهية مستمرة وازدهاراً متزايداً في ظل حكامها الجدد شاعراً في الوقت نفسه بعجزه عن أداء قسطه بالنظر إلى تقدمه في السن. إنه يقضي شيخوخته الهادئة في سويسرا صيفاً وعلى الريفييرا الإيطالية أو الفرنسية شتاء.

أما النحاس باشا فقد اجتمعت به أول مرة عندما دخلت مصر عصبة الأمم. لقد جاء إلى جنيف، فاحتفيت به بوصفي ممثلاً للهند. إن قدراً كبيراً من نجاحه في حياته السياسية يعود إلى قوته الخطابية وقدرته على امتلاك الجماهير من مواطنيه. غير أن هذه الصفات نادراً ما تتجلى لك عندما تجتمع إليه لأول مرة. وفي حين أنه من المحتمل أن يقترن اسمه في التاريخ بخلافه الخطير مع ملكه فإنه في الحقيقة ملكي كامل.

لقد أنبأتني حرم النحاس باشا عن الإخلاص العميق الذي كان النحاس يكنه للملك فاروق، وعن اقتناعه بأن ذلك الإخلاص يحتم على كل من يبتغي خدمة الملك بالطريقة المثلى أن يذكّره باستمرار بالحدود التي تحد من سلطته كملك دستوري. والحق أن هذا التذكير هو أول واجبات الوزير المشروعة، ولكن حتى في بريطانيا نفسها- كما وجد السيد غلادستون في صحبته الطويلة الرسمية للملكة فيكتوريا- ليس

من المحتمل أن يكون المستشار الذي يلح على نصح الملك أو الملكة بما يجب فعله وبما يجب تركه محبوباً من ملكه أو ملكته كأولئك الذين لا ينظرون إلى واجباتهم ومسؤولياتهم النظرة الصارمة الجدّية نفسها. وفي النحاس باشا لم تكن هذه خلّة سطحية بل مبدأ أساسياً عمل بمقتضاه دونما أي انحراف أو تحول. لقد سمعته أنا نفسي يقول أكثر من مرة: " إن الملك يملك ولا يحكم. " ولاشك في أن ملكاً شاباً مثل الملك فاروق لم يكن يرتاح إلى قبول هذه النصائح الكثيرة. كان الملك يمنح رئيس وزرائه جميع المجاملات المألوفة- مثال ذلك أني كثيراً ما رأيت الملك يجلس مع رئيس وزرائه جنباً إلى جنب في المقصورة الملكية بدار الأوبرا- ولكن المرء كان يشعر دائماً أن وراء هذه الشكليات هوّة من المستحيل الوصل بين طرفيها، وأنه كان يعتمل في نفس الملك شعور عميق من التبّرم المكبوت، بينما كان النحاس يأسف لشعوره بأن إخلاصه وولاءه لم يكونا موضع التقدير.

والملك فاروق نفسه في نظري ونظر كثيرين غيري سيظل هناك شيء غامض يلف شخصية هذا الرجل المكتئب الغريب. لقد مات أبوه وهو بعد صبي، ولم يكد يوارى الثرى حتى رحلت أمه إلى الخارج، مما حرم فاروق عطف أبيه وأمه وتأثيرهما معاً. وأرسل إلى إنكلترا لاستكمال ثقافته، غير أنه عاش هناك سجيناً في منزل متسع في الريف وحرّم عليه الخروج منه والامتزاج بالشعب الذي كان يعيش بينه، تنفيذاً لأوامر والده، الذي كان يخشى أن لا ينشأ ابنه على الأسس التي كان قد رسمها له. ولكن فاروقاً لم يذهب إلى المدرسة بانتظام، ولم يدخل جامعة قط، بل قضى بضعة أشهر في الأكاديمية العسكرية الملكية في وولوتيش. وفي اعتقادي

أنه كان يشعر دائماً بالضيق والانزعاج لافتقاره إلى الثقافة مما طوّر في نفسه عقدة نقص، خصوصاً أنه كان يجد نفسه دائماً إلى جانب أناس رفيعي الثقافة من مختلف الجنسيات. وتعويضاً عن ذلك انقلب إلى ثُلّةٍ من المتملقين وغير المثقفين. إن الملك فاروقاً، وقد حرم في صغره من العطف والحنان، أصبح في كبره يخشى أن يكون وحيداً أو في الظلام.

وفي رأيي أنه في هذا الأساس التعس تكمن الأسباب الحقيقية للعادات التي جلبت له النقد في الوطن وسوء السمعة في الخارج، وللمقامرات والساعات الطويلة التي كان يعوض فيها السلوان وشرود الذهن في الكباريهات والنوادي الليلية. وليس من ينكر، مع الأسف الشديد، أن هذه الساعات كانت تضيع هباءً. وإنما نستطيع أن نفسر فراغها، بأنه كان يفتقر في طفولته إلى النظام والانضباط، وبأن أحداً لم يهتم بأن يعلمه أن الوقت هو الرأسمال الأساسي للإنسان، وأنه إذا أضاع الوقت فإنه يضيّع أثمن ما يملك ولا يستطيع استرداده أبداً.

ولقد استمر خلافه مع وزرائه وقتاً طويلاً جداً. كان هو نفسه يعتقد، شأن أبيه من قبله، أن مصر تحتاج في الدرجة الأولى إلى حكم الملك المطلق وإرشاده. أما حزب الوفد، أكبر أحزاب مصر السياسية، فقد أراد أن يجعل منه ملكاً طيعاً. وهكذا كان الملك والوفد يتصادمان مراراً وتكراراً على قضايا متعددة. ولكن جماعة من السياسيين الآخرين ظهرت، وكان همّها الترقية والحصول على السلطان من الملك، فاتخذها أداة له، فكان يستدعي أحد هذه الجماعة، عند استحالة تعاونه مع الوفد، لتأليف حكومة تبقى في الحكم إلى أن تنشأ أزمة مهمة جديدة.

وفي الجيش أيضاً، كما يقال، كان الملك يستعمل الخطة نفسها، فيرقي من كان راضياً عنهم، ويوغر بذلك صدور الضباط.

وفي الانتخابات الأخيرة التي خاضها الوفد اكتسح الموقف بشكل تام وقضى على خصومه السياسيين مما ثبط همة الملك إلى حد كبير وجعل اليأس يتسرب إلى قلبه. لقد اجتمعت به في أثناء زيارته الأخيرة إلى أوربا قبل تنازله عن العرش، وأدركت فوراً التبدل العظيم الذي طرأ عليه. كانت معنوياته متدنية ولسان حاله يقول: " أنا لا أستطيع أن أفعل ما أشاء، فليفعلوا هم ما يشاؤون"، مما ساعد في المدى الطويل على هزيمته وسقوطه. ولقد ذكرتني حاله بأحمد شاه آخر ملوك الأسرة القاجارية في إيران. كان الملك فاروق، مثل أحمد شاه، قد فقد إيمانه بقدرته على أن يقوم بواجباته ويخدم شعبه. وهكذا انهارت الأسرة التي أنشأها محمد علي كما انهارت أسرة قاجار. وفي البلدين انتقلت السلطة، لا إلى السياسيين، بل إلى العسكريين.

إن حياة فاروق الآن فيها من الأسى ما يبعث على الرثاء. إنه، خلافاً لخاله وولي عهده السابق الأمير محمد علي، لابد أن يواجه حياة طويلة إذا سارت الحياة في مجراها الطبيعي. فما ستكون مشاغله؟ أين وكيف يستطيع أن يبني لنفسه حياة جديدة يجد فيها بعض الاحترام الذاتي وبعض الفائدة لأخوانه في الإنسانية؟ إن مما يبعث على أكبر الأسى في الوقت الحاضر أن نراه في طريقه من مدينة أوربية إلى أخرى، تائهاً لا هدف له ولا غاية.

لقد وقعت الذكرى الستون لوراثتي الإمامة في عام ١٩٤٥، غير أنه لم يكن ممكناً، في الأحوال المضطربة التي سادت في نهاية الحرب

العالمية الثانية، ولا مناسباً إقامة أية احتفالات مطولة ليوبيلي الماسي، ولذا قررنا إقامة احتفالين: أحدهما في بومباي في شهر آذار سنة ١٩٤٦ يشتمل على وزني بالماس، والآخر في دار السلام بعد الأول بخمسة أشهر، على أن نستخدم الماسات نفسها.

وعندما آن الأوان، كانت الأحوال العالمية قد بدأت في التحسن وأخذ السفر يصبح أقل صعوبة مما كان عليه في الأشهر الأخيرة من الحرب. ومهما يكن فقد احتشد جمع غفير من أتباعي وأحيوا مناسبة لا يمكن أن تنسى. كان هناك إسماعيليون من مختلف أقطار الشرقين الأدنى والأوسط، ومن آسيا الوسطى والصين، وسوريا ومصر، ومن بورما والملايو، كما كان هناك آلاف من أتباعي الهنود.

ولقد شرفني كثيرون من الأمراء الحكام في الهند بحضورهم، كما فعل كبار الموظفين البريطانيين في هذا الغسق العاصف من أيام الحكم البريطاني. وانهالت عليّ البرقيات والرسائل مهنئة من جميع أنحاء العالم الإسلامي، من رؤوساء الدول الإسلامية المستقلة، ومن نائب الملك، وكنت إذ ذاك سعيداً فخوراً لأن أجتمع هكذا مرة أخرى بأولئك الذين كان حبي لهم ومسؤوليتي عنهم عبر السنين على تلك الدرجة من العمق والثبات.

إني أرجو وأعتقد أن هذا الاحتفال كان في حد ذاته دحضاً قوياً تاماً لقصة صغيرة خبيثة نشرتها مؤخراً فئة من الناس الأشرار. كان بعض الفضوليين قد اطلعوا على اقتراح لي تقدمت به إلى حكومة الهند في العقد الرابع من القرن العشرين لإقطاعي ولاية وإلحاقي بجماعة الأمراء الحاكمين. واستنتجوا من عدم الاستجابة لهذا الطلب ذلك الاستنتاج الخاطئ السخيف، وهو أني غضبت وأني قد تخليت عن جميع المبادئ والمثل التي رعيتها طيلة حياتي، ولكن ليس هناك أبعد من هذا عن الحقيقة.

وحقيقة الأمر هي أن الإسماعيليين شعروا منذ زمن أنه من المستحسن أن يكون لهم وطن- لا دولة قوية، بل شيء على مثال طنجة أو الفاتيكان- خاص بهم يمكنهم أن يمارسوا فيه عاداتهم وتقاليدهم، ويبنوا مركزهم المالي الخاص بهم، بمصارفه وشركاته ومشاريع تأمينه وأنظمة إنعاشه. وقد راجعت حكومة الهند في ذلك، لكن، ولأسباب لا شك في أنها كانت عادلة، لم تستطع حكومة الهند الموافقة على هذا الاقتراح. أما كونها قد استنكرت طلبي وأني قد تعرضت للأذى وجرح المشاعر وأصبت بخيبة الأمل فهو فكرة وهمية غريبة. والبرهان العملي على ذلك هو في العون المادي وغيره من أنواع العون الممكنة التي قدمتها للمجهود الحربي منذ عام ١٩٣٩ . فقد وظفت كل فلس استطعت أن أدخره في لندن في مختلف القروض الحربية.

وأما من ناحية السلطات البريطانية في الهند فقد كان عونها إبان يوبيلي الماسي واضحاً. وإني واثق أنه لولا عونها وتسهيلاتها لما تمكنا من نقل الماس مع الحراسة اليقظة الدائمة أولاً إلى الهند ثم من الهند إلى إفريقيا.

وكانت رسالة التهنئة التي تلقيتها من نائب الملك رائعة من بين المئات التي تسلمتها، وتكررت القصة بعد بضعة أشهر في شرقي إفريقيا. فقد حضر احتفال اليوبيل هناك المعتمد البريطاني في زنجبار، وحكام تنجنيقا، وكينيا، وأوغندا. وطيلة الوقت الذي قضيته في إفريقيا كنت أستقبل بالترحاب من قبل جميع من اتصلت بهم. وأرجو أن أكون قد أعطيت البرهان، إذن، على بطلان تلك الفكرة.

كان لاحتفالات الهند ناحية هامة جداً، ذلك أن مبلغاً معادلاً لقيمة

الماس- أكثر من نصف مليون جنيه، قد جمع وقدم إليّ هدية غير مشروطة، ولكني أردت أن يستخدم هذا المال في سبيل خير الإسماعيليين في كل أنحاء الهند التي لم تكن قد قسّمت بعد.

في عام ١٩٤٦ تجلت في الهند جميع أعراض ذلك الداء الذي كان من الممكن التنبؤ به منذ اليوم الذي نشرت فيه إصلاحات مونتاغو- تشلمز فورد قبل ذلك بنحو من ثلاثين عاماً. فذلك الشعور بالوحدة الروحية وبالاستمرار، الذي كان في شبابي وقبله بزمن طويل قد دعّم الحكم البريطاني في الهند وزوّده بقوته الأدبية ومظاهر فعاليته ودقته الخارجية، قد تقوّض الآن.

وكلمة " اتركوا الهند "، التي كثيراً ما كانت تكتب بالطباشير على الجدران في كلكتا وبومباي ودلهي، وفي كل مدينة كبيرة أخرى، لم تعد الآن عبث مشاغب من المشاغبين، بل أصبحت تعبر عن رغبة وقصد. كان البريطانيون سيغادرون الهند، وكانت المسألة الآن إذا ما كانوا سيغادرونها بسرعة أو ببطء.

كان السؤالان الوحيدان هما: متى، وكيف؟ إن عدداً قليلاً من الإنكليز- أقل من ألفين بكثير- قد تركوا الآن في الإدارة المدنية الهندية. ولكن السلطة كانت ما تزال متركزة في أيديهم. وطالما أنهم كانوا مسؤولين، لا أمام الشعب الهندي، بل تجاه المملكة المتحدة وشعبها، فإن الهند لم تكن مستقلة، ولم تتمتع بالحكم الذاتي.

لقد أثرت الحرب العالمية الثانية في الهند تأثيراً أقوى وأعمق من سابقتها. إن كل آسيا الجنوبية الشرقية، بما فيها بورما، قد سقطت أمام الغزو الياباني في الأشهر الستة الأولى من عام ١٩٤٢، وكان خطر

الغـزو يجثم على حدود الهند. وظهـرت حـامـلات القنابـل اليـابانيـة- دونما تأثير كبيـر- في سمـاء كلكتا. وقد حشدت الهنـد قوات بلغ عددها المليونين وأرسلتها إلى ساحات المعارك إلى جانب الحلفاء. فكان الجيش الهندي أكبر جيش من المتطوعين عرفه التاريخ. لقد انهارت نظرية الإنكليز الباطلة حول قـدرة الهنود على القـتـال، ذلـك أن رجـالاً من مناطق عـديدة في البنغـال والجنوب قـد خـدمـوا ببـسـالـة في الوحـدات المحـاربة في الشـرق الأوسط وإفريقـيا الشرقـية وإيطاليا. كـانت الفرق الهندية طوال سنين عـديدة جزءاً لا يتجزأ من قوات بريطانيـا والكومونولث المحاربة. كما أن القيمـة الأساسـية في النصر النهـائي، من مـعـركة كـوريا إلى انسـحـاب المارشـال كـيسـرلنغ في إيطاليـا الشـمـاليـة بعـد ذلك بسنوات أربع، كـان مكتـوباً بمداد لا يمحى من تاريخ الحـرب العـسـكري، فـضـلاً عن أن الضـبـاط الهنود قـد أظهـروا مـراراً وتكراراً بسـالتهم وحكمـتهم وقـيادتهم وقـدرتهم على ممارسة القـيادة العليا. وفي المراحل الأخيرة من الحرب كانت الهند القـاعدة الأساسـية لحملات آسـيا الجنوبيـة الشـرقـيـة في عـام ١٩٤٤- ١٩٤٥؛ تلك الحـمـلات التي دفـعت اليـابانيين إلى التـراجع المميت على طول بورمـا، والتي كـانت عـامـلاً مـهـمـاً في هزيمة اليـابان النـهـائيـة. ومع ذلـك فلم يكن للهـند أي كلمـة في تسـيـيـر الحـرب واسـتـراتيجيتـها، بل إن الكثيـر من أبرز زعمـائها السـيـاسـيين قضـوا سنوات طويلة في الاعـتـقال السياسي.

وفي ذروة الحـرب، في ربيع ١٩٤٢، تـرأس السـيـر سـتـافـورد كـريبس لجنة بريطانيـة جاءت إلى الهند في محـاولة لوضع برنامج عـملي لتـحـقـيق مطـامح الهـند. ولـكن لجنـة كـريبس فـشلت بسـبب أنـه بالرغـم من كـون المندوبين البـريطانـيين والهندوس على حد سـواء قـد أملوا في الإبقـاء على

وحدة الهند، فإن ثمن تحقيق تلك الوحدة كان شيئاً لم يكن باستطاعة أي من المسلمين أن يقبله. وكان الرأي العام الإسلامي قد توطد الآن بصورة راسخة تحت زعامة محمد علي جناح، القائد الأعظم.

لقد أوضح جناح بصورة لا تقبل الالتباس إنه ما من دستور لهند موحدة يرضي مائة مليون مسلم تقريباً يمكن أن يقبل، وأن معارضتهم له لا تنهار إلا بقتلهم جميعاً، وأنهم عندما كانوا يقولون: " الموت أو الحرية"، كانوا يعنون ما يقولون.

وبعد فشل لجنة كريبس جاءت فترة من الركود السياسي امتدت أكثر من ثلاث سنوات. فقد أظهرت مجاعة البنغال عام ١٩٤٣ مدى تفاهة أسس الاقتصاد الهندي وعطبها. وجاء من بعد اللورد ليلنثغو نائباً للملك الفيلدمارشال اللورد ويفيل. وبانتهاء الحرب ارتفعت الحمى السياسية بسرعة فائقة في جميع أرجاء الهند، واجتاحت آسيا كلها موجة عارمة من الشعور الوطني، ورغبة صادقة ملحة في تحطيم قيود الاستعمار.

وكانت غزوات اليابان، مهما كانت نتائجها الاجتماعية والعسكرية مكروهة، قد حققت نتيجة خطيرة واحدة: لقد أظهرت للملايين في جميع أقطار آسيا الجنوبية الغربية أن أسيادهم الأوربيين كانوا أبعد من أن لا يغلبوا. لقد رأى الملايين دولة آسيوية تتحدى وتصد طيلة أكثر من ثلاث سنوات- في رقعة هائلة تمتد من كوريا إلى غينيا الجديدة ومن حدود أسام إلى أواسط الباسفيك- قوات الولايات المتحدة وبريطانيا والكومونولث وفرنسا وهولندا مجتمعة.

وفي الهند لم يكن هناك الآن من حديث عن فترة انتقالية تمتد خمس سنوات. فالصراع لابد من أن يكون حقيقياً، فورياً ودموياً إلا إذا منح

الحكم الذاتي، لا في المستقبل وبشروط تضعها بريطانيا، بل حالاً وبشروط يفرض معظمها شعب الهند نفسه. وكان أوضح الأدلة على عمق هذا الشعور البيّن لشخص مثلي عاد من الخارج بعد غياب سنوات، ذلك العداء الذي كان قد نما لا لسيادة بريطانيا السياسية المطلقة فحسب، بل لكل ما هو بريطاني: اللغة الإنكليزية والعادات والتقاليد البريطانية، والغليون، والبذلات والياقات وربطات العنق، بحيث أنه حتى الهنود الذين اقتبسوا هذه العادات أصبحوا في بعض المناطق في خطر حقيقي.

أما بريطانيا فلم يكن لديها لا رغبة في الاحتفاظ بالهند ضد إرادتها، ولا القدرة على ذلك. لقد أنهكت الحرب قواها، واستنزفت أموالها، حتى إنها بدت الآن، بعد أن كانت الدولة التي تقرض العالم كله المال؛ مدينة لكل دولة تقريباً. لقد أحرزت بريطانيا النصر، ولكنها دفعت ثمناً له زعامتها العالمية. وفي الوطن واجه شعبها فترة طويلة من التضييق الاقتصادي، من النقص والتقشف والتقنين، وحتى قبل انتهاء النزاع في الشرق الأقصى، كانت الحكومة الائتلافية التي قادت البلاد إلى النصر قد انهارت، وكان حزب العمال- لأول مرة في تاريخه- قد وصل إلى الحكم، بأكثرية برلمانية كبيرة.

وكان السيد آتلي، رئيس الوزارة، قد أبدى اهتماماً وثيقاً بمشكلات الهند منذ أن كان عضواً في لجنة سيمون قبل ذلك بخمس عشرة سنة. وبالإضافة إلى برنامجه للإصلاح الاجتماعي والاقتصادي في الوطن، كان حزب العمال قد تعهد بإنهاء الاستعمار البريطاني فيما وراء البحار حيثما استطاع ذلك، وكان استقلال الهند في رأس لائحته منذ سنين.

وهكذا، فحيث أخفقت حكومة الائتلاف زمن الحرب، كانت

خليفتها، في فورة تفاؤلها القوي في أوائل عهدها بالحكم، قد صممت على أن تنجح، ولذا فقد أوفدت لجنة وزارية على رأسها اللورد باثيك- لورنس، وزير الهند، السيد الكسندر، وزير الدفاع، إلى دلهي للتشاور مع نائب الملك، والقائد الأعلى للجيش والزعماء السياسيين الهنود حول الطريقة التي يجب أن يتم بها نقل السلطة.

وكان الزعماء السياسيون الذين كانت في أيديهم السلطة لاتخاذ القرار النهائي، أربعة: في الجانب الهندوسي(المؤتمر) المهاتما غاندي والسيد نهرو والسردار باتيل، وفي الجانب الإسلامي السيد جناح، القائد الأعظم. كان مستقبل الهند يتوقف على اتفاق هؤلاء أو اختلافهم، مترجماً إلى حقائق اقتصادية وسياسية.

إن حياة القائد الأعظم السياسية الممتازة الباهرة، التي انتهت قبل أوانها بزمن كبير، قد بلغت ذروتها في هاتين السنتين الخطيرتين: ١٩٤٦ و ١٩٤٧ . إنه الآن في ذمة التاريخ، وإنني لواثق من أن ذاكراه لن تمحى. ومن بين جميع الساسة الذين عرفتهم في حياتي- كليمنصو، لويد جورج، تشرشل، كيرزون، موسوليني، المهاتما غاندي- لم أعرف واحداً فاق محمد علي جناح.

إن أحداً من هؤلاء الرجال في نظري لم يبزّ جناح في قوة شخصيته، وفي ذلك التاريخ الذي يكاد يكون ساذجاً من سبق الإدراك والتصميم، قد يقال بأنه كان أسعد حظاً من البعض، وأكثر حظاً إلى حد بعيد من موسوليني، مثلاً، الذي انتهى إلى الإخفاق الذريع والعار الشنيع. ولكن هل كان نجاح جناح يعود كله إلى حسن الحظ، وإخفاق موسوليني يعود كله إلى سوء الحظ؟ وماذا نترك إذن لحسن التقدير، ولسوء التقدير؟

لقد عرفت جناح سنين عديدة، منذ أن عاد من إنكلترا ليمارس مهنته القضائية، حتى وفاته. أما موسوليني، فقد اجتمعت به مرة واحدة، وكانت مناسبة لا تنسى، في أصيل أحد الأيام في مقصورته في نادي سباق الخيل بروما، عندما أتحفني بحديث دام قرابة ثلاث ساعات، بلغة إنكليزية ممتازة، وبصوت ناعم لطيف لم نألفه منه في الخطب التي كان يلقيها على الجماهير، ولكنه لم يلتفت قط إلى أي شوط مرة واحدة، أو إلى الناس في المنصات، ولم يسمح لي أن أرقب شوطاً أو أشارك في مناقشته.ومع ذلك، فإني أستطيع أن أذكر شبهاً واحداً مهماً بين هاتين الشخصيتين.

إن كلاً منهما انتقل، بين شبابه وعنفوانه، من رأي سياسي إلى آخر. فأما موسوليني فقد انتقل من اشتراكية كانت قريبة من الشيوعية إلى إيجاد الفاشية، من ماركس إلى نيتشه وسوريل. وأما جناح فقد كان في مراحله الأولى أقوى مؤيّد، بين الزعماء المسلمين، للقومية الهندية، على أسس حزب المؤتمر، على أن يكون هدفها دولة هندية موحدة.

ومع ذلك، فقد كان هو المسؤول الأول، في نهاية الأمر، عن تقسيم الإمبراطورية الهندية إلى دولتي باكستان والهند المستقلتين. إن محمد علي جناح، الذي عاش كل تلك السنين يدعو إلى الوحدة الهندية، كان هو الرجل الذي قطع، بناء على القانون الدولي، كل صلة ممكنة بين نصفي الهند، وقسّم- بالرغم من المعارضة البريطانية الشديدة- الجيش الهندي.

وإذا كان هذان الرجلان، موسوليني وجناح، يختلفان في كثير من الصفات المميزة السطحية، ويختلفان، قبل كل شيء، في النجاح الذي أصابه أحدهما والإخفاق الذي مني به الآخر، وإذا كان أحدهما يناقض الآخر، ظاهرياً، في أشياء كثيرة، فإنهما كانا يشتركان في صفة واحدة

لازمتهما طيلة حياتهما. كان كل منهما يملك نوراً هادياً. فمهما كانت السياسة، ومهما كانت الفلسفة السياسية الكامنة وراء هذه السياسة، فإنها تكون ناجحة ولها ما يبررها من الوجهة الأخلاقية، ما دام هو الذي على رأسها، وما دام هو الموجه لها.

إننا لا نستطيع أن نعتبر ذلك مجرد طموح لدى أي واحد منهما، ذلك أنه كان لدى كل منهما اقتناع عميق لا يتزعزع بأنه كان أعظم من سائر الناس جميعاً، وأنه إذا كانت قيادة الأمور في يده وكانت كلمته هي الكلمة الفصل في جميع الأمور فإن كل شيء يسير على ما يرام، بقطع النظر عن وجود أية نظرية مجردة(أوعدمها) وراء العمل السياسي.

هذا الإيمان لم يكن غروراً فارغاً. إنه لم يكن تمجيداً ذاتياً أو زهواً باطلاً. كانت جذوره في كل من هذين الرجلين ثقة مطلقة في جدارته وأهليته، ثقة مطلقة في أنه، لما كان قد وُهب الحكمة بأكثر مما وُهبها الآخرون، من حق شعبه عليه، بل من حق الإنسانية جمعاء، أن يكون حراً في أن يفعل كل ما يعتقده الأفضل باسم الآخرين.

ألم يكن هذا النوع من الإيمان الراسخ هو الذي هدى وسند أنبياء إسرائيل والمصلحين من أمثال لوثر وكالفن؟ في عصرنا بالذات شهدنا على الأقل رجلين اثنين استمدا نشاطهما من هذا الإيمان الديناميكي الذي يهز الأمم، وكل منهما- أحدهما للخير والآخر للشر- كان يعي قضية خارج ذاته: هتلر، الذي كان يحلم بنظام جديد تفرضه ألمانيا ويدوم ألفاً من السنين، والمهاتما غاندي، الذي كان يحلم بهند يقوم مجتمعها واقتصادها وحياتها كلها على مبادئ سلمية وأدبية معينة، هند كان وجودها الموضوعي يعني بالنسبة إلى المهاتما غاندي أكثر من أي شيء في نفسه.

كذلك كان زعيما بريطانيا في الحربين العالميتين ينعمان بثقة في النفس لا تقاوم، ولكن كلاً من لويد جورج وتشرشل كانا غير قادرين على أن يتجاوزا حدود ممارسة السلطة التنفيذية التي رسمتها الحياة البريطانية والتقاليد والمعتقدات المدنية والبرلمانية والأخلاقية والدينية البريطانية.

وفي نظر كل من موسوليني وجناح لم تكن المعارضة رأياً يجب أن يسترضى عن طريق التسوية أو المفاوضات، بل تحدّياً يجب القضاء عليه عن طريق قوتهما ونباهتهما المتفوقتين. وإذا كان كل منهما قد بدا مداوراً ونهازاً للفرص فإن ذلك مرده إلى أن ثقته بنفسه وإرادته المرنة قد جعلتاه يعتقد، في أي عمل يقوم به، أنه هو وحده كان على حق، وعلى حق كامل، إن أحداً منهما لم يكن يأتمن الآخرين، أو يطلعهم على سريرة نفسه.

لقد قطع موسوليني الطريق الطويلة من الماركسية لا بسببٍ من الشكوك العقائدية أو الاختلافات، بل لأن المبادئ والنظريات، في عالم النظريين والسياسيين الاشتراكيين، والذي قضى فيه شبابه العاصف منفياً في لوزان، كانت عقبات راسخة مستمرة في الطريق الوحيد إلى التحقق العملي الذي كان يهمه- التحقق العملي الذي كان بنيتو موسوليني فيه هو الزعيم والقائد.

عندما ظهرت الفاشية في أول أمرها كقوة سياسية في إيطاليا لم يعرف أحد ماهيتها، ولم يستطع أحد أن يحدد مبادئها أو منهجها، ذلك أنها لم تكن لها مبادئ، ولم يكن لها منهج. كل ما قاله موسوليني كان: " ليكن لنا حزب، ولندعه الحزب الفاشي "- مما كان يعني أي شيء، أو لا شيء.

كان المبدأ الوحيد للحزب، وواجبه الوحيد، أن يفعل ما يأمره الزعيم

بأن يفعله، وكان الزعيم يعتقد اعتقاداً راسخاً، وظل كذلك وقتاً طويلاً، بأن كل ما يفعله الحزب هو ممتاز، لأن كل شيء كان يتصوره موسوليني، وينفذه موسوليني.

أما جناح فقد أفصح طيلة حياته عن صفة مميزة مماثلة. إنه لم يكن يعترف بأن أحداً كان يفوقه عقلاً أو سلطة أو منزلة أدبية. كان لا يعرف حدوداً للنظرية أو المبدأ. إن المترافع المصمم القدير الشاب الذي انتصر، دونما نفوذ أو ثروة موروثة، وفي بضع سنوات، بالرغم من المقاومة العنيفة، قد أصبح هندياً وطنياً عندما انقلب إلى السياسة.

لقد انضم إلى حزب المؤتمر لأنه أراد، شأن سياسيّي المؤتمر، أن يحرر الهند من السيطرة الاستعمارية البريطانية. ولأنه اعتقد أنه هو نفسه كان باستطاعته أن يفعل ذلك لو أطلقت يده. ومع ذلك فإنه في انضمامه إلى المؤتمر كان كالسمكة خارج الماء. لقد عمل على أن يكون بطل حرية الهند، ولكن أراءه في البطولة كانت تختلف اختلافاً كلياً عن آراء زعماء المؤتمر الآخرين، وهكذا عاد وانضم مرة أخرى إلى أولئك الذين كان يرتبط بهم بروابط الجنس والدين. لقد كان، اسمياً، واحداً من عدة زعماء في العصبة الإسلامية تلك الأيام، ولكنه لم يكن قادراً على أن يفرض آراءه وسياسته، ذلك لأن السياق العام للفكر الإسلامي كان يجري بقوة في اتجاه معاكس للاعتقادات التي كان يؤمن بها عندما كان في معسكر المؤتمر. كان يعمل بقوة ونشاط في سبيل حزب المؤتمر غير أنه، من وجهة نظرة هو، كان الفشل يتعقبه إثر الفشل.

كانت هنالك هوة عميقة بين مفهومه عن واجبات الزعيم السياسي ومسؤولياته في المجتمع الحر وبين مفهوم أولئك الذين كان يعمل معهم.

وكانت الأدوات التي لجأ إليها تتكسّر في يده كل مرة لأنه كان من المستحيل التوفيق بين السياسة، حسب مفهومه، والسياسة المصنوعة بالتسوية والمفاوضة في اللجان والمجالس التي وجد نفسه عضواً فيها.

لقد صادف عقبة بعد عقبة، فازدادت خيبة أمله مرارة، وكانت " نقطة لا رجوعه "، اجتماع المؤتمر الخطير الذي عقد في كلكتا في شهر كانون الأول من عام ١٩٢٨، والذي تحكم فيه نهرو الأب ونهرو الابن. فقد أقنعته خيبة أمله هناك بأنه لم يكن للمسلمين أي أمل بالحصول على معاملة عادلة في هند متحدة.

وأعود هنا فأوكد أن جناح قد لعب في مؤتمرات الطاولة المستديرة دوراً مخلصاً شريفاً بوصفه عضواً في الوفد الإسلامي. غير أن عمله هناك لم يكن قد زعزع إيمانه بوسيلته الخاصة، وغايته الخاصة، وكان شعور المسلمين بحاجاتهم ومطامحهم السياسية قد تقوّى خلال سنين من المناقشة والمفاوضة مع المسؤولين البريطانيين وممثلي حزب المؤتمر. وهكذا فقد أصاب المسلمون في اتباعهم لجناح وإعطائه ثقتهم التامة.

وفي حقبة كان شعار " لا تسوية " آخذاً في أن يصبح شعار ما يقرب من مئة مليون مسلم، كان جناح، الرجل الذي لم يكن يعرف معنى لكلمة " التسوية "، كان هناك ليغتنم- لا باسمه بل نيابة عن أولئك الذين كان مقدراً عليه أن يقودهم- فرصة العمر كله، الفرصة التي قد لا تسنح في قرون. لقد تجسّمت فيه مشاعر الأكثرية الساحقة من المسلمين في الهند من أدناها إلى أقصاها.

وإذن فقد انبرى ليقول بجرأة: " نريد حزباً إسلامياً. نريد منظمة إسلامية موحدة، كل عضو فيها مستعد لأن يبذل حياته في سبيل بقاء

بني جنسه، ودينه، وحضارته. " أما المنهج الذي كان يتعين على هذه المنظمة أن تتبعه، أما المقترحات المحددة المفصلة التي يتعين عليها أن تضعها أمام مؤيديها ومناصريها، أما كيف يجب أن توقف حملتها وما هو الشكل الذي يجب أن تتخذ، أما كل ذلك فقد أحجم جناح عن تبيانه. إن ما كان يقصده ويريده، ولو أنه لم يقل ذلك علناً، هو أن هذه الأمور كلها يجب أن تترك له كي يقرر في شأنها عندما يحين الوقت- أو بالأحرى عندما يعتقد أن الوقت قد حان.

كانت العصبة الإسلامية، كما انبثقت تحت زعامة جناح، مؤسسة تعهد أعضاؤها بالمبادرة فوراً إلى المقاومة- حتى الموت- فيما إذا تحقق استقلال الهند من دون أن تصان ذاتية المسلمين ووحدتهم، أو من دون اعتبار جميع الفروق بين الثقافة والمجتمع والدين والحضارة الإسلامية والهندوسية.

كان جناح يعطي الأمر نفسه إلى أتباعه المسلمين: " نظموا أنفسكم على الأسس التي وضعت. اتبعوني وكونوا مستعدين- إذا دعت الحاجة- للموت في اللحظة الحاسمة. وسأخبركم عندما يحين الوقت. "

إن قليلين من المثقفين لم يتحملوا هذا الإيمان الذي لا يتزعزع في جناح، وكانت انتقاداتهم له ترداداً لصرخة:

" ماذا، وكيف، وأين، ومتى؟ "

أما أنا نفسي فمقتنع بأنه حتى عام ١٩٤٦ لم يكن لدى جناح فكرة واضحة ونهائية عن هدفه، وبأنه لم يكن يدرك أبداً أنه في خلال اثني عشر شهراً سيصبح مؤسس دولة جديدة، دولة إسلامية عظمى لم يعرف العالم مثيلاً لها منذ قرون. فلا هو، ولا غيره، كان باستطاعته أن يتصور أن القدر سيضع في يديه فرصة عظمى لا تصدق كتلك التي

جاءت في المراحل الدقيقة الحرجة من المفاوضات مع اللجنة الوزارية البريطانية، وأتاحت له المبادرة عندما وصل اللورد مونتباتن. عندئذ ولدت الباكستان، دولة جديدة تأتي في المرتبة الخامسة بين دول العالم من حيث عدد السكان. دولة تسعون بالمائة من سكانها من المسلمين، دولة من إبداع منظمة لم يكن لها إلا مبدأ موجه واحد: " اتبعوا الزعيم".

لقد وفق جناح، كما سأروي بعد قليل، إلى الاختيار الأنسب في اللحظة المناسبة. أما موسوليني فإن نهايته كان لابد أن تختلف اختلافاً كبيراً لو أنه، في اللحظة الحاسمة، اختار الصواب عوضاً من أن يختار الخطأ. لقد انتظرته نهاية المجرمين، نهاية المذلة، ونهاية الفضيحة والعار. وأما جناح فقد حقق، من ناحية أخرى، الذكر الخالد بوصفه الرجل الذي خلق، من دون جيش ولا أسطول ولا قوة جوية، وبإيمان راسخ طيلة حياته بنفسه تبلور في قرار جريء واحد، إمبراطورية عظمى تعدادها أكثر من سبعين مليون نسمة.

عندما وصلت إلى الهند في عام ١٩٤٦ كانت هذه الأحداث تتوالى. وبالرغم من أن مبدأ منح الهند الاستقلال الفوري الكامل قد تحقق بالقبول العام في بريطانيا، فقد ظلت هناك مع ذلك الأسئلة الخطيرة التالية: هل ستكون الهند دولة متحدة، لها جيش واحد، وأسطول واحد، وسلاح جوي واحد، أم أن الهند يجب أن تقسّم، وإلى أيّ مدى سيكون هذا التقسيم كاملاً؟ كان لا يزال هناك أمل ضئيل أيضاً بأن نوعاً من التفاهم قد يكون بعد ممكناً بين العصبة الإسلامية وحزب المؤتمر، أو- من حيث الشخصيات- بين القائد الأعظم والمهاتما. في مثل هذا التفاهم كانت تكمن، بطبيعة الحال، الأجوبة عن الأسئلة التي عددت الآن.

لقد ذهب معي رئيس غرفة الأمراء، صديقي القديم نواب بهوبال، لمقابلة المهاتما غاندي للبحث في إمكانات الوصول إلى تفاهم. كانت هناك مسألتان مهمتان وددنا أن نبحثهما: الأولى، وكانت تهمّ نواب، تتعلق بمستقبل الأمراء الحاكمين وولاياتهم في الهند الحرة. والثانية، وكانت تهمني أنا، مسألة الجالية الهندية في أفريقيا الجنوبية. وفي إبان محادثتينا الطويلتين معه استنتجنا أنه لم يكن هناك أمل بالتسوية بينه وبين جناح. كان غاندي ما يزال يؤمن إيماناً راسخاً بالهند أمة واحدة، في حين أن جناح كان يؤمن إيماناً أشد رسوخاً بوجود أمتين. لقد ذكرت للمهاتما غاندي أنه كان ينبغي عليه في الحقيقة أن يرى، بعد أن قبل مبدأ فصل بورما عن الهند، أنه لم يكن هناك سبب يمنع الأراضي الإسلامية الواقعة في الشمال الغربي والشمال الشرقي من الانفصال أيضاً،لأنها، شأن بورما، لم تكن إلا جزءاً من الهند التي توحدت نتيجة للغزو البريطاني. وإذن فإن فكرة توحيدها كانت مصطنعة وقتية، غير أني لم أترك في نفس المهاتما أي أثر، وخرجت من عنده تاركاً بهوبال لمعالجة مسألة الأمراء.

ومن بونا ذهبت إلى نيودلهي، حيث تحادثت مع نائب الملك، اللورد ويفيل، والقائد العام السير لورد أوكينلك، ووجدت أنهما كانا مقتنعين معاً بعدالة منح الهند استقلالها فوراً، فضلاً عن ضرورة ذلك. غير أنهما تمسكا معاً بوحدة الهند، وكان مرد هذا التمسك، طبعاً، إلى أن الحقائق العسكرية كانت تهمهما في النهاية بأكثر من الحقائق السياسية. والحقيقة العسكرية الكبرى في عام ١٩٤٦، في الرقعة الواسعة الممتدة من الخليج العربي إلى جاوا وسومطرا، كانت وجود القوات الهندية المدافعة، وأهم من كل شيء وجود الجيش الهندي.

والذي حدث أن كلاً من اللورد ويفيل والجنرال اوكينلك(الفيلدمارشال حالياً) كان قد لعب دوراً كبيراً في إنشاء الجيش الهندي والبحرية الملكية الهندية وسلاح الجو الهندي وإيصالها جميعاً إلى تلك المرتبة المدهشة من القوة في نهاية الحرب العالمية الثانية. وكانا يدركان بصورة خاصة قيمة الإبقاء على وحدة هذه القوات المنظمة المجهزة بالنسبة إلى بريطانيا والكومونولث، وإلى الحلفاء الغربيين والأمم المتحدة، ويقدران أيضاً الأخطار التي ستنشأ فيما إذا انقسم الجيش الهندي. فجيش الدولتين الجديدتين لن يكتفيا بمراقبة أحدهما الآخر عبر الحدود بشك وغيرة، بل إن فراغاً استراتيجياً خطيراً لابد وأن يوجد في جزء كبير ومهم من سطح الأرض، لذلك فقد سعيا إلى إيجاد حل يحفظ وحدة الجيش الهندي. أما أنهما قد فشلا في سعيهما، وأن كل من سعى إلى الغاية نفسها قد فشل، فذلك مقياس لمدى تصميم المسلمين، في وجه أي حجة مهما كانت قوية، وكل عقبة مهما كانت كأداء، على بلوغ حقوقهم العادلة، وسيادتهم واستقلالهم السياسي والديني والثقافي كاملاً غير منقوص.

وعدت إلى أوربا بعد انتهاء احتفالات يوبيلي الماسي، ولكن صحتي كانت متدهورة جداً مما اضطرني إلى الانقطاع عن العمل أشهراً كثيرة. أما العملية الجراحية التي كان البرفسور فرانسوا غودار قد أجراها لي في باريس فقد خلصتني على الأقل من سبب من أسباب القلق العظيم، ولكن كان لابد من انقضاء عدة أشهر قبل أن أتمكن من استئناف نشاطي العادي بصورة جزئية.

في تلك الأثناء كان عام ١٩٤٧ هو العام الذي تقرر فيه مصير الهند. لقد تقدمت اللجنة الوزارية البريطانية بما تحول إلى أن يكون

العرض الأخير والاقتراح النهائي لإنشاء دولة هندية متحدة. وكان ذلك حلاً بارعاً- لو أمكن تحقيقه- وكان كذلك حلاً بنّاءً. كان الاقتراح يقوم على وضع دستوري مثلث يجمع أقصى درجة ممكنة من السيادة في ثلاثة أقاليم كبيرة تنقسم إليها الهند البريطانية- الإقليم الشمالي الشرقي، والإقليم الشمالي الغربي أكثريتهما من الهندوس- إلى مركزية محدودة جداً للسلطة الضرورية في الوسط تتولى شؤون الدفاع والعلاقات الخارجية والمواصلات المهمة.

الآن رأى جناح فرصة فانتهزها بتصميم وسداد. لقد أعلن موافقته غير المشروطة على المشروع البريطاني، فبرر بذلك القرار الواحد الذي جمع بين الدهاء والذكاء والحنكة السياسية التي لا تجارى، ادعائي بأنه كان أعظم من جميع السياسيين الذين عرفتهم في حياتي. إن ذلك القرار قد وضعه في مستوى بسمارك نفسه.

في هذا الوقت المحرج الذي صمد فيه جناح كالصخرة، تردد زعماء حزب المؤتمر، وبجنون لا يصدق رفضوا المقترحات البريطانية، أو بالأحرى تقدموا باقتراحات معاكسة غامضة مبهمة جردت المشروع من معناه وفاعليته.

أما في إنكلترا فقد وجد، كما حدث في أكثر من مرة في لحظات حاسمة من التاريخ، سياسيون من الطراز الأول، استجابوا لقدرة جناح السياسية. كان السيد أتلي منذ البداية قد اهتم اهتماماً وثيقاً وبذل الجهود في سبيل الوصول إلى حل لمشاكل الهند. أما الآن فقد قبل بمثل شجاعة جناح وجرأته المبادئ الأساسية التي كان المسلمون قد توخوها كل ذلك الوقت الطويل.

لقد تم الاعتراف الآن بالفرق الأساسي الذي طالما تم تجاهله بين الهندين، وتم العمل بمقتضى هذا الاعتراف، بسرعة وحزم. وقرّر أن الهند يجب أن تقسّم. وبضربة واحدة من القلم ولدت الدولتان المختلفتان العظيمتان. واستقال اللورد ويفيل، وتم تعيين اللورد مونتباتن اوف بورما خلفاً له، بعد أن أعطي أمراً واضحاً بأن ينهي خلال فترة محدودة جداً من الوقت، الحكم البريطاني والمسؤولية البريطانية في الهند، وبأن يسلم السلطة إلى دولتي باكستان وبهارات.

وقد قصّر اللورد مونتباتن نفسه هذه الفترة، إذ جعل الخامس عشر من آب الموعد النهائي لنقل السلطة. وعلى مكتب كل من المسؤولين الكبار في نيودلهي وسملا، في تلك الأشهر الأخيرة، تم وضع التقاويم، ووضعت كذلك إشارة منذرة حول اليوم الموعود. وفي ذلك اليوم الموعود نفسه انتقلت السلطة، وتولت الدولتان الجديدتان مهام الحكم، وأصبحتا عضوين مستقلين سيدين في مجموعة دول الكومونولث.

ولكن هذا التحويل السريع غير المشروط للسلطة قد خلّف مشكلة واحدة كبرى لكل من الدولتين: فبالرغم من أن الهند كلها، من الحدود الشمالية الغربية حتى رأس كومورين، كانت تلّون باللون الأحمر في الأطلس العادي الصغير، فإن هذه الرقعة الكبيرة من الأرض لم تكن كلها بريطانية على الإطلاق. فقد كانت هناك بقع منقطة تشير إلى ولايات إفرادية مستقلة، على رأسها مهراجات يتوارثون الحكم وتتراوح من حيث الحجم من بلاد كبيرة مثل كشمير وحيدر آباد وترافانكور إلى بضعة أميال مربعة، وبلدة واحدة. وعندما توطد الحكم البريطاني في الهند سويت علاقاتها به بمعاهدات ضمنت فيها بريطانيا، بوصفها السلطة العليا، استقلالها وحكمها الذاتي.

ولعل من المناسب الآن أن أورد هنا بعض ذكرياتي عن عدد من أعظم هؤلاء المهراجات الذين كنت على اتصال بالكثيرين منهم في شبابي، والذين أصبحوا أصدقاء لي طيلة حياتي.

إن أبرز هؤلاء المهراجات هو المهراجاجيكوار ومهراجاباروا. فقد اجتمعت به لأول مرة في طفولتي المبكرة عندما كان أبي لا يزال على قيد الحياة. وكنت أراه إبّان شبابي كلما جاء إلى بومباي، ولما بلغت سن الرجولة كوّنا صداقة دامت حتى وفاته وامتدت إلى زوجته التي ما تزال حية بحمد الله.

كان يملك استقلالاً متيناً في الشخصية ويدرك أن الشرف والمقام اللذين ورثهما لم يكونا حقاً شخصياً له فحسب، بل سجيتين لا يمكن فصلهما عن الجنس والأمة اللذين كان ينتمي إليهما. كانت الهند في نظره تأتي دائماً في المقام الأول، فلا العائلة ولا الطبقة ولا المعتقد كانت في أهميتها أعظم من هذا الولاء البسيط التلقائي الشامل.

منذ أكثر قليلاً من خمس وأربعين سنة، في صيف عام ١٩٠٨، كنا معاً ضيفين على حاكم بومباي آنئذ، السير جورج كلارك، في بونا. وفي إحدى الليالي، بعد أن نام الجميع، جلست مع المهراجا وأخذنا في الحديث حتى ساعة متأخرة، وإنني لا أزال أذكر بأتم الوضوح كل ما قاله: " إن الحكم البريطاني لن ينهيه أبداً كفاح الشعب الهندي وحده، ولكن الظروف العالمية لابد من أن تتبدّل تبدلاً أساسياً بحيث لن يكون في وسع أي شيء أن يحول دون زواله زوالاً تاماً. "

ثم أضاف شيئاً مدهشاً جداً: " إن أول ما يتعين عليكم فعله بعد ذهاب الإنكليز هو أن تتخلصوا من كل هذه الولايات الشبيهة بسقط

المتاع. أقول لك إنه لن يكون هناك أبداً دولة هندية حتى يزول ما يسمى بنظام المهراجات. إن زواله سيكون أفضل ما يمكن أن يحدث في الهند- أفضل شيء ممكن. "

وبالنظر إلى ما حدث بعد ذلك، ألم يكن صديقي بعيد النظر، بقدر ما كان بليغاً؟

ومن بين أصدقائي الحميمين الآخرين من الأمراء كان مهراجا كابورتالا العظيم. أذكر حادثة طريفة رواها لي عن نفسه. ففي عام ١٨٩٣، عندما كان ما يزال شاباً يزور أوربا لأول مرة، مكث بعض الوقت في روما. وفي يوم من الأيام زاره الملك إمبرتو، ملك إيطاليا، دون سابق إنذار. وعندما دخلا غرفة استقبال المهراجا رأى الملك صور النساء الجميلات معروضة في أرجاء الغرفة. فقال الملك بخشونة: " من هؤلاء النسوة؟ "

" هن، يا سيدي، زوجاتي. "

والتفت إليه الملك قائلاً: "حسناً، وأنا عندي من النساء بقدر ما عندك، ولكن هناك فرقاً واحداً بيننا، هو أنني لا أجمع بينهن في مكان واحد، بل أبقيهن في بيوت متفرقة، أما أنت فتجمع كل نسائك في قصرك. "

وإذا ما نظرت إليه نظرة إجمالية، بثقافته وذوقه الممتاز وتقديره العاقل الموزون وشخصيتة القوية، فإني أعتقد أن مهراجا كابوتالا كان أبرز مهراجات جيلي بعد مهراجا بارودا. كان كل منهما، في نظري، يملك بعد النظر السياسي إلى درجة مكنته من أن يُقدّر الأسباب التاريخية لزوال نظام الأمراء، وأن يتقبله دونما مضض أو ضغينة. وفي اعتقادي أن هذا لم يكن سهلاً إلى هذا الحد بالنسبة إلى صديقين آخرين من أصدقائي، وكلاهما رجلان موهوبان بارزان: مهراجا جامنار، ومهراجا بيكانار.

ولكن نظام الأمـراء زال، وتم زواله بسلسلة سـريعـة شـاملة من القـرارات. فـأمـا باكسـتـان، التي واجـهت في أعـقـاب حـصـولهـا على الاستقلال عدداً لا يحصى من القرارات الخطيرة، فقد حلت هذه المشكلة بسرعة، وبطريقة حسنة.

ومرة أخرى تم ذلك على يدي القائد الأعظم. فقد تمكن، وهو الذي أعلن نفسه فوراً حاكماً عاماً لدولته الجديدة، بصفاء نظرته، وحنكته السياسية، وشعوره العملي البسماركي بـ " أفضل الممكن"، من أن ينفذ تدبيراً أرضى الأمراء وجعل منهم مصدراً من مصادر قوة باكستان.

وأما الهند فقد وجدت المهمة أكثر تعقيداً وأكثر صعوبة. لقد زالت السلطة العليا، وغدت المعاهدات التي كان الأمراء قد عقدوها، أولاً مع شركة الهند الشرقية، ومن ثم مع التاج، غير ذات مفعول بانسحاب هذه السلطة العليا. ومن الناحية القانونية انقلبت الولايات فوراً إلى بلدان مستقلة ذات سيادة، ولكنها كانت جزراً في خضم دولة الهند الجديدة الهائلة.

ولقد جاهد اللورد مونتباتن، الذي دعته حكومة الهند المؤقتة إلى البقاء بوصفه حاكماً عاماً إبان فترة انتقالية قصيرة، إلى إيجاد حل للمشكلة، واستخدام كل حنكته وقوته على الإقناع، وكان السردار بانيل، بوصفه وزيراً للداخلية، يجزم بأن ذلك الحل يجب أن يكون مرضياً للهند الجديدة.

كان الوضع الذي واجهه الأمراء محزناً بعض الشيء، إلا أنه لم يكن هناك مفر منه. إن قليلين منهم كانوا قد حكموا حكماً سيئاً مستبداً. وكانت الضرائب في العادة أخف في ولاياتهم منها في الهند البريطانية المجاورة لها. ومع ذلك، فإن رعاياها كانوا يحصلون، بهذا الثمن

الأدنى، على كثير من الفوائد التي كان المكلفون في الهند لقاءها يغذون صندوق الدولة. وكان أكثر الأمراء محبوبين، أشرافاً، لطفاء ذوي نية حسنة، ولكن القليلين منهم تثقفوا على الأسس الحديثة لمواجهة المشاكل العسيرة المعقدة في عصرهم.

والأهم من ذلك كله أن عهد " السلطة العليا " الذي دام كل تلك السنين الطويلة جعلهم غير مسؤولين من الناحية السياسية، ولم يعودوا يعتمدون على حسن سلوكهم وحسن إدارتهم للحفاظ على حكمهم وسلالاتهم، ومالوا بذلك إلى فقدان الثقة بأنفسهم والقدرة اللازمة للقيادة، وتضاءلت مكانتهم في أعين رعاياهم. وعندما حلت اللحظة الحاسمة، ووجدوا أنفسهم من دون السلطة العليا، ومن دون ضماناتها وحدودها، لم يبق لهم – لأكثريتهم الساحقة- مناص من أن يقبلوا الشروط التي عرضها عليهم الاتحاد الهندي. ولم تكن هذه الشروط عموماً غير سخية، شرط أن يأخذ كل أمير خطوتين: أولاً، إلحاق ولايته بالاتحاد الهندي فوراً، وثانياً، تسليم السلطة السياسية. ولقاء ذلك تعهدٌ بأشياء كثيرة، من مثل إعفاء مداخيلهم من الضريبة، والاحتفاظ بثرواتهم الخاصة وبأراضيهم وقصورهم، والإبقاء على مكانتهم وشرفهم.

ولقد قبل ذلك جميع الأمراء تقريباً عن طيب خاطر، وأصبحت ولاياتهم جزءاً من الهند الجديدة، وكثير منها، الكبير منها والصغير على السواء، دمج بحيث أصبح يؤلف مقاطعات كبيرة جديدة.

أما الولايات التي شذت فقد كانت قليلة ولكنها سببت قدراً من الإزعاج والاضطراب. ومن الأمثلة البارزة ولاية كشمير، التي كان فيها نسبة كبيرة من المسلمين، وعلى رأسها أمير هندوسي ضمّ الولاية إلى

الهند مخالفاً بذلك أهم المبادئ التي تم الاتفاق عليها زمن التقسيم. وفي ترافانكور صمد المهراجا ووزراؤه زمناً قصيراً متمسكين بحقوقهم الدستورية والقانونية. غير أنهم ما لبثوا أن خضعوا لضغط سكان الولاية أنفسهم.

أما " النظام "، فقد أسعده حظه بوجود مستشار له من طراز السير ولتر مونكتون. غير أن مزيجاً من الضعف والعناد دفعه إلى أن يرفض التسوية التي اقترحها اللورد مونتباتن بالشروط التي فاوض على أساسها السير ولتر. وكانت نتيجة ذلك العناد الأخرق مفجعة، ذلك أن الهند قامت بعمل بوليسي سريع وحازم، وحلت النكبة بكل آمال حيدر آباد وفرصها.

أما وقد انتهى الحكم البريطاني في الهند، وانقسمت الهند إلى شطرين، فإن هنالك أموراً كثيرة يجب أن تنجز، وبخاصة في حقل العلاقات بين باكستان وبهارات. في السنوات التي تلت التقسيم كانت هذه العلاقات متوترة في أحيان كثيرة، ومع ذلك فإن أقصى حالات التوتر قد بقيت ضمن الحدود، ولم تتخذ أية دولة موقفاً متطرفاً.

عندما كان التقسيم وشيك الوقوع، قال السياسي المدراسي، السيد راجاغو بالاكري، " راجاجي " الذي أصبح بعد ذلك الحاكم العام للهند، قوله الحكيم: " إذا كان المسلمون يريدون حقاً أن يذهبوا، فليذهبوا ويأخذوا معهم كل ما هو خاص بهم. " ذلك هو المزاج الذي يجب أن تكون عليه العلاقات بين الشعبين.

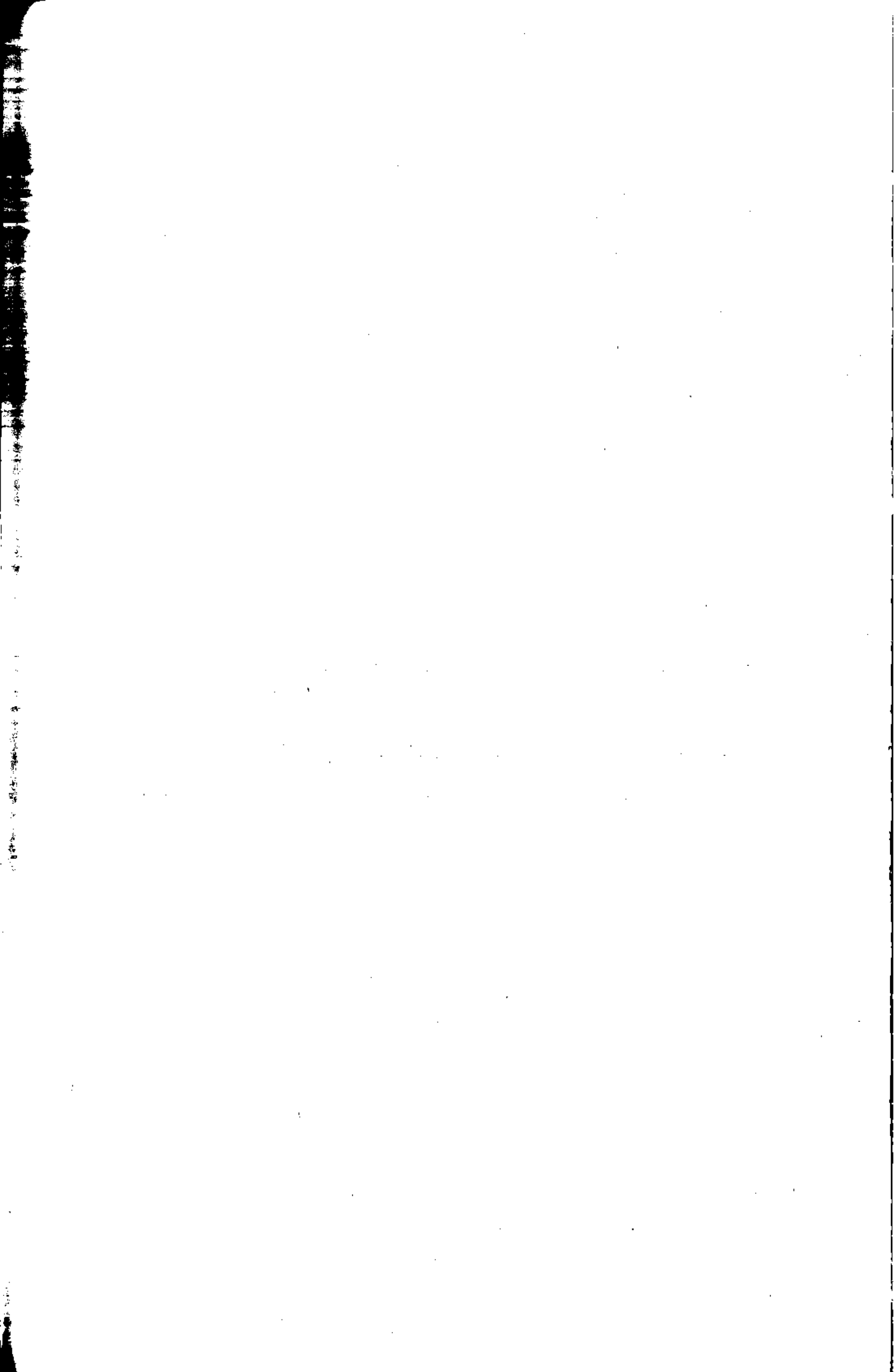
لقد ثبت أن من المستحيل دعم الوحدة المصطنعة والإبقاء عليها بالإكراه. وأن في الانفصال فرصة لنمو التفاهم والشهامة وكرم الأخلاق،

وهذه في بادئ الأمر نباتات صغيرة، غير أنها إذا حظيت بالعناية الدقيقة والتعهد الحكيم، وإذا كانت جذورها عميقة، فإنها لابد من أن تزهر.

إن العضوية في الكومونولث تعطي رابطة غير ملموسة، لكنها مهمة، بين شعبي بهارات وباكستان، والمرجو أن ينمو بين الجارتين تفاهم يتطور مع الزمن إلى تحالف. فالسلام، والرفاهية المشتركة، والتحسين المشترك المطرد في مستوى حياة الملايين، كل أولئك في مصلحة الجارتين الكلية. وفي المدى الطويل، هكذا في اعتقادي، لابد أن يثبت أن أفعال القدر في الهند كانت وما تزال خيراً، لا شراً.

إن علاقة تقوم على الاحترام المتبادل والإرداة الخيرة المشتركة بين البلدين يمكن أن تؤمن سنوات كثيرة من التطور السعيد السلمي والتقدم للملايين في قطر واسع مهم.

وعندئذ تكون مساعي الكثيرين منا، مسلمين وهندوس وبريطانيين، عبر سنين من الجهد المضني، وفترات من سوء التفاهم والألم، والمصاعب التي نسيت والأزمات التي حلت منذ وقت طويل، عندئذ تكون مساعينا جميعاً في نهاية الأمر قد تحققت وكان لها ما يبررها إلى حد بعيد.



الفصل الثالث عشر

أصدقاء قدماء وجدد - شجون عائلية

يمكنني القول صادقاً كل الصدق إن السأم لم يتسرب إلى نفسي لحظة واحدة طيلة حياتي المديدة. إن كل يوم كان من القصر، وكل ساعة من السرعة، وكل دقيقة مليئة بالحياة التي أحب بحيث أن الزمن قد طار على جناحٍ رشيق بأكثر مما ينبغي من الرشاقة. إن عقلاً ينشغل، في الصحة وفي المرض، بأمور خارجة عن ذاته وعن أغراضه الخاصة هو، في اعتقادي، مصدر دائم للسعادة الحقيقية. وفي الصلاة العادية، كما نفهمها نحن المسلمين، فان عشق المحبوب يملأ كل ذرة من ذرات الوعي الإنساني؛ وبالمقياس ذاته فإن لحظات النشوة الروحية العليا، ونور السماء، تعمي البصيرة والروح عن كل الأنوار الأخرى، وتعترض كل الأحاسيس والمفاهيم الأخرى.

في السنوات الأخيرة، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عرفت فترات كثيرة من المرض، فترات كانت تكفي، كما أعتقد، بمشتملاتها وطول زمانها ،لأن تخمد مني العزيمة وتحْزن النفس. لقد أُجريت لي ثلاث عمليات جراحية كبرى، كان حظي في البقاء بعد اثنتين منها مساوياً لحظي بمفارقة هذه الدنيا. كما فرض عليّ أن ألازم فراشي أشهراً بطولها

بسبب علة شديدة في القلب، ومع ذلك فلم تخمد عزيمتي، ولم أكتئب قط. فقد كان هناك، على سبيل المثال، زيادة عظيمة في النشاطات الإسماعيلية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي رافقتها موجة من الأفكار الجديدة، والمشروعات الجديدة، والتي تعاملت معها عن كثب وبشكل وثيق. وقرأت الكثير وارتحلت في قراءتي إلى العوالم الجديدة التي كشف عنها العلم. وفي اللحظة التي شعرت فيها بالتحسن التام عدت إلى رياضتي المفضلة - الغولف؛ وقد ساعدتني هذه الرياضة على توسيع مدى صداقاتي ومعارفي الذين كان لهم تأثيرهم عليّ عبر السنين. وأعتقد أن من بين هؤلاء الأصدقاء من لاعبي الغولف، كان هناك الصديق الصدوق ذو القلب الدافئ وكرم اليد، اللورد كاسلروس، على سبيل المثال، والذي شاركته اللعب كثيراً في سنوات ما قبل الحرب. لقد كان صحفياً قديراً ومحادثاً ذكياً بارعاً، ورفيقاً يعتمد عليه في كل الأوقات.

وأذكر أيضاً صديقي القديم، ج. هـ. تايلور، الذي كان يسافر معي أحياناً، ويحل ضيفاً علي في منزلي، والذي تتلمذت على يديه أسابيع وأشهراً عديدة.

كما يسعدني أن أعلم أنه يتمتع بصحة وأنه يقضي أيام اعتزاله في بلدته. وإنني سعيد دائماً بأنني عرفت بين محترفي الغولف رجالاً كثيرين من أمثال ج.هـ تايلور كانوا من جميع النواحي مثلاً لكل من عرفهم.

وكان السفر هواية أخرى استأنفتها مع زوجتي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بحماس ومتعة خاصة- ولربما كان ذلك لأننا حُرمناها

طيلة تلك السنوات القاتمة. لقد عدنا إلى أماكن ألفناها من قبل، واكتشفنا فيها نواحي جديدة من السحر والفتنة، ووقعنا فيها على مباهج لم نختبرها قبلاً. وفي مصر تذوقنا أيضاً لذة القاهرة التي جمعت تحت سمائها الصافية مدنيات كثيرة جداً، وعوالم كثيرة جداً. الأقصر بآثارها، وأسوان بجمالاتها، والإسكندرية القديمة بإغرائها وما تجمعه بين جنباتها من ذكريات حضارات الإغريق الأفلاطونية وحضارات مصر والشام.

وفي الهند اكتشفنا ثانية جمال تلك البلاد الشاسعة وعجائبها - لاهور، مثلاً، بمساجدها وأبنيتها الأخرى التي كثيراً ما يهملها الناس ويتحولون عنها إلى دلهي وأكرا، حتى أولئك الذين يعرفون الشيء الكثير عن المغول والتاريخ والفن الهندي - الإسلامي. أما في أوربا، فإن روما العظيمة والبندقية المتأنقة، بالرغم من أنهما معاً مدينتان عرفتهما وأحببتهما طويلاً، تكشفتا لي مؤخراً عن أسرار جديدة وجمالات جديدة في النور واللون والبناء.

لقد كنت طيلة حياتي من رواد المسرح المواظبين، وكما سبق مني القول في فصل متقدم، فإني من عشاق الأوبرا. فكلما استطعت، وأينما كنت، تراني أذهب إلى كل دار حسنة للأوبرا أستطيع الوصول إليها. إن شعاعاً واحداً من النور أضاء لي تلك السنوات الطويلة زمن الحرب، عندما كنت محصوراً في سويسرا ومحروماً تقريباً من كل اتصال مع العالم الخارجي: التياترو البلدي في زوريخ، الذي كانت له مواسم أوبرا مدهشة. ففي كل سنة كانت كيرستن فلاغستاد - التي هي في نظري أعظم المغنيات كما أن كاروزو أعظم المغنين - تأتي لتؤدي أعظم

أدوارها، وكان عدد من أقدر المغنين الإيطاليين- جيلي وغيره- يأتون كل عام إلى زوريخ.

هناك أصدقاء لي، قدماء وجدد، أشاركهم هذا الحب للحياة، هذا التحرر الكامل من السأم. هناك إلسا ماكسويل، التي يجلب لي اسمها فيضاً من السعادة. ههنا صداقة، وههنا لطف أقدرهما أبلغ التقدير، ولا أنساهما مدى الحياة. إنها تحب الحياة وتجد في العيش متعة لا حدود لها، وهي تعطي الآخرين بهجة دائمة، ويسعدها أنها تجعلهم سعداء. إن إلسا ماكسويل، أصدق الأصدقاء وأكثر الناس غفراناً لأعدائها- إذا وجد لها أعداء- تقف مثلاً لكل من يعتقدون أن الاتصال الاجتماعي يجب أن يقبل ويقدّر بوصفه إحدى هبات الله للإنسانية، لا التزاماً موحشاً كئيباً نمشي فيه متثاقلين عندما تدعو الحاجة.

وهناك أيضاً صديقان لا يمكن أن أهمل ذكرهما في هذا المقام- لأنهما أصبحا أقرب إلينا إلى حد كبير منذ الحرب- إنهما مدرب خيولي، فرانك بوترز، وزوجته الشجاعة. لقد أخذنا نترقب كل خريف زيارتهما السنوية لنا في جنوب فرنسا، ونعتبرها إحدى المباهج الرئيسة في ربيع السنة التالية. أما الآن فإن صحته، مع الأسف الشديد، قد انهارت بحيث أن السيدة بوترز لا تجد مناصاً من رفض دعواتنا السنوية التي نحافظ على إرسالها باستمرار. إننا نفتقدهما كثيراً، ولكن هذا الحزن لم يخفف من حبنا لاثنين من أحسن الناس الذين عرفناهم في حياتنا.

ولابد لي من ذكر صديق جديد عزيز عرفناه منذ الحرب، وأعني به السيد تشارلز غراي، أحد موظفي السفارة الإميركية في باريس، إنه

رجل ذو مزاج محبب، لطيف ومسعف دائماً. إن أحداً لا يمكن أن يكون رفيقاً في السراء والضراء أفضل من تشارلز غراي، ذلك أنه هو أيضاً شخص آخر يدرك أن الصداقة والحياة الاجتماعية هما هبة من الله، وأن علينا أن نشكره عليهما ونتقبلهما بفرح وابتهاج. إنني أشترك مع إلسا ماكسويل وتشارلز غراي بصفة واحدة، وأعتقد مخلصاً أننا نحسد عليها، وهي أننا لا نعرف ما هو الضجر.

في مهرجان كان السينمائي عام ١٩٥٣، التقيت الآنسة أوليفيادي هافيلاند، الممثلة الشهيرة ذات الشخصية المحببة والتي تبدو لي بطريقتها الخاصة، إذا كان لي أن أقول ذلك، باحثة عن الحقيقة، إنني أؤمن بأنها من أولئك الناس الموهوبين الذين يعيشون حياة فنية شخصية خاصة بهم، حياة مليئة جادة ناجحة، والذين يعون مع ذلك قضية عالمنا اليوم ومشكلته الأساسية: القوة الهائلة التي تحقق بها تغلُّب الإنسان على الطبيعة المادية، وما يقابلها من القيود التي ما تزال بدائية نوعاً ما وتحد من وجوده الروحي والانفعالي.

أما الصديق الآخر الجديد، الذي هو واحد من الفنانين الخلاقين القليلين في عصرنا، والذي يبدو بطريقته الخاصة أيضاً باحثاً مماثلاً عن الحقيقة وغريباً يفتش عن حكمة توفق بين متناقضات اليوم، أما هذا الصديق الآخر الجديد فهو السيد تشارلي تشابلن، الذي عرفته لأول مرة في عام ١٩٥٣ . إن تشابلن هو ثائر من دون شك- ثائر على عجز المجتمع الحديث وسط القوة المادية الطاغية.

إنني أعتبر معرفتي بالسيد تشابلن وزوجته الفاتنة شرفاً ومتعة حقيقيين لي. إنها تفهم وتقدّر تقديراً كاملاً مثله العليا، ومطامحه

العقلية والروحية وتشاطره آلامه الحقيقية التي تسببها له متناقضات عصرنا هذا. وأنا الذي أنعم الله عليه بزوجة تفهم أفراح عقلي وروحي وأتراحهما أستطيع أن أقدر مدى السعادة التي يجدها في حياة منزلية شبيهة جداً بحياتي.

أما الآنسة ريتا هيوارث، كوكب الشاشة الجميلة، فقد كانت زوجة ولدي علي الثانية. لقد عاش معها فترة من الزمن وأنجبت له حفيدتي التي لم أرها إلا عندما كانت مولودة جديدة.

تزوج علي للمرة الأولى من السيدة لوويل غيتس، وكانت امرأة إنكليزية شابة جميلة، وكريمة اللورد تشارستون، ونال زواجهما موافقتي. وعندما تزوجا في عام ١٩٣٦، وكان علي عندئذ في الخامسة والعشرين من عمره، أحببت كنتي، جون، ولا أزال أكنّ لها مودة عظمى. وقد أنجبت لعلي ابنيه الجميلين، وهذان الولدان هما الآن في المدرسة، وسيذهبان إلى الجامعة في أميركا عندما يحين الوقت. فأما أكبرهما كريم، الذي يظهر تفوقاً في الرياضيات، فسيذهب إلى مؤسسة الهندسة، كما نرجو. وأما أمين فسيذهب إلى كلية هارفارد للحقوق.

وظلت السعادة الكاملة ترفرف فوق حياتهما الزوجية حتى نهاية الحرب. كانا معاً في الشرق الأوسط، في مصر أولاً ومن ثمّ في سوريا. كان علي في الجيش، وكانت جون واحدة من زوجات الضباط الكثيرات اللواتي فصلن، وقتئذ، عن أزواجهن في القاهرة. وبعد الحرب عاد إلى أوربا وقضت جون عاماً أو عامين في أفريقيا الشرقية مع الولدين. غير أن الخلاف ما لبث أن دبّ بينهما فانفصلا أحدهما عن الآخر.

ولم يمض وقت طويل على فراقهما حتى ذهب علي إلى الولايات

المتحدة لقضاء بعض الأعمال، وهناك التقى الآنسة هيوارث. لقد شوهدا معاً مراراً عديدة، ومن هناك جاءا لزيارتي في كان، وسألتهما عما إذا كانا يحبان بعضهما بعضاً حباً حقيقياً، وعندما أجابا معاً بالإيجاب نصحتهما بأن يتزوجا بأسرع ما يمكن.

وما إن أنهى كل منهما معاملات الطلاق الخاصة به حتى تزوجا، ولكن في ظروف من الدعاية الصاخبة التي لم نألف مثلها في عائلتنا. لقد كانت احتفالات زواجي في الهند بسيطة جداً، ولكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة إلى زواج علي من الآنسة هيوارث. صحيح أنني وزوجتي اشتركنا في الاحتفال، غير أننا استنكرنا كثيراً الجو الذي أحيط به. كانت الآنسة هيوارث جميلة جداً، ولكن لم يمض وقت طويل حتى رأيت أن أحدهما لم يكن يناسب الآخر. إن ولدي علي شخص طيب القلب مغرم باللهو ويحب أن يكون دائماً محاطاً بالأصدقاء يغدق عليهم من كرمه ويخصهم بعنايته إلى أقصى الحدود.

أما الآنسة هيوارث فقد كانت شخصاً آخر، شخصاً مجهداً من جراء عملها المضني الذي استغرق أيامها كلها منذ طفولتها، ولذلك انتظرت أن يكون زواجها من علي ملجأ للأمن والاستقرار والراحة. ولا شك إذن في أن زيجة الشخصين اللذين كانت حياة كل منهما مناقضة تمام المناقضة لحياة الآخر، كان لابد أن تنهار في النهاية.

غير أنه يتعين عليّ القول إن الآنسة هيوارث، بدلاً من أن تعالج الموضوع بصراحة وإخلاص، فإنها اعتقدت بطريقة ما أن علياً، أو أنا نفسي، قد نقدم على محاولة سلبها طفلتها، أو بالأحرى على خطفها، ولذا أخذت ابنتها وهربت من ولدي في ظروف غير عادية. ولو أن الآنسة

هيوارث تمهلت وفكّرت في الأمر قليلاً، إذن لكان باستطاعتها أن تعلم حقيقة القوانين الدينية الإسماعيلية التي يتقيد بها أتباعي الإسماعيليون وأفراد عائلتي في هذه الأمور. فبمقتضى هذه القوانين يبقى الطفل من الجنسين في حضانة أمه وحدها، مهما كانت الظروف التي يتم فيها الطلاق بين الزوجين. وإذن فلم يكن باستطاعتنا، إلا إذا كنا مجرمين، أن نحاول أخذ الطفلة ياسمين من أمها.

وعندما يبلغ الطفل سنّه السابعة تنتقل حضانته إلى أبيه إن كان ولداً، في حين أن البنات يبقين مع أمهاتهن حتى سن البلوغ، وعندئذ يصحبن أحراراً في اختيار آبائهن أو أمهاتهن، ولا شك في أن هذا كله كافٍ لأن يزود الآنسة هيوارث بما يمكنها من الاحتفاظ بابنتها.

كنت في الهند وباكستان عندما بدأت الأزمة النهائية في حياة ولدي الزوجية. وفي اللحظة التي وصلت فيها إلى كان- في تلك الليلة نفسها- أخذت الآنسة هيوارث ابنتها، دون أن أتمكن حتى من رؤيتها، وهربت بها إلى باريس، ومنها إلى الولايات المتحدة. وقد علمت أنها منذ ذلك الحين قد عادت إلى أوربا ولكنها لم تحضر الطفلة لتراها عائلة أبيها أبداً.

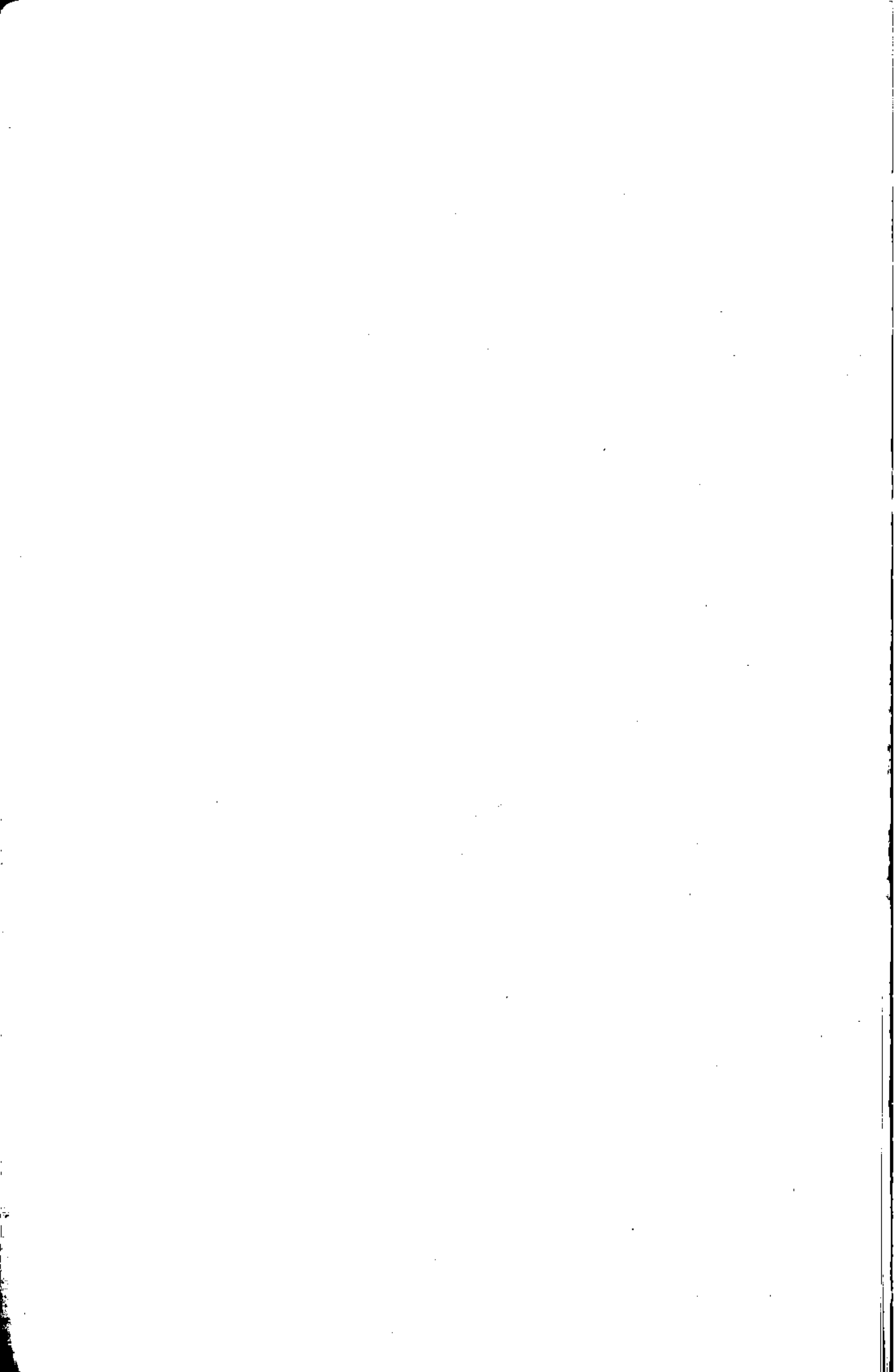
في اليوم الذي كانت تنوي فيه الذهاب مع الطفلة اتصل بي هاتفياً أحد الفضولين الذين كانوا في خدمتي ليخبرني بما كان يجري وليسألني عما كان يجب عليه فعله. ولقد أجبت فوراً إن الأمر لم يكن من شأننا وأن للآنسة هيوارث ملء الحق في أخذ الطفلة إلى حيث شاءت. غير أنه كان باستطاعتها حقاً تأخير سفرها من كان إلى باريس كي أتمكن من رؤية الطفلة.

هناك أصدقاء ومحامون رأوا دائماً أن باستطاعتي أن أخصّ حفيدتي ببائنة أو أبتاع لها بوليصة تأمين تستعين بها على مستقبلها. ومع أن أقوالهم صادرة عن حسن نية، فإنها ليست على حق. إنهم لم يدركوا أن الإسلام ينصّ على أن الابنة تبقى في حضانة أمها حتى سن البلوغ، كما نسوا أيضاً أنه ليس هناك طريقة في الإسلام يمكن بوساطتها حرمان الطفل من ميراث أبيه.

فإذا قدّر لولدي علي أن يموت فإنه لن يستطيع حرمان ورثته الشرعيين من أكثر من ثلث أمواله وممتلكاته. إن ثلثي هذه الأموال والممتلكات يجب أن ينتقلا إلى ورثته، وياسمين واحدة منهم، فهو لا يستطيع أن يُبدِّل هذا النص الشرعي إطلاقاً. كذلك فإن الشريعة الإسلامية لا تسمح لأي مورّث بأن يفيد ورثته على حساب الآخر، وإذن فمهما يحدث لولدي علي، فإن الطفلة ياسمين لابد من أن تنال حصتها الكاملة من أي إرث يتركه. وطالما بقي النظام الرأسمالي أو أي نظام آخر يقوم على الملكية الخاصة فإن علياً لن يحتمل أن يموت مفلساً، وبالتالي فليس هناك من عجلة تحتّم أخذ الحيطة المالية لابنته.

إن عادة البائنة، كما فهمت، آخذة في الانتشار في الولايات المتحدة، ولا شك في أن ولدي علياً، أو أنا نفسي، سنقدم لها بائنة معقولة عندما تصبح في سن الزواج، وذلك بالنسبة لظروف الرجل الذي ستتزوج منه.

وختاماً لا يسعني إلا أن أرجو أن الآنسة هيوارث، عندما تأتي في المرة القادمة إلى أوربا، ستحضر معها ابنتها الصغيرة لكي تتمكن عائلة أبيها من رؤيتها وتسرّ بمعرفتها.



الفصل الرابع عشر
رحلاتي الأخيرة

إن الذين لقيتهم وعرفتهم في حياتي يعيشون في ذاكرتي بأكثر من المبادئ التي سمعت الناس يبشرون بها، والنظريات التي سمعتهم يجادلون فيها، والسياسات التي رأيتهم يبسطونها ويطرحونها، ذلك أن أصدقائي كانوا من أنبغ الرجال وأشهرهم وصديقاتي من أعظم النساء وأكملهن حسناً وجمالاً.

فأما أجمل امرأة عرفتها في حياتي فقد كانت من غير شك الليدي دابرتون- ليدي هيلين فانسان سابقاً- زوجة سفير بريطانيا في برلين. لقد عرفتها طيلة أكثر من أربعين عاماً، وعندما بلغت السبعين من عمرها كانت تستأثر بالعيون كلها في اللحظة التي تدخل فيها إلى الغرفة، مهما كان فيها من النساء الشابات. ولكن جمالها لم يكن جمالاً جسمانياً فحسب، بل كانت تجمع إلى ذلك كله البساطة، ونكران الذات، والمرح، والشجاعة، واللطف.

وإذا كانت الليدي دابرتون من النساء المتفوقات، فقد كان هناك أخريات كثيرات جداً، أجد تذكّر جمالهن ولطفهن متعة وغبطة، من مثل

الليدي كيرزون- الكونتس هاو سابقاً- ومدام ليتلييه، السويدية الأصل، والتي كانت منذ طفولتها علماً من أعلام المجتمع، والأميرة كوتوسوف، والسيدة سبوتيسوود، الأميركية التي أثارت عاصفة في لندن في الحقبة الإدواردية، والتي تزوجت البارون أوجين دوروتشيلد، وماتت مع الأسف وهي في ريعان شبابها.

والذي لا أشك فيه أن المحدّث الألمع الذي عرفته في حياتي فقد كان أوغسطين بيريل، الذي هو اليوم، كما قيل لي، شخصية أسطورية في حقبة من الدهر نسيت إلى حد بعيد فن الحديث. أما أوسكار وايلد فلم أجتمع به قط، ذلك أن سقطة مفجعة كانت قد ألمت به قبل مجيئي إلى أوربا أول مرة. والغريب أن فرصة واحدة أتيحت لي للتعرف إليه بعد خروجه من السجن. وتفسير ذلك أن صديقتي الليدي ريبون كانت من أولئك الذين وقفوا إلى جانبه بإخلاص بعد فضيحته. وفي يوم من أيام عام ١٨٩٩ التقيتها في قاعة فندق ريتز بباريس، ودعتني إلى تناول العشاء معها ومع شخصين آخرين في غرفة خاصة في " كافيه فوازين " للاجتماع بوايلد. غير إني كنت، لسوء الحظ، مرتبطاً بموعد سابق منعني من قبول دعوتها.

وفي صيف عام ١٩٥٣ تعرّفت إلى واحد من أبرز رجال عصرنا، وأعني به شيخ الكويت، ذلك الرجل الذكي واللطيف الذي ارتفع فجأة إلى قمة الثروة. إن نفط الكويت لم يستثمر إلا منذ أمد قريب، ومع ذلك فإنه من أغزر ما عرف في العالم حتى اليوم، والرسوم التي يتقاضاها الشيخ تكفي في الوقت الحاضر لأن تقدم له ولأمارته الصغيرة ما يقرب من خمسين مليون جنيه في السنة.

هذا الفيض في الثروة قد هبط على هذه الإمارة التي كانت حتى زمن قريب بلداً عربياً مقتصداً لم يعرف سكانه عبر القرون غير صيد السمك وفلاحة الأرض ورعي المواشي. ولكن الحاجة الصناعية، بما رافقها من استثمار وتوسع، قد أحدثت ثورة في طريقة حياتهم ونظرتهم إليها.

وإذن فمن حسن الحظ أن يكون شيخ الكويت نفسه رجلاً يتحلى بقدر عظيم من الحكمة ويجمع بين التفهم الكامل الوافي لمعنى هذه الثروة الصناعية الفتية وبين إدراكه ووعيه العميقين لمسؤولياته. وإني لسعيد جداً بمعرفته لأني وجدت فيه روحاً قريبة، وعقلاً يزخر بالمعرفة التامة بالتاريخ والثقافة العربيين والإسلاميين، وتفهماً راسخاً لوحدة العالم العربي الروحية الكامنة تحت انقساماته وبؤسه في الوقت الحاضر.

إن هناك شبهاً عجيباً بين العالم العربي اليوم وبين ألمانيا عام ١٩٣٠: الانقسامات السياسية، والأقليات المنتشرة انتشاراً واسعاً، والواقعة تحت الحكم الأجنبي، والخليط من الملكيات والجمهوريات، زد على ذلك دافع اللغة المشتركة والثقافة المشتركة والدين المشترك- ذلك الدين، الذي هو الإسلام، المتسامح إلى درجة تكفي لاحتضان الأقلية المسيحية وإغرائها بالمشاركة في صياغة ثقافة العرب ومطامحهم.

أما كيف سيتطور العالم العربي فليس بوسع أحد أن يتنبأ بذلك، ولكن من كان باستطاعته، زمن مؤتمر فيينا، أن يتنبأ بالسياق الذي اتخذه التاريخ الألماني في القرن التالي؟ إن قلب العالم العربي هو ذلك النجد المرتفع الذي يعيش فيه " الاستعمار الاقتصادي ". إن الولايات

المتحدة تخلق، في معاملاتها مع المملكة العربية السعودية، نمطاً جديداً من العلاقات بين ما يدعى البلدان "المتخلفة " والبلدان " المتقدمة "، فهي تقدم أقصى قدر من المساعدة والمؤازرة الاقتصاديتين وتستثمر إلى أقصى حد أيضاً موارد المملكة الطبيعية دون أي تدخل سياسي على الإطلاق.

هذا الاتجاه واضح كذلك في العلاقات الشخصية، فالقاعدة الثانية هي أن أي شخص أميركي يتبيّن أنه آذى كرامة أيّ عربي إبّان عمله في المملكة يرحّل حالاً إلى بلاده ولا يسمح له بالعودة إطلاقاً. وهكذا نجد أن شعوراً من الثقة والإرادة الحسنة والاحترام المتبادل آخذ في النمو بين الشعبين، وبين الأفراد، مما هو عظيم الأهمية في حد ذاته، ومثل للأمم الأخرى التي تتصل بغيرها سواء عن طريق النقطة الرابعة أو مشروع كولومبو أو أيّ من المشاريع العالمية الأخرى.

لقد كان من عادتي أن أسافر كثيراً بعد الحرب العالمية الثانية كلما سمحت لي صحتي بذلك. لقد زرت الدولتين الجديدتين اللتين خلفتا الإمبراطورية الهندية التي عرفتها منذ طفولتي، كما زرت مصر وأفريقيا الشرقية وإيران وبورما.

وقبل انتهاء الحكم البريطاني في الهند كان هنالك رأي انتشر انتشاراً واسعاً يقول بأن الهنود كانوا يفتقرون إلى القدرة على حكم أنفسهم بأنفسهم وعلى إدارة أمورهم، وعلى أن يلعبوا دورهم الكامل في المجالس العالمية. غير أن السنوات الأخيرة قد دللت على بطلان هذا الرأي. فالبلدان قد أعلى شأنهما سياسيوهما وكبار موظفيهما

وديبلوماسييهما، كما أن إسهامهما في أعمال الكومونولث والأمم المتحدة قد كان بالغ القيمة والأثر.

لقد كان في خدمة بهارات- بالرغم من أن يد مجرم اغتالت المهاتما غاندي عندما كانت بلاده بأمس الحاجة إليه- كثير من النساء والرجال النوابغ المتقدين وطنية. وأذكر منهم بصورة خاصة السردار باتيل، والسيد نهرو وشقيقته الموهوبة، السيدة بانديت. إن علاقاتي الخاصة بالعهد الجديد في دلهي ودية ووثيقة، ولقد استقبلت فيها ببالغ اللطف والحفاوة، ونحن واعون باستمرار للدور الخطير الذي تلعبه الهند في الشؤون الدولية، إذ تسعى إلى إقامة جسر من التفاهم بين الغرب وآسيا الناهضة بطريقة مشجعة وعاقلة في وقت واحد.

وأما باكستان، فقد واجهت مهمة أصعب من تلك التي واجهتها بهارات في أول الأمر. ففي دلهي وكلكتا وبومباي وغيرها من المدن الكبرى كانت هناك إدارة وتسهيلات قوية وثابتة- بموظفيها وأبنيتها وتجهيزاتها. أما في باكستان فقد كانت الضرورة تحتّم بأن يبدأ كل شيء، أجل كل شيء، من أوله. فالآلات الكاتبة، والأفلام والأوراق والملفات لم تكن موجودة، وكانت مئات الأميال تباعد بين شرقي باكستان وغربها، كما أنه لم يكن لها عاصمة بالمعنى العادي، فكراتشي وداكا تضاعفتا في الحجم ما بين ليلة وضحاها، وكان كل شيء يجب أن يبدأ من الأساس.

هذه المهمة الكبيرة المتشعبة قد أنجزت بمهارة وحذق فائقين، وهكذا بدأت باكستان حياتها منذ بداية وجودها. وكان جزء من عبقرية القائد

الأعظم أنه، شأن النبي نفسه، قد جمع من حوله أناساً متفانين مقتدرين، وهكذا كان في خدمة باكستان، منذ ولادتها، رجال ونساء من الطراز الأدبي والثقافي الأرفع جاؤوا، لا من صفوف أتباعه فحسب، بل من بين أولئك الذين كانوا خصوماً أشداء لسياسته في أيامه الأولى، والأعمال العظيمة التي حققوها إنما جاءت تكذيباً قاطعاً للذين لن يستطيعوا إلا أن يتنبؤوا بشيء غير الكارثة للدولة الفتية.

في طليعة هؤلاء كانت، طبعاً، شقيقة القائد الأعظم، الآنسة فاطمة جناح، التي رافقته وساعدته طوال سنين عديدة، والتي أشرفت على منزليه في لندن وبومباي ومن ثمّ على قصره في كراتشي ومنزله الصيفي في " زيارات ". إن الآنسة جناح تتمتع بشخصية قوية جداً مماثلة لشخصية شقيقها، وهي اليوم، بعد وفاته، لا تزال بارزة في الحياة العامة، ولها أتباع مخلصون كثيرون.

وهناك أيضاً لياقت علي خان، الساعد الأيمن المخلص للقائد الأعظم، والذي راح هو الآخر ضحية موجة العنف والإجرام التي اجتاحت الشرق عدداً من السنين. أما زوجته فلا تزال على قيد الحياة، ولا تزال تتابع حياتها بصورة لا تقل قدرة وإخلاصاً عن زوجها الراحل. ولكن لياقت علي خان سيفُتقد زمناً طويلاً، ذلك أنه مما لاشك فيه أن القائد الأعظم لو طلب أن يكون له " أبو بكر " أو " بطرس " إذن لما أعطي واحداً أفضل من لياقت علي خان، ذلك الرجل الذي لم تكن صفاته بارزة فحسب، بل الرجل القوي الخلق، الراسخ الأمانة. إن وفاة القائد الأعظم، بعد تأسيس باكستان بزمن قصير جداً، تشبه إلى حد يلفت الأنظار وفاة

النبي الكريم بعد انتصاراته وتوطيد دعائم سلطته الزمنية، ولكن القائد الأعظم لم يعش لكي يشرف على نمو الطفل القوي الذي رعاه وتعهده.

ولكن لياقت علي خان كان جديراً بأن يكون خليفة ممتازاً لمحمد علي جناح، ومع ذلك فإنه وهو الذي كان مقرباً من القائد قد اغتالته يد شريرة، وكانت كلماته الأخيرة التي نطق بها. " لا إله إلا الله محمد رسول الله."

ذلك هو طابع الرجل الذي خلق باكستان اليوم، وإنني لأذكر آخرين من مثل حبيب رحمة الله، العبقري بن العبقري، الذي كان المندوب السامي في الهند بعد إنشاء الدولة مباشرة، والسيد أصفهاني الذي مثل بلاده في واشنطن في تلك الفترة العصيبة ذاتها؛ ورئيس الوزراء الحالي الذي كان من قبل مندوباً سامياً ناجحاً جداً في أوتاوا، وحفيد نواب علي تشودري الذي كان زميلاً لي في أول عهد العصبة الإسلامية؛ وأمجد علي الذي كان طيلة سنوات سكرتيري الفخري وأدى خدمات جلى في أشق المهام، ومحمد علي الخبير في الشؤون الاقتصادية والمالية.

كانت زيارتي الأخيرة لبورما بعد الحرب سارّة للغاية، وكما سبق لي أن ذكرت فقد نصحت لأتباعي في بورما، قبل ذلك بسنوات كثيرة، بأن يتبنوا بكل طريقة ممكنة عادات القوم الذين كانوا يعيشون بينهم، ومطامحهم وطريقتهم في الحياة- كأن يتخلوا عن أسمائهم الهندية الإسلامية ويتخذوا لهم أسماء بورمية، ويرتدوا الألبسة البورمية، ويذوّبوا أنفسهم قدر المستطاع في البلاد التي احتضنتهم، وأن يحافظوا مع ذلك على دينهم وطقوسهم الدينية الخاصة.

أما وقد ظفر البورميون الآن مرة ثانية باستقلالهم فإن نصيحتي هذه، والطريقة الأمينة التي نفذ بها أتباعي هذه النصيحة، قد آتت ثمارها. وعندما وصلت وزوجتي إلى بورما استقبلنا رئيسها ورئيس وزرائها وكثير غيرهما من الشخصيات البارزة بأقصى الحفاوة والود.

كانت الأيام التي قضيناها في رانغون سعيدة جداً، وبلغت الحفاوة التي استقبلنا بها ذروتها في تلك الليلة التي طلب إلينا فيها بأن نتناول عشاءنا في جناحنا الخاص، وكان يتألف من أطعمة بورمية أعدت خصيصاً لنا في قصر الرئاسة. وفي الساعة الثامنة تماماً وصل مرافقان مع عدد من الخدم يحملون صواني صنعت عليها أطباقٌ حوت ما يقرب من ثلاثين لوناً من الأطعمة السخية المغذية. وطلبنا إلى المرافقين أن يشاركونا في الطعام. وبعد أن تناولنا بضعة ألوان منه أعلنا اكتفاءنا، ابتسما ابتسامة ودية وقالا: " آه، كلا. لقد أرسلنا خصيصاً لنرى إنكما تجربان كل طبق من هذه الأطباق. "

مثل هذا الكرم لم يكن باستطاعتنا أن نقاومه. وهكذا أقدمنا على جميع الأطباق وتذوقناها جميعاً، حتى الثمار المسكَّرة. لقد عشت في لندن أيام الملكة فيكتوريا وحضرت المآدب الفخمة التي كان يتميز بها ذلك العصر، ولكني لم أعرف في حياتي وجبة متعددة الألوان طيبة المذاق كذلك العشاء الذي قدمه إلينا رئيس بورما تلك الليلة.

أما إيران، بلاد أجدادي لقرون عديدة، فقد زرتها أولاً في عام ١٩٥١ كي أحضر زفاف صاحب الجلالة الإمبراطورية الشاه. وبالرغم من أن الظروف والواجبات التي تفرضها حياتي النشيطة المليئة، كانت قد

منعتني، مصادفة، من الذهاب إلى إيران حتى تجاوزت السبعين من عمري فإنني كنت وما أزال فخوراً جداً بأصلي الإيراني. كان والدي وأمي معاً كما يذكر القارئ، حفيدين لفتح علي شاه الذي كان قاجارياً من أصل تركي صرف، وكانت طريقة الحياة في المنزل الذي نشأت فيه تكاد تكون إيرانية بأكملها.

وإذن فقد كان ذهابي إلى إيران بمثابة العودة إلى الوطن، وزاد في قيمتها ذلك اللطف وتلك الحفاوة اللذين استقبلنا بهما، بوصفنا ضيفين على الإمبراطور، في قصر صاحبة السمو الإمبراطوري الأميرة شمس، الذي وضع بتصرفنا.

وفي محلات، التي كانت موطن أسلافي مدة من الزمن، استقبلني الألوف من الإسماعيليين الذين توافدوا من جميع أرجاء إيران، وأسعدني أن أرى نساءهم قد تخلين عن الحجاب. أما أصفهان التي زرناها أيضاً، فقد كانت لا تزال محتفظة بالعادات القديمة، إذ رأينا هناك الكثيرات من النساء المتحجبات والكثيرين من الرجال المواظبين على ارتداء تلك السترة الطويلة المزررة في أعلاها والتي كانت شائعة الاستعمال في أيام العائلة القاجارية. وأما في طهران فإن آثار السياسة التمدنية الحديثة التي اتبعها رضا شاه متعددة وواضحة.

يتعيّن عليّ أن لا أختم هذا السرد المختصر لأفعالي وتجاربي الأخيرة من دون أن أذكر حادثة جرت لي في عام ١٩٤٩ . ففي صباح يوم من أيام شهر آب، غادرت وزوجتي منزلنا بالقرب من " كان "، وكانت وجهتنا مطار نيس لنأخذ الطائرة إلى دوفيل. أما أنا وزوجتي ووصيفتها

الخاصة، الآنسة فريدا ماير، فقد ذهبنا في سيارة استأجرناها من مرأب محلي، وجلست أنا إلى جانب السائق، بينما جلست زوجتي ووصيفتها في المعقد الخلفي للسيارة. وكان على بعد مائتي ياردة تقريباً من باب منزلنا منعطف شديد، وإلى جانبه طريق فرعي صغير. وعندما وصلنا إلى نقطة التقاطع برزت سيارة أخرى اعترضت طريقنا بحيث لم نستطع أن نتقدم أو نأخذ الطريق الجانبي. ولم يلبث أن قفز منها ثلاثة رجال ملثمين ومدججين بالسلاح- لم يكن معهم أقل من عشرة بنادق- ومزق أحد الرجال واحداً من الإطارين الخلفيين، وتقدم ثانيهم فصوب بندقية إلى صدري، وثالثهما إلى صدر زوجتي، ولكن الخوف، كما يفهمه المرء عادة، لم يتسرب إلى أيّ منا. أذكر أني رأيت الرجل الذي كان بإزائي يرتجف بعنف، وقلت في ذات نفسي: " هذه البندقية قد تنطلق في أية لحظة. "

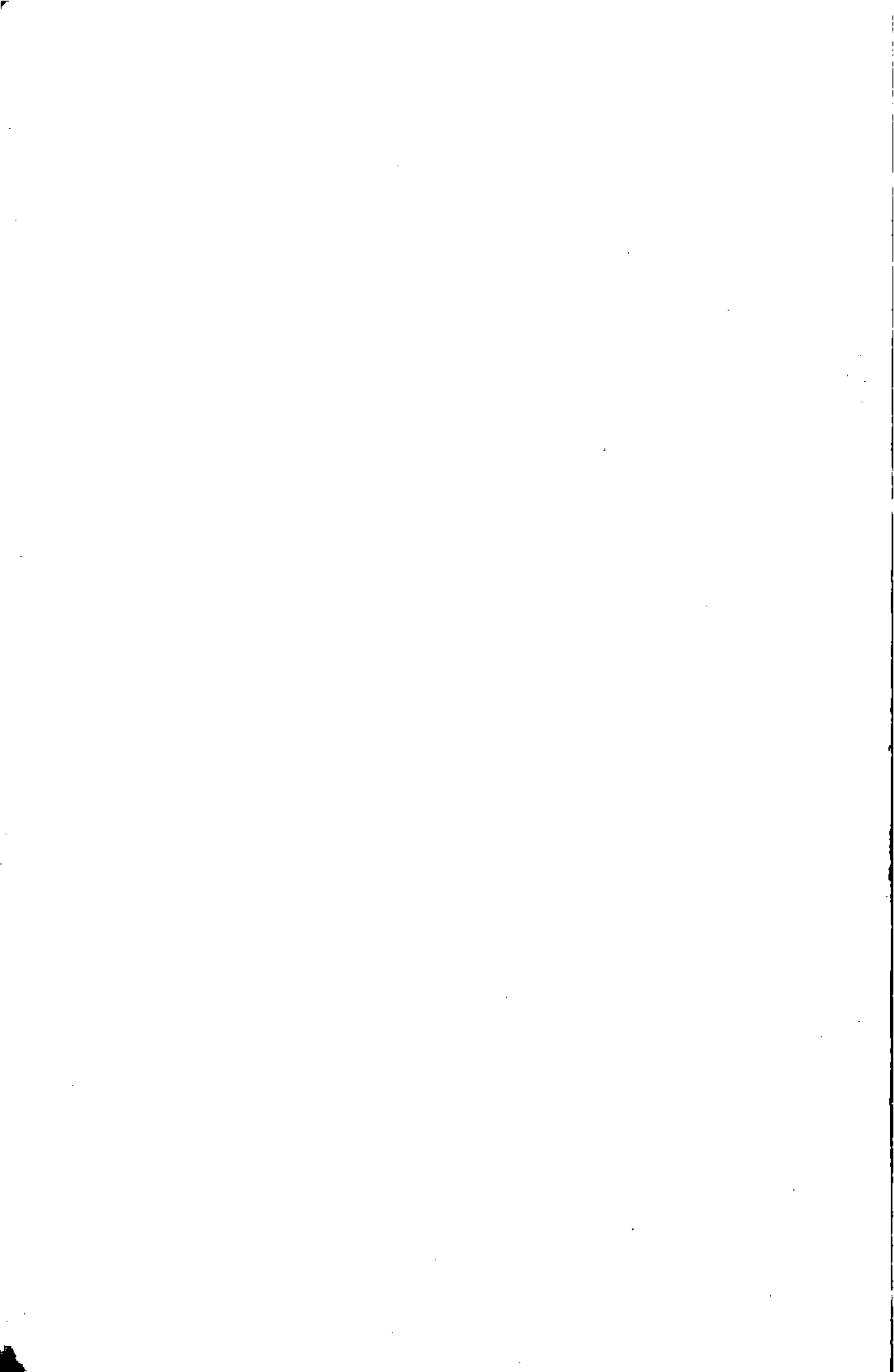
أما وصيفة زوجتي فقد قالت لي فيما بعد إنها تساءلت، دون خوف أيضاً، " متى سيقتل الأمير؟ " وأما زوجتي فقد جلست في مكانها دون أي شعور بالقلق أو الخوف على الإطلاق.

وقلت بصوتي الاعتيادي: " لن نقاوم. سنعطيكم ما تطلبون. " وانتزع أحدهم صندوق جواهر زوجتي التي كانت محتفظة به في حجرها، وعندما عادوا إلى سيارتهم قال: " لطفاً دعونا نمر. "

وما إن قفزوا إلى سيارتهم حتى عاد إلي صوتي ومزاجي وهتفت: "هاي .... تعال، لقد نسيت أن تأخذ البقشيش! "

وهرول أحدهم إليّ فأعطيته كل ما كان في جيبي من فرنكات، وقلت: : إليك البقشيش. "

فقال مكرراً: " شكراً، شكراً " وركض إلى السيارة الأخرى. وعدنا إلى المنزل حيث اتصلت هاتفياً بمركز الشرطة في شركة تأمين لويد التي أخذت ادعاءنا بعين الاعتبار وأعادت إلينا بسخاء قيمة المسروقات كلها. وبعد أربع سنوات تقريباً جرت محاكمة ستة رجال وحكم على ثلاثة منهم، وهذا، في اعتقادي، كل ما يلزم ذكره من حادثة مكدّرة ليس لها سابقة في حياتي وتجاربي الطويلة.



الفصل الخامس عشر

نظرة إلى الوراء وإلى الأمام

لقد بقيت طيلة حياتي أتطلع إلى الأمام. غير أن التنبؤ، على نطاق واسع، خطير بقدر ما هو سهل، فضلاً عن أن الرؤية التنبؤية الصحيحة هي نادرة حقاً، وندرتها أكثر ما تتبيّن في عصرٍ كعصرنا وضع العلم فيه بمتناولنا قوىً مادية وطبيعية لم نحلم بها منذ مدة قصيرة لا تتعدى خمسين سنة. ولكن لما كان العقل البشري والتصّور الإنساني ما يزالان غير معّدين بصورة كاملة للسيادة على القوى الهائلة التي اكتشفتها العبقرية الإنسانية وأطلقتها، فليس من العسير التنبؤ على الأقل ببعض ردود الفعل السياسية والاجتماعية عند الدول والأفراد معاً لهذه الثورة العلمية والتقنية العارمة ولجميع الظواهر التي تصاحبها.

كانت الهند، البلد الذي ولدت فيه وترعرعت، أرضاً على جانب بالغ من الفقر والبؤس والحاجة، أرضاً يولد فيها الملايين ويعيشون ويعملون ويموتون في مستوى أدنى من خط الفقر. لقد عاش الفلاح الهندي وتكاثر، ولكن في وجه أعظم العقبات وأشدها هولاً.

لقد ذهب الحكم البريطاني الآن، ولكن الضرورات الحياتية للقرويين وأهل الريف لم تتبدّل تبدلاً يذكر منذ ذلك الوقت. ومشاريع التعليم

والصحة والإنعاش و " النهوض " بالقرية لم تؤثر إلا قليلاً من سطح المشكلة. والكلام نفسه يصح على سكان المدن الذين يعملون في مدن صناعية كبيرة متزايدة النمو من مثل بومباي وكلكتا، فحال هؤلاء ليست بأفضل من حال القرويين.

فالعامل الصناعي الهندي، في معمله ومنزله، يعاني أحوالاً مريعة إلى أقصى الحدود، وهو يخرج من المصنع المزدحم بالعمال، الممتلئ بالدخان والبخار، إلى مسكنه المزدحم أيضاً بأكثر مما ينبغي، والذي هو بمثابة المنزل. أما غذاؤه، فبالرغم من أنه أكثر تنوعاً من غذاء أخيه في الريف، فهو ضئيل إلى حد يبعث على الرثاء إذا ما قيس بأي مستوى في الغرب. إنه يرى من حوله أسباب السلوى المتكاثرة في المدينة الكبيرة، ولكنها لا تعني بالنسبة إليه إلا الشيء القليل. ذلك أن ضرورياته كثيرة، وليس في حياته وجود لأي وسيلة من وسائل الترف والنعيم.

في سنوات الحكم البريطاني كان من اليسير نسبياً التنصل من مسؤولية التنافر الاقتصادي في الهند، وإلقاء اللوم كله على الاستثمار الاستعماري، كما كان من اليسير القول: " عندما نحصل على استقلالنا فعندئذ سوف نتمكن من إصلاح أحوالنا الاقتصادية ".

لقد ذهب المستعمرون، وانتهت فترة الاستثمار الأجنبي. ولكن هل يمكن للظلم الاقتصادي أن يمحى بمثل هذه السهولة؟ إن سكان الهند يتزايدون باطراد وسرعة. ومع ذلك فعلى أساس المعدل الحالي- وبالرغم من جميع أنواع مشاريع حفظ التربة والري والإفادة بوجه أفضل من الأراضي والتصنيع الشامل الموجه- فليس من المحتمل أن تتمكن البلاد اقتصادياً من استيعاب نصف الزيادة الطبيعية في عدد السكان.

إن مشكلة الهند، كمشكلة الصين، هي مشكلة القدرة على الاستيعاب الاقتصادي، أما مشكلة باكستان فليست ملحّة إلى هذا الحد لأن لديها مساحات بلوجستان الشاسعة الخصبة التي لم تستثمر بعد، وبوسع باكستان أن تملأها بالفائض من سكانها. ولا شك في أن انتشار التعليم في الهند، كما في الصين، وازدياد المعرفة بالإجراءات الانتخابية وسائر العمليات الديمقراطية ستكون باعثاً على نشوء جهود فعّالة قوية لإيجاد حلول سياسية لأسوأ المشكلات الاقتصادية. إن الملايين فوق الملايين من البشر يقضون حياتهم في الهند والصين في بؤس ليس بعده بؤس، فإلى متى تقبل هذه الملايين مثل هذه الحال؟ ألا يمكن، مع بزوغ فجر قوتها السياسية، أن تلحّ على اشتراكية متطرفة، لا بل على شيوعية تحت الزعامة السوفياتية، إن لم تكن على النمط السائد في روسيا السوفياتية؟ أولا يمكن أيضاً أن يكون ذلك الإلحاح ثورياً في تعبيره وفي مظاهره؟

ومع ذلك، فإذا جرّد كل " من يملك " مالاً في الهند أو في الصين من ثروته وأنزل إلى مستوى كل " من لا يملك " شيئاً فيها، إلى مستوى أفقر كنّاس أو حمّال، فإن تأثير ذلك في مستوى المعيشة العام يكون ضئيلاً وطفيفاً. إن عدد الذين " يملكون " قليل جداً بالنسبة إلى من " لا يملكون " في كل من البلدين، بحيث أن إعادة لتوزيع الثروة لا تؤدي إلى أي تحسّن يذكر. وهكذا فإن الإصلاح، لكي يكون حقيقياً وفعّالاً يجب أن يذهب إلى أعمق من ذلك بكثير. هنالك أفكار من السواد بحيث تكفي لأن تبعث الحزن والكآبة في أي إنسان يملك أكثر من المعرفة السطحية بمشكلات آسيا ومصاعبها.

هنالك خطوة مهمة واحدة يجب أن تخطوها حكومتا الهند وباكستان. هذه الخطوة، التي من شأنها أن تحدث تأثيراً خيّراً حسناً في حياة شعبيهما ورفاهيتهما، هي إقامة اتفاق ودي دائم بين البلدين يشبه الاتفاق الذي قام بين بريطانيا وفرنسا عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩١٤، أو بين بلجيكا وهولندا، أو بين السويد والنروج. إنني لا يخامرني أي شك في أن هذين التوأمين، الهند والباكستان، يجب أن يكونا قادرين على أن يعيشا جنباً إلى جنب رفيقين وصديقين، لفائدتهما ومساعدتهما المتبادلة.

وهنا يجدر بالهند، التي هي أكثر سكاناً وموارد وصناعات نامية متطورة، أن تظهر ذلك الاتجاه السياسي نفسه الذي أظهرته السويد نحو النروج بعد انفصالها، أي أن تتقبّل التقسيم، نهائياً وبإخلاص على اعتبار أنه مستحسن في ذاته وأنه بالتالي يفتح المجال لتفاهم حقيقي بين شعبي الهند المختلفين من الوجهة الثقافية.

فمشاكل المياه بين الهند وباكستان، ومشاكل أملاك اللاجئين وسائر المطاليب المالية يجب أن تسوّى الآن بطريقة لا يشعر معها البلد الأضعف أنه قد استغل وعومل معاملة غير عادلة من قبل جاره القوي الكبير.

كذلك يجب أن تواجه مشكلة كشمير كمحاولة شريفة للوصول إلى تسوية نهائية عن طريق استفتاء يجري تحت إشراف دولي ويقرر الإرادة الشعبية. وإذا ما تبنّت الهند إزاء الباكستان السياسة التي اتبعتها السويد باستمرار تجاه النروج، وهولندا إزاء بلجكيا، لا لسنين فحسب بل لعقود بطولها، فإن السلم لا يسود في آسيا الجنوبية فحسب بل تزداد بالضرورة أهمية السلم الدولي إلى حدٍ ليس لدينا الآن عنه إلا فكرة

ضئيلة. إن الدور العظيم الذي يمكن أن تلعبه هاتان الجارتان كجسر بين الغرب والشرق وراء حدود الهند وباكستان لا يمكن أن يتم إلا إذا كانتا هما نفساهما قادرتين على التعاون المتبادل ومعاملة بعضهما بعضاً معاملة عادلة تقنع العالم بأن لهما مطلباً جديراً بأن يستمع إليه ويؤخذ بعين الاعتبار الجدّي.

أما إذا لم تتبع الهند سياسة تفاهم مع الباكستان وتشجيع لحاجاتها الاقتصادية والمائية، فإن جارتها تكون عندئذ على حق في أن تبحث في جهات أخرى عن حلفاء وصداقات، ولكن نتيجة ذلك أن هاتين الدولتين الجارتين، بدلاً من أن تتطلعا إلى الخارج وتعملا من أجل السلام العالمي، لابد أن تراقب إحداهما الأخرى، بعين الحذر واليقظة واتقاء الخطر، بدلاً من أن تنصرفا إلى توطيد دعائم الاستقلال والتطور الاقتصادي.

ولست اعتقد أن بلدان الشرق الأوسط تواجه أي مشكلة إسكانية لا يمكن حلها إذا ما تمت مواجهتها بشجاعة وعزم وتصميم.

إن كل ما تحتاجه شعوب بلدان مثل إيران والعراق وسوريا ولبنان واليمن، وحتى المملكة العربية السعودية، هو المعرفة- المعرفة بالتقنيات الجديدة، والهندسة، والزراعة. إن لديها مساحات واسعة، وموارد كافية، فإذا طبقت العلم كما ينبغي أن يطبق فإن بوسعها أن تعمّر أراضيها الخاوية وتحقق لها الازدهار. إن العلم يستطيع أن ينشىء المدن ويسّود المزروعات، يستطيع أن يقيم الصناعات وينمي إمكاناتها المعدنية العظيمة وموادها الخام المتنوعة.

هنا كانت مرة جنة عدن، وهنا أظهر المؤرخون وعلماء الآثار أن هذه المنطقة قد كانت فيما مضى خصبة غنية، عامرة بالسكان. وهكذا

تستطيع أن تكون مرة أخرى إذا استخدمت القوى والموارد المتاحة الآن للإنسانية بالطريقة الصحيحة.

إن الأراضي العربية أفقرتها ودمرتها قرون من الجنون والتبديد والإسراف بسبب الجهل، وحالة شعوبها التي تدعو إلى الرثاء اليوم إنما هي حكم على الماضي. إن العرب ليسوا أقل شأناً من أي جنس آخر من العالم من حيث الذكاء والفطنة والقدرة الكامنة. فبوسع جيل واحد يركز اهتمامه في توفير العلم للجميع، بجميع فروعه المدرسية والعلمية والتقنية والتدريبية، أن يحدث ثورة في العالم العربي كله. إن المؤازرة الذاتية هي أجدى وأفضل بما لا يقاس من الهبات وأفضل من استمرار الولايات المتحدة في إغداق الفائض من نتاجها.

أما مستعمرات التاج البريطانية في إفريقيا فخوفي على مستقبلها ليس بالعظيم. لقد رأينا الأعمال الهامة التي قامت بها بريطانيا في أفريقيا الغربية. أما أفريقيا الشرقية وأفريقيا الوسطى فإن ما يعقّد المشكلة في الوقت الحاضر وجود سكان من المستوطنين الأوربيين. وفي اعتقادي أنه يمكن إيجاد تعديل سليم مرضٍ، شرط أن تواجه جميع أقسام هذه الجاليات المتعددة الأجناس- من أفارقة وطنيين وأوربيين وآسيويين مهاجرين- حقيقة جوهرية بسيطة خلاصتها أنها جميعاً تعتمد بعضها على بعض. إن أي قسم منها لا يستطيع أن يسقط الآخر من حسابه، سواء من حيث مساهمته بالتطورات الماضية أو من حيث المشاريع للمستقبل.

فالمهاجر، سواء كان أوربياً أو آسيوياً، ليس له أمل بالازدهار وطيب العيش من دون الأفارقة، كما أن الإفريقي لا يستطيع أن يستغني

عن المزارع الأوربي أو التاجر الآسيوي إلا إذا أراد أن يرى مستوى معيشته يهبط هبوطاً عظيماً ينقضي معه كل أمله في استثمار الثروة الطبيعية الكامنة في الأرض التي يعيش فيها هؤلاء الثلاثة، وفيها يتعيّن عليهم أن يكسبوا خبزهم.

أما بالنسبة إلى المسلم، فإن هناك عاملاً مشجعاً، بهدوء وإنما بقوة، في هذه الحال. ففي أي مكان يكون السكان الوطنيون فيه مسلمين يكون هناك قليل من العداء العنصري أو الشعور بالبغض نحو الأوربيين، وذلك بالرغم من تفوق الأوربيين الاقتصادي الواضح. فالإسلام، قبل كل شيء، هو تربة لا تخصب فيها هذه المشاعر أو تتأصّل بسهولة.

ليس هذا استسلاماً سطحياً للقضاء والقدر، بل إنه شيء أعمق في جوهر تعاليم الإسلام- اعتقاد أساسي بأن الناس كلهم، بقطع النظر عن لونهم أو طبقتهم أو ظروفهم الاقتصادية، سواء أمام الله. ومن هذا الاعتقاد ينبع احترام ذاتي لا يتزعزع تكمن أعمق آثاره في العقل الباطن فتمنع الإنسان من أن يحمل أي شعور بالبغضاء أو النقص أو الحسد لما أسبغ على غيره من نعمة.

إني مقتنع اقتناعاً صادقاً بأن لدى الإسلام في هذه البلدان القدرة على أن يكون قوة أخلاقية وروحية على جانب عظيم جداً من الأهمية، قوة ذات أثر كبير في استقرار الجاليات الذي يبشر به ويُمارَس بينها، وفي تنشيطها. أما تجاهل تأثير الإسلام القويّ الخيّر، وتجاهل قوة الإسلام الشافية الخلاقة للمجتمعات والأفراد على حد سواء، فهو تجاهل لواحد من أعظم العوامل المرجوّة الكامن في العالم اليوم.

ولكن ماذا أقول بقضية السلم أو الحرب، هذه القضية الصعبة التي

ما فتئت تتكرر باستمرار ومن دون أن تذلل؟ إن فترات قليلة في التاريخ الحديث قد جلبت للبشرية من النوائب والرزايا أكثر مما جلبه نصف القرن الماضي، فهل انفرج الكرب الآن؟

لا أستطيع إلا أن أرجو، بكل جوارحي، أن يكون الأمر كذلك: أن تكون الدول وقادتها مقتنعين بإخلاص لا بالفرضية السلبية القائلة بأن حرباً عالمية ثالثة من شأنها أن تدمر المدنية، بل الإنسانية، فحسب، بل إيجابياً أيضاً بأن الإنسان يملك الآن القوة العظمى لزيادة المدنية والرفاهية للملايين من الناس الذين هم اليوم في مصاف من " لا يملكون". إن الفرصة الوحيدة المتاحة للأمم والأفراد معاً لدى هؤلاء الذين " لا يملكون " هي في الحفاظ على السلام.

إن أوربا تحتاج إلى قرن أو أكثر من الاستجمام بعد الخراب الذي أصاب شعوبها، والاستجمام يعني السلام. إن طاقة أميركا الشمالية- الولايات المتحدة وكندا- الصناعية والإنتاجية، التي هي اليوم أعظم من كل ما شهده العالم، تزداد بسرعة. وأميركا الشمالية بحاجة إلى أسواق، والأسواق تعني السلام. إن البلدان المتخلفة، في إفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية، تحتاج عبر السنين إلى فيض دافق ثابت من رأس المال لبناء مواصلاتها وتطويرها، واستثمار مواردها، ورفع مستوى معيشتها، واستثمارُ الأموال على هذا النطاق ولهذه الغاية يتطلب السلام. والحرب، في وجه هذه الظروف وهذه السلسلة الملّحة الطويلة من الحاجات، هي الجنون بعينه.

غير أني يتعيّن علي أن أعترف بأننا إذا عدنا بنظرنا إلى تاريخ السنوات الخمسين الماضية فإننا نجد أن هذه لم تكن النظرة التي

اصطنعتها الأمم والقادة وحالت دون السير في طرق ليس من شأنها أن تؤدي إلى الكوارث، وإن الرفاهية والأمن اللذين فازت بهما الإنسانية بجهد جهيد في الربع الأخير من القرن التاسع عشر لم يساويا شيئاً عندما جاء الامتحان العسير. فالكبرياء والحمق هما اللذان تحكما بقلوب الناس، وحالة العالم اليوم إنما هي نتيجة لهذه الكبرياء، ولهذا الحمق.

وكما كانت ألمانيا ردحاً طويلاً من الزمن فإن روسيا تشكل الآن لغز العالم المتمدن الكبير، والأحجية التي يبدو أنه ليس لها أي حل عاقل أو مرض. إن عاملاً واحداً من معادلة روسيا المحيّرة واضح ومعلوم- العامل الذي لا يمكن لنتائجه إلا أن تكون سعيدة مسالمة ومزدهرة. أما العامل الآخر- " س " الخالدة- فكالح لا يمكن حسابه وتقديره.

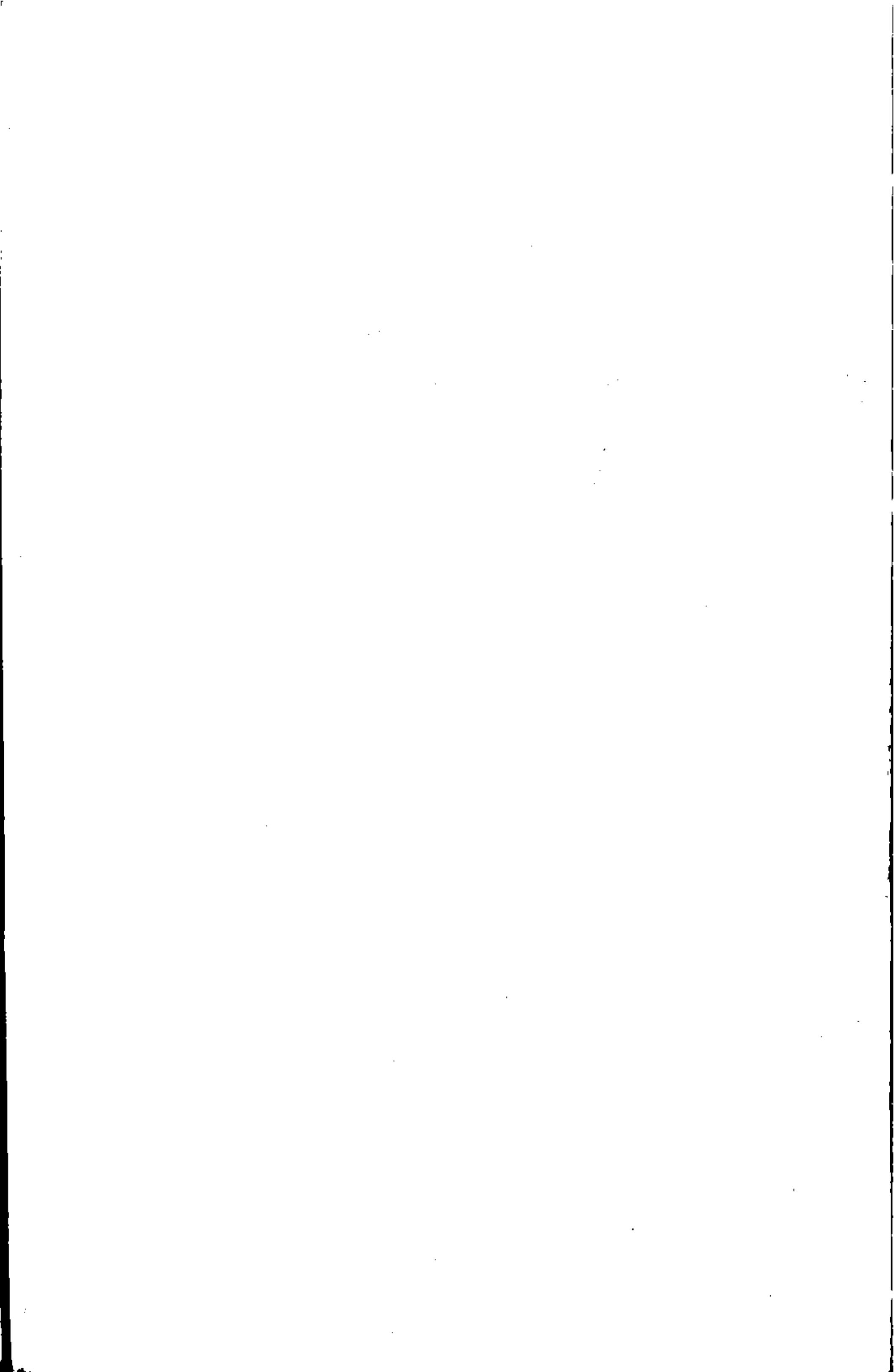
منذ زمن قديم قال اللورد بالمرستون إن التاريخ الروسي قد أعطى هذا الدرس: إن على الروس أن يتوسعوا، وسيستمرون في التوسع إلى أن يلاقوا قوة ما- أمة أو مجموعة من الأمم- ذات قدرة كافية لوقفهم. إن روسيا، منذ بداياتها في غراندوقية موسكو، قد توسعت باطّراد، فهل إن التوسع ما يزال الدافع الأول الطاغي في السياسة الروسية؟ هنالك بعض الدلائل الكئيبة على أن التوسع هو واحد من الصفات المميزة الكثيرة التي تشترك فيها روسيا الشيوعية مع روسيا القيصرية، وعلى أن شهيتها للتوسع لم تشبع بعد. فلماذا يجب أن يكون الحال هكذا؟ أليس هناك عوامل أخرى أكثر سلميّة؟ إن أراضي روسيا الفارغة، داخل حدودها بالذات هي أكبر وأعظم كثيراً وبما لا يقاس من الأراضي التي تكشفت، عقداً بعد عقد، أمام الرّواد الذين وسعّوا رقعة الولايات المتحدة الضيقة على طول الساحل الأطلسي.

إن روسيا ليست بحاجة إلى المستعمرات فيما وراء البحار، وليست بحاجة، بعد أن تطورت الاتصالات الجوية بسرعة وقوة عظيمتين، إلى تلك " النوافذ على البحار الدافئة " التي كانت في وقت مضى على جانب عظيم من الأهمية. وفي داخل حدودها بالذات، لو اقتنع زعماؤها اقتناعاً خالصاً بأنه ما من أحدٍ يهدد الاتحاد السوفياتي، وأنه ليست لأحد مقاصد عدوانية استعمارية ضدها، إذن لأمكن لشعبها أن يعيش بسلام قروناً عديدة. فهل تسود هذه الاعتبارات الواقعية السليمة، أم أن الشك والكره الأعمى والكبرياء والجنون ستؤدي إلى حرب جديدة ودمار أفظع؟ هذا السؤال وأمثاله يشكل أحجية مستعصية في زماننا هذا، وإن كلاً منا يحاول أن يجد حلوله لها.

ولكن هذه القضايا تهم جماعات من الناس من مختلف الأمم والأجناس. غير أن أكبر هذه الجماعات لا تتألف إلا من عدد من الأفراد فيها. فإذا أمكن جلب السعادة لفرد واحد فعندئذ يمكن القضاء على الدوافع المظلمة الشريرة في نفسه هو على الأقل، وفي النهاية ألا يمكن لقوى الخير في الفرد أن تسود على قوى الشر في الكثرة؟

إن كل ما أستطيع أن أقوله لكل من يقرأ هذا الكتاب هو إني مقتنع اقتناعاً عميقاً بأن الإنسان يجب أن لا يتجاهل تلك الشرارة الإلهية فيه وأن يتركها من دون تنمية أو اهتمام. إن الطريق إلى تحقيق الذات، إلى التهادن الفردي مع الكون الذي هو من حولنا، هو سهل نسبياً على كل من يؤمن إيماناً راسخاً مخلصاً، شأني أنا، بأن القدرة الإلهية قد أنعمت على الإنسان في صميمه بإمكانات الاستنارة والاتحاد مع الكائن الأعلى.

لقد علمتني الحياة، في التحليل النهائي، درساً ثابتاً هو أن الفرد يجب أن يفنى في الغاية دائماً. في عواطفنا العادية بعضنا إزاء بعض، وفي عملنا اليومي بيدنا أو بعقلنا، يكتشف معظمنا وبسرعة كافية أن أيّ رضى دائم، وأن أيّ قناعة يمكن أن نتحقق بها، هي نتيجة نسيان الذات، نتيجة توحّد الفرد مع الغاية في تناغم جسماني وعقلي وروحي. وفي أسمى عوالم الإدراك فإن جميع أولئك الذين يؤمنون بكائن أسمى يتحررون من جميع قيود النفس المعّوقة، عن طريق الصلاة والتأمل في إشعاع الأبدية المجيد الذي يضيع في خضّمه كل وعي أرضي زائل ويصبح هو نفسه أزلياً.



الحواشي

١- يتضمن الحكم الذي نطق به القاضي آرنولدفي ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨٦٦ شرحاً كلاسيكياً مفصلاً لأصول الإسماعيلية وبدايات عائلتي. انظر الفصل الثامن.

٢- لقيت الجنرال غريفس بعد تقاعده بسنوات عديدة، على الباخرة دوفر كاليه. كان وحده ووجدت من اللائق أن أوجه إليه السؤال التقليدي فقلت:" هل الليدي غريفس ذاهبة معك إلى باريس؟" فلم يكن من المحارب القديم إلا أن أجاب:" أنا لا آخذ معي سندويشة من لحم الخنزير عندما أذهب إلى مأدبة."

٣- شراب حلو كالعنبري.

٤- حياة جوزيف تشمبرلين، م٣ ل ج.ي.غارفن، و م٤ لجوليان أميري (لندن، مكميلان و شركاه).

٥- إنه لأمر هام، لكن من دون سخرية، إدراك أن كلمة "ASSASSIN"، التي لها معناها الخاص المعاصر(قاتل)، أوّل ما أطلقت،قبل قرون عديدة مضت، على أسلافي الإسماعيليين وأتباعهم. فمنذ أقدم الأزمنة،كانت تلصق بالأقليات المضهدة شتى أنواع التسميات السيئة- وبعد كل شيء لا يمكنك أن تقتل كلباً ما لم تطلق عليه اسماً

سيئاً- وكان الإسماعيليون في العصور الوسطى من مثل هذه الأقليات التي قاتلت من أجل وجودها وحقوقها. وكان على مضطهديهم تسميتهم باسم سيء؛ فألصقوا بالاسماعيليين تهمة صناعة واستخدام عقار "الحشيش"،وزُعم أنهم كانوا مدمنين عليه. وهكذا جرى اختراع الاسم السيء،وألصق بهم.

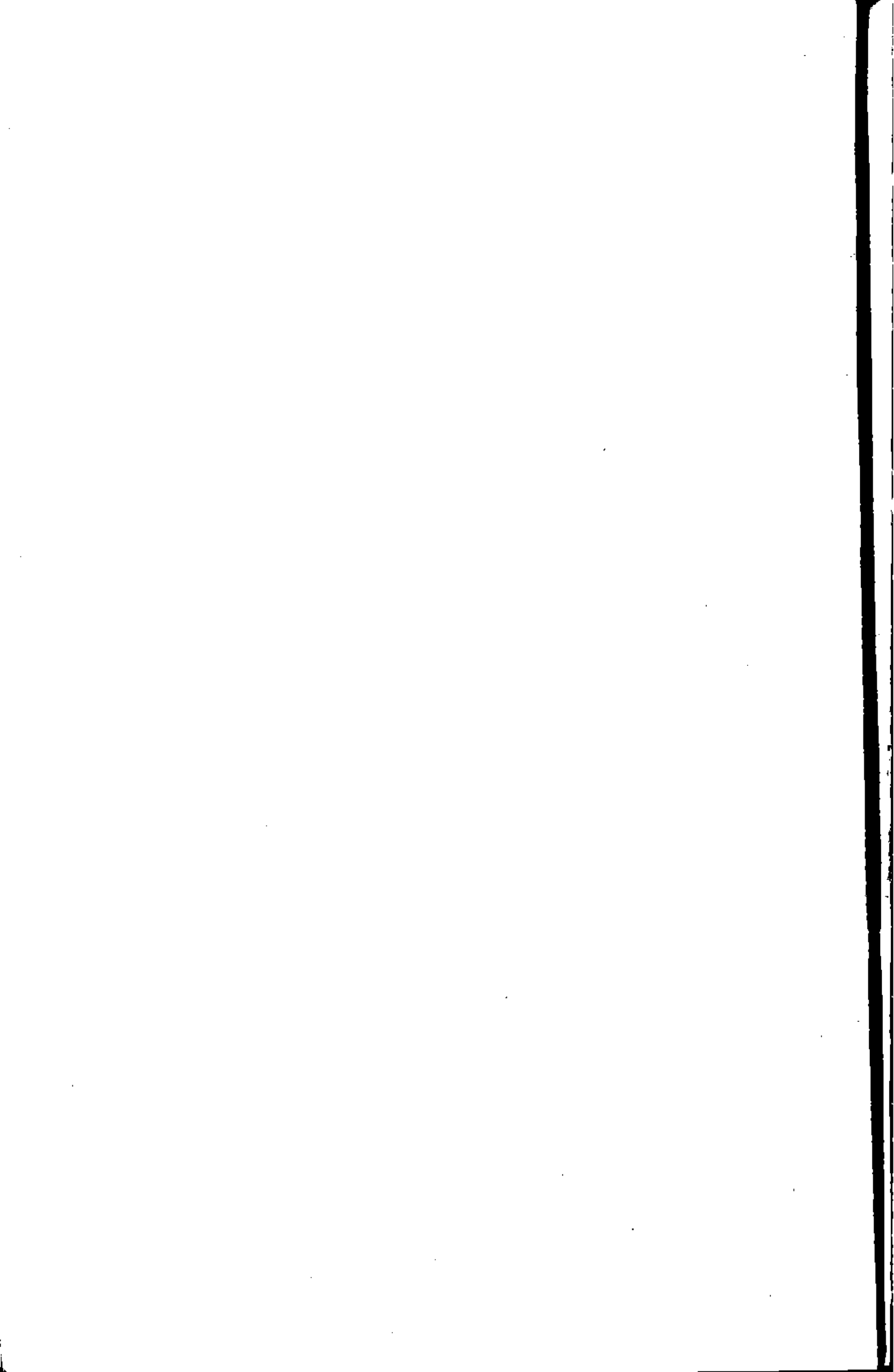
٦- في ١٣ نيسان ١٩١٩، قُتل حوالي ٣٧٩ هندياً برصاص الشرطة أثناء تفريق تجمع غير قانوني في جاليانوالاباغ في أمريستار.

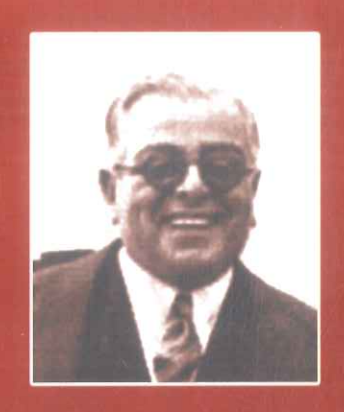
٧- أذكر أننا اجتمعنا في نيو ماركت وطلب مني استخدام كل ما كنت أملك من نفوذ وتأثير.

٨- لا يوجد في سورية اليوم ممثل للإمام، ذلك أنه تم إنشاء مجلس يتولى إدارة الشؤون الدينية والاجتماعية للأتباع.

٩- الحوالي هي المهور التي أكملت سنة من عمرها.

١٠- كان الوفد مؤلفاً من المهاتما غاندي والسير تاج باهادور سابرو والبانديت موتيلال نهرو و السيد محمد علي جناح و السيد باتال الذي كان عندئذ رئيس الجمعية الهندية الوطنية.





قد تبدو هذه المذكرات للقارئ العادي وكأنها تمجد أنظمة اقتصادية واجتماعية وسياسية أصبحت بائدة في عصرنا ولا تظهر إلا بصورتها السلبية المعادية لمصالح الشعوب التي صُنِّفت حديثاً تحت اسم «البلدان النامية»، أو «دول العالم الثالث»، أو «دول الجنوب» الفقيرة مقابل «دول الشمال» الغنية. لكن عندما ننظر إليها من هذه الزاوية فإننا نظلمها؛ فهي ليست تاريخاً، لأن للتاريخ أسلوبه وطرائقه ونظرياته في تفسير الأحداث والنظر إليها. وهي ليست أدباً، لأن للأدب فنونه وأساليبه نثراً كان أم شعراً.. إنها ببساطة انطباعات عن أحداث ومشاهد إنسانية ورؤية سكنت ذهن صاحبها فترة طويلة من الزمن حتى حان الوقت لتدوينها ليشارك بها الآخرين تجربته الشخصية وخبرته التي أكسبته إياها سنوات عمره الثمانون.

ISBN:2-84305-808-X

